العُمدة في شرح البُردة

تأليف

إمام الشريعة والحقيقة

سيدي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

المتوفى سنة ١٢٢٤هـ

اعتنى بجمعه وتقديمه

الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

العمدة في شرح البردة

تأليف

إمام الشريعة والحقيقة

سيدي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

المتوفى ١٢٢٤هـ سنة

اعتنى بجمعه وتقديمه

الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم كتاب: [العمدة، في شرح البردة] من طرف خديم العلم وطريقة بني عجيبة

الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن مما تفنن فيه العارف الرباني الكبير، سيدي أحمد بن عجيبة الحسني شرحه على بردة الإمام شرف الدين البوصيري، فقد أعطاها ما تستحقه من شرح وتوضيح، واستدلال فصيح، أحاط بكل أبياتها المائة والأربعة والسبعين (174)، وما ترك لغيره ما يزيد فيها على شرحه الدقيق.

وأشير أنها بحسب موضوعاتها المختلفة، تحتوي على عشر فصول: الفصل الأول: في الغزل وشكوى الغرام. والثاني: في التحذير من هوى النفس. والثالث: في مدح النبي صلى الله عليه وسلم. والرابع: في مولده. والخامس: في معجزاته. والسادس: في شرف القرآن ومدحه. والسابع: في إسرائه ومعراجه. والثامن: في جهاده وغزواته. والتاسع: في التوسل به والتعلق بأذياله. والعاشر: في المناجاة وعرض الحاجات.

وإن سيدي أحمد لم يسم هذا الشرح، فاخترت أن أسميه: [العمدة، في شرح البردة]. وتعد هذه القصيدة من أروع قصائد أبي عبد الله، سيدي محمد بن سعيد البوصيري. وببركتها شوفي من علة الفالج الذي أصاب أعضاءه، وعجز عنه الأطباء.

وسيدي أحمد بن عجيبة، عالم جليل، وعارف بالله كبير، قدمناه في السلسلات النورانية التسعة. وفي الجواهر العجيبة الستة، وفي الفتوحات القدوسية، في شرح المقدمة الأجرومية. وفي القصيدة الهمزية، المسماة بـ[الأنوار القدسية، في شرح

الهمزية]. كما قمت بتحقيق وتصحيح وإلحاق السواقط من تفسيره الفذ، المدعو: [البحر المديد، في تفسير القرآن المجيد] صححته في ثمان مجلداته، وأدخل ذلك في طبعته الجديدة التي بالسوق. والدافع لنا في هذا كله، هو اطلاعنا الواسع على مؤلفاته، والتي نسخنا منها نحو ستة وعشرين شرحا. كلها في حوزياتنا. ولنا التفويض في طبعها ونشرها من طرف أكابر العارفين من حفدته، الوارثين لعلومه وفهومه، وسره وولايته. وفي طليعتهم شيخي فريد زمانه سيدي عبد القادر بن عجيبة، رضي الله عنه، وشقيقه العلامة الكبير، الأستاذ المبرز سيدي محمد بن عجيبة، وكذا من نقيبهم الشريف الأصيل الأستاذ الحاج جعفر بن عجيبة، وكذا من الشيخ الحالي سيدي الحاج عبد الواحد بن القطب الأكبر سيدي عبد القادر بن عجيبة الأغر.

ثم لما منحنا من علومهم وفهومهم. وقد رغبني في طبع هذا الشرح، وشرح الهمزية، الشيخ المربي الحالي سيدي الحاج عبد الواحد بن الشيخ سيدي عبد القادر بن عجيبة.

والله أسأل أن يعيننا على طبعه ونشره، وأن ينفع به وبأمثاله. اللهم آمين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

العرائش في 20 شعبان عام: 1430 هجرية،

الموافق ل:12 غشت سنة: 2009 ميلادية.

عبد السلام العمراني الخالدي

البردة
للإمام البوصيري

1 أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرانٍ بِذِي سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

2 أَمْ هَبَّتْ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ ... وَأَوْمَضَ البَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

3 فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا ... وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

4 أَيَحْسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

5 لَوْلاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ ... وَلاَ أَرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ وَالعَلَمِ

6 وَلا أعارَتْكَ ثَوْبَيْ عَبْرَةٍ وَضَنَا ... ذِكْرَى الخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِ الخِيَمِ

7 فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَمَا شَهِدَتْ ... بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ

8 وَأَثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى ... مِثْلَ البَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالعَنَمِ

9 نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي ... وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالأَلَمِ

10 يَا لاَئِمِي فِي الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ... مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

11 عَدَتْكَ حَالِي لاَ سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ ... عَنِ الوُشَاةِ وَلاَ دَائِي بِمُنْحَسِمِ

12 مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إِنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ فِي صَمَمِ

13 إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ ... وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي النُّصْحِ عَنِ التُّهَمِ

14 فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ ... مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالهَرَمِ

15 وَلاَ أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى   ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
16 لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ   كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالكَتَمِ
17 مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا   كَمَا تُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ بِاللُّجُمِ
18 فَلاَ تَرُمْ بِالمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا   إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ
19 وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
20 فَاصْرِفْ هَوَاهَا وحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ   إِنَّ الهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ
21 وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةً   وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلاَ تُسِمِ
22 كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً   مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
23 وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ
24 وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ امْتَلأَتْ   مِنَ المَحَارِمِ والزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ
25 وَخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِمَا   وإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ
26 وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا   فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَالحَكَمِ
27 أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ   لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ
28 أَمَرْتُكَ الخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ   وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
29 وَلاَ تَزَوَّدْتُ قَبْلَ المَوْتِ نَافِلَةً   وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ
30 ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلاَمَ إِلَى   أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ
31 وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى   تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا مُتْرَفَ الأَدَمِ

32 وَرَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ ... عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ

33 وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ ... إِنَّ الضَّرُورَةَ لاَتَعْدُو عَلَى العِصَمِ

34 وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ ... لَوْلاَهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ العَدَمِ

35 مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ ... ـنِ وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

36 نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلاَ أَحَدٌ ... أَبَرَّ فِي قَوْلِ لاَ مِنْهُ وَلاَ نَعَمِ

37 هُوَ الحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَا شَفَاعَتُهُ ... لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ

38 دَعَا إِلَى اللهِ فَالمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ ... مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

39 فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ ... وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلاَ كَرَمِ

40 وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

41 وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عَنْدَ حَدِّهِمُ ... مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

42 فَهْوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ

43 مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

44 دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم ... واحْكُمْ بِمَا شِئْتَ فِيهِ مدحا وَاحْتَكِمِ

45 وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

46 فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

47 لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا ... أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

48 لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا العُقُولُ بِهِ ... حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

49 أَعْيَى الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ... لِلْقُرْبِ وَالبُعْدِ فِيهِ غَيْرَ مُنْفَحِمِ

50 كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

51 وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالحُلُمِ

52 فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ... وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

53 وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا ... فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

54 فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا ... يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

55 حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ فِي الأُفْقِ عَمَّ هُدَا ... هَا العالمينْ وأحيتْ سائِرَ الأممِ

56 أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ... بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالبِشْرِ مُتَّسِمِ

57 كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ ... وَالبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ

58 كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَلاَلَتِهِ ... فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

59 كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ فِي صَدَفٍ ... مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسِمِ

60 لاَ طِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظُمَهُ ... طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

61 أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ

62 يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ وَالنِّقَمِ

63 وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

64 وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ ... عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ

65 وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا ... وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالغَيْظِ حِينَ ظَمِي

66 كَـأَنَّ بِالـنَّارِ مَـا بِالمَـاءِ مِـنْ بَلَـلٍ ... حُـزْنًا وَبِالمَـاءِ مَـا بِالـنَّارِ مِـنْ ضَـرَمِ

67 وَالجِـنُّ تَهْـتِفُ وَالأَنْـوَارُ سَـاطِعَةٌ ... وَالحَـقُّ يَظْهَـرُ مِـنْ مَعْنـى وَمِـنْ كَلِـمِ

68 عَمُـوا وَصَـمُّوا فَـإِعْلاَنُ البَشَـائِرِ لَـمْ ... تُـسْمَعْ وَبَارِقَـةُ الإِنْـذَارِ لَـمْ تُـشَمِ

69 مِـنْ بَعْـدِمَا أَخْبَـرَ الأَقْـوَامَ كَاهِـنَهُمْ ... بِـأَنَّ دِيـنَهُمُ المُعْـوَجَّ لَـمْ يَقُـمِ

70 وَبَعْـدَمَا عَايَـنُوا فِـي الأُفُقِ مِـنْ شُـهُبٍ ... مُنْقَـضَّةٍ وَفْـقَ مَـا فِـي الأَرْضِ مِـنْ صَـنَمِ

71 حَتَّـى غـدَا عَـنْ طَـرِيقِ الوَحْـيِ مُنْهَـزِمٌ ... مِـنَ الـشَّيْطَانِ يَقْفُـو إِثْـرَ مُنْهَـزِمِ

72 كَـأَنَّهُمْ هَـرَبًا أَبْطَـالُ أَبْـرَهَةٍ ... أَوْ عَـسْكَرٌ بِالحَـصَى مِـنْ رَاحَـتِهِ رُمِـي

73 نَـبْذًا بِـهِ بَعْـدَ تَـسْبِيحٍ بِبطْـنِهِمَا ... نَـبْذَ المُـسَبِّحِ مِـنْ أَحْـشَاءِ مُلْـتَقِمِ

74 جَـاءَتْ لِدَعْـوَتِهِ الأَشْـجَارُ سَـاجِدَةً ... تَمْـشِي إِلَـيْهِ عَلَـى سَـاقٍ بِـلاَ قَـدَمِ

75 كَأَنَّمَـا سَـطَّرَتْ سَـطْرًا لِمَـا كَتَـبَتْ ... فُـرُوعُهَا مِـنْ بَدِيـعِ الخَـطِّ بِـاللَّقَمِ

76 مِـثْلَ الغَمَامَـةِ أَنَّـى سَـارَ سَـائِرَةً ... تَقِـيهِ حَـرَّ وَطِـيسٍ لِلْهَجِيـرِ حَمِـي

77 أَقْـسَمْتُ بِالقَمَـرِ المُنْـشَقِّ إِنَّ لَـهُ ... مِـنْ قَلْـبِهِ نِـسْبَةً مَبْـرُورَةَ القَـسَمِ

78 وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... وَكُـلُّ طَـرْفٍ مِـنَ الكُفَّـارِ عَـنْهُ عَمِـي

79 فَالصِّدْقُ فِي الغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ... وَهُـمْ يَقُولُـونَ مَـا بالغَـارِ مِـنْ أَرِمِ

80 ظَنُّوا الحَمَامَةَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْـرِ البَـرِيَّةِ لَـمْ تَنْـسُجْ وَلَـمْ تَحُـمِ

81 وِقَايَـةُ اللهِ أَغْـنَتْ عَـنْ مُـضَاعَفَةٍ ... مِـنَ الـدُّرُوعِ وَعَـنْ عَـالٍ مِـنَ الأُطُـمِ

82 مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ ... إِلاَّ وَنِلْـتُ جِـوَارًا مِـنْهُ لَـمْ يُـضَمِ

83 وَلاَ التَمَسْتُ غِنى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ ... إلاَّ اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

84 لاَ تُنْكِرِ الوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إنَّ لَهُ ... قَلْبًا إذَا نَامَتِ العَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

85 وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ ... فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ

86 تَبَارَكَ اللهُ مَا وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ ... وَلاَ نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ

87 كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِبًا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ ... وَأَطْلَقَتْ أَرِبًا مِنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ

88 وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ ... حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

89 بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلْتَ البِطَاحَ بِهَا ... سَيْبٌ مِنَ اليَمِّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ العَرِمِ

90 لَمَّا شَكَتْ وَقْعَهُ البَطْحَاءُ قَالَ لَهُ ... عَلَى الرُّبَا وَالهِضَابِ انْهَلِّ وانْسَجِمِ

91 فَأَدَّتِ الأَرْضُ مِنْ رِزْقٍ أَمَانَتَهَا ... بِإِذْنِ خَالِقِهَا لِلنَّاسِ وَالنَّعَمِ

92 وَأُلْبِسَتْ حُلَلاً مِنْ سُنْدُسٍ وَلَوَتْ ... عَمائِمًا بِرُءُوسِ الهِضَبِ والأَكَمِ

93 وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٌ تَجْلُو قَلاَئِدُهَا ... مِثْلَ البَهَارِ عَلَى الأَبْصَارِ وَالعَلَمِ

94 وَفَارَقَ النَّاسَ دَاءُ القَحْطِ وَانْبَعَثَتْ ... إِلَى المَكَارِمِ نَفْسُ النَّكِسِ وَالبَرِمِ

95 إذَا تَتَبَّعْتَ آيَاتِ النَّبِيِّ فَقَدْ ... أَلْحقْتَ مُنْفَخِمًا مِنْهَا بمُنْفَخِمِ

96 قُلْ لِلْمُحَاوِلِ شَأْوِي فِي مَدَائِحِهِ ... هِيَ المَوَاهِبُ لَمْ أَشْدُدْ لَهَا زِيمِ

97 وَلاَ تَقُلْ لِي بِمَاذَا نِلْت جَيِّدَهَا ... فَمَا يُقَالُ بِفَضْلِ اللهِ ذَا بِكَمِ

98 لَوْلاَ العِنَايَةُ كَانَ الأَمْرُ فِيهِ عَلَى ... حَدِّ السِّوَاءِ فَذُوا نُطْقٍ كَذِي بُكْمِ

99 دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ... ظُهُورَ نَارِالقِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ

100 فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ ... وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

101 فَمَا تَطَاوَلَ آمَال الْمَدِيح إِلَى ... مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلاَقِ وَالشِّيَمِ

102 آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثَةٌ ... قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالقِدَمِ

103 لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا ... عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

104 دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

105 مُحْكَمَاتٌ فَمَا تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ ... لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْغِينَ مِنْ حِكَمِ

106 مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلاَّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ

107 رَدَّتْ بَلاَغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا ... رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجَانِي عَنِ الحُرَمِ

108 لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ فِي مَدَدٍ ... وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ وَالقِيَمِ

109 فَمَا تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى عَجَائِبُهَا ... وَلاَ تُسَامُ عَلَى الإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

110 قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ ... لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فَاعْتَصِمِ

111 إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَى ... أَطْفَأْتَ نَارَ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

112 كَأَنَّهَا الحَوْضُ تَبْيَضُّ الوُجُوهُ بِهِ ... مِنَ العُصَاةِ وَقَدْ جَاءُوهُ كَالحُمَمِ

113 وَكَالصِّرَاطِ وَكَالمِيزَانِ مَعْدِلَةً ... فَالقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

114 لاَ تَعْجَبَنْ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا ... تَجَاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الحَاذِقِ الفَهِمِ

115 قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

116 يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العَافُونَ سَاحَتَهُ ... سَعْيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

117 وَمَـنْ هُـوَ الآيَـةُ الكُبْـرَى لِمُعْتَبِـرٍ وَمَـنْ هُـوَ الـنِّعْمَةُ العُظْمَـى لِمُغْتَـنِمِ

118 سَـرَيْتَ مِـنْ حَـرَمٍ لَـيْلاً إِلَـى حَـرَمٍ كَمَـا سَـرَى الـبَدْرُ فِـي دَاجٍ مِـنَ الظُّلَـمِ

119 وَبِـتَّ تَرْقَـى إِلَـى أَنْ نِلْـتَ مَنْـزِلَةً مِـنْ قَـابِ قَوْسَـيْنِ لَـمْ تُـدْرَكْ وَلَـمْ تُـرَمِ

120 وَقَدَّمَـتْكَ جَمِـيعُ الأَنْبِـيَاءِ بِهَـا وَالرُّسْـلِ تَقْـدِيمَ مَخْـدُومٍ عَلَـى خَـدَمِ

121 وَأَنْـتَ تَخْـرِقُ الـسَّبْعَ الطِّـبَاقَ بِهِـمْ فِـي مَـوْكِبٍ كُـنْتَ فِـيهِ صَـاحِبَ العَلَـمِ

122 حَتَّـى إِذَا لَـمْ تَـدَعْ شَـأْوًا لِمُـسْتَبِقٍ مِـنَ الدُّنُـوِّ وَلاَ مَرْقًـى لِمُـسْتَنِمِ

123 خَفَـضْتَ كُـلَّ مَقَـامٍ بِالإِضَـافَةِ إِذْ نُـودِيتَ بِالـرَّفْعِ مِـثْلَ المُفْـرَدِ العَلَـمِ

124 كَـيْمَا تَفُـوزَ بِوَصْـلٍ أَيِّ مُـسْتَتِرٍ عَـنِ العُـيُونِ وَسِـرٍّ أَيِّ مُكْتَـتَمِ

125 فَحُـزْتَ كُـلَّ فَخَـارٍ غَيْـرَ مُـشْتَرَكٍ وَجُـزْتَ كُـلَّ مَقَـامٍ غَيْـرَ مُـزْدَحَمِ

126 وَجَـلَّ مِقْـدَارُ مَـا وُلِّـيتَ مِـنْ رُتَـبٍ وَعَـزَّ إِدْرَاكُ مَـا أُولِـيتَ مِـنْ نِعَـمِ

127 بُـشْرَى لَـنَا مَعْـشَرَ الإِسْـلاَمِ إِنَّ لَـنَا مِـنَ العِـنَايَةِ رُكْـنًا غَيْـرَ مُـنْهَدِمِ

128 لَمَّـا دَعَـا اللهُ دَاعِيَـنَا لِطَاعَـتِهِ بِأَكْـرَمِ الرُّسْـلِ كُـنَّا أَكْـرَمَ الأُمَـمِ

129 رَاعَـتْ قُلُـوبَ العِـدَا أَنْـبَاءُ بِعْثَـتِهِ كَنَـبْأَةٍ أَجْفَلَـتْ غُفْـلاً مِـنَ الغَـنَمِ

130 مَـا زَالَ يَلْقَـاهُمُ فِـي كُـلِّ مُعْتَـرَكٍ حَتَّـى حَكَـوْا بِالقَـنَا لَحْمًـا عَلَـى وَضَـمِ

131 وَدُّوا الفِـرَارَ فَكَـادُوا يَغْـبِطُونَ بِـهِ أَشْـلاَءَ شَـالَتْ مَـعَ العِقْـبَانِ وَالـرَّخَمِ

132 تَمْـضِي اللَّيَالِـي وَلاَ يَـدْرُونَ عِـدَّتَهَا مَـا لَـمْ تَكُـنْ مِـنْ لَيَالِـي الأَشْـهُرِ الحُـرُمِ

133 كَأَنَّمَـا الـدِّينُ ضَـيْفٌ حَـلَّ سَـاحَتَهُمْ بِكُـلِّ قَـرْمٍ إِلَـى لَحْـمِ العِـدَا قَـرِمِ

134	يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ	يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ
135	مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ للهِ مُحْتَسِبٍ	يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ
136	حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلاَمِ وَهْيَ بِهِمْ	مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ
137	مَكْفُولَةً أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ	وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ
138	هُمُ الجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ	مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ
139	وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا	فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ
140	المُصْدِرِيّ البِيضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ	مِنَ العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّمَمِ
141	وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ	أَقْلاَمُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
142	قَامَ فـي جامَع الهيجا خطيبُهم	تصامَمَتْ عنْهُ أذنا صمّة الصمم
143	شَاكِي السِّلاَحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ	وَالوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا عَنِ السَّلَمِ
144	تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ	فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِ
145	كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبًا	مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ
146	طَارَتْ قُلُوبُ العِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا	فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ وَالبُهُمِ
147	وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ	إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ
148	وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرَ مُنْتَصِرٍ	بِهِ وَلاَ مِنْ عَدُوٍّ غَيْرَ مُنْقَصِمِ
149	أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ	كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ
150	كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدَلٍ	فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ القرآن مِنْ خَصِمِ

151	كَفَاكَ بِالعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً	فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي اليُتُمِ
152	خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ	ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ
153	إِذْ قَلَّدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ	كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ
154	أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتَيْنِ وَمَا	حَصَّلْتُ إِلاَّ عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ
155	فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا	لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ
156	وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ	يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ
157	إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ	مِنَ النَّبِيِّ وَلاَ حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ
158	فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي	مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ
159	إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي	فَضْلاً وَإِلاَّ فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ
160	حَاشَاهُ أَنْ يُحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ	أَوْ يَرْجِعَ الجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ
161	وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ	وَجَدْتُهُ لِخَلاصِي غَيْرَ مُلْتَزِمِ
162	وَلَنْ يَفُوتَ الغِنَى مِنْهُ يَدًا تَرِبَتْ	إِنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ
163	وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفَتْ	يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرَمِ
164	يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ
165	وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جَاهُك بِي	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ
166	فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا	وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ
167	يَا نَفْسُ لاَ تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ	إِنَّ الكَبَائِرَ فِي الغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

168 لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّ حِينَ يَقْسِمُهَا ... تَأْتِي عَلَى حَسَبِ العِصْيَانِ فِي القِسَمِ

169 يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ ... لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

170 وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ ... صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

171 وَأْذَنْ بِسُحْبِ صَلاَةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ ... عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمِ

172 مَا رَنَّحَتْ عَذْبَاتِ البَانِ رِيحُ صَبَا ... وَأَطْرَبَ العِيسَ حَادِي العِيسِ بِالنَّغَمِ

العُمْدَة

في شَرْح البُرْدَة

تأليف

إمام الشريعة والحقيقة

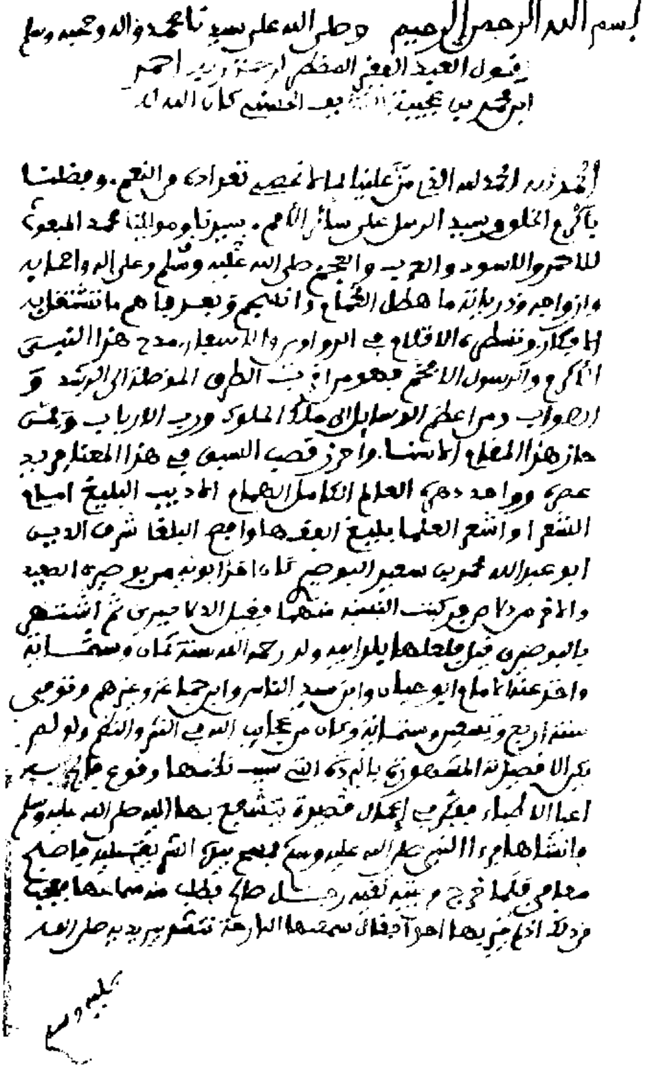
سيدي أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني

المتوفى سنة ١٢٢٤هـ

اعتنى بجمعه وتقديمه

الأستاذ عبد السلام العمراني الخالدي العرائشي

نماذج من صور المخطوط

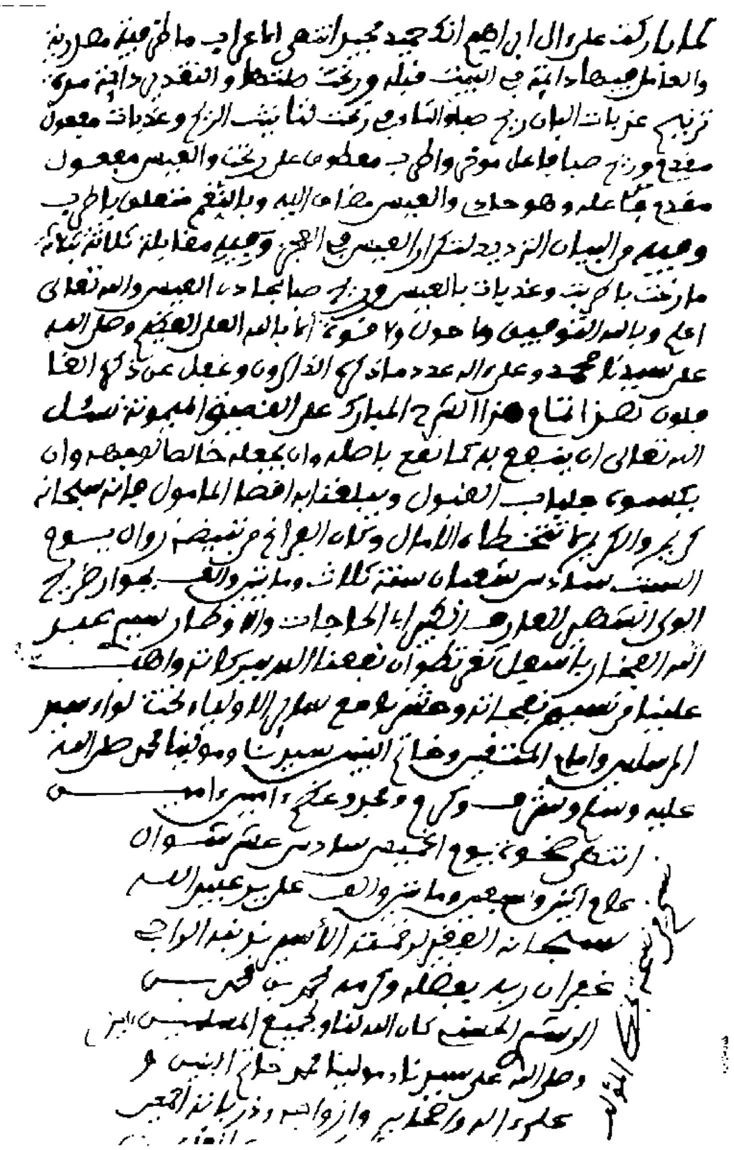


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
يقول العبد الفقير المضطر لرحمة ربه أحمد
ابن محمد بن عجيبة [illegible] كان الله له

الحمد لله [illegible] الحمد لله الذي من علينا بما لا نحصي تعداده من النعم. وفضلنا
بأكرم الخلق وسيد الرسل على سائر الأمم. سيدنا ومولانا محمد المبعوث
للأحمر والأسود والعرب والعجم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه
وأزواجه وذريته ما هطل الغمام وانسجم وبعد فإن أهم ما تشتغل به
الأفكار وتنطق به الأقلام في الدواوين والأسفار مدح هذا النبي
الأكرم والرسول الأعظم فهو من أقرب الطرق الموصلة إلى الرشد و
الصواب ومن أعظم الوسائل إلى ملك الملوك ورب الأرباب وممن
حاز هذا المقام بلا امترا. وأحرز قصب السبق في هذا المضمار بلا
[illegible] وواحد دهره العالم الكامل الهمام الأديب البليغ إمام
الشعرا وأشعر العلما بلا [illegible] وأمير البلغا شرف الدين
أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري [illegible] من بوصيرة الصعيد
[illegible] وكتب [illegible] [illegible] ثم اشتهر
بالبوصيري [illegible] ولد رحمه الله سنة ثمان وستمائة
[illegible]
سنة أربع وتسعين وستمائة وكان من عجائب الله في النثر والنظم ولو لم
يكن إلا قصيدته المشهورة بالبردة التي [illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم
[illegible] النبي صلى الله عليه وسلم [illegible]
[illegible]
[illegible] صلى الله

- أ -

الصفحة الأولى من مخطوط العمدة في شرح البردة



- ب -

الصفحة الأخيرة من مخطوط العمدة في شرح البردة

مقدّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم:

يقول العبد الفقير المضطر لرحمة ربه أحمد بن محمد بن عجيبة الشريف الحسني كان الله له:

الحمد لله الذي منّ علينا بما لا نحصي تعداده من النعم، وفضلنا بأكرم الخلق وسيد الرسل على سائر الأمم، سيدنا ومولانا محمد المبعوث للأحمر والأسود والعرب والعجم، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته ما هطل الغمام وانسجم. وبعد:

فأهم ما تشتغل به الأفكار، وتسطره الأقلام في الدواوين والأسفار، مدح هذا النبي الأكرم، والرسول الأفخم، فهو من أقرب الطرق الموصلة إلى الرشد والصواب، ومن أعظم الوسائل إلى ملك الملوك ورب الأرباب. وممن حاز هذا المقام الأسنى، وأحرز قصب السبق في هذا المعنى، فريد عصره وواحد دهره، العالم الكامل الهمام الأديب البليغ إمام الشعراء وأشعر العلماء، بليغ الفقهاء وأفصح البلغاء، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري. كان أحد أبويه من بوصيرى الصعيد، والآخر من دلاص فركبت النسبة منهما، فقيل الدلاصيري ثم اشتهر بالبوصيري. قيل فلعلها بلد أبيه، ولد رحمه الله سنة ثمان وستمائة، وأخذ عنه الإمام أبو حيان وابن سيد الناس وابن جماعة وغيرهم. وتوفي سنة أربع وتسعين وستمائة، وكان من عجائب الله في

النثر والنظم، ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بالبردة، التي سبب نظمها وقوع فالج به أعيا الأطباء ففكر في إعمال قصيدة يتشفع بها إليه صلى الله عليه وسلم، فأنشأها فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فمسح بيده الشريفة عليه فأصبح معافى. فلما خرج من بيته لقيه رجل صالح فطلب منه سماعها فعجب من ذلك إذ لم يخبر بها أحدا، فقال: سمعتها البارحة تنشد بين يديه صلى الله عليه وسلم، وهو يتمايل كتمايل القضيب فأعطاه إياها، قال رضي الله عنه: ولما ناولته إياها علمت أن لها شأنا. فذهب الرجل بها وذكر ما جرى بيني وبينه للناس، فبلغ ذلك الصاحب بهاء الدين وزير الملك فوقعت منه موقعا ونذر ألا يسمعها إلا واقفا حافيا مكشوف الرأس، وكان يكثر تردادها ويصغي لسماعها ويتعاهدها هو وأهل بيته، فرأى من بركاتها أمورا عظيمة في دينهم ودنياهم. ولقد أصاب سعد الدين الفارقي مجالس الصاحب المذكور رمد أشرف منه على العمى فرأى في منامه قائلا يقول له: امض إلى الصاحب بهاء الدين وخذ منه البردة وضعها على عينيك تبرأ، قال: فنهض إلى الصاحب وقص عليه الرؤيا فقال له الصاحب: ما عندي شيء يسمى البردة. إذ لم يكن الصاحب يعرف لها هذه التسمية. وإنما عندي قصيدة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أنشأها البوصيري، فنحن نستشفي بها ونداوي المرضى. فدفعها له فوضعت على عينيه فبرأ من وقته. وقيل إن الشيخ رضي الله عنه اشتد رمده بعد نظمها فرآى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقرأ عليه شيئا منها فتفل في عينيه فبرئ لوقته. وبالجملة فهذه القصيدة معروفة البركات، يتوسل بها في قبول الدعوات ودفع الأزمات وقضاء الحاجات.

وهذا بعون الله شرح لطيف يبين ألفاظها، ويظهر أنوارها مقتصرا، في ذلك على المحتاج جعله الله وسيلة للفوز بلقاء من مدح بها والخلود معه في جنة المأوى آمين.

ثم إن الشيخ رضي الله عنه سلك مسلك الشعراء في تقديم التشبيب ويسمى النسيب، وهو أن يذكر المادح ذكر المحبة والعشق واللوم عليهما، وذكر ما ينشأ عن الغرام من البكاء والحزن والسهر والنحول وغير ذلك، وحكمة ذلك تهييج الأسماع وتشويق القلوب إلى الممدوح، فجرد الشيخ من نفسه إنسانا وجعل يخاطبه ويستفهمه عن سبب غرامه وعظيم عشقه، فجعل ذلك هو الفصل الأول، الذي جعله في الغزل وشكوى الغرام فقال:

الفصل الأول
في الغزل وشكوى الغرام

* بدأه رحمه الله بقوله:

1 أَمِــنْ تَذَكُّـرِ جِيرَانٍ بِـذِي سَـلَـمٍ ... مَـزَجْتَ دَمْعًـا جَـرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

2 أَمْ هَبَّـتْ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِـمَةٍ ... وَأَوْمَضَ البَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

اللغة: التذكر جلب خيال ما هو من العيان، والفكر في غائب لتردد معانيه على القلب. وقيل حضور الشيء المنسي بالقلب وجريانه على الفكر، يقال: ذكرته فتذكر، فهو من أفعال المطاوعة، كعلّمته فتعلم ونبّهته فتنبّه. والتذكر أخص من الذكر، إذ الذكر يكون باللسان ولو مع الغفلة، بخلاف التذكر فإنه ينافي الغفلة ويستلزم الحضور. "وجيران": جمع جار، كنيران وقيعان، ويجمع أيضا على جيرة. يقال: جاورت فلانا، إذا ساكنته. وآجرته: أدخلته في جوارك وذمتك. "وذي سلم" موضع بين مكة والمدينة قريب من قديد. والمزج خلط الشيء بالشيء حتى لا يتميزا، بخلاف الخلط فيمكن تمييزه. يقال خلطت القمح بالذرة ولا يقال مزجتهما. ويقال مزجت الخمر بالخل ولا يقال خلطتهما، قاله الأليوري. والدمع ما ترخيه شئون الرأس من الماء الملح على مجاري العين، وهو اسم جنس يفرق بينه وبين مفرده بسقوط التاء كتمرة وتمر. وجريان سيلانه. والمقلة شحمة العين وبياضها، والحدقة: السواد الذي في وسطها: والعين كالمرآة إذا استقبلها شيء ظهر شخصه فيها لشدة صفائها. وهبت الريح هبوبا وهبيبا إذا هاجت وتحركت، وهب من نومه إذا استيقظ، وأصل ريح روح، فأبدلت الواو ياء، ويجمع في الكثرة على رياح وفي القلة على أرواح. ولا يقال أرياح، وقد لحن من استعمله. ومثل إعلاله رياض وحياض وجياد وشذّ طيال لأن مفرده محرك ولا يعمل إلا ما كان مسكنا في المفرد نحو روْض. "وتلقاء كاظمة" وجهتها وناحيتها، وتلقاء مدين: وجهتها، ومن تلقاء نفسي، أي من جهة نفسي. وكاظمة ماء خارج البصرة بطريق من يريد مكة. "وأومض البرق" لمع وأضاء. يقال: ومض يمض كوعد يعد، ومضانا إذا

لمع لمعانا خفيفا. وأومض إيماضا إذا ظهر واعترض في نواحي الغيم. والبرق قيل سوط الملك الذي يسوق به السحاب. والظلماء فعلاء من الظلام فهي بنيته فيها مبالغة تدل على شدة الظلمة وانتشارها. وإضم واد دون المدينة قريب منها وقيل جبل من جبالها. وأضاف الريح إلى كاظمة لقرب هبوبه في الأرض. وأضاف البرق إلى إضم على أنه جبل لارتفاعه ليحصل التناسب والمعنى.

الشرح: لما جرد الشيخ من نفسه شخصا، جعل يستفهمه عن سبب حزنه وبكائه حتى مزج دمعه بالدم من شدة البكاء، هل هو من أجل تذكر جيران وأحباب بذي سلم فارقهم، فلما تذكرهم حن للقائهم والاجتماع معهم. أم من أجل ريح هبت من ناحيتهم ولمعان برق ظهر من جهة أماكنهم، فكأنه يقول لنفسه: لأي شيء عظمت حسرتك وسالت دمعك حتى انتهت حالتك من عظيم الوجد وشدة الحزن أن بكيت حتى مزجت الدمع بالدم فخالفت المحزونين وخرجت عن معتاد الباكين. أم من أجل تذكر جيرتك بذي سلم وذكرك أياما سلفت معهم ازداد شوقك وهاج وجدك وسال دمعك ممزوجا بالدم، أم هبوب ريح من جانب أحبتك وإيماض البرق من ناحية أوطانهم ومنازلهم ذكرك ليالي الأنس وأيام جمع الشمل ومعاهد الأحبة، فانبثق الشوق وعظم الوجد حتى بكيت الدمع دما. وإنما لم يقل أمن تذكر أحباب مع أن الوزن يساعده، فرارا من اللفظ المبتذل، لأن الأحباب لفظ مبتذل لا يستعمله إلا ضعفة الشعراء، والقوي العارضة منهم لا يستعمله بل يجتنب الألفاظ المبتذلة ويتحامى ما يكثر ترداده على ألسنة العامة، مع أنه لو عبر به لفاته التشبيه على أنهم جيران إذ كونهم أحبابا، يفهم من سياق كلامه فبين الجيران والأحباب عموم وخصوص من وجه، وإنما عبر الشيخ بهذه الأماكن كناية عن معاهد وصله، ومحل اجتماع شمله بأحبته، تغزلا وتشبيبا. وكثيرا ما يكني الشعراء عن وطن المحبوب باسم غير اسمه المشتهر به وعن المحبوب باسم سواه، ويتحرجون عن تغيير الاسم والقبيلة والحى، فيكنون عن المحبوب بليلى وسلمى، ويكنون عن معاهد الوصل ومواضع اجتماع الشمل بسلع والنقا وذي سلم. قال بعضهم ما يزال المحبون يكنون بالتغزل عن اسم المحبوب وحيّه وقبيلته ويتحاموا التغيير لأغراض، إما للستر على المحبوب أو غيرة عليه أو خوف الرقبا. وما ذكره الشيخ رضي الله عنه من كون تذكر الأحباب سببا لهيجان الشوق وتحريك الحب مطروق عند العشاق كقول الشاعر:

تذكرت عهدا كان أحلى من الكرا وأقصر من إلمام طيف خياله

وكقول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأبكيه لكل غروب شمس

وكذا ما ذكره من كون هبوب الريح سببا لتهييج الحب هو كثير أيضا، كقول الشاعر:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجدا على وجد
وقد زعموا أن المحب إذا نئا يمل وإن النأي يشفي من الوجد
بكل تداويسنا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

وما ذكره أيضا من كون إيماض البرق مما يثير الوجد ويحرك الهوى ويبعث الشوق في كثير ومنه قول بعضهم:

لاح بارق فارقه فبات يرعى النجوم مكتئبا

وقول الآخر:

فلا برق أحمله سلاما ولا ريحا أصرفه رسولا

وإنما كان البرق يذكر لأن المحبوب في الغالب ينظر إليه حين يلمع فيقنع المحب باتفاق النظرتين. وقد روي أن قيس المجنون كان يكثر النظر إلى الهلال فلا يصرف وجهه عنه، فقيل له في ذلك فقال: لعل ليلى تنظر إليه فتلتقي النظرتان فكان يقنع بذلك. ويشهد لصحته هذا القصد وانتعاش نفوس المحبين لهذا القدر، قول الشاعر:

أليس الليل يجمع أم عمر وإيانا فذاك تدان
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني

وأما ما ذكره من كون الدمع إذا كثر يخرج بالدم فهو صحيح وقد ورد في صحيح البخاري في صفة أهل النار أنهم يبكون الدمع حتى ينقطع ثم يبكون الدم. إلا أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون. واعلم أن دمع الحزن سخن ودمع الفرح بارد، ولذلك يقولون في الدعاء: أقر الله عينك، لأن القُر هو البرد، أي أبرد الله عينك بالدمع البارد في فرح. فإن قلت قصد الناظم بهذه القصيدة مدح النبي صلى الله عليه وسلم، والتغزل مناف لهذا القصد الشريف، وكيف قدمه أولا، قلت قدمه على عادة الشعراء في تقديم النسيب بين يدي المدح وهو عندهم كثير لا يكاد يوجد المدح إلا وهو مفتتح بالنسيب،

وقد قدمه كعب بن زهير بين يديه صلى الله عليه وسلم في لاميته التي مدحه بها، وسبب ذلك أن النسيب تنفعل له النفوس وترق القلوب عند سماعه وتنشط لسماعه نشاطا زائدا فلا ينتهي الناظم منه للتخلص للمدح إلا والنفوس قد اجتمعت، والقلوب قد رقت والجوارح سكنت، فإذ ذاك يقع المدح منها موقعا وتجد من قلبها محلا مكينا. فهو كتقديم نقر العود وضرب الآلة بين يدي الغنا والله تعالى أعلم.

وأما الإعراب فهو معلوم لمن فهم المعنى وسأشير إلى المهم منه، فالهمزة للاستفهام يسئل بها عن التعيين، وهو هنا عن تعيين موجب البكاء. ومن تعليلية تتعلق بمزجت. وتذكر جيران من إضافة المصدر للمفعول. وبذي سلم متعلق بمحذوف نعت لجيران. ودمعا مفعول. ومن مقلة متعلق بجرى. ومن لابتداء الغاية. وبدم متعلق بمزجت. وأم هبت معطوف على المصدر. أي أمزجت دمعا بدم من أجل تذكر جيرانك أم من هبوب ريح هبت من ناحية أحبتك. ومن تلقاء متعلق بهبت. وهي لابتداء الغاية. وأومض معطوف على هبت. وفي الظلماء متعلق بأومض. ومن إضم متعلق به أيضا أو باسم فاعل محذوف حال من الظلماء. وسبك البيت: أمن أجل تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا، أم من أجل هبوب ريح وإيماض البرق من ناحيتهم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

3 فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

اللغة: اكففا معناه اقصرا أو اتركا. وهمت سالت، يقال همت وانهملت الدموع إذا سالت وزادت في استرسالها وتمادت في جريانها. والقلب: الشكل الصنوبري العام في جميع الحيوانات، إلا أن القلب إذا أطلق عند الشعراء في الغزل والنسيب إنما يعنون به اللطيفة الربانية، ويكون إطلاق اسم القلب مجازا من إطلاق اللازم على الملزوم، وسمي قلبا لكثرة تقلبه بما يرد عليه، وفي الحديث: لقلب ابن آدم أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانها. وفيه قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه وما التقلب إلا أنه يتقلب

واستفق معناه تيقظ وانتبه. ويهم يذهب على وجهه ويستمر على حاله فلا يرعوي.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله - وقد جرد من نفسه شخصا كما تقدم يخاطبه مقبلا عليه: أي شيء لعينيك وما شأنهما ومم بكاؤهما حتى إنك تطلب الكف عن

البكاء فلا يطاوعاك ولا يجيبانك، بل يغلبانك على البكاء ويزيدان في انهمالهما واسترسالهما، وما شأن قلبك أيضا إن رمت منه اليقظة من غمرته والإفاقة من سكره والرجوع عن سيء حالته، وأرشدته لما فيه صلاحه لم يطاوعك بل يذهب على وجهه ويستمر على حاله، لا يكون ذلك إلا عن وجد فادح، وحب ملك القلب والجوارح. ويحتمل هذا الخطاب حقيقة فيكون كقول الشاعر:

فقلت لقلبي حين لج به الهوى وكلفني ما لا أطيق من الحب
ألا أيها القلب الذي قاده الهوى أفق لا أقر الله عينك من قلب

ويحتمل أن يكون عبر بالقول عن اللزوم وأنه رام ذلك منهما فلم يطاوعاه. ووجه اتصال البيت بما قبله أن قوله فما لعينيك مرتب على إنكار متوهم، وذلك أن الناظم لما جرد من نفسه شخصا واستفهمه عن سبب بكائه أنكر ذلك الشخص أن يكون صدر منه شيء من ذلك، فأقام عليه الحجة بقوله مستفهما على جهة التقرير: فما لعينيك تهطلان بالدموع وما شأن قلبك أيضا تطلب منه أن يفيق من غمرته ويصحوا من سكرته فيذهب على وجهه ويستمر على حاله.

الإعراب: ما استفهامية مبتدأ. ولعينيك خبره. وإن شرط تكون في الممكن المشكوك دون المحقق ولذلك قال القائل:

أنا إن شككت في الأمر وجدتموني جازما وإذا جزمت فإنني لم أجزم

يعني أي: إن الذي تجزم الفعل تستعمل في الشك، وإذا الذي لا تجزم الفعل تكون في المجزوم به المحقق. وإعراب باقي البيت واضح مما قبله، وفيه من البيان تجنيس الاشتقاق من قوله همتا ويهم وهو أن تشتمل إحدى الكلمتين على حروف الأخرى، فإن اشتملت على جميع حروفها مع اختلاف المعنى فهو تام وإلا فهو شبه الجناس، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء: 168]. وقوله تعالى: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم ﴾ [التوبة: 38] وفيه الطباق وهو ذكر الشيء وضده، وذلك في قوله اكففا همتا، وفي قوله: استفق يهم. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ ﴾ [فاطر: 19 - 20] الآية. ومن الطباق أيضا قول الشاعر:

فليتك تحلوا والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

فطابق بين تحلوا ومريرة، وبين ترضى وغضاب، وفيه التعطف، وهو أن يذكر اللفظ في الصدر ثم يعيده في العجز. وقد ذكر "إن قلت" في الصدر ثم أعاده في العجز. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

4 أَيَحْسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

اللغة: "الصب" الكثير الشوق. والصبابة رقة الشوق وحرارته. "والحب" علاقة قلب المحب بالمحبوب، وقيل: المحبة عبارة عن الميل إلى ما يوافق غرض المحبوب. والحب مأخوذ من حبة القلب وهي حبة سوداء في وسط القلب يخرج منها شبه الدخان ومنه تنبعث الحياة لسائر الجوارح والأعضاء، فمتى اشتد ذلك اختلت صحة الإنسان. وقيل: المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم. وقيل: المحبة إفراد الميل بلا نيل. قيل: وعلامة المحبة أن تستقل الكثير من نفسك وتستكثر القليل من حبيبك. "ومنكتم" معناه منخفي وهو مطاوع، انكتم وهو غير محفوظ عن العرب، ولعل الناظم حفظه. وسجم الدمع إذا سال، وسجمت العين دمعها إذا أرسلتها، وانسجمت السماء صبت المطر. "ومضطرم" مشتعل، يقال ضرمت النار إذا اشتعلت بالضرام اشتعال النار.

الشرح: يقول الناظم رضي الله عنه: أيحسب من اتصف بهذا الوصف من شدة الشوق وعظم الصبابة وانسجام الجفن واضطرام نار القلب، أن ينكتم سره أو يخفى عن أحد أمره. كيف وقد لازمه شيئان واكنفه أمران، جفن منسجم تسيل دموعه وقلب مضطرم تشتعل ناره. أحد هاذين كاف في الفضيحة ومؤذن بشدة الحب والتهالك في الهوى، فكيف وقد اجتمعا. انتهى. وعلق الحسبان على الصب دون مطلق الشخص، ليؤذن بشدة الحب وعظم الشوق. ولو قال: أيحسب المرء أو الشخص لفاته ذلك، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: 98]، ولم يقل: فإن الله عدو له، لأنه لو قال ذلك لفات ذكر الوصف الموجب لعداوة الملائكة. والتشنيع على من عاد الملائكة بوصف الكفر، هذا وقد اختلفت آراء الشعراء في توجه العتاب هل للعين أو القلب، فمنهم من ينسب الذنب للعين ويراه سببا باعثا على الهوى. ومنهم من ينسبه للقلب، لأنه قد يحصل له

الهوى بمجرد السماع، ولذلك نهى عليه الصلاة والسلام أن تصف المرأة لزوجها امرأة أخرى كأنه يراها، لما يتوقع من علاقة قلب الرجل من هذه المرأة وإن لم يرها. والغالب أن العين هي السبب الأعظم في جلب الهوى للقلب، ولهذا حرمه الشرع، إلا النظرة الأولى بغير تعمد. قال عليه السلام: «النظرة سهم من سهام الشيطان فمن تركها خوفا من الله آتاه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه». انتهى.

الإعراب: "الصب" فاعل "بيحسب" وفيه كسر السين وفتحه، والهمزة للإنكار. "وأن" واسمها وخبرها سدت مسد المفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ ﴾ [آل عمران: 178] الآية. "وما" زائدة، ولزيادتها هنا موقع من النفوس لا يحصل بدونها و"بين" هنا للتوسط المعنوي، فإن لها ثلاثة معان: التوسط الحسي، نحو: جلست بين زيد وعمرو، والتوسط المعنوي: فلان بين الخوف والرجاء، ومثله في كلام الناظم. فأنكر على مخاطبه انكتام الحب وإخفاءه وقد اكتنفه انسجام العين واضطرام نار القلب. وتكون للتقسيم، كقولك: الناس بين مؤمن وكافر، وبين طائع وعاص، وبين شقي وسعيد. والعامل في "بين" منكتم و"ما" صلة. ومنسجم ومضطرم صفتان لمحذوف، أي بين جفن منسجم وقلب مضطرم، وهذا أليق من تقدير دمع، لأنه لا يناسب ذكر القلب بعده، وكذا لا يقدر عين، لأنه مؤنث فلا يجري موصوفه عليه. "ومنه" متعلق "بمنسجم". "ومن" فيه لابتداء الغاية، ومعناه: أن ابتداء غاية الانسجام من الجفن، وحذفت منه أخرى بعد مضطرم لدلالة الأولى عليها، وفيه من البيان الالتفات، في قوله: "أيحسب الصب" وسيأتي الكلام في قوله نعم الخ. وفيه وضع الظاهر موضع المضمر، ومنه أن يقول: أتحسب بتاء الخطاب، وفيه طباقان، إحداهما: بين قول "منكتم" وبين "منسجم ومضطرم" فإنهما ضد المنكتم والثاني: بين قوله "منسجم ومضطرم" لأن المنسجم هو صاحب الماء الجاري، والمضطرم هو المشتعل نارا. وفيه الترصيع، وهو في قوله "منكتم ومنسجم ومضطرم" وحقيقته أن يؤتى بكلمات متفقات في الصورة والشكل، ومنه قوله تعالى في: ﴿ سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة: 28] الآية. وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ ﴾ [المعارج: 19 - 21] والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

5 لَوْلاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلاَ أَرِقْتَ لِذِكْرِ البَانِ وَالعَلَمِ

6 وَلا أَعارَتْكَ ثَوْبَيْ عَبْرَةٍ وَضَنَا ذِكْرَى الخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِ الخِيَمِ

اللغة: الهوى: الحب، يقال: هوى يهوى من باب تعب، وهو مقصور، وأما الممدود فيطلق على ما بين السماء والأرض، ويطلق على صلاحه. يقال: بلدة طيبة الهواء، إذا كانت غير وبية ولا وخمة. وقد جمع الشاعر بينهما حيث يقول:

وكيف صبري عنها اليوم إذ جمعت طيب الهواء بين مقصور وممدود

ومن المقصور قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم: 3] أي ما ينطق عما يهواه ويحبه، إنما ينطق عن وحي يوحى. والهوى أول مراتب الحب، وبعده العلاقة، وبعده العشق، ثم الشغف بالغين المعجمة، وهو بلوغ الحب الشغاف، وهي جلدة دون القلب، ثم الشعاف بالمهملة. "وترق" من راق الدمع يريق إذا انصب، وأراقه يريقه إذا صبه، ويقال: هراق، بإبدال الهمزة هاء، ويقال إهراق، بزيادة الهمزة. وراقني الشيء أعجبني. "والطلل" أثر الديار وما شخَص منها، ويسمى الرسم وجمعه رسوم. "وأرقت" أي سهرت، يقال: أرق يأرق أرقا إذا سهر، وأرّق عينه أسهرها. "والبان" شجر له ثمرة يخرج منها دهن طيب، واحدتها بانة والجمع بان. "والعلم" موضع بقرب المدينة، وربما كنَّت الشعراء به عن معاهد الأنس وجمع الشمل بالأحبة، كما قال الشاعر:

إذا ذكرت البان والعلما أجريت دمع العين فيك دما

والعلم من الألفاظ المشتركة، يطلق على الجبل الطويل، وعلى العلم في الثوب وهو شبه الطرز فيه أو حاشيته، ومنه قوله عليه السلام: «ردوا هذه الخميصة إلى أبي جهم، واتوني بأنبجانية أبي جهم، فإني نظرت إلى علمها في الصلاة فكادت تفتنني». والخميسة كساء صوف رقيق له علم، والأنبجانية كساء صوف غليظ لا علم له. "وأعارتك" أعطتك على وجه العارية، واشتقاقها من التعاور وهو التداول، يقال: تعاور الشيء إذا تداوله شخصان فأكثر. وقيل: مشتقة من العار، لأن المعير يقصد بدفعها دفع عار الخيبة والبخل. وفي بعض النسخ "ثوبي عبرة" وفي بعضها "لوني" وهي أقرب، لأن العبرة لا تكسي البدن بخلاف اللون، والعبرة مشتقة من العبور وهو الجواز

لما كانت تعبر عن شئون الرأس إلى الخدود. وقيل مشتقة من تعبير الرؤيا لأنها تعبر عن حال الباكي وتبيينه. "والضنا" المرض، يقال: ضني يضنى إذا مرض. والذكر والذكرى ضد النسيان، ورويت القصيدة بهما معا، والخيم جمع خيمة، ويجمع على خيام، قال الشاعر

أمـــا الخـــيام فإنهـــا كخـــيامهم وأرى نـــساء الحـــي دون نـــسائها

والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر، يقال: خيم فلان بالمكان إذا أقام به.

الشرح: يقول رحمه الله للمجرد من نفسه مقيما للحجة عليه وإظهار البرهان على شدة حبه وعلاقة قلبه: لولا وجود الهوى عندك وعلاقة قلبك وتهالكك في حبك ما جرى دمعك على الأطلال ولا هيج شوقك ذكر الدار ولا ذكر البان والعلم، وما لازمك الأرق وحرمت لذة النوم. وأراد "بلوني عبرة وضنا" صفرة اللون وحمرة الدمع، لما امتزج بالدم. فذكر الخيام وسكانها هيج بكاءك وغير حالك وأقبا دمعك حتى صار يجري دما، ما ذاك إلا لأن الهوى أخذ منك ما أخذ وحل منك محلا مكينا، فلذلك كثر بكاؤك وعظم وجدك. وتنكير دمعا يحتمل التكثير فإن التنكير يستعمل للتكثير والتقليل، فكأنه قال: لولا الهوى لم تر دمعا كثيرا حتى وصل إلى الطلل. وعلى التقليل حمل بعض البيانيين قوله تعالى في قصة إبراهيم مخاطبا لأبيه: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: 45] فقال: التزم إبراهيم عليه السلام الأدب مع أبيه في أربع مواضع الأول: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [الشعراء: 12] فعبر بالخوف شفقة ورحمة ولم يقل إن العذاب نازل بك لا محالة وهذا عين التلطف والأدب. والثاني: قوله ﴿ أَن يَمَسَّكَ ﴾ [مريم: 45] ولم يقل أن يصيبك، لأن في المس من التلطف والأدب ما ليس في الإصابة. الثالث: قوله ﴿ عَذَابٌ ﴾ بالتنكير تنبيها على قلته كأنه قال عذاب يسير. الرابع: قوله ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ ﴾ أي: من شأنه الرحمة والحنانة والرفق. انتهى. ومما ورد فيه التنكير للتعظيم قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة: 179]. هذا وكون الوقوف على الأطلال ومشاهدة رسوم الديار وذكر الخيام وساكنيها مما يحرك الشوق ويهيج الوجد ويذكر العهود القديمة

متعارف معلوم يكثر استعماله عند الشعراء، ومنه قول ذي الرمة:

وقفت على ربع لميت ناقتي فما زلت أبكي حوله وأعاتبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبه

وقول الآخر:

وقفت على ربع الحبيب عشية وقد درست ءاثاره ومعالمه
فذكرني العهد القديم الذي مضى وغادر في الأكباد ما الله عالمه
فناديت هل من مسعد لي على البكاء فجاوبني منهل دمعي وساجمه
فأسبلت أجفاني وأرسلت عبرتي على فقد عيش مرّ عني ناعمه
فما غدر نفسي بعد خمسين حجة وقد عظمت أوزاره وجرائمه

والبكاء في الحقيقة ليس على الأوطان، وإنما البكاء على ما عهد فيها من السكان، ولله در القائل:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
فما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

ومما ينسب للشافعي رضي الله عنه:

علي ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس أعلا وأكبرا
وفيهن نفس لو يقاس جمعها بكل الورى كانت أعز وأكبرا

وأما كون البان والعلم مما يثير الشوق ويهيج الوجد فكثير وقد سبق الناظم إليه غيره فقال:

لما ذكرت البان والعلم أجرمت دمع العين فيك دما
والنفس بالأشواق قد تلفت لم يبق منها البين غير دما

وقول الناظم "ولا أعارتك" الخ كالتكرار بالمعنى للبيت الذي قبله، فإن من أراق الدمع على الأطلال وأرق حتى ذهب عنه النوم لازمه صفرة اللون، إذ هي من لوازم السهر. "والعبرة" أيضا كالتكرار لقوله "لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل". "لولا" حرف امتناع لوجود تختص بالجملة الاسمية، ويحذف خبرها وجوبا إن على الامتناع على نفس المبتدأ، وإذا جيئ بعدها بضمير فلك فصله ورفعه وهو الأكثر. تقول لولا أنت ولولا أنا قال تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: 31]. ولك وصله

مجرورا لولاه ولولاي، ومنه الحديث: لولاه ما صمنا ولا صلينا. وأما لولا التحضيضية فتختص بالأفعال، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ [التوبة: 122]، ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ [يونس: 98]. وجواب الامتناعية يقرن بلام التأكيد إن كان مثبتا، كقوله تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: 31]. "ولم" لنفي الماضي المنقطع، ولذلك تقلب المضارع إلى الماضي في المعنى. وأما "لما" فلنفي الماضي المتصل بزمان الحال. "وترق" مجزوم، وهو رباعي أصله أريق فاعل بالحمل على الثلاثي ريق لتحرك ما قبله بخلاف الرباعي، وفعل بمضارعه ما فعل بأكرم من حذف الهمزة في المضارع والوصف، أما هراق بإبدال الهمزة هاء فمضارعه يهريق إذ لا موجب لحذفها "ودمعا" مفعول بترق. "وعلى طلل" متعلق به والاستعلاء فيها حقيقي. "ولا أرقت" جملة منفية معطوفة على "لم ترق" والمعنى: لولا وجود الهوى عندك ما صدر منك هاذان الشيئان وهما السهر وإراقة الدمع. "ولذكر البان" متعلق "بأرقت". "والعلم" معطوف على "البان". "ولا أعارتك" جملة منفية معطوفة على المنفية قبلها. والكاف مفعول به وهو يتعدى إلى اثنين. "وثوبي" مفعول ثان. "وعبرة" مضاف بعد حذف النون. "وضنا" معطوف على "عبرة" مقصور أي محبوس عن وجوه الإعراب قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن: 72] والجمل الثلاثة كلها منفية لفظا مثبتة معنى. "وذكرى وثوبي" فاعل "بأعارتك". "والذكرى" هي المعبرة، لأنها سبب في عبور الدموع وهيجان الشوق ومنع النوم. ويروى ذكر الخيام ويشكل عليه تأنيث الفعل، لأنه إذا عطف على الفاعل فإنما يراعى الأول، تقول: قامت هند وزيد وقام زيد وهند. وقد يجاب باكتسابه التأنيث من الخيام المضاف إليه، كقوله: وما حب الديار شغفن قلبي، فأنث شغفن لإضافة حب إلى الديار مع صحة حذفه. "وساكن الخيام" يحتمل الإفراد والجمع بحذف الياء لالتقاء الساكنين. انتهى. وفي البيت الأول من البيان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، فقوله: "أيحسب الصب" غيب "ولم ترق" خطاب وفيه شبه تجنيس الاشتقاق في قوله: "لم ترق وأرقت" وفي الثاني الترديد، وحقيقته أن يأتي الشاعر بلفظة معلقة بمعنى ثم يردها في البيت أو في بعضه معلقة بمعنى آخر، ومن صوره قول الشاعر:

مـن يلـق يـوما علـى علاتـه هـرما ... يلـق الـسماحة مـنه والـندى خلقـا

على يلق الأول بهرم ويلق الثاني بالسماحة. وكذلك الناظم على ذكرى الأول بالخيام وذكرى الثاني بساكني الخيام والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

7 فَكَـيْفَ تُنْكِـرُ حُبًّا بَعْدَمَا شَهِدَتْ بِـهِ عَلَـيْكَ عُـدُولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ

اللغة: الإنكار الكتم والجحود، ضد الإقرار. "والسقم" المرض، يقال سقم سقما، كمرض مرضا. والعدل الصادق المرضي الحال الذي لا يتهم وتقدم تفسير الحب والدمع.

الشرح: لما قرر الناظم المخاطب الذي جرده من نفسه وجوابه جوابا مرتبا على إنكار متوهم وأطنب في إظهار الحجة وإقامة الأدلة عليه، بيّن هنا كونه كاذبا مغالطا في إنكاره، فقال: أيحسب من ألف الصبابة وعلق الهوى بقلبه يخفى سره وينكتم حبه؟ والدلائل عليه واضحة، والعلامات ظاهرة، من انسجام الدمع واضطرام القلب وإراقة الدمع على الأطلال عند رؤيتها وانفعاله عند ذكر معاهد الأنس وجمع الشمل بالأحبة، فهذه علامات ودلائل لا يسع معها كتمان، وكفى بالدمع والسقم عدلين موثقا بهما، وشاهدين مقبولين، كما قال الشاعر:

يخفي فيبدي الدمع أسراره ويظهر الوجد عليه النَّفَس

وقال آخر:

من قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

ولما قرر المخاطب هذه الأدلة أقبل على المنكر يستفهمه عن حال إنكاره وينكر عليه ويقول: البينة العادلة قد قامت عليك، والشواهد قد أعلنت بحالك، فكيف يخفى ما فضحتك به شواهد حالك، وإنما يتأتى الكتم قبل شواهد الأحوال، فإذ ذاك يقبح الإفشاء والشهرة وإيذاع الحب للمحبوب وغيره إفشاء له. وإفشاء السر تهور وضعف يوجب الهجران والقطع مع ما يلقى من الوشاة والرقبا. فإن قلت: هذا مخالف للحديث، قال عليه السلام: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه» قلت هذا الحب مقصور على الحب في الله المجرد عن الأغراض الفاسدة، وهو الذي ورد في الحديث: «المتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة يغبطهم الناس» فالحب على هذه الكيفية قربة من القرب ومنقبة شريفة للمتصف به، أما المحبة المشوبة باللذات المنوطة

غالبا بحسن الصور فإن هذا المحب إن زين محبته بالكتم وجاهد نفسه بالعفة ملتمسا للأجر راغبا في الثواب انخرط في سلك من ورد فيه الحديث: «من عشق وكتم وعف ثم مات مات شهيدا». وقد عده بعضهم في الشهداء وأما من كان ميله للشهوات واللذات فباح بذلك وأعلن فهو عاص لله ورسوله. وتنكير الناظم حبا عظيما له أي حبا خارجا عن المعتاد، وإنما جمع عدول ولم يقل عدلي الدمع والسقم، لأن الدمع يتكرر بتكرر الأيام والشهور، والسقم يزداد بازدياد أسبابه، ويحتمل أن يكون عبر بالجمع عن التثنية كقوله: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 78] يعني داود وسليمان، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ [النساء: 11] أي أخوين فأكثر لحجب الأخوين كالأكثر. والله تعالى أعلم.

الإعراب: "كيف" اسم استفهام وهي ظرف عند سيبويه، والمعنى: في أي حال تنكر حبا في حال عقل تكون. وعلى إنها اسم تقدر على أي حال "تنكر" أصحيح العقل تكون أولا حيث تنكر ما لا يعقل جحوده ولا يسع إنكاره، فإن وقع بعد كيف فعل غير متعد فكيف في موضع الحال، نحو: كيف خرج زيد، ونحوه. وكذا إن وقع بعدها فعل متعد قد أخذ مفعوله كقولك: كيف أكل زيد الطعام. وإن لم يأخذ مفعوله فكيف في موضع المفعول نحو: كيف صنعت. وإن تعد الفعل بعدها لمفعولين فأخذ واحد فكيف في موضع الثاني وإن وقع بعدها مبتدأ فهي في موضع الخبر في قولك: كيف زيد. "وحبا" مفعول بتنكر "وبعد" متعلق به "وما" يحتمل الموصولية والمصدرية، أي: بعد شهادة عدول الدمع والسقم، أو بعد الذي شهدت به عليك. "وبه" متعلق بشهدت وهو الرابط، ولا يجوز حذفه لعدم توفر شروطه. وعلى أنها مصدرية يكون الضمير يعود على الحب، لأن المصدرية لا تحتاج إلى رابط، "وعليك" متعلق "بشهدت" أيضا. ويصح فيها أيضا أن تكون كافة كفت بعد عن جر ما بعدها وهيأتها للدخول على الأفعال فتحصل فيها ثلاثة أوجه. وعلى للاستعلاء وهو هنا معنوي كقولك: علوت على عمر وأعانني الله عليه. والتاء في شهدت يصح حذفها لأن الفاعل جمع تكسير وهو عدول، وفيه من البيان الاستعارة وأصلها التشبيه ثم تغير لفظ الشبه به إلى المشتبه مبالغة في قرب الشبه وإدخالا للمنقول إليه في نوع المنقول عنه ليكون اتحاد اللفظ كالشاهد على دعوى اتحاد المعنى، ومن مثلها قوله تعالى: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

[مريم: 4] شبه ظهور الشيب باشتعال النار، واستعار لفظ الاشتعال لظهور الشيب، وهي في البيت في قوله "عدول الدمع والسقم" حيث أثبت للدمع والسقم الشهادة وجعلهما شاهدين لأنهما يبينان الحال كما يبينه الشاهد ورشح الاستعارة بوصفها بالعدالة إذ هي من وصف الشاهد الحقيقي.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

8 **وَأَثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى ... مِثْلَ البَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالعَنَمِ**

اللغة: "الوجد" الحزن. "وخطي" تثنية خط. "والعبرة": الدمعة. "والضنا": الضعف والهزال. "والبهار" بفتح الباء ورد أصفر طيب الرائحة "والعنم": دود أحمر يوجد في الماء.

الشرح: يقول رحمه الله متمما لما قبله، وكيف تنكر حبا بعدما أثبت الوجد على خديك خطين من الدموع من كثرة سيلانهما حتى صارا أحمرين مثل العنم، وبعدما أثر فيك هزالا ونحولا حتى صار لونك مثل البهار في الصفرة. وفيه لف ونشر فإنه شبه خطي العبرة بالعنم في الحمرة وشبه الضنا بالبهار في الصفرة.

الإعراب: "وأثبت" فعل ماض. "والوجد" فاعل. "وخطي" مفعول به. "وعبرة" بفتح العين مضاف إليه ما قبله. "وضنا" بفتح الضاد والنون مقصورا معطوف على خطي. "ومثل" نعت لضنا. "والبهار" مضاف إليه. "وعلى خديك" جار ومجرور في موضع الحال من خطي، أي كائنين على خديك. "والعنم" بفتح العين والنون معطوف على البهار. وفيه من البيان التشبيه واللف والنشر المعكوس. والله تعالى أعلم وهذا البيت سقط عند كثير من الشراح.

* **ثم قال رحمه الله:**

9 **نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي ... وَالحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالأَلَمِ**

اللغة: "نعم" حرف عدة وتصديق، وقد ينفرد التصديق على العدة، كقولك لمن سألك: هل فعلت؟ فتقول: نعم. وقد تنفرد العدة كقولك لمن قال: اعطني كذا فتقول: نعم. وقد يجتمعان كما إذا قيل لك: إنك أعطيت فلانا دينارا فأعطني، فتقول: نعم. والفرق بينها وبين بلى، إن نعم لتقرير ما قبلها مثبتا أو منفيا، وبلى لا تكون إلا جواب النفي لكنه يصير مثبتا بها. ونظم ذلك بعضهم فقال:

نعـــم لتقريـــــر الـــــذى قـــبلها إثـــباتا أو نفـــيا كـــذا قـــرروا
بلـــى جـــواب النفـــي لكـــنه يـــصير إثـــباتا كـــذا حـــرروا

ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: 172] لو قالوا نعم لكفروا، أي لأنه يكون تقريرا للنفي، أي لست ربنا، وهو كفر. "والسرى": المشي ليلا، يقال سرى سُرى وأسرى بمعنى واحد، وقيل الهمزة للتعدية. والسري لا يكون إلا ليلا والتأويب نهارا، يقال: وب القوم تأويبا إذا نزلوا نهارا قال الشاعر:

مـا سـريت إلا وطـيف مـنك يـصحبني سـرى أمامـي وتأويـبا علـى ثـرى

ويقال: سري كرضي سروا وسراوة، إذا جمع السخاء والمروءة. والوصف منه سرى ويجمع على سروات وسرات. والإدلاج: السير في آخر الليل. ومع الصبح تغليس. فإذا نزلوا آخر الليل فهو تعريس. "والطيف": الخيال في النوم، قد يكون من الشيطان ويسمى اللمم ويكون من غيره وهو الطيف وأكثر ما يرد على العامر فكره بالحب وأما الشيطاني فإنما يرد على الرائي ليحزنه ويمس من قلبه إذا استيقظ. وفي الحديث: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا رءا أحد منكم في منامه ما يكره فليتحول عن يساره وليتفل ثلاث مرات ثم يقول اللهم إني أعوذ بك من شر ما رأيت أن يضرني في ديني ودنياي فإنها لا تضره». انتهى. "وأرقني" أسهرني. "ويعترض اللذات" يتخللها ويعرض في أثناءها فيكدرها ويبغضها. "والألم" كل ما يؤلم ويغير حال الإنسان من العوارض المستكرهة. واللذات جمع لذة، ما يستحليه الإنسان ويستعذبه من لذة حسية أو معنوية، فمن المعنوية ما يجده من حلاوة القرآن والرقيق من الشعر بالأصوات الحسنة والنغمات الطيبة والحديث على الأحبة والنظر في وجه المحبوب وسماع حديثه، والحسية ظاهرة.

الشرح: لما قامت الحجة على المخاطب المنكر، واتضح الدليل وظهر كذبه في إنكار ما أنكر لقيام الشهادة عليه لم يسعه إنكار ولا جحود، بل أقر وأذعن ووافق ورجع إلى الحق، فصرح بإقرار ما كان أنكر وإظهار ما كان أخفى ورءا أن الحق أحق أن يتبع، فقال: نعم، مصدقا لقول الخصم. ثم بين سبب البكاء والباعث عليه وعلى ما ترتب عليه من الضنا والسهر، وذكر الأسباب التي فضحته وأعلنت بحاله فقال: سرى بي طيف خيال المحبوب، فكنت متلذذا بوصله، مجموع الشمل بقربه، ثم أسرع

الذهاب فاستيقظت فلم أر شيئا، فأسفت عليه وأعملت الفكرة فيه فكان سبب بكائي وانتفاء النوم عني وتنغيص العيش علي حتى أكسبني ذبول الجسم وصفرة اللون وبكاء الدمع دما. ثم تمم هذا المعنى بكلمة تمثيلية فقال: والحب يعترض اللذات بالألم. وكون اللذات يعترض لها ما ينغصها ويتخيل في أثنائها ما يغير لا ينكر، فهو صرف الزمان. وعادة الأيام فلا تصفوا لأحد لذة إلا ويعقبه ألم، ولا راحة إلا ويعقبها تعب. والذي يعرض للمحب فينغص عليه عيشه ويكدر عليه صفو لذته هو البعد والشوق والهجر وسعي الوشاة وملاحظة الرقباء إلى غير ذلك من العوارض المنغصة، والأحوال المستكرهة، كالالتذاذ بالطيف. ثم يتيقظ الرائي فلا يجد شيئا، فما من لذة إلا ويعقبها في الغالب منغص، فلذات الدنيا كلها منغصة، وسرورها إلى انقضاء، ونعيمها إلى ذهاب، ولهذا أجمعت الأمم على مدح الزهد فيها وعدم الركون إليها لأنها سريعة الزوال وشيكة الذهاب والانتقال، لا يدوم لأحد فيها نعيم، ولا يخلد فيها مقيم، تضع الرفيع وترفع الوضيع، وتعاند العاقل وتساعد الجاهل، لا تنفك عن انتقال، ولا تدوم على حال، إذا أقبلت كانت شغلا وإذا أدبرت كانت حسرة، ولله در القائل:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره … فسوف لعمري عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة … وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال آخر:

هب الدنيا تساق إليك عفوا … أليس مصير ذلك إلى زوال
وما دنياك إلا مثل ظل … أظلك ثم ذان بارتحال

وروي في بعض الآثار بينما رجل يشيع جنازة إذ رفع إليه شيخ فسمعه وهو يقول: ما رأيت مثل مصرع هؤلاء. وأشار إلا الأموات. ولا مثل غفلة هؤلاء. وأشار إلى الأحياء. ثم قال: اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك. فدنوت منه فقلت: أيها الشيخ علمني هذا الدعاء فعلمنيه فقلت: من أنت. فقال: أنا الخضر. انتهى.

الإعراب: "نعم" حرف جواب، وحروف الجواب خمسة: نعم وبلى وإي وأجل وإن في بعض المواضع. أما نعم وبلى فقد تقدم حكمهما، وأما إي فتلزم القسم قال تعالى: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: 53]، وأما أجل وإن فبتصديق للخبر، ومنه قول ابن الزبير للذي قال له: لعن الله الناقة التي حملتني إليك، قال له: إن وراكبها، إي

نعم وراكبها. "وطيف" فاعل بسرى. وقد تقدم أنه السير بالليل وفائدة التصريح به في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: 1] هو تقليل مدة الإسراء المفهوم من التنكير وأنه قطع المسافة البعيدة في ليل واحد، بل في بعضه، من مكة إلى الشام أربعين يوما. وفائدة استفتاح السورة بالتنزيه رفع لما يتوهم من الجهات والأمكنة، أي تنزه عن إشارة الجهات والأماكن، ومن في موضع خفض بطيف. والجملة بعدها صلة لها، والرابط محذوف لتوفر شروط حذفه، أي الذي أهواه. وقوله "فأرقني" معطوف على سرى وفي الفاء معنى السببية، إذ عن سرى الطيف تسبب الأرق، فجمعت الفاء الترتيب والتعقيب والتسبب. والأولان لازمان لها دون الثالث. والياء مفعول "والحب" مبتدأ والجملة خبره. "واللذات" مفعول يعترض و"بالألم" متعلق به. والجملة مستأنفة ساقها مساق الحكمة فخرجت مخرج التمثيل. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الطباق بين اللذات والألم وفيه ضرب المثل في قوله والحب إلى آخره ومن صوره قول الشاعر:

سيطلبني قومي إذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقر البدر
ولو سد غيره ما سددت اكتفوا به ... وما كان يعلوا التبر لو نفق الصفر

وفيه الالتفات في قوله نعم فقد تقدم أن قوله مزجت خطاب لنفسه وأنه نزل نفسه منزلة غيره ثم التفت هنا فقال نعم سرى طيف من أهوى فأرقني. وانتقل إلى التكلم في قوله من أهوى فأرقني. وفائدة الالتفات تنويع الكلام واختلافه إذ التنويع في الكلام للأرواح كتنويع الطعام للأشباح في كل منهما غذاء لصاحبه. هذا فائدته العامة، وقد تكون فائدة زائدة مذكورة في محلها ويتصور في الالتفات ست صور: لأن الانتقال يكون من التكلم إلى الخطاب والغيبة، ومن الخطاب إلى التكلم والغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم والخطاب، فالأول كقوله تعالى: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس: 22] ومقتضى الحال وإليه أرجع. ومثال الثانية: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1] ومقتضى الظاهر إني أنا ومثال الثالثة قوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حين مشيب
تكلفني ليلى وقد شط وليها ... وعادت عواد بيننا وخطوب

ومقتضى الحال تكلفا الخ. وهو الذي عند الناظم، وهو الالتفات من التكلم

إلى الغيبة. ومثال الرابعة وهو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ [يونس: 22] ولو تمادى على الخطاب لقال بكم. ومثال الخامسة وهو الالتفات من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ [الإسراء: 1] ثم قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ [الإسراء: 1] ولو تمادى على الغيبة لقال بارك. ومثال السادس الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفاتحة: 5] بعد قوله ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة: 2] ولو تمادى على الغيبة لقال إياه نعبد والله تعالى أعلم.

الفصل الثاني
في التحذير من هوى النفس

* ثم بدأ الفصل الثاني بتأنيب نفسه فقال رضي الله عنه:

10 يَـا لاَئِمِي فِي الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ... مِنِّـي إلَـيْكَ وَلَـوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

اللغة: اللوم مصدر لام لوما بالفتح وبالضم ما يلام عليه، والفاعل لائم، ويجمع على لُوّم كركّع وسجّد ويجمع أيضا على ألائم كقول الشاعر:

إذا غاب عنكم أسود العين ... كنتم كراما وأنتم ما أقام ألائم

وأسود العين: اسم جبل، قاله الأليوري وفيه نظر. فإن الذي في البيت جمع لئيم ضد الكريم لا لائم كما هو ظاهر، ويقال ألم الرجل إذا أتى بما يلام. "والهوى" مصدر ومر الكلام عليه. "والعذري" منسوب إلى عذرة قبيلة من العرب كان لها في الحب شأن عظيم وشهرة طبقت الأرض، وتهالك خارج عن المعتاد في أوان الصبا وزمان الشبيبة أفضى الكثير منهم إلى الموت اختصت به عن غيرها، كما اختصت بنوا لِهب بالزجر، وبنوا ثعل بالرماية، وبنوا أسد بالعين، وبنوا مُدلج بالقيافة حتى كان في الجاهلية إذا تنازع إثنان في الولد دعي المدلج ونظر إلى الأقدام فقال هذه الأقدام من هذه فيلحقه بأبيه. وأما بنوا لهب فكان لهم في الزجر شيء عجيب، روي أن عمر رضي الله عنه حج في آخر عمره فوقعت عليه حصاة فقال اللهبي: أُشْعِر أمير المؤمنين يعني كما يشعر الهدي علامة على نحره فكان ذلك آخر حجه رضي الله عنه. وأما بنوا أسد فشهرتهم في العين ظاهرة، كان أحدهم إذا أراد أن يتكلم على شيء حما نفسه عن الطعام ثلاثة أيام ثم يتكلم على ما يشاء فيؤثر فيه من ساعته. وكذا بنوا شعل كانت شهرتهم في الرماية معلومة، وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرضهم على الرمي ويقول لهم: «ارموا بنوا شعل فإن أباكم كان راميا». وسيأتي الكلام على بني عذرة فيما اختصوا به. "والإنصاف" قول الحق لك أوعليك والإقرار به لأهله وإن أضر بك، والحامل على عدم الإنصاف أمور منها الحسد والرئاسة. وعدم الإنصاف يوجب القطيعة ويورث العداوة والبغضاء أعاذنا الله منه.

الشرح: لما قرر المخاطب لائما يلومه أقبل عليه يستعطفه ويعتذر له، ويحتمل أن يكون خاطب كل من يصح خطابه ممن يتوقع منه لوم أو عتاب شفقة عليه، وقصد النصيحة ووعظه فأقبل عليه، يمهد العذر ويقول له الحال أغلب والقلب أملك ويتبرأ له من الحول والقوة ليعذر فلا يلام ولا يعاتب، فقال: يا من يلومني في الهوى العذري الخارق للعادة الموجب للهلاك والموت، أقبل معذرتي فإنك لو أنصفت لعذرتني، ولو عرفت ما حل بي ما عذلتني ولا لمتني، وكأنه رءا أنه أصيب بما ليس في كسبه ولا يمكن دفعه عن نفسه. وإنما يلام الإنسان ويعاتب عليه ما كان في كسبه. وأما ما ليس في كسب الإنسان ولا داخل تحت قدرته، فلومه عليه ظلم وعدم إنصاف، لأنه من تكليف ما لا يطاق. "**واللائم**" هو الذي ينهي المحب ويعذله إما على علاقة قلبه وشغل فكره عما يهمه من أمر دينه ودنياه من غير تعرض للمحبوب بمدح ولا ذم، وإنما الحامل له قصد النصيحة وإظهار الشفقة والغيرة على جانب المحب فهذا ناصح مشفق، وغيره إما حاسد أو واش. والله تعالى أعلم. واللوم والعذل بمعنى واحد، والواشي أشد من اللائم والعاذل فإن الواشي يسعى بين المحبين بالنميمة وما يوجب البغضاء والمنافرة، مشتق من الوشي وهو التزيين لأنه يزين كلامه ويبرز الحق في صورة الباطل، فيحسن القبيح ويقبح الحسن. وأما الرقيب فهو المسلط على المحبين المفرق بينهما بالفعل الحريض على ألا يكون بينهما وصل فهو مشغب أوقاتهم ومنغص لذاتهم، لا يفتر عنهم لحظة، ولا يكاد يفارقهم ساعة. فالواشي أشد من العاذل وأهون من الرقيب. والرقيب أشد منهما. ووصف الناظم الهوى بكونه عذريا على عادة الشعراء، فإنهم إذا وصفوا أحدا بغاية الحب والهوى، قالوا: حبه عذري. وكان بنوا عذرة من الصيانة والعفة والوفاء وحفظ العهد ورقة النفوس إلى النهاية وفوق الغاية، يندبون الديار، وينشرون الأشعار، ويعفون عما تحت الإزار، طالما يستهوي الحب نفوسهم في زمن الصغار، وملك أزمة قلوبهم في أول الشبيبة فربوا على عفاف وصون ورقة نفوس، ولهم في هذا المعنى حكايات وغرائب، قال الأصمعي: دخل جميل بن عبد الرحمن على عبد الملك بن مروان فقال: يا جميل حدثني بعض أحاديث بني عذرة فإنه بلغني عنهم أنهم أصحاب غزال ورقة نفوس. قال: يا أمير المؤمنين اعلم أن العرب أرق الخلق نفسا وأجملهم وفاء وأحفظهم للعهد، ولكل قبيلة شيم وخصال غلبت عليهم واشتهروا بها، ولبني عذرة شهرة بالصبابة والعشق فنرى الرجل منهم ملتفا

في كساء ظاهره الجفاء فما هو إلا أن يعشق فتراه أرق من الماء وألطف من الهوى. وكان ليزيد بن معاوية نديم عذري فقال له يوما: بلغني أن فيكم رقة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن آل بيتي بِثَنِيمةَ ارتحلوا إلى موضع نازح فاتبعتهم فخرجت على راع في أصل جبل قد ألجأ غنما إلى كهف في الجبل، فسلمت عليه فرد السلام وقال: حسبك فإنك قد غلطت الطريق، فقلت: أجل فأرشدني، فقال: أقم عندي حتى تريح ظهرك، فنزلت عنده فرحب بي وأكرمني فعمد إلى شاة فذبحها وأضرم نارا وجعل يشوي ويضع بين يدي. ثم قام ومهد لي جانبا فسمعته في أثناء الليل يبكي ويشكوا لشخص كان معه، فأرقت له ليلتي أرمقه وهو على تلك الحال. فلما أصبح سألته الإذن في الانصراف. وقلت: أرتحل فأبى علي، وقال: أما علمت أن الضيافة ثلاثة أيام؟ فأقمت عنده ووافقت غرضه وسألته عن اسمه ونسبه فإذا هو من أشراف بني عذرة. قلت له: فما الذي أجلسك في هذا الموضع وصيرك راعي غنم؟ فأخبرني أنه كان يهوى بنت عم له وتهواه وإنه خطبها لأبيها فأبى عليه لفقره وقلة ذات يده، وإنه زوجها رجلا من بني كلاب، وإنه خرج بها عن حيها وأسكنها موضعه، فلم أملك الصبر عنها فرجعت له راعيا لتأتيني ابنت عمي فأراها وتراني، وجعل يشكوا لي صبابته بها ووجده عليها، وأخبرني أن بنت عمه تأتيه كل ليلة فيراها وتراه. فلما جن الليل وحان وقت مجيئها على عادتها جعل يستشرف ويقوم ويقعد كالمرتقب المنتظر، فلما رآها أبطأت عليه وخرجت عن وقتها المعتاد وثب قائما وأنشد وهو منفعل:

ما بال منية لا تأتي لعادتها أعاقها عائق أم صدها شغل
نفسي فداؤك قد هيجت لي شجنا تكاد من حره الأعضاء تشتعل

ثم قال: يا أخا بني عذرة مكانك حتى أعود إليك، فما أتوهم أن أمر بنت عمي صالح عاديا. ثم ذهب وأنا أرقبه حتى غاب عن بصري فلبث ساعة ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله وقد علا بكاؤه ونحيبه، فقلت: ما شأنك وما دهاك، فقال: يا أخا بني عذرة هذه بنت عمي أرادت أن تأتيني فاعترضها الأسد فقتلها. ثم وضعها وقال لي: على رسلك حتى أعود إليك. ومضى عني فأبطأ حتى يئست منه، ثم أقبل ورأس الأسد في يده ثم قال: يا أخا بني عذرة إنك ستراني ميتا فاعمد إلي وإلى بنت عمي وأدرجنا في كفن واحد واحفر لنا قبرا واحدا واكتب على القبر هاذين البيتين وأنشد:

كنا على ظهرها والعيش في مهل والشمل يجمعنا والدهر والوطن

ففـرق الدهـر بالتـشتيت ألفتـنـا   فـصار يجمعـنا فـي بطـنها الكفـن

وقال لي ادفع هذه الغنم لصاحبها. ثم عمد إلى خناق ووضعه في عنقه فأقسمت عليه ألا يفعل وأبى علي وخنق نفسه حتى مات. ففعلت كل ما أمرت به وكتبت البيتين على قبرهما ورددت الغنم على صاحبها وأخبرته بخبرهما، فحزن لذلك حزنا شديدا وأشفق لذلك حين رءا حالهما. قال العتبي: لم يبلغ أحد من المحبين ما بلغ قيس المجنون في حب ليلى حيث كان لا يفهم ولا يعقل ولا يلبس مخيطا إلا قطعه، ويفر من الناس فلا يأنس بأحد ولا يجالس أحدا إلا أن يذكر له ليلى فيتحدث بحبها ويأنس بذكرها وينبسط لحديثها وينشد شعره فيها كأفصح ما يكون من الناس، فإذا ذكر غير حديثها وخرج المحدث لغيرها خلط في كلامه وحديثه وذهب. قال بعض السلف: قد رأيت مجنون ليلى في المنام فقلت: ما فعل الله بك، فقال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين. وقد روي أنه إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من قبل الله: أين مجنون ليلى؟ فيؤتى به أشعث أغبر كأنه الغول أو الشيء البالي على الحالة التي كان عليها في الدنيا فيحاسبه الله ثم يغفر له ثم يقول: أين الذين ادعوا محبتي هل فيكم من بلغ في طاعتي مثل ما بلغ قيس في طاعة ليلى ومحبتها وهو القائل:

ولـو أن مـا بـي بالحـصا فلـق الحـصا   وبالـريح لـم يـسمع لهـن هـبوب

ولـو أننـي أسـتغفر الله كلمـا   ذكـرتك لـم تكـتب علـي ذنـوب

ولـو أن أنفاسـي أصـابت بحـرها   حديـدا إذا ظـل الحديـد يـذوب

وحكي أن رجلا من بني تميم قال: خرجت في بعض أسفاري فمررت على ماء من مياه طَيِّئ وإذا خيمة بإزاء حي وفيها عرس، فنزلت منزلا فأطعم الناس وركبت العروس تزف إلى زوجها فذهبت حتى إذا دخلت بيتها، فلما استقرت في خبائها إذا بشاب قد طلع على ربوة أمام البيت وأنشد:

لـئن غـاب عنـي شخـصكم فوحـبكم   لقلبـي مقـيم مـا حيـيت علـى العهـد

ومـا حـال عـن مـا كنـتم تعلمـونه   مـن الـشوق والـتذكار والحـب والـود

قال فلما سمعته، بادرت نحوه وبادر نحوها فحبسها النساء فانتفضت من أيديهن فتعلقت بالشاب فتعانقا معا وبكيا حتى خرا ميتين، والنساء ينظرن إليهما، فخرج شيخ من بعض تلك الأخبية فوقف عليهما واسترجع وبكى، ثم قال: لم أجمع بينكما في حياتكما، والله لأجمع بينكما بعد الموت ثم أمر بهما وغسلا وكفنا في كفن واحد.

فسألت عنهما فقال: هذا إبن أخي وهذه بنتي بلغ الحب بهما ما ترى. وحكي أن فتى من أهل البصرة عشق جارية وكانت بنت عم له فخطبها إلى أبيها فرغب الأب عنه لفقره ولم يسمح له بها، فازداد كلفه وكاد يذهب عقله، فبلغ ذلك الجارية فأرسلت إليه وقالت له: قد بلغني حبك وما وصل إليه أمرك، والذي عندي من حبك أضعاف ما عندك من حبي، فإن شئت خرجت لك من غير علم من أهلي، وإن شئت سهلت عليك الدخول علي واختلت إليك فيه. فأرسل إليها كل ذلك لا حاجة لي فيه إني أرهب نارا تلظى وعذابا لا ينقطع أبدا، فلما جاءها الرسول وأخبرها بمقالته بكت وقالت: والله ما أحد أولى بهذا الأمر مني، وإن الخلائق في الوعد والوعيد مشتركون. ثم شرعت في النسك واشتغلت بالعبادة فشق ذلك على أهلها، ولم تزل مجتهدة في العبادة حتى ماتت، فكان الفتى يأتي قبرها كل يوم ويدعوا ويستغفر ثم ينصرف. فجاءته في النوم في بعض الليالي فقال لها فلانة قالت: نعم فقال لها: أخبريني إلى ما صرت وعلى مَ؟ قامت فأنشدته:

إلـــى نعـــيم وعـــيش لا زوال لــــه   فـــي جـــنة وخلـــود لـــيس بالفانـــي

فقال لها أتذكريني، فقالت: والله لا أنساك إني لأتمناك على ربي، قال: فمتى الملتقى، قالت له: عن قريب إن شاء الله. فأقام يجتهد في العبادة أياما قلائل ثم أدركه الموت ولحق بها رحمة الله عليهما. وكان لسليمان بن عبد الملك مؤذن يؤذن في قصره ويعلمه بأوقات الصلوات، وكانت له جارية في قصره، فكان المؤذن يطيل النظر إليها فأخبرت سيدها بذلك، وكان سليمان شديد الغيرة فهم بقتله ثم قال للجارية: تزيني وتطيبي وامشي إليه وقولي له أنه لم يخف علي نظرك إلي وبقلبي أضعاف ما بقلبك مني، فإن كانت لك حاجة فاقضها في، فإن أمير المؤمنين الساعة نائم. ففعلت ما أمرها به وعرضت نفسها عليه فقال لها المؤذن: إن كنت صادقة فاذهبي اليوم وعودي غدا. فرجعت وأخبرت سليمان بمقالته فقال: ارجعي إليه وقولي له إني لا أجد وقتا أمكن من هذا الوقت. فرجعت إليه بتلك المقالة، فرفع طرفه إلى السماء وقال: يا جليل أين سترك الجميل. ثم قال لها: اذهبي ولا تعودي فعسى أن يكون الملتقى بين يدي من لا يخيب الظن به. فرجعت إلى سليمان مشفقة باكية وأخبرته الخبر فوجه إليه فلما دخل عليه قيل له: إن أمير المؤمنين قد وهب لك الجارية وأمر لك بخمسين ألف درهم تجهزها به، فقال: يا أمير المؤمنين إني والله قد ذبحت طمعي فيها من أول نظرة نظرتها

وجعلتها ذخيرة عند الله فأنا أستحيي أن أسترجع شيئا اذخرته عنده. فعزم عليه سليمان في قبول الجارية فأبى أن يقبل الجارية والمال. فكان سليمان يعجب من المؤذن ويكرر حديثه تعجبا واستغرابا. وروي أن فتى من بني عذرة تزوج عذرية مثله وكان شديد الحب لها فنظرت إليه يوما وهو يبكي فبكت، فقال لها: ما الذي أبكاك فقالت أخبرني أنت عن موجب بكائك وأخبرك قال: وتصدقيني، قالت: نعم، قال: أما أنا فذكرت حسنك وجمالك وحبي فيك، فقلت: أموت وتتزوجي غيري فلم أملك الصبر على البكاء، فقالت المرأة: وأنا والله حدثت نفسي بما حدثتك نفسك فلم أملك نفسي عن البكاء، فقال لها الرجل: النساء بعدك علي حرام. وقالت له: وأنا الرجال علي بعدك حرام. فلبث ما شاء الله ثم توفي الرجل فجزعت بموته وحزنت عليه حزنا شديدا حتى خاف أهلها على عقلها وأجمع رأيهم على تزويجها فزوجوها مكرهة عليها لعلها تشتغل عنه، فلما كانت الليلة التي تزف فيها إلى زوجها مضت عليها سنة من النوم فرأت زوجها داخل عليها وهو يقول: فلانة خنت عهدي لا هنيت بالعيش من بعدي. فانتبهت مرعوبة وخرجت تهيم فطلبها أهلها فلم يقفوا لها على خبر حتى مضت أيام ثم رجعت وأبت بعد ذلك أن تتزوج وسدت فيه الباب. وقال عكرمة: بينما نحن عند ابن عباس إذ أقبل فتية من بني عذرة يحملون فتى قد بلى جسده وله حلاوة منطق، فجاءوا به حتى وقفوا على ابن عباس فقالوا: استشف لنا يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس: ما شأنه وما الذي أصابه؟ فترنم الفتى بصوت خفي حزين يكاد يبين وأنشد:

بنا من جوى الأشواق والوحش لوعة تكاد لها نفس المحب تذوب
وما عجب موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

قال: فشهق شهقة مات منها رحمه الله، فقال ابن عباس: هل رأيتم مثله وإنه لقتيل الهوى لا دية له ولا قود. ثم قال: نرغب إلى الله في العافية وقال يونس بن عبد الله صحبت الحسن البصري عشرين سنة فما سمعته قط يقول غلا السعر ولا رخص، ولا ركب الأمير ولا نزل، وإنما كان ذكره الموت، فجاءته امرأة ذات يوم في أعلى رتبة الحسن والجمال والقد والاعتدال، فجلست بين يديه وقالت: يا شيخ أيحل للرجل أن يتزوج على زوجته وهي شابة جميلة ولود، فقال لها: نعم، له أن يتزوج أربعا فقالت له: وعلى مثلي، وكشفت عن وجهها، قال لها: نعم، فقالت: سبحان الله بعيشك

لا تفتي للناس بهذه الفتوى. ثم انصرفت، فأتبعها الحسن بصره ثم قال: ما يضر امرءً أكان له مثل هذه شيء من الدنيا. وسئل أبو نوفل الهذلي: هل يسلم أحد من الهوى، فقال: الجلف الجافي الذي لا فضل عنده ولا حلم. وقال بعض الحكماء: الهوى جليس ممتع وإلف مأنوس وملك قاهر يملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والنفوس وآراءها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفي عن العيون مسلكه. والفرق بين الحب والعشق، أن العشق في الغالب مقرون بالشهوة. والحب مجرد عن الشهوة. هذا الكلام كله في محبة مخلوق لمخلوق، فهل يحب الخالق مخلوقه؟ فالجواب: نعم، وله علامات منها: تسهيل الطاعات وتوفيقه للقيام بها، ومنها ابتلاؤه فيصبر، وفي الحديث: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه». ومنها إذا أحب عبدا جعل له واعظا من نفسه، ومنها إذا أحب عبدا بصره عيوب نفسه، ومنها إذا أحب عبدا نادى جبريل أن الله يحب فلانا فأحبه، ثم ينادي جبريل في الملائكة أن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، كما في الصحيح. وأما علامة حب العبد لله، فالناس يتساهلون في إطلاقها، وما أسهل الدعوى وما أعجز المعنى. ولصحة دعواها علامات منها التحفظ من معاصيه وحب طاعته، وكيف يحب من يعصيه، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... فهذا محال في القياس بديع
لو كنت صادقا في حبه لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ومنها حب لقائه، فالحبيب لا يكره لقاء حبيبه، لكن قد يكره المحب الموت لقلة استعداده ويتمنى أن يزاد في عمره ليزداد خيرا ويستدرك الفائت. ومنها أن يؤثر رضاه على هوى نفسه. ومنها أن يكون مستهترا بذكره، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلوا عنه قلبه. ومنها أن يكون أنسه في الخلوة ومناجات الله وتلاوة كتابه مستوحشا من الخلق كما روي عن إبراهيم بن أدهم أنه لقيه إنسان نازلا من خلوته، فقيل له: من أين جئت؟ فقال: من الأنس بالله. وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: إن برخا نعم العبد، إلا أنه يعجبه نسيم الأسحار، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء. وروي أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فنظر يوما إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال العابد: لو تحولت إلى تلك الشجرة كنت أتأنس بصوت هذا الطائر. فأوحي الله إلى نبي ذلك الزمان: قل لفلان العابد: استأنست إلى مخلوق لأحطتك بدرجة لا تنالها بشيء

من عملك. ومنها أن يكون رحيما بعباد الله، مشفقا عليهم شديدا على أهل المعاصي. ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى من إظهار الوجد تعظيما للمحبوب وإجلالا له وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب، فقد تدخل الدعوى وتعجل البلوى وتعظم العقوبة عائذا بالله من السلب بعد العطاء.

الإعراب: "يا لائمي" منادى مضاف بفتحة مقدرة في حرف صحيح كما قدر الإعراب في المحكي، وقول من قال أنه أي المضاف للياء مبني مرجوح وبني على حركة لأنه عارض. "وفي الهوى" متعلق بلائمي "وفي" بمعنى على، لأن اللوم إنما يتعدى بعلى، وإنما عبر بفي لتمكن الهوى فيه، كقوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: 71] أي عليها. "والعذري" صفة للهوى. "ومعذرة" مفعول بفعل محذوف أي أقبل معذرة. و"مني" متعلق بالاستقرار لأنه صفة لمعذرة، أي معذرة صائرة أو واصلة مني إليك. "ولو" حرف شرط يلزم لثبوته ثبوت غيره ولا يلزم من نفيه نفي غيره، فإذا قلت: لو قام زيد لقام عمر، لزم من قيام زيد قيام عمر. وقد يقوم عمر من غير قيام زيد، فعلى هذا إذا قلت: لو لم يخف زيد لم يعص. لا يلزم لو خاف لعصى. وعلى هذا يسهل: «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». قاله الأليوري. "ولم تلم" جواب كسرت الميم بحرف الروي. ويجوز دخول اللام على جواب "لو" ما لم يكن منفيا. انظر محله في المطولات وفيه من البيان رد العجز على الصدر لوقوع "يا لائمي" في الصدر "ولم تلم" في العجز ومن رد العجز على الصدر قول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داع الندا بسريع

وحقيقته في النثر أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين في أول الفقرة والآخر في آخره كقوله تعالى: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: 37] وقوله: ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء: 168] وفي النظم أن يكون أحد اللفظين في صدر البيت أو في حشو الصدر الأول والآخر في آخره كما تقدم في الشعر. وفيه تجنيس الاشتقاق في قوله العذري ومعذرة والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

11 عَدَتْكَ حَالِي لاَ سِرِّي بِمُسْتَتِرِ عَـنِ الوُشَـاةِ وَلاَ دَائِي بِمُنْحَسِمِ

اللغة: "عدتك" أي جاوزتك، يقال عدا يعدوا عدوا، وهو الظلم وتجاوز الحد. وعوادي الدهر عواقبه، والعُدْوة بكسر العين وضمها المكان المرتفع. والعدوى ما يعدي من جرب وغيره. وفي الحديث: «لا عدوى ولا طيرة». "والسر" ما خفي واستتر والمنكتم المستتر. "والوشاة" جمع واش، وقد تقدم معناه وإنه مشتق من الوشي وهو التزين. "والداء" المرض وجمعه أدواء، يقال داء الرجل وأداء إذا أصابه مرض. "والمنحسم" المنقطع، يقال حسم حسما إذا قطع ويقال حسمته فانحسم وهو من أفعال المطاوعة، وأيام الحسوم لأنها حسمت الخير، أي قطعته عنهم. والحسام السيف القاطع.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: جاوزتك حالي استعطاف وملاطفة للائم بين يدي خطابه كما تصف للطبيب مرضك فتقول له: عافاك الله أجد من الألم كذا وكذا. فتلطف الناظم رحمه الله وأوضح العذر وتنزل لعل لائمه يقصر عن اللوم والعتب فيرحم ويعذر إذا عرف الحال بعدما قدم الدعاء له أن يحسمه الله من علته ولا يصيبه بمثل مصيبته، لأن داءه الذي أصيب به وهو داء الحب داء غير منحسم ولا منقطع وأنه غير مرجو الذهاب والزوال مع افتضاح سره وشهرة أمره، ولو افتضح سره لغير الوشاة لكان أيسر وأهون، أما افتضاحه للوشاة فمظنة للقطيعة وسبب الهجران، فإن الوشاة يتوشون على المحب ويسعون في نقض أغراضه، ويحولون بينه وبين محبوبه بترويج الباطل ونقل القبيح والسعي بالنميمة. فدعا لمخاطبه اللائم ألا يصاب بمثل هذه القاصمة ولا يبتلى بمثل هذه المصيبة تهويلا لأمرها وشأنها. وكثيرا ما تقدم العرب والشعراء من المولدين وأرباب اللسان الدعاء بين يدي المخاطب في هذا المقام وأمثاله من المقامات التي تضمنت العتاب تلطفا واستعطافا. وقد يقدم الدعاء على وجه الرحمة والتلطف وتسكين الروعة اعتناء بالمخاطب وعناية به كقوله تعالى مخاطبا لنبيه عليه السلام: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: 43] فقدم العفو قبل ذكر العتاب، ولولا ذلك لانشق قلبه خوفا من العتب وهيبة للمقام. ويقرب من هذا في التلطف وتمهيد العذر في غير الدعاء حسبما يقتضيه المقام من الأدب والحياء قول أم سُليم قبل

سؤالها: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم إذا رأت الماء». فدفعت بقولها أن الله لا يستحيي من الحق ما يقال أنها سألت بمحضر الرجال عن شيء يستحيى من ذكره، لكن قد يقال مسائل العلم المتعينة لا يحتاج فيها إلى هذا وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب: 53] أي لا يأمر بالاستحياء من الحق ولا يرضى لأحد أن يستحيا منه فقدمت أم سليم ذلك عذرا بين يدي سؤالها عما احتاجت إليه مما يستحيي النساء من ذكره. وكما اعتذرت أم سليم عما يستحيي النساء منه، فكذلك يستحيي الرجال عن سؤال النساء مما يستحيي الرجال من ذكره عندهن عادة كما فعل أبو موسى الأشعري مع عائشة رضي الله عنها، قال لها: يا أم المؤمنين لقد شق علي اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر إني لأعظم أن أستقبلك به، فقالت له عائشة: ما كنت سائلا عنه أمك سلني عنه، فقال: الرجل يصيب أهله ثم يكسل فلا ينزل، فقالت: إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل. انتهى. هذا على جعل "عدتك" دعاء وجعله الأزهري خبرا فقال: ومعنى البيتين يا من يلومني ويعذلني في محبته منسوبة إلى بني عذرة، لو كان فيك إنصاف لم يكن منك ملام فقد بلغتك حالي وحقيقة لوعتي وغرامي، فليس سري مكتوما عن الواشين ولا مرضي منقطع عني فأستريح فتكون الجملة حينئذ تفسيرا للحال والله تعالى أعلم.

الإعراب: "عدتك" فعل ومفعول حذفت لام الفعل، للساكنين لفظه خبر ومعناه دعاء، ولو ذكر الفعل لجاز لأن الحال تذكر وتؤنث، والحال والبال بمعنى واحد. "وحالي" فاعل. وقوله "لا سري" الخ جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر لا محل لها. فلما دعا اللائم بقوله: "عدتك حالي" تشرف المخاطب اللائم سماع هذه الحال المستكرهة التي دعا له المحب أن تتعداه ولا يصاب بمثلها، فإذ ذاك وقعت الجملة المستأنفة منه موقعا، لأنه كان متشرفا لها معمول الفكر لسماعها ولا هنا غير عاملة، لأنها لا تعمل في المعارف، ولذلك تكررت هنا، لأن دخولها على المعارف يوجب تكرارها وإبطال عملها، فيرفع ما بعدها على الابتداء، وشذ عملها في المعرفة كقوله:

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا في حبها متباغيا

ولم يسمع غيره "وسري" مبتدأ "وبمستتر" خبر، والباء زائدة فيه كما زيدت في

خبر لا في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة» ويعضد هذا الحديث ما في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يؤتى بأنعم أهل النار فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت نعيما قط؟ فيقول: لا والله ما رأيته، ويؤتى بأبأس أهل الجنة فيغمس في الجنة ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط فيقول: لا والله ما رأيته». وخص النفي بلا، لأن له موقعا في النفس يجد الفرق بينه وبين النفي بما ذو الطبع السليم، كأنه أمر وجداني، وذلك لما يقتضيه النفي بها من لزوم التكرار الموجب لطول الكلام، والإطناب في وصف الحال واستمرار تشويق السامع. والباء بمستتر لا تتعلق بشيء لزيادتها وعن متعلق بمستتر. "ولا دائي" معطوف على سري. "ومنسجم" معطوف على مستتر، هكذا قال الأليوري وفيه نظر، بل هو من عطف الجمل "فدائي" مبتدأ. "ومنسجم" خبره، لأن لا هنا غير عاملة. ولا يجوز في مثل: زيد قائم وعمر قاعد، أن يكون من عطف المفردات على التوزيع، إنما ذلك حيث يدخل على الجملة عامل ككان وليس وشبه ذلك، وفيه من البيان الموازنة وهو اتفاق بعض الكلمات في الوزن، كقوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الغاشية: 13 - 14] وفي قول الناظم بمستتر ومنحسم، وفيه تشويق المخاطب، وهو نوع من البيان، وهو في قوله: "لا سري بمستتر" وكأنه لما دعا للائم بقوله "عدتك حالي" تشرف اللائم لسماع هذه الحال المستكرهة والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

12 مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ

اللغة: محّض الشيء خلص، وأمحض الشيء أخلصه، فالمحض الخالص من كل شيء، والنصح الخلوص. يقال: نصحت العسل إذا خلصته، ونصحت التوبة أخلصتها من أكدار المخالفات وهو التوبة النصوح. والنصيحة شعبة من الإيمان، بل هي الدين كله. "والصمم" سد حاسة السمع وعدم الانتفاع بها، قال الخليل: وإنما سمي رجب الشهر الأصم، لأنه لا يسمع فيه صوت مستغيث ولا حركة قتال ولا قعقعة سلاح لأنه من الحرم. يقال صم الرجل وأصمه الله.

الشرح: لما فهم الناظم من لائمه أنه إنما لامه نصحا وغيرة على جانبه وحرصا على سلوه عن المحبوب إرادة راحته ورغبة في استقامة حالته، قال له إظهارا للنّصف

وإقرارا بالحق وإعلاما بأنه بذل له النصيحة وأعمل جهده: أخلصت أيها اللائم في النصح، وبالغت في وصيتي، ونهيت عن الحب رغبة في طلب راحتي، وندبتني لما فيه رشدي وصلاح حالي، لكنني أصم عن سماع نصحك وقبول وعظك، راضيا بما أنا فيه وعليه من الحال، فإن قلت كيف وصف نفسه بعدم السماع وقد سمع مقالته، فالجواب أن نفي السماع وقد كان سمع، لأنه لم يتأثر به، كأنه لم يسمع لمساواته لمن لم يسمع في عدم فائدته. ونظيره قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة: 18] وليسوا متصفين بشيء منها، لكن لما لم ينتفعوا بما سمعوا ولا أقروا بكلمة التوحيد وشهادة الرسالة لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولا انتفعوا بما شهدوا من المعجزات الواضحات وهم يرون ويسمعون وينطقون، عدوا صما وبكما وعميا. وكانت هذه الحواس عندهم كأنها مفقودة لمساواتهم لمن فقد الحس جملة، والجامع عدم وجود الثمرة، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 102] أي: علما منتفعا به. ومثله قول الناظم فيما يأتي عموا وصموا، فإعلان البشائر لم تسمع الخ، وقد سمعوا إعلان البشائر وعاينوا بارقة الأنوار، لكن لم ينفعهم ذلك. فإن قلت: لم لَم يسمع النصح ولم يقبل الموعظة وقد أقر أن في سماعه وقبوله صلاح حاله وإراحة نفسه، قلت: لأن صرف نفسه عن هذا الأمر ليس من قدرته ولا طاقته، فقد تقدم أن الهوى ليس إلى الرأي فيملك، ولا إلى العقل فيدبر، بل قدرته أغلب، وجانبه أعظم من أن تنفع فيه حيلة. نسأل الله سبحانه أن يجعل حظنا منه في جانبه العلي، وفي محبة نبيه الزكي. وقد أفضى ببعض المتهالكين في محبة المخلوق إلى السلوة عنه، والترقي إلى حب الجناب الرباني، وشغل القلب بالمقام الرفيع، فكان لهم تعلق القلب سلما وسببا سهل عليهم الطريق، وأرشدهم للتوفيق. وأكثر ما يكون ذلك عند الكبر وظهور نذير الشيب، حياء وخوفا، وقد كان أكسبهم حب المخلوق رقة وحرصا على وصال المحبوب، ورغبة في القرب منه، فإذ ذاك يترقى إلى الجانب الرباني، ويبدل حب المخلوق بحب الخالق. وقد أشار بعضهم إلى هذا الفرض حيث قال:

جزى الله عني زاجر الشيب خير ما ... جزى ناصحا فارت يداى بخيره
ألفت طريق الحب حتى إذا انتهى ... تبدلت حب الله من حب غيره

الإعراب: "محضتني" فعل وفاعل ومفعول ونون وقاية. "والنصح" مفعول ثان.

"ولكن" حرف استدراك وهي هنا حرف عطف لتخفيف نونها، فإن دخلت عليها الواو تجردت للاستدراك. "ولست" فعل غير متصرف وعملها عمل كان والتاء اسمها. وجملة أسمعه خبره، والتقدير: لست سامعه. "والمحب" اسم إن. "وفي صمم" خبرها، والجملة سيقت مساق العلة لعدم سماع النصح وقبوله. وجعل الناظم المحب مستقر في الصمم والصمم وعاء له، مبالغة في كون الصمم استولى عليه فلا يسمع كلام عاذل، وعن العذال يتعلق بصمم على معنى أصم عن العذال، فصح عمل المصدر فيما قبله، لأنه لوحظ في صمم معنى أصم، كقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ [يونس: 2] فعلق للناس بعجبا لأنه في معنى معجبا، قاله الأليوري. وفيه تأمل، فإن تقديم معمول المصدر إن كان ظرفا أو مجرورا ففيه خلاف، والأرجح الجواز، وهذا الخلاف إذا كان المصدر يحل لأن والفعل، وإلا جاز اتفاقا، كقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ [يونس: 2] وكذلك ما للناظم، والله تعالى أعلم، وفيه من البيان التشبيه في قوله: "لست أسمعه" شبه حاله في عدم الانتفاع بالنصح بمن لم يسمع، فهو كقوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ....﴾ [البقرة: 18] الخ، وكقول الشاعر:

هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... تناهى لقبض لم تجبه أنامله

فلو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وفيه ضرب المثل في قوله: إن المحب الخ،إذ هو مثل دخل فيه، هو وغيره من المحبين، وقد تقدم مثاله في الشعر، والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

13 إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ ... وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي النُّصْحِ عَنِ التُّهَمِ

اللغة: "اتهمت" فلانا لم أصدقه ولم أثق بقوله. "والشيب" معروف. "ونصيح" فعيل من أمثلة المبالغة. وتقدم تفسير العذل باللوم. واتهمت أصله، أو تهمت، ففعل به ما فعل. والنذير هو الذي يتقدم مخوفا ومحذرا من المحذور قبل حلوله. "والتهم" جمع تهمة، كتخمة وتخم وعلقة وعلق، ويقال تخمة بفتح الخاء وسكونها وكذلك تهمة.

الشرح: لما ذكر في البيت الذي قبل هذا أنه لم يقبل نصح الناصح، ولا التفت

لوعظ الواعظ وموافقة اللائم، أكد هنا بيان السبب، فقال ما معناه: إني قد وعظني قبلك من لا يتهم في وعظه ونصحني من يجب سماع وصيته وقبول نصحه وهو الشيب المؤذن بالرحيل وذهاب العمر إلا القليل، رائد الموت وبريد السفر، والنذير بالانتقال من هذه الدار، والقدوم على الواحد القهار، لكنني نزلته منزلة المتهم، فما سمعت وعظه ولا قبلت نصحه، وهو مبرأ عن الأغراض بعيد عن التهم. وفيه تعريض باللائم وأنه من جنس المتهم، وإن كان مبرءا عنده لقوله: "محضتني النصح" لكنه من جنس من يتهم، وواعظ الشيب ليس كذلك، فإن وعظه ونصحه إنما هو بلسان الحال فلا يتصور فيه كذب، ولا قول يخالف القصد ولا ظاهر يخالف الباطن، فإن قلت: كيف نسب التهمة للشيب، وهو مما لا يصح نسبته التهمة إليه، قلت: لما كان حين وفدت عليه نذر الشيب مقيما على الهوى، ثم أقام بعد على حاله لم يقلع ولا أناب ولا رجع عن غيه ولا ظهر لمجيء الشيب عنده ثمرة جعله بمثابة من وعظ فلم يسمع ولم يقبل واتهم ناصحه. والجامع عدم القَبول وعدم الانتقال من الحال السيئة إلى الحال الحسنة، فنزل الشيب منزلة المتهم من حيث لم يقبل نصحه ولا وعظه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: "إن" حرف تأكيد "والياء" اسمها. "واتهمت" خبرها، أي إني متهم. نذير "الشيب" مفعول ومضاف. "وفي عذل" متعلق باتهمت، ويصح تعلقا بنصيح الشيب، والشيب مبتدأ "وأبعد" خبره والمفضل عليه محذوف، أي: والشيب أبعد في نصح عن التهم من غيره من النصحاء. والجملة حال من نصيح الشيب. وفي نصح يتعلق بأبعد وكذلك عن التهم. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الاستعارة في قوله: "نصيح الشيب" إذ جعل الشيب نصيحا وذلك مجاز، وكان أصله إني اتهمت نصيحا، وهو يريد الشيب، ثم صار عاما بسبب هذا الإطلاق فيطلق على الشيب وغيره، على الناس حقيقة وعلى الشيب مجازا، فصار إذا قال: اتهمت نصيحا لم يدر مراده، فأضافه إلى الشيب ليبين مراده، وصار كقولك: رأيت شمس وجهك، أطلقت الشمس على الوجه، فقلت: رأيت شمسا فلما التبس بالحقيقة أضافه إلى الوجه ليتبين المراد، فهي استعارة تحقيقية وقرينتها هنا الإضافة. والله تعالى أعلم. وفيه الجناس ورد العجز على الصدر في اتهمت واتهم.

* ثم قال رضي الله عنه:

14 فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

15 وَلاَ أَعَدَّتْ مِنْ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ

اللغة: "أمارة" فعالة من الأمر، تدل على المبالغة في الأمر بالسوء والحرص عليه. "والسوء" كل ما يسوء الإنسان في الآجل والعاجل. وإنما سميت السيئة سيئة لأنه تسوء صاحبها. "واتعظت" افتعل من الوعظ، فقلبت الواو تاء كاتسق واتزن، أي: لم تقبل الوعظ. والجهل ضد العلم، فالعلم الجزم المطابق، والجهل غير الجزم المطابق، والنذير تقدم وإنه الذي يتقدم بالتخويف. "والهرم" الكبر وعلو السن حتى تضعف الجوارح عن التصرف. وأشاب الرجل إذا شاب ولده. والإعداد تقديم الشيء وتهييئه. "وقرى الضيف" الإحسان إليه والقيام بحقه عند دخوله ووجوده عليك. يقال: قرية الضيف أقريه قرى وقراء، بالفتح ممدودا وبالكسر مقصورا، "والضيف" النازل بالإنسان، يقال: ضفت فلانا إذا نزلت به، وأضفته: أنزلته عندك للضيافة. "وألم برأسي" حل به ونزل. "والمحتشم" الحمي المخجل، يقال: حشمته إذا أخجلته، واحتشم مطاوع هشم، يقال: حشمته فاحتشم. واعلم أن للأطعمة أسماء: فالقرا طعام الضيف، والمأدبة طعام الدعوة، والتحفة طعام الزائر والقادم، وطعام العروس الوليمة، وطعام الولادة الخرِص، وطعام سابع الولادة العقيقة، وطعام الختان الغُديرة، وطعام البناء الوكيدة. والله تعالى أعلم.

الشرح: هذا دليل على ما قبله، وأن نذير الشيب نزل منزلة المتهم، وذلك لأن نذير الشيب وجد على نفسه الأمارة بالسوء فأذنها بالرحيل وأعلمها بلسان حاله أن العمر لم يبق منه إلا قليل، فوعظ وذكر وأنذر وحزر. وهذه النفس البطالة الأمارة بالسوء ما ارعوت بنذير الشيب ولا أقلعت عن معاصيها، بل تمادت على غيها وجرت على ألفها ولم تسلك غير الطريق التي سلكت، ولا قامت من الفعل الجميل والعمل الصالح ما يقوم لها مقام القرى للضيف النازل بها والوافد الذي وفد عليها وهو الشيب، ولو أكرمته وقدمت له ما يستحق من الكرامة لوجدته يوم الفقر والحاجة، فلما لم تفعل ذلك نزلت الشيب منزلة المتهم، حيث لم تنتفع بوعظه ولا عملت بمقتضى وعده، وإلا لأقلعت عن غيها وضلالها. وقوله: "من جهلها فيه" إعلام بأن المعاصي إنما تصدر عن

العاصي من جهالته، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ ﴾[الأنعام: 54] الآية ولو كان عند همه بالمعصية متصفا بالعلم المفيد ما عصى، فإن قلت: ما من أحد إلا وهو يعلم أن المعاصي محرمة موعود عليها بالعذاب، فما معنى وصفه بالجهل، فالجواب: أن الجهل هنا جهل بالمعصية عند تعاطيها والغفلة عن استحضار العقوبة عند فعلها حين غطى على عقله الهوى والشهوة، كما قال الشاعر:

يغمى على المرء في أمام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

فصار علمه في هذه الحالة كأنه منزوع عنه. وفي الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». وقد ورد أنه يكون على رأسه كالظلة. عصمنا الله من السلب بعد العطاء بمنه وبكرمه، وبسيدنا محمد نبيه. واعلم أن النفوس ثلاثة: أمارة ولوامة ومطمئنة، فالأمارة أرداها، والمطمئنة أعلاها، واللوامة بينهما. فالأمارة هي التي تأمر بالسوء وتبعث عليه، وهي أعداء الأعادي إليك. وأما اللوامة فهي التي إذا عثرت استقالت، وإذا طغت رجعت، وإذا عصت استغفرت، فهي أبدا في اضطراب. وأما المطمئنة فهي التي مشت على الجادة واستقرت في مواطن الطاعة ووفقت للعمل الصالح. وبينها وبين الأمارة بلايا ونوب، فلا يخلص إليها إلا بالسابقة الحسنى، وهي المقبل عليها في الخطاب بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر: 27 - 28] فمدحها بالطمأنينة منها بالاستسلام إليه والتوكل عليه. فالمطمئن في اللغة هو المنخفض من الأرض، فلما انخفضت النفس بتواضعها وانكسارها أثنى عليها مولاها بقوله: ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر: 28] وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يؤذن للّوامة والأمارة في الرجوع إلى الله رجوع كرامة، وإنما ذلك للمطمئنة، يقول: ارجعي فقد أبحناك الدخول لحضرتنا، والخلود في جنتنا. وقوله: ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة: 7] يعني في الدنيا بأحكامه وفي الآخرة بجوده وإنعامه. وقوله: ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: 28] أي مرضيا عنك، وهذه مدحة عظيمة لا أحرمنا الله من الانخراط في سلك أهل الطمأنينة واليقين. آمين آمين. واعلم أيضا أن أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه. فاحترز من الدنيا

بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته والتعوذ بالله منه، ومن النفس بترك الشهوات. قال بعض الحكماء: من استولت عليه نفسه صار أسيرا في شهواتها محصورا في سجن هواها فمنعت قلبه الفوائد. وقال بعضهم: من ملك نفسه في الشهوة للحرام لم يخطر بباله المحرم، ومن ساعدها في الشهوات جرأته على الوقوع في الحرام. فإن الشهوة للحرام حمَى، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه. والطب لهذا الداء التوبة وتطهير النفس من الرذائل، ولهذا كان عليه السلام يكثر أن يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». انتهى. هذا وقد تكلم الناس على الشيب نظما ونثرا تفجعا منه وتحسرا على الشباب، فمن ذلك قول الشاعر:

عروت عن الشباب وكنت غصنا ... كما يعرى عن الورق القضيب
وبكيت على الشباب بدمع عيني ... وما نفع البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وقال بعض الفضلاء:

وهل أبصرت قبل الشيب ضيفا ... إذا ما حل ألزمك الرحيلا
ولم أر قبله زهرا إذا ما ... تفتحا أورث الغصن الذبولا

وفي التسلية عن روع الشيب ما أنشده القائل:

لا يروعك الشيب ما بنت عبد الله ... فالشيب حلة ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ... ضحكت في خلالها الأزهار

ومما يسلى عنه أيضا ما ورد في فضله من الأخبار النبوية، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «من شاب مشيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة» ولما رأى إبراهيم عليه السلام الشيب في لحيته قال: يا رب ما هذا؟ قال الله سبحانه: هذا وقار. والشأن أن الشيب يحدث عنه الوقار والندم على ما فات من تضييع العمر في البطالة. ورجوع الفائت لا سبيل له. وحكى محمد بن أسلم الخواص قال: رأيت القاضي يحيى بن أكثم في المنام فقلت: ما فعل الله بك، فقال: أوقفني بين يديه وقال يا شيخ السوء لولا شيبتك لأحرقتك بالنار، فأخذني ما يأخذ العبد بين يدي مولاه وغشي علي، فلما أفقت أعادها ثانية، فقلت: يا رب ما هكذا بلغني عنك، قال: وما بلغك عني؟ فقلت: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس بن مالك عن نبيك عن جبريل عنك يا كريم أنك قلت: ما شاب عبد شيبة في الإسلام إلا استحييت أن أعذبه

بالنار،فقال الله سبحانه: صدق عبد الرزاق وصدق معمر وصدق الزهري وصدق أنس وصدق نبيي وصدق جبريل، أنا قلت ذلك انطلقوا به إلى الجنة. وروي أن شابا في بني إسرائيل عبد الله عشرين سنة واجتهد ثم عصاه عشرين سنة وأقام فيها منهمكا على المعاصي عاكفا على اللذات ثم نظر وجهه في المرآت فرآى الشيب في وجهه فأساءه ذلك وأشفق على نفسه، ثم قال إلهي أطعتك عشرين وعصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني، فهتف به هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك. اللهم اقبل علينا بحنانك وعطفك يا أرحم الراحمين.

الإعراب: فإن "الفاء" مشعرة بالتسبب والعلة. "وأمارتي" اسم إن مضافة للياء. "وبالسوء" متعلق "بأمارة". "وما اتعظت" خبر إن، أي: غير متعظة. والفاعل مستتر. "ومن جهلها" لابتداء الغاية ويصحبها التعليل، أي ابتداء عدم اتعاظها من الجهل، والظاهر فيها هو التعليل تتعلق باتعظت، وكذا بنذير الشيب. "وأمارتي" صفة مقصودة ولذا استغني بها عن الموصوف، أي: فإن نفسي أمارتي بالسوء. "والهرم" معطوف على حذف مضاف، أي: وبنذير الهرم. "ولا أعدت" جملة منفية معطوفة على المنفية قبلها. ومن الفعل متعلق بأعدت، وهي للتبعيض. "وقرى" مفعول بأعدت. "وضيف" مضاف. وجملة "ألم" صفة لضيف. "وغير محتشم" صفة أخرى. وفيه تقديم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد، خلافا لمن منع، وير عليه قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: 155]. وقيل أنه حال من فاعل "ألم" فيكون منصوبا وعليه اقتصر الأزهري وهو الظاهر. وأعاد "لا" في قوله: "ولا أعدت" للتأكيد، وكذلك كل نفي تكرر لغير حاجة إليه، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر: 19 -22]. ويحتمل أن يكون أعادها لبعد العطف ولئلا يتوهم أنها مثبتة، على أن المقام ينافي هذا التوهم، إلا أن الزيادة في الآية مع ذكر الاستواء متعينة، ومع غير الاستواء قد يتوهم. والله تعالى أعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله. وفي البيت الأول من البيان الاستعارة في الشيب والهرم؛ لأنه جعلهما نذيرين، وفي الثاني التضمين، وهو: أن يجعل الشاعر في قصيدته بيتا من أبيات

غيره، أو يشير إلى آية أو حديث أو مثلا من الأمثال. وقد أشار الناظم إلى نصف بيت المتنبي في قصيدته:

ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللمم

وفيه أيضا الاستعارة في جعله الشيب ضيفا، والجامع: النزول والحلول، ورشحها بقوله ألم، وبقوله غير محتشم. والترشيح أن يذكر ما يلائم المستعار منه، كقوله: رأيت بحرا يقذف بالزبد. وأنت تريد عالما. والتجريد أن تذكر ما يلائم المستعار له بنحو، رأيت بحرا يتكلم. والإطلاق ألا يذكر شيئا نحو: رأيت بحرا. وأنت تريد عالما. فالأولى تسمى مرشحة والثانية مجردة والثالثة مطلقة وفيه التجريد، فإنه جرد من الفعل الجميل قرى الضيف كقولك لي من فلان صديق حميم والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

16 لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالكَتَمِ

اللغة: توقير الشيء الحياء منه والقيام بحقه، والوقار الحياء والسكينة، والكتم: الستر والخفاء. والكتم نبت يعجن به الحناء ويختضب به. وبدا ظهر، والسر هنا أراد به الشيب، فإنه كان سرا مستورا في زمان الشبيبة، ولما حان أوان الشيب بدا سره المكتوم.

الشرح: هذا اعتراف منه رضي الله عنه بالتقصير والتفريط والتأسف على ما فاته من الفعل الجميل والقيام بحق ضيف الشيب وإعداد القرى الذي يليق به، من الفعل الجميل والأعمال الصالحات، والرجوع عند حلوله عما كان عليه في زمان الصبا، فإنه يقول: كان ظني أن الشيب يحدث لي وقارا، وأجد عند حلوله توبة، وأن ظهوره قاطع لشهوات النفس الأمارة، فاستبشرت عند حلوله لصلاح الحال، لأن الشيب شعار الصالحين ولبسة التائبين، فلما وضح سبيله ولاح دليله وفشا في الرأس عسكره، ونصب لخطيب الوعظ منبره، ركنت النفس إلى الملذوذات، واستمرت على ما اعتادت من الشهوات، ولم يثنها ذلك عن مألوفاتها، وارتكاب شهواتها، فلو استقبلت من أمري ما استدبرت، وعلمت من نفسي ما أنا اليوم علمت، ورأيت من كون نفسي لم تنتقل بعد الشيب عما كانت عليه، لاستحييت من الله ومن الناس، وبادرت لإخضاب الشيب، وأعملت جهدي في إخفائه وستره دفعا للعار، فكنت أستره بالخضاب، وألحم سره بالكتم، بل كنت أظن شيئا فخاب ظني وضعفت عزيمتي. وما توفيقي إلا بالله. وقد اختلف في خضاب الشيب وفيما يخضب به، فبعضهم رأى تركه أفضل، وبعضهم رأى

فعله أفضل، وفرق بعضهم فكرهه بالسواد واستحسنه بالحناء وغيرها، وقد خضب جماعة من السلف من الصحابة والتابعين، واحتجوا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم به. ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال: أن اليهود والنصارى لا يخضبون فخالفوهم. وأُتيَ بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه كالثغامة، فقال: «غيروا هذا الشيب واجتنبوا السواد». والثغامة شجرة تبيض كأنها الثلجة، والأمر باجتناب السواد على الندب، قاله المازري. وقال عبد الوهاب: يكره الصبغ بالسواد لما فيه من التدليس على النساء بما يوهم الشباب. وكان أكثر السلف يخضبون بالصفرة. وممن أجاز الخضاب بالسواد علي وعثمان والحسن والحسين. وروي عن عمر أنه كان يقول، هو أشكر للزوجة وأهيب للعدو. وقال بعض العلماء، ينبغي أن يكون الأمر في الخضاب وتركه على وجهين: أحدها عادة البلد، فمن كانت عادته الصباغ أو ترك فعله فخروجه عن عادة بلده شهرة. والوجه الثاني اختلاف الناس في حال مشيبهم فرب شيبة نقية أجمل منها إذا كانت مصبوغة، ومنهم من يستبشع نظر شيبه، فالصباغ في مثل هذا أولى. وقيل: للصباغ فائدتان تنظيف الشعر مما يغير بياضه من الغبار ومخالفة أهل الكتاب وإرهاب العدو وقد أكثر الناس في الخضاب وأطنبوا، فمن ذلك قول بعضهم:

يا خاضب الشيب بالحناء يستره ... هذا شباب لعمر الله مرفوع
إن الجديد إذا ما زيد في خلق ... تبين الناس أن الثوب مرفوع

وقال آخر:

قالت أراك خضيب الشيب قلت لها ... سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت وقالت وهي معجبة ... تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وقال آخر:

لعمرك ما خضبت بياض شيبي ... رجاء أن يعود لي الشباب
ولكني خشيت يراد مني ... عقول ذوي المشيب فلا يصاب

ولابن عصفور رحمه الله:

لما تشاغلت بالتفريط في صغرى ... وصرت نغرى بالراح واللعس
رأيت صباغ الشيب أستر لي ... إن البياض قليل الحمل للدنس

إلى غير ذلك مما يطول ذكره وبالله التوفيق.

الإعراب: الكلام في "لو" شهير بين أئمة النحو والأصول، ففي المغني وغيره

ما يغني عن تتبعه هنا. وقد أطال الأليوري فيه هنا فليطالعه من أراده، "وكنت" ناقصة. "وأعلم" خبره، أي: لو كنت عالما أني ما أوقره "وما أوقره" خبر إن، أي: غير موقره. وإن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي "أعلم"، والتقدير: لو كنت أعلم عدم توقيره. وبعضهم ادعى أن "إن" واسمها وخبرها إنما تسد مسد مفعول واحد والآخر محذوفا، أي: لو كنت أعلم عدم توقيره موجودا، والصحيح أنها وما بعدها سدت مسد مفعول واحد ولا يحذف الثاني إلا اختصار الدليل، قاله الأليوري. "وكتمت" جواب لو. ودخول اللام على جوابها أفصح من سقوطها. "وسرا" مفعول كتمت. وجملة "بدا لي" صفة لسر أو الفاعل ضمير السر. "ولي" متعلق بسر أو منه لابتداء الغاية، أي: البدؤ والظهور من الشيب، واستعمال كان ناقصة أكثر من التمام. وقد اختلف الناس في الناقصة هل تدل على الحدث أم لا، فصحح ابن مالك دلالتها على الحدث المؤكد. وأكثر الناس على خلافه، وإنما تدل على الزمان فقط. أما تقدير الجملة المشتملة على كان بالكون فمتفق عليه، نحو قولك: يعجبني إن كنت عالما. والتقدير يعجبني كونك عالما، وإنما النزاع في استعمال المصدر المؤكد من كان. والله تعالى أعلم ولا حول ولا قوة إلا بالله. وفيه من البيان الجناس المحرف في قوله: كتمت مع الكتم، وهو أن تتفق الكلمتان في المادة، كقولهم: الجاهل مفرط أو مفرّط، وقوله تعالى مع سليمان. وفي الحديث: «غفار غفر الله لها». وفيه استعارة السر للشيب والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

17 مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا كَمَا تُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ بِاللُّجُمِ

اللغة: جمح الفرس جماحا وجموحا إذا غلب راكبه، فهو جموح. والجموح أيضا الرجل الذي يركب هواه فلا يرجع عن غيه. والغي الضلال، يقال: غوي يغوي غويا وغواية، فهو غاو. واللجم للخيل معروفة.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: "من لي" أي من يتكفل لي برد هذه النفس عن ضلالتها وغوايتها، وقد جمحت وطغت والتذت بالمعاصي وأنست واعتادت بالملذوذات من المحرمات والمكروهات. فقد تعذر صلاحها وعسر علاجها، فصرفها عن مألوفها عسير، وردها عن جماحها متعذر إلا بقوة من الملك القدير. فلا بد من جهادها وقهرها عن مألوفها كما ترد الخيل بعد جماحها، فإن الخيل إذا جمحت وطغت صعب ردها إلا بعد جهد جهيد. والنفس إذا جمحت بصاحبها أصعب من

جماح الخيل، فإن الخيل يمكن ردها بالحيل والخدع والتأنيس، وجماح النفس لا حيلة في صرفه ولا مطمع في رده، إلا بجود رباني وتوفيق إلهي. ويحتمل أن يكون كلام الناظم واردا على سؤال مقدر لما قال: لو كنت أعلم أني ما أوقره، قدر سائلا يقول له: فما الذي يمنعك من توقير شيبك والنفس نفسك وأنت مالكها، وتوقيرك الشيب داخل تحت قدرتك. فأجاب: بأنه راكب على مطية نفسه الجموحة وقد غلب عن صرف زمامها، فكأنه يقول: فإني وإن جعل بيدي زمام الكسب، فإن جماح النفس الجاري برياح الجبر والقدر السابق قد غلبني، فمن لي برد جماح، أو كيف أطمع في صرفه وأنا أعجز العاجزين، إلا بتأييد من بيده ملكوت السماوات والأرض. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ونفعنا به بعد كلام: ومن أخلد إلى أرض الشهوات واتباع الهوى، ولم تساعده نفسه على التخلي، وغلب عن التحلي فعبوديته على أمر من أحدهما، معرفة النعمة من الله تعالى فيما وهبه من الإيمان، والتوحيد إذ حببه في قلبه وزينه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فيقول: يا رب أنعمت علي بهذا وسميتني راشدا، فكيف أيأس منك وأنت تمدني بفضلك، وإن كنت متخلفا فأرجوا أن تقبلني وإن كنت رائيا. والأمر الثاني: اللجأ والافتقار إلى الله تعالى دائما، ويقول: يا رب سلم سلم، فلا طريق لمن غلبته الأقدار وقطعته عن العبودية المحضة إلا هذان الأمران. انتهى. فإن ضيعهما فالشقوة حاصلة، والبعد لازم والعياذ بالله تعالى انتهى. نقله الشيخ زروق في عدة المريد.

الإعراب: "من" مبتدأ وهي استفهامية، والمجرور بعدها متعلق باسم فاعل خبر من، والعرب تقول: من لي بكذا إذا قصدت تعذر الشيء واستبعاده وعدم الوصول إليه. "وبرد" في موضع الحال من الفاعل الواقع خبر من، وهو المتصل بلي، والعامل فيه العامل في المجرور، أي: من لي ملتبسا برد جماح. "ومن غوايتها" متعلق برد جماح. "ومن" لابتداء الغاية. ويحتمل أن يكون صفة لجماح، أي: جماح كائن من غوايتها. وقوله: "كما ترد" ما مصدرية، وهي والفعل الذي بعدها في موضع خفض بكاف التشبيه. والجميع يتعلق باسم فاعل محذوف، والتقدير: من لي برد جماح من غواية النفس شبيه برد جماح الخيل، أو كائن كرد جماح الخيل. فإن قدرت شبيها جئت بالباء، وإن قدرت كائنا جئت بالكاف للتشبيه، فقلت: كائنا كهذا وجماح نائب الفاعل، وباللجم متعلق بترد. والله تعالى أعلم. وفيه الاستعارة فإنه استعار لغواية النفس جماحا

لما كانت تحمله على المعاصي وهو لا يقدر على ردها، استعار الجماح المشبه بجماح الخيل، والجامع الغلبة والقهر كما يغلب الجموح راكبه، قاله الأليوري، وقال غيره: أنه تجريد، بمعنى أنه جرد من الغواية الجماح، وأطال في توجيه ذلك فانظره. وفي كلامه أيضا التشبيه في قوله كما ترد الخ، وفيه التعطف لذكره جماحا في الصدر والعجز. والله تعالى أعلم. ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

* ثم قال رحمه الله:

18 فَـلاَ تَـرُمْ بِالمَعَـاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَـامَ يُقَـوِّي شَـهْوَةَ الـنَّهِمِ

اللغة: رام الشيء طلبه وطمع فيه، وأما رام يرم فمعناه زال، والمرام المطلب. وكسر الشهوة عبارة عن مخالفة أغراض النفس في ميلها إلى الشهوات وسكونها عن ذلك. والنهم: الحريص على الطعام المفرط الشهوة فيه، يقال نهم نهما كفرح فرحا، إذا اشتدت شهوته للطعام.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: إياك أن تخدعك نفسك فتقول لك: مكني من هذه الشهوة وبلغني أملي فيها فإني أستقر وأسكن فلا يبقى لي شوف ولا أمنية لغيرها إذا حصلت على أغراضي وأخذت نهمتي من هذه الشهوة، فإن هذا منها عين الخداع والمكر، فإن بلوغ أمنيتها بتمكينها من تلك المعصية يزيدها حرصا ويحدث عندها شهوة زائدة ويحرك عندها رغبة في أمثالها، لأنها صارت من لذة تلك المعصية التي استطابتها فذاقت حلاوتها على بينة، فتهيج شهوتها ويعظم حرصها وتصير بمثابة النهم إذا ذاق شيئا من ملذوذات الطعام، فإنه إذ ذاك تقوى شهوته، ويزداد حرصه، لأنه قد صار من لذة ذلك الطعام على بينة. وقبل ذوقه واستعماله لم يكن له ذلك الحرص ولم يكن له تلك الرغبة، وكذلك النفس إذا اعتادت لذة المعصية، وأنست بها وذاقت حلاوتها صعب قطعها عنها وصرفها عن شهوة ملذوذة قد اعتادتها وأنست بها، فإذا سد الباب في وجهها وضرب على يديها وعمل العزيمة في قهرها ومنعها، أيست وانقطع رجاؤها فلا يبقى لها تشرف، ولا اعتادت شيئا تحرص عليه. وسيأتي لهذا المعني زيادة بيان إن شاء الله.

الإعراب: "لا" ناهية. "وترم" مجزومها حذف الواو لالتقاء الساكنين. "وبالمعاصي" يتعلق به. "وكسر" مفعول به مضاف إلى مفعوله والضمير في شهوتها يعود للنفس "وإن الطعام" حرف نصب واسمها. "ويقوي" خبرها. "وشهوة" مفعول به.

"والنهم" مضاف إليه. وجملة إن سيقت مساق التعليل والتمثيل. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الاستعارة، فإنه استعار للشهوة كسرا، لأن الكسر حقيقة إنما يكون في الأجسام كالأواني وشبهها، فإذا استعمل في الشهوة كان مجازا، وفيه التعطف لذكر الشهوة في الصدر والعجز، واللفظ إذا ذكر في صدر البيت ثم أعيد في عجزه سمي تعطفا، وفيه ذكر حكمة وهو قوله: إن الطعام يقوي شهوة النهم. وهو حسن عند أهل البيان. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

19 **وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ**

اللغة: الطفل الصغير من كل شيء، فإذا كان آدميا ففي بطن أمه يسمى جنينا، فإذا وضع سمي وليدا، ثم في مدة الرضاع يسمى رضيعا، ثم إذا فطم سمي فطيما، فإذا بلغ عشرة أعوام فهو مترعرع وشاب، فإذا ناهز الحلم فهو يافع وشاب، ويسمى في الأحوال كلها غلاما، فإذا اخضر شاربه وسال عذاره فهو باقل، فإذا زاد فهو فتى ثم كهل إلى الستين سنة ثم شيخ. ويقال امرأة مطفل أي ذات طفل، ويقال شب يشب شبابا إذا بلغ زمن الشبيبة. وأهملت فلانا إذا خليت بينه وبين نفسه ولم تنصحه. وأهملت الدمع أجريته، والرضاع يقال بكسر الراء وفتحها، وامرأة مرضع إذا كانت في زمان الرضاع، فإن أرضعت بالفعل فهي مرضعة بالتاء، وفطمت الأم ولدها إذا منعته الرضاع، والصبي فطيم، وجمعه فطم، كسرير وسرر، وينفطم مضارع فطم، يقال فطمته فانفطم، ككلمته فتكلم، وعلمته فتعلم.

الشرح: يقول رحمه الله: مثل النفس كالطفل، والجامع بينهما ضعف العقل وإيثار الهوى وغلبة الشهوة وعدم مراعات المآل، مع قبولية الطفل لكل شيء فلا يعرف الخير والشر، ولا يفرق بين المنافع والمضار. وهكذا النفس الأمارة تغلب العقل وتؤثر الهوى والشهوة ولا تفكر في العاقبة، ولا تراعي المصالح، إنما همتها في لذة تشتهيها أو شهوة معصية تقتحم عليها ولا تباليها، فصارت بمثابة الطفل الذي لا عقل له، فإن قلت الصبي لا يعرف الخير من الشر، ولا يفرق بين المصالح والمفاسد، فكيف شبه به النفس، ونفس المكلف تعرف المحذور والجائز، وتفرق بين المفاسد والمصالح، فالجواب: إنها لما كانت تعرف الشر وتقع فيه، وتعرف المفاسد والمحرمات وتتعاطاها صارت بذلك بمثابة الطفل المهمل الذي شأنه غير منظور إليه ولا مضروب على يديه،

وخلي بينه وبين هواه، فشب على ما عود من الرضاع وعوائد الصغر، فلا يرجع عن لذة يشتهيها، ولا عن شهوة يقتضيها، وإنما قال: "شب على حب الرضاع" مثالا، ومراده أنه شب على عوائد الصغر كلها إذا لم يؤخذ بالتدريج ولا التدريب، ولا نقل عن عادته، ولا منع من شهواته، فيصعب علاجه ويعسر رده عن عوائده التي اعتادها، وشهواته التي ألفها وأنس بها، وإن فطمته في حال صغره، ومنعته الثدي وشغلته عنه، أنس واشتغل عنه، فاسترحت معه، ولذلك ينبغي أن يمنع من مصاحبة الأشرار وقرناء السوء، لأن الطباع تسرق والأخلاق تكسب، فإذا أهمل وترك مسترسلا في هواه مؤثرا لراحة نفسه، وأنس بمصاحبة الأشرار وقرناء السوء ولم يصد عن أغراضه الفاسدة في مبتدأ أمره، عسر عليه رده. وفي مصاحبة الأخيار تأثير عظيم وشرف جسيم، ولله در القائل:

صاحبْ خيارَ الناس واعلم بأنه ... من يصحب الأشراف يوما يشرف
أو ما ترى الجلد الحقير مقبلا ... لما أقاموه غشاء المصحف

وكذلك النفس إن قهرتها وعكست عليها أغراضها في عنفوان شبابها، واشتعال نار شهوتها، ملكتها وقهرتها وكانت لك المملكة عليها، وإن أهملتها واتبعت هواها وسمحت لها في شهواتها ولذاتها، ملكتك وصارت لها السلطنة عليك والتحكم فيك كيف شاءت، فصارت حاكمة فيك وأنت محكوم عليك، تمشي في أغراضها وتصرف حوائجك في خدمتها. وإذا ملكتك النفس فقد ملك الشيطان، وأنجز فيك وعده حيث قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82]، وذلك لأن النفس والشيطان أخوان سبيلهما سبيل واحد، ومشيهما في غرض واحد، كلاهما يحمل على الشهوات، ويزين المحرمات والمكروهات ويبرزان القبيح في زي الحسن، ولا ينجوا منهما إلا بالالتجاء إلى الواحد القهار، فيعينه على مجاهدتها، وهو الجهاد الأكبر. قال بعض الحكماء: أشرف الناس من عصى المراد ولم يعط النفس القياد. وقال آخر: لا يملك عنان النفس إلا بيد العقل، فمن غلب عقله ملكته نفسه. وفي الحكم: إذا التبس عليك أمران فانظر أيهما أثقل، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا أكرم الله عبدا في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله، وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة، مع جري ما قدر له، ولا يلتفت إليها، كأنه في معزل عنها. وإذا أهان الله عبدا في حركاته وسكناته، نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته، فهو يتقلب في شهواته، وعبودية الله عنه بمعزل. وإن

كان يجري عليه شيء منها. في الظاهر قال: وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة،لأنه بالله فيما يأخذ ويترك انتهى.

الإعراب: "والنفس" مبتدأ. "وكالطفل" خبره أي متعلقة، والتقدير: شبيهة بالطفل أو كائنة كالطفل. والواو للاستئناف، كقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل: 44]. ويدل على الاستئناف رفع المضارع، أي ونقر. "وإن تهمله" شرط. "وشب" جوابه، وهو قليل، كقوله عليه السلام: «من يقم ليلة القدر غفر له» الحديث. وإنما قل لما فيه من تهيئة العامل وقطعه فقد هيأت للعمل في الشرط وقطعته في الجواب، قاله الأليوري. وإعراب العجز كإعراب الصدر، إلا أنه لا شذوذ فيه. والله سبحانه أعلم. وفيه من البيان التشبيه فإنه شبه النفس بالطفل بجامع ملاحظة الشهوة الغالبة، وغلبة الهوى وعدم العقل حقيقة في الطفل ومجاز في النفس. فالصبي لعدم عقله، والكبير لغلبة نفسه على عقله، فكأن العقل مفقود فيمن غلبته نفسه، كما هو مفقود في الصبي. وفيه تجنيس الاشتقاق بين تفطمه وينفطم، وفيه الموازنة بين تفطمه وتهمله، وليس بينهما إلا مخالفة حركة واحدة. وفيه المقابلة في تفطمه وتهمله لأنهما ضدان. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رضي الله عنه:**

20 فَـاصْرِفْ هَـوَاهَا وحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ إِنَّ الهَـوَى مَـا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

اللغة: الصرف رد الشيء وتركه، والانصراف الرجوع عن الشيء. والهوى مقصور، ما تحبه النفس وتميل إليه، وأما الممدود فالفضاء، قال الشاعر يصف بلدة فيها محبوبه مع طيب هوائها:

كيف أصبر عنها اليوم إذ جمعت طيب الهواء مقصور وممدود

والمحاذرة تخويف النفس مما تدعوا إليه من الهوى والشهوات. والتولي عقد الولاية للغير، والتوالي المتابعة. ويروى كلام الناظم بهما معا، ومعنى الرواية الأولى: احذر أن تجعل للهوى عليك ولاية، فأمره بالحذر من أن يولي هوى النفس عليه. ومعنى الثانية: حذره أن يتابع النفس في أغراضها وأن يوافقها في شهواتها. ويصم بضم الياء. يهلك، يقال: أصمه الله أي أهلكه، ويصم بفتح الياء، يعيب ويشير، يقال: وصمه بكذا، أي عابه به، والوصم العيب، والوصمة المرة منه.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله لمخاطبه ناصحا له: اصرف هوى نفسك عن قلبك ولا تساعدها في مرضاتها، ولا توافقها في أغراضها، واحذر إن فعلت كل ما أمرك أن تنقلب عليك وتتحكم فيك كيف شاءت، فتكون قد وليتها عليك وحكمتها فيك، فتكون عبد نفسك لا عبد ربك. وفي الحكم: ما أحببت شيئا إلا وكنت عبدا له، وهو لا يحب أن تكون عبدا لغيره. وقال صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش». فإذا تبعتها في أغراضها أو وليتها على نفسك أهلكتك أو شانتك فتسقط عن درجة الكمال، وتنحط في مهاوي أهل الغفلة والضلال. قال أبو العباس بن عطاء رحمه الله: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميادين المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها. وقال بعض العارفين: أرفع درجات المؤمن وأعلا مراتب المؤمن وأصلح حالات الورع أن يموت مجاهدا لنفسه، قاهرا لشهوته، فإن ملك النفس وقمع الهوى وسلطان الصبا درجة عالية لا تنبغي إلا لولي. وقال بعض السلف: للشيطان حبائل ينصبها للإنسان، فإن ظفر بضعيف الإيمان أذهب عنه إيمانه وأهلكه، وإن ظفر بقوي الإيمان ولم يقدر فيه على حيلة ولا وجد إليه سبيلا، قنع منه بالمكروهات، وحبب إليه الشهوات، وحمله على المعايب التي يخمل بها وتحط من قدره. ولعل الناظم أشار بقوله: يُصم أو يَصم لهذا المعنى، فإياك أن تجعل للهوى على نفسك ولاية فتهلك أو تسقط مروءتك أو تحط درجتك عن الكمال، أو تجمع لك بين الأمرين، فإن الهوى مختصر من الهوان، بحذف النون. وانظر ابن عباد عند قول الحكم: من جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر عنه العقوبة فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجد البعاد، والله سبحانه يرفقنا لما يحب ويرضى به.

الإعراب: اصرف وحاذر، فعلا أمر. وأن توليه في موضع نصب بحاذر، والمفاعلة يحتمل أن تكون على غير بابها، كسافر وعافاه الله، ويحتمل على بابها فإن الهوى يريد أن يملك العقل، والعقل يريد أن يغلبه. وأن وما بعدها تعليل لما قبلها. وما شرطية، ويصم جوابه، وجملة الشرط وجوابه خبر. أن وما الشرطية مفعول مطلق لتولي، والتقدير: إن الهوى أي شخص تولى أهلكه أو عابه. فإن قلت: ما عاملة في تولى، وهي معمولة له، قلت: عملها الجزم بالحمل على أن لا لذاتها، فمن حيث كونها

اسما معمولة، ومن حيث تضمنها الشرط عاملة، فالجهة منفكة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ [الإسراء: 110]. ويجوز في ما الشرطية الابتداء، والجزاء خبره، والعائد محذوف، أي: ما تولاه وفيه من البيان تجنيس الاشتقاق في قوله: يُصم أو يَصم، ويمكن أن يريد الناظم بالصرف العزل وبالتولية نقيضا فيكون فيه الطباق وفيه التعطف لذكر الهوى في العجز وقد ذكره في الصدر وكذلك توليه وتولى والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

21 **وَرَاعِهَـا وَهِـيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةً وَإِنْ هِـيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلاَ تُسِمِ**

اللغة: راعى الشيء يراعيه مراعاة، راقبه وحفظه. والسائمة الراعية، يقال: سامت الغنم إذا رعت، وأسامها إذا جعلها ترعى، وسام السلعة طلب شراءها، وسام أراد السوء، ومنه: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 49] أي يريدونه بكم. واستحلت استطابت، وتسم مضارع أسام إذا رعى إبله وقد تقدم.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: راقب نفسك وراعها ولتكن بمرآى ومسمع منها، وليكن بالك عند تلبسها بالعمل ووقت رعيها فيه والتزامها إياه، فإن رأيتها استحلت من ذلك شيئا واستطابت ومالت إليه بكليتها، وإن كان جائزا أو مندوبا فاتهمها، واعلم أنها ما استحلت ذلك العمل وأحبت مرعاه وأسرعت الإجابة إليه، إلا لدسيسة أو داخلة تدخل عليها من ذلك المرعى وبسببه، من تسميع أو شهوة خفية عجب مدح التذاذ بسماعه ونشاطه لرؤية عمله، وذلك مما يذهب بالإخلاص ويوجب الحظ والانتقاص. والمرء مسئول عن رعيته، وأعظم الرعية النفس، فإنها لا تميل إلا لما فيه هلاك الإنسان وإن كان ظاهره طاعة وإحسانا. وفي الحكم: حظ النفس في المعصية ظاهر جلي وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداوات ما يخفى صعب علاجه. قال سيدي محمد بن عباد رضي الله عنه: النفس من شأنها أبدا طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فهي لا تسعى إلا في ذلك ولو في عملها بالطاعات فضلا عن المعاصي. ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا، فقد تجد من النشاط واللذة في نوع من العبادات ما لا تجده في نوع آخر، وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيلة منه، وما ذلك إلا لأجل الحظوظ فيه أكثر من الآخر، فأهل الخبرة والبصيرة يتهمون أنفسهم

إذا ألفت بابا من أبواب العبادة لمعرفتهم بخدعها ومكائدها فيشوشون ذلك وينتقلون عنها. وقد حكي عن أبي محمد المرتعش رضي الله عنه أنه قال: حججت كذا وكذا سنة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك مشوبا بحظي، وذلك أن والدتي سألتني يوما أن أسقي لها جرة من ماء فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحج كانت بحظ وشوب، إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع. فهذا مما يبين أن حظ النفس في الطاعة موجود، ولكنه خفي على العامل فلذلك تعسر مداواته، لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك ليتطلب بذلك آفات نفسه ولطائف خدعها وخفايا حظوظها، فيعمل على تصفية أعماله من ذلك. كان الشيخ أبو بكر الخفاف رضي الله عنه يقول: سمعت شيخنا يقول عن أحمد بن أرقم البلخي رضي الله عنه قال: حدثتني نفسي إلى استيجاب الغزو، فقلت سبحان الله إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: 53] وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبدا، ولكنها استوحشت فتريد لقي الناس فتستريح إليهم، ويتسامع الناس فيستقبلونها بالتعظيم والبر والإكرام، فقلت لها: لا أسألك العمران ولا أنزل على معرفة فأجابت فأسأت ظنا بها، فقلت، الله أصدق قولا، فقلت لها: أقاتل العدو حاسدا فتكوني أول قتيل فأجابت، وعد أشياء مما أرادها به فأجابت إلى كل ذلك، فقلت: يا رب نبهني لها فإني لها متهم، ولقولك مصدق. فألهمت كأنها تقول لي: إنك تقتلني كل يوم مرات لمخالفتك إياي ومنع شهواتي ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك ويتسامع الناس فيقال استشهد أحمد فيكون شرفا لي وذكرا في الناس. فقعدت ولم أخرج ذلك العام. انتهى. فإذا استحلت النفس شيئا من الأعمال فلا تتركها معه وانقلها لعمل آخر. وإلى ذلك أشار بقوله: وإن هي استحلت المرعى فلا تسم.

*** ثم بين وجه خدعها وغرورها فقال:**

22 كَـمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَـةً ... مِـنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

اللغة: التحسين: التزيين. واللذة: ما تستحليه النفس وتستطيبه، تكون حسية ومعنوية، وتنال بالحواس الثلاث السمع والبصر والشم، كسماع الألحان المطربة والنظر إلى المستحسنات وشم الروائح الطيبة، وهذا ما يلتذ به أهل البطالة. وأما أهل الفضل والكمال، فلذتهم سماع كلام الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه

وسلم، والمواعظ وحكاية الصالحين. فمن التذ بنوع من الطاعات لقيه الروح بالقبول، ومن التذ بنوع من اللهو اغتم له الروح وانبسطت له النفس. والسّم واحد السموم: وهي الأشياء القاتلة. والدسم: الودك من كل ذي شحم ولحم، يقال دسم بالكسر دسما إذا تودك.

الشرح: يقول رحمه الله: لا تفتر بما تستحليه النفس وتستطيبه، فكثيرا ما حسنت أمورا ظاهرها حسن وباطنها قبيح. فإن شأن النفس على الدوام وعادتها على مرور الأيام تحسين الأمور الملذوذة والحرص على ما عاقبته غير محمودة، فتريك الشهد وفي باطنها الصّبر والنجات، وفي طيها العطب، فتبرز القبيح في صورة الحسن وتستعذب اللذات وفي ضمنها السموم القاتلة، والمرء غافل يجهل أن السم قد يوضع في الدسم الملذوذ المستعذب، فربما اغتر الجاهل وغلبته نفسه وشرهه على استعماله لحلاوته واستعذابه فيهلكه السم وهو لا يشعر. وهكذا الذنوب والمعاصي، قد علمت أن أسبابها مشتهيات بالطبع ملذوذات عند النفس، لكن ذوقها ذوق العسل من حيث حلاوتها واستعذابها وعملها عمل السم من حيث تباعتها ووبالها. فالعاقل الموفق إذا قدم إليه عسل فيه سم لا يغتر بذلك العسل ولا تخدعه حلاوته فيعرض عنه ولا ينظر إليه لأنه ينكر بعقله فيرى أن هلاكه في ذلك العسل، لما يتولد منه من الأوجاع والآلام. وأما الجاهل الأحمق الذي غلبته شهوة ساعة ولم يراع مآل الأمر، ولا فكر في العاقبة فاغتر بذلك العسل وحلاوته، فوقع فيه، فجر لنفسه العطب وساق لها التعب والنصب. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» وفي الحديث أيضا: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا يوم القيامة فيغمس في النار غمسة ويقال له: هل رأيت نعيما قط؟ فيقول: لا والله ما رأيته. ثم يؤتى بأبأس أهل الدنيا يوم القيامة فيغمس في الجنة غمسة ويقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا والله ما رأيته». أخرجه البخاري في صحيحه. فإذا نظر العاقل الموفق بعقل إلى لذة المعصية رآها أنها تذهب ويبقى عارها وإثمها، ويقول: لعل غضب الله يكون عن هذه المعصية، فأخسر نعيم الأبد، فتنزع نفسه عن المعصية ويحميه الله إياها ويحفظه من الوقوع فيها. عصمنا الله بمنه وكرمه، وبسيدنا محمد نبيه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

إعراب البيتين: وراعها جملة أمرية معطوفة على قوله: وحاذر في البيت قبله، والضمير للنفس. وهي سائمة جملة حالية، وفي الأعمال متعلق الخبر وصاحب الحال

ضمير النفس، أي وراعها حال كونها سائمة في الأعمال. وإن شرطية، والضمير فاعل بفعل مضمر يفسره استحلت اشتغالا في المرفوع، ولا يحذف الشرط في غير إن إلا شاذا. وما بعد الفاء جواب إن. ولا ناهية. وتسم بضم الأول مجزوم بها كسر للوزن. وكم خبرية وإعرابها هنا إما مصدر أو ظرف فتقديرها مصدرًا: كم تحسين حسنت وظرفا كم مرة أي كثيرا من المرات حسنة هذا التحسين لأن كم الخبرية تفيد التكثير. وحسنت فعل وفاعل يعود على النفس وهو العامل في كم مصدرا وظرفا. ولذة مفعول به، وللمرء متعلقة بحسنت. وقاتلة صفة للذة ومن حيث لابتداء الغاية وهي ومجرورها متعلقة بحسنت. والمعنى ابتداء غاية تحسينها من حيث جهلها بأن السم في الدسم، ويصح تعلق من بقاتلة، والجملة المنفية بعد حيث في محل جر، أي: من حيث عدم علمه. والسم اسم إن، وفي الدسم خبره متعلق بمحذوف هو الخبر حقيقة. وإن وما بعدها مفعول ليدري. والله تعالى أعلم. وفيها من البيان التشبيه البليغ في قوله: وهي سائمة، وليس استعارة على الصحيح لذكر المشبه وهو هي، ورشح التشبيه بذكر الأعمال، وفيهما تجنيس الاشتقاق في قوله: راعها والمرعى، وفيهما الجناس الناقص في قوله: سم ودسم، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝ ﴾ [القيامة: 29 - 30]. وفيهما تشبيه شيئين بشيئ، شبه اللذة بالدسم وقاتلة وهو العقاب الناشئ عن ذلك اللذة بالسم. والله تعالى أعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

23 وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

اللغة: الدسائس جمع دسيسة، وهي الخديعة، ويروى: واخش الدواخل، جمع داخلة كعادلة وعوادل وقاتلة وقواتل، وهي ما يدخل عليك من قبل النفس من الفساد من غير قصد، والخشية الاتقاء والخوف، والمخمصة: المجاعة كالمسغبة، ورجل خميص الحشا ضامر البطن، والجمع خماص. وفي الحديث: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدوا خماصا وتروح بطانا». وتسمية الجوع مخمصة من باب تسمية الشيء بما يلازمه، لأن الجوع يلزم منه خموص البطن وضموره، لكونه خاليا من الطعام. والتخم جمع تخمة، والتخمة الإكثار من الطعام بحيث يضر بالمعدة.

والوخم الوباء، وبلدة وخيمة ووخمة إذا لم توافق ساكنها، واستوخم البلد إذا لم يوافق طبعه هواها، والتاء في تخمة بدل من الواو، وفي خائها الفتح والتكسير، كمِعدة ومَعدة. وفي الحديث: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأصل كل داء البردة» وهو الشبع المتفاوت وإدخال الطعام على الطعام على الشبع.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: احذر دسائس الجوع كما تحذر دسائس الشبع، واعتدل فيهما من غير إفراط ولا تفريط، فإن الجوع الكثير مضر بالإنسان وآفاته كثيرة، فإنه يضعف القوّى، ويفسد المزاج، ويضعف الجوارح عن التصرف، ويضر بالأعضاء الرئيسية، ويقوي الخيالات، ويفضي إلى الأمراض الصعبة. فالمخمصة المفضية لهذه الأمراض قد تكون لمن اتصف بها شرا من التخم. وأما الشبع فآفاته أيضا كثيرة والدواخل التي تدخل منه عظيمة فإنه يذهب الفطنة ويقسي القلب ويزيد في النوم وتحدث عنه الأخلاط والأمراض الصعبة، وبه يتمكن الشيطان من الإنسان وتقوى سلطنته عليه، ويتثبط عن الخير ويكسل عن الطاعة. فقد روي أن يحيى بن زكرياء تعرض له الشيطان وعليه معاليق فقال له يحيى: ما هذه المعاليق؟ قال له: هذه الشهوات التي أصيد بها بني آدم، فقال له يحيى: هل لي فيها شيء، قال له الشيطان: لا، إلا أنك شبعت في بعض الأيام فثقلت عن العبادة. فقال له يحيى: إن لله علي عهدا ألا أشبع أبدا، فقال له الشيطان: وأنا له علي عهد ألا أنصح مسلما أبدا. وفي وصية لقمان لابنه: إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وكان الثوري يقول: يا معشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فتناموا كثيرا فتخسروا كثيرا. ومن آفات الشبع أنه ينسي الجائع فلا يعرف مقدار الشيء إلا من ابتلي به. قيل ليوسف عليه السلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض، فقال: أخاف أن أشبع وأنسى الجائع. وبالجملة فكلا الطرفين مذموم، وخير الأمور أوسطها، ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس. وليس الشبع بحرام ولا ممنوع إذ ورد عن السلف ما يدل محلى الجواز. فحديث أنس في أقراص أم سليم وفيه أن الصحابة أكلوا حتى شبعوا. وكحديث أبي هريرة في قضية اللبن، وفيه: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا. وهو مشهور في البخاري وغيره. لكن يقال كان الشبع يندر من السلف، وغالب عادتهم ودأبهم وحالتهم التي استمروا عليها هي عدم الشبع، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: أول بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع. ومن أراد إشباع الكلام

على فضل الجوع وقلة الأكل فلينظر الإحياء، وقد نقلت منه جملة صالحة فيما كتبه على الهمزية عند قوله: ألف البطنة. الخ. والله تعالى أعلم. ويحتمل أن يكون المصنف كنى من منع النفس رأسا عن شهواتها من المباح، فحذر من ذلك مخافة ما يلحقها من الملل والضجر والقنط، فإنها إن امتنعت عن جميع مألوفاتها دفعة كلت وضجرت ولكن يترفق بها شيئا فشيئا حتى ترتاض على القناعة بالقليل. وفي الحديث: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وفيه أيضا: «اكلفوا من الأعمال ما تطيقون». «وإن الله لا يمل حتى تملوا». وفيه أيضا: «المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى». وبالله التوفيق.

الإعراب: واخش فعل أمر معطوف على ما قبله. من الأوامر والدسائس مفعول. ومن جوع ومن شبع يتعلقان بمحذوف حالان من الدسائس، أي: واخش الدسائس. كائنة مرفوع. ومن لابتداء الغاية لأن التعليل يصحبها. ورب جارة قيل وضعت للتقليل وقيل للتكثير والأول أصح، وحجة الأول قول الشاعر:

ألا رب مولـــود ولـــيس لـــه أب وذي ولـــد لـــم يلـــده أبـــوان

واستدل الثاني بقول امرئ القيس:

ألا رب يـــوم لـــك مـــنهن صـــالح ولا ســـيما يـــوم بـــداره جلجـــل

ولو لم تكن له أيام كثيرة ومعاهد مشهورة ما افتخر بها، إذ لا يفتخر بالقليل. ومخمصة مخفوض برب. وشر صفة ويجوز قطع هذه الصفة إلى الرفع، أي: هي شر. ورب ومجرورها تتعلق بمحذوف تقديره شاهدت أو رأيت. وقال الأخفش: رب زائدة لا تتعلق بشيء والاسم المجرور في موضع نصب أو رفع. فإذا قلت رب رجل صالح، وقدرت شاهدت أو رأيت، فالمجرور مفعول عنده. ورب زائدة. وإذا قلت: رب رجل صالح لقيني، فرجل مرفوع بالابتداء. فعلى هذا يصح جعل مخمصة مرفوع بالابتداء، إلا أنه نكرة بلا مسوغ، بخلاف رب رجل صالح لقيني، فإذا جعلته مبتدأ على مذهب الأخفش كان المسوغ موجودا وهو الوصف بالجملة، ولا يلزم وصف مجرور رب ولا مضى ما تتعلق به، بل يلزم تصديرها وتنكير مجرورها. ومن التخم يتعلق بشر. ومن لابتداء الغاية. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الطباق بين قوله: جوع وشبع، وبين مخمصة وتخم. وفي قوله: فرب مخمصة، ذكر حكمة تصلح للتمثيل. وتقدم أنه من البيان وبالله التوفيق.

* ثم قال رحمه الله:

24 وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ امْتَلأَتْ ... مِنَ المَحَارِمِ والـزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

اللغة: استفرغ الشيء طلب فراغه يقال فرغت الدمع والدم بمعنى أرقته واستفرغت الدمع إذا أرقته حتى أفنيته، والمحارم جمع مُحرّم والحمية حبس النفس عن الطعام المضر، يقال حمية المريض إذا منعته ما يضر به من الطعام أو الشراب والندم الحزن على ما فات.

الشرح: يقول رحمه الله: طهر عينيك بماء الدموع وكثرة البكاء وابذل جهدك في استخراج دموع العين حتى تستفرغ الدمع من عين قد ملأتها من المحارم، ومحارم العين كل ما تنظر إليه مما يحرم نظرها إليه، قال عليه السلام: «زنى العين النظر». وقال صلى الله عليه وسلم: «النظرة الأولى سهم من سهام الشيطان، فمن تركه خوفا من الله أتاه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه». والنظر رائد المعاصي وبريد الشهوات والهوى وسبب علاقة القلب ولله در القائل:

وإنك إن أرسلت طرفك رائدا ... لنفسك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فإذا تحققت توبة العبد ندم على ما مضى، وبكى على ما فات حتى يطهر، ما لوث به عينه من دنس المعاصي، بما يجريه من عينه من الدموع، وتطهير العين مؤذن بتطهير القلب، لأن البكاء يؤذن بالندم والأسف، ونزوع النفس إلى التوبة والإنابة، والإقلاع عن المعاصي وعدم استفراغ الدمع من العين، وبقاء تلك الدموع فيها دليل على عدم تطهير القلب وعدم حصول التوبة، وأنه مستمر على ما كان عليه، وأن النفس ما أسفت ولا ندمت، ولا أقلعت عن غيها إذ لم يظهر لذلك أثر من الحزن والبكاء والأسف على ما مضى. وكما أن إخراج الخلط من البدن واستفراغه بعد نضجه باستعمال المريض الدواء المسهل دليل على صحة بدنه في الغالب ومؤذن بانفصال المرض وصلاح حال الإنسان، فكذلك استفراغ الدمع من العين مؤذن بصلاح الحال والتوبة والخلاص من تباعات الذنوب والمعاصي، وهذا ما لم يتعلق بها حق مخلوق، وإلا وجب التحلل سواء كانت التباعات في عرض أو مال. ففي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كانت له مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا

درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه فألقي به في النار، ولا يقولن أحدكم فضوح الدنيا ألا وإن فضوح الآخرة أعظم من فضوح الدنيا». انتهى قوله. والزم حمية الندم، لما كان المريض إذا استعمل الدواء يحتمي من الأمور المضرة ببدنه، فكذلك مريض الذنوب الذي استعمل دواء التوبة يجب عليه أن يلزم حمية الخوف، ويتوقى الأمور التي تنغص توبته. فإن قلت: استدامة حمية الندم توجب استدامة الخوف وشدة التحسر، فربما أفضى بصاحبه إلى الإياس والقنوط، وهو مذموم. قلت: لا يلزم من ندم العبد على تفريطه وتقصيره في الطاعة وتأسفه على ما صدر منه من شدة الخوف المفضي إلى القنط والإياس، بل يندم على ما فرط فيه من أعمال البر ونوافل الخير وما صدر منه من المعاصي وإن لم يكن قانطا ولا خائفا خوفا يبلغه القنوط، بل يكون بين الخوف والرجاء. وقال بعض العلماء: يغلب في الصحة الخوف وفي المرض الرجاء. ويذكر سعة حلمه سبحانه، ورحمته ولطفه وإبراره بعباده المؤمنين، وقد قال تعالى على لسان نبيه: «أنا عند ظن عبدي بي» وقال صلى الله عليه وسلم: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر، سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن ظنه بالله تعالى». رزقنا الله ذلك بمنه وكرمه.

الإعراب: واستفرغ معطوف على الأوامر قبله، والسين والتاء للطلب، أي: أسع جهدك في تفريغ الدمع من العيون، وابذل جهدك في استدعائه وطلبه، والدمع مفعول به. ومن عين يتعلق باستفرغ. ومن لابتداء الغاية. والزم معطوف على استفرغ. وحمية مفعول به. والندم مضاف إليه. وقد امتلأت جملة صفة لعين، أي: من عين ممتلئة. ومن المحارم متعلق بامتلأت. ومن ابتدائية. والزم معطوف على استفرغ. وحمية مفعول به. والندم مضاف إليه. والندم التأسف على مكروه فعلَ، أو محبوب فات. والله تعالى أعلم وبالله التوفيق. وفيه استعارة طبية في قوله واستفرغ، إذ الاستفراغ لا يستعمله إلا الأطباء، عبارة عن إخراج الخلط من البدن، فاستعاره لإخراج الدمع من العين. والجامع زوال الضرر. وكذلك استعار الحمية للندم، والجامع ترك ما يضر. وتكون الاستعارة فقهية ونحوية وكلامية. وستأتي عند قوله: فجوهر الحسن فيه غير منقسم والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

25 وَخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِمَا ... وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

26 وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا ... فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ وَالحَكَمِ

اللغة: المخالفة ضد الموافقة، والنفس يأتي الكلام عليها إن شاء الله، والشيطان مأخوذ من شطن إذا بعد لأنه أبعد عن رحمة الله، وقيل من شاط أي هلك وهو مختص بالكافر من الجن، والجن اسم عام يطلق على الكافر والمؤمن مأخوذ من جن إذا استتر، والمادة كلها دائرة على الاستتار كالجِنة والجُنة بالكسر والضم والجنين. والعصيان ضد الطاعة. والنصح: الإرشاد للطريق الأقوم. والمحض: الخالص الذي لم يشُبْهُ غرض خفي يخالف ظاهر النصح. واتهم افتعل من الوهم، أصل التاء واوا فأبدلت تاء. والخصم المخاصم في حق أو باطل، يطلق على الواحد أو الاثنين والجماعة، يقال رجل خصم ورجال خصم. والحكم المتصدر لإقامة الأحكام وتنفيذها، وقد يكون عاما كالقضاة، وخاصا كالحكم المبعوث من جهة القاضي للحكم بين الزوجين. والحاكم مأخوذ من حكمت الدابة جعلت لها حكمة، أي: لجاما يمنعها من التصرف، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من ارتكاب القبيح. والكيد: المكر والخديعة، من كاد يكيد كيدا ومكادة إذا مكر.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله مخاطبا لكل من يسمع نصيحته ويقبل وصيته: خالف النفس في كل ما تأمرك به أو تنهاك عنه فإنها أعدى عدوك لأنها تتزيا بزي الحبيب وتحسن القبيح وتقبح الحسن، حريصة على نيل أغراضها وشهواتها وبلوغ أمنيتها، قال الشاعر:

والنفس إن أعطيتها مناها ... فاغرة نحو هواها فاها

مع أنها أقرب الأشياء إليك والزم ما لديك إليك، فداوها بالمجاهدة والمحاسبة. وأما الشيطان فعداوته لك قديمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: 6] وهو مع ذلك يجري في الإنسان مجرى الدم، وهو أخو النفس الشقيق، حريص على أن لا يصدر من الإنسان إلا الشر، وحسبك في عداوته وحسده ما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي يقول يا ويلاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود

فأبيت فلي النار. وكذلك عقده على قافية العبد عند النوم يثبطه عن قيام الليل. وكذلك فراره عند الآذان، كل ذلك حسدا منه وغيظا. فإن قلت: كيف فر من الآذان ولم يفر من الصلاة مع أنها أعظم، قلت: هذه مزية وخاصية فيه، وهي لا تقتضي التفضيل، ونظيره فراره من عمر رضي الله عنه، ولم يثبت ذلك في أبي بكر مع الإجماع على تفضيله، بل ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبليس تفلّت علي البارحة وأنا في الصلاة فأردت أن أربطه إلى سارية المسجد» الحديث، والحكمة في فراره من الآذان مخافة أن يطلب بالشهادة يوم القيامة فيشهد لعدوه ويدخل المصلحة عليه، وهو حريص على عكسه، فإنه مجبول على مضرة ابن آدم لا نفعه. وقيل: إنما يفر غضبا وحسدا لسماع الدعوة العامة والنطق بكلمة الشهادة، ولا سيما ما يرى من تأهب الناس للصلاة ومسارعتهم لامتثاله، فلا ترى عنده إلا ذاكرا أو حاكيا أو مشتغلا بالطهارة أو ماشيا إلى المسجد فيزيده ذلك حسدا، ويحمله على الفرار حتى إذا تحقق امتثالهم أقبل يفسد عليهم ما تأهبوا له ويحرمهم حلاوة ما تسارعوا له. عصمنا الله منه، فلذلك أمرك الشيخ بمخالفتهما وعصيانهما، وحذرك من أن تفتر بإظهار نصحهما، فقال: وإن هما محضاك النصح، أي: أخلصا لك النصح فاتهم، أي: اتهمهما فيما أمراك به، وخالفهما فيما يشيران به عليك، فإنهما يغتنمان فيك الفرصة ويتربصان بك الدوائر، فلا تطع منهما خصما يتوجه إليك بالمنازعة والخصومة فيما تريده من أفعال البر. وفي الحديث: «لا يتصدق ابن آدم حتى يفك لحيي سبعين شيطانا» أو كما قال عليه السلام كما في الترغيب. ولا تطع منهما أيضا حكما تتحاكم إليه في فعل شيء أو تركه، فإنه لا يحكم عليك إلا بمقتضى عداوته وحسده، فأنت تعرف كيد الخصم وخديعته ومكره، وتعرف كيد الحكم العدو، فلا يتصور منه فيك العدل. فإن قلت: نسبة الكيد للخصم واضحة، وأما نسبة الكيد للحكم فمشكلة، لكن إذا كان الخصم والحكم من النفس والشيطان سهل نسبة هذا الوصف لهما، فكأنه يقول: فأنت تعرف كيدهما خصمان كانا أو حكمين، فيكون مراد المؤلف أن النفس والشيطان يكونان خصمين وحكمين، فإذا كان الإنسان غالبا على نفسه قاهرا لهواه كانت نفسه خصما له فيما تأمره به أو تنهاه عنه. وإن كان مغلوبا لنفسه كانت في حقه حكما تحكم عليه بما تشاء، فإذا أظهرا لك وجه المصلحة فيما أمراك وندبا إليه فخالفهما ولا تأمن كيدهما. وإن لم يظهر لك وجه المفسدة وإن غلبا عليك واشتدا عليك وبرزا في صورة الحكم الذي ينفذ الأحكام قهرا

ويأخذ المحكوم عليه جبرا فاعصهما وقابلهما بالشدة والرد العنيف. فإن ضعفْت فارجع إلى القوي المتين الذي بيده ملكوت كل شيء وتوكل عليه في دفعهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: 99]. وفي الحكم: إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده. قلت: وكذلك ناصية الشيطان، فإن أعطى الإغواء والتسويل فما أعطى التخذيل والتضليل. فارجع لمن بيده القلوب والنواصي، ولا تلتفت لمن جاء على يده التزيين والمعاصي، فالذي تخاف أن سلطه عليك، هو الذي ترجوه أن يصرف شره عنك. وقيل: إن الشيطان كلب إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب، وإن رجعت إلى ربه صرفه عنك برفق. وقال ذو النون رضي الله عنه: إن كان يراك من حيث لا تراه، فالله تعالى يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه. انتهى. قاله الشيخ زروق نفعنا الله به آمين. قلت: وهذه هي الحكمة من تسليط الشيطان والنفس على الإنسان، ليظهر افتقارهم وانحياشهم إلى الله تعالى. قال في الحكم: جعله لك عدوا ليُحْوِشك به إليه، وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه. انتهى. وقال الشيخ زروق رضي الله عنه: لأن من خاف عدوه انحاش إلى حبيبه، ومتى لم يكن عدو لم يتم الانحياش إلى الحبيب. وهذا وجه من حكمة خلق الشيطان وتسليطه. الثاني: خلق في هذه الدار ليكون منديلا للعار تمسح فيه أوساخ الناس. الثالث: ليميز الله الخبيث من الطيب باتباع الرسل أو با تباعه فتقوم الحجة وتتضح المحجة، إذ ليس بعد البيان من إشكال. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال إبليس لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، قال له ربه: بعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني». انتهى. قلت: وكذلك تسليط الخلق بالإذاية والدنيا والهوى، حكمة ذلك إظهار ضعف العبد وفاقته ورجوعه إلى ربه وفراره من كل شيء إليه. قال في الحكم: إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكنا إليهم، أراد أن يزعجك إليه من كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء. انتهى. فسلط عليك الخلق بالإذاية والأضرار، والدنيا بالهموم والأكدار، والشيطان بالوسوسة والاضطرار، والنفس بالتقلبات والأطوار، وهذه هي العوائق الأربع التي عمت الوجود فأهلكت من هلك ونجا منها من عصمه الله، فقال فيها الشاعر وأحسن:

إنـــي بلـــيت بأربـــع يرميننـــي ... بالنـــبل عـــن قـــوس لـــه توتيـــر

إبليس والدنيا ونفسي والورى يا رب أنت على الخلاص قدير

والنفس هي الروح، إلا أنها في أول أمرها تسمى روحا، وهو: جسم لطيف هواء، به تكون حياة الجسم عادة، فإذا مالت إلى الشهوات الجسمانية سميت نفسا. فما دام الجنين في بطن أمه فهو ذو روح، فإذا فشا بعد ذلك واكسب أخلاقا ذميمة سمي نفسا، كماء الشجرة الساري فيها فأصله ماء، ثم ينقلب عنبا وخمرا وخلا وغير ذلك مما يلحقه من التغيرات والتسامي. والله تعالى أعلم.

الإعراب: وخالف معطوف على الأوامر قبله. والنفس والشيطان مفعول به. واعصهما معطوف على خالف. وإن شرطية. وهما فاعل بفعل محذوف من باب الاشتغال. وانفصل الضمير لحذف العامل. ومحضاك فعل وفاعل ومفعول مفسر للمحذوف. والنصح مفعول ثان له. واتهم فعل أمر واقع موقع جواب الشرط. ولا تطع مجزوم بلا الناهية. والجملة معطوفة على جملة الأمر قبلها. ومنهما متعلق بتطع. ومن ابتدائية. وخصما وحكما مفعولان. ولا الداخلة على حرف العطف زائدة. وأنت تعرف مبتدأ وخبر. والفاء مشعرة بالعلة كأنه قال لأنك تعرف كيد الخصم والحكم. ويحتمل أن يكون قصد بالخصم النفس وبالحكم الشيطان، فيكون في البيت اللف والنشر. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وفيه من البديع رد العجز على الصدر في الحكم وحكما، وفيه الترديد فإن من خالف فقد عصى والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

27 أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

اللغة: الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر، ومنه الغفر لأنه يستر الرأس، فالغفران الستر. والاستغفار إن كان مع الندم والإقلاع فهو استغفار حقيقي لملازمته التوبة، وإلا فهو استغفار الكذابين فيحتاج إلى استغفار منه كما قالت رابعة رضي الله عنها: استغفارنا نحن يحتاج إلى استغفار. انتهى. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لا كبيرة مع الاستغفار» فالمراد به الحقيقي الذي تلزمه التوبة. وكان عليه السلام يكثر أن يقول: «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه». ونسبه ينسبه بضم السين، عزاه نسبا، والنسل ما يولد من ظهر الذكر وبطن الأنثى. والجمع أنسال. والعقيم الذي لا يولد له. والريح العقيم التي لا تلقح وهي ريح العذاب. ويقال في يوم القيامة اليوم العقيم، أي: لا يوم بعده. وعقمت المرأة، بالبناء للمفعول، عقما بفتح

العين وضمها وسكون القاف. وامرأة عقيم ورجل عقيم ونساء عقم إذا لم يلدن. والعمل يطلق على عمل القلب وعمل الجوارح.

الشرح: يقول رحمه الله على وجه التواضع وعدم الاعتماد على العمل: أستغفر الله مما قلت ونصحت وندبت إليه ووعظت وأوضحت من طرق الرشاد، فإن كل من يسمع هذه النصائح وتبلغه هذه المواعظ عني يفهم من بساط الحال أن المتكلم بها والمرشد إليها ما قام خطيبا يعظ ويرشد إلا وهو عامل بها ومحافظ عليها، وجار على مقتضى وعظه ونصحه المنهاج القويم والصراط المستقيم، ولست كذلك، فخدعت وأوهمت وقلت ما لم أفعل، وندبت إلى الخير وما انتدبت إليه، وتشبعت بما لا أملك، فكنت عند المخاطب بما يفهم عني كأني مالك نفسي، وغالب شيطاني، والأمر عندي بالعكس، فكنت بما أوهمت السامعين من العمل بمقتضى تلك النصائح مع كوني منها عري، بمثابة من نسب نسلا للعقيم الذي لا يولد له، فإني ندبت للعمل ولم أعمل، ونصحت غيري ولم أقبل، فمن اعتقد في أني عامل بتلك النصائح فهو بمثابة من اعتقد أن العقيم يولد له، وأني نسبت النسل لمن لا يولد له مما أوهمت ونصحت. فهذا منه على وجه التواضع واستنقاص نفسه، وإنما لم يكن كذبا لوجهين أحدهما: أنه رأى أن عمله مدخول لا يصلح للقبول فلم يعتد به. والثاني: أن السلامة من موافقة النفس والشيطان بالكلية متعذرة في غير الأنبياء عليهم السلام، فكأنه يقول: أمرتك بمخالفة النفس والشيطان في كل ما يأمرانك به وأنا لم أقدر على امتثال هذا، فكيف يصح أن أقول: وخالف النفس والشيطان واعصهما، فأمرت بالبر ونسيت نفسي فلم أعمل بكل ما أمرت، ولا انتهيت عن كل ما نهيت، فأنا حقيق بالاستغفار من هذا. وكان علي رضي الله عنه يرى الاستغفار دواء لكل مهم. روي أن رجلا دخل على علي فقال: يا أمير المؤمنين قحطنا وغلا السعر وأصبنا بالسنين، فقال له: استغفروا الله يذهب ما نزل بكم. وتشكى إليه آخر بالضعف والفقر، فقال: استغفر الله. وشكى إليه آخر بأنه لا يولد له وهو يشتهي الأولاد، فقال له: استغفر الله يكثر ولدك، وشكى إليه آخر بفساد جنته، فقال له: استغفر الله، فقيل له: يا أبا الحسن، أمرت هؤلاء كلهم بالاستغفار ومطالبهم مختلفة، فقال علي رضي الله عنه: أمرتهم بما أمر به نوح قومه فقال: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: 10] الآية، ثم قال: ونوح لم يعلم ذلك إلا بوحي. انتهى.

الإعراب: أستغفر فعل مضارع إنشائي. والله منصوب به. واختلف في اشتقاقه وجموده، فقيل مشتق من ألِهَ إذا تحير، لأن العقول تحيرت في عظمته، وقيل: من ولهت إليه، إذا ركنت، لأن الموجودات كلها تركن إليه. وقيل: من لاهت الشمس إذا ارتفعت. والله سبحانه رفيع الشأن عظيم السلطان. ومن قول بلا عمل متعلقان بأستغفر. ومن لابتداء الغاية، وبلا عمل في موضع الصفة، أي: من قول مصاحب لغير عمل. ولام لقد لام قسم. ونسبت فعل وفاعل. وبه متعلق به. والباء سببية. ونسلا مفعول نسبت. ولذي عقم متعلق به. وعقم مضاف إليه، أي: لصاحب عقم، وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفيه من البيان التمثيل فإنه مثل نفسه في نصحه ووعظه وهو غير عامل بتلك المواعظ بالرجل الذي يتوهم الناس أنه يولد له وهو بخلاف ذلك بل هو عقيم. والجامع عدم الوجود، فشبه الوعظ الذي لا ثمرة له بالعقيم الذي لا ولد له. وفيه الطباق بين القول والعمل والنسل والعقم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

28 أَمَـرْتُكَ الخَـيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ وَمَـا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ

اللغة: الأمر ضد النهي. وائتمر مطاوع أمر والخير النفع الذي لا ضرر فيه ولا معه. والائتمار: الامتثال للأمر. والاستقامة: الاعتدال في الأمور الدينية والدنيوية والدينية. تقويم الظاهر بآداب الشريعة وتقويم الباطن برياضة النفس والمشي على السنن القويم والصراط المستقيم. وفي وصيته صلى الله عليه وسلم للسائل: «قل الله ربي ثم استقم». وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ ﴾ [الأحقاف: 13] أي: نطقوا بكلمة التوحيد ثم مشوا في أمر دينهم على استقامة واعتدال.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: أمرتك الخير وأنا ما ائتمرت به، وأمرتك بالاستقامة وأنا غير مستقيم. ومن لم يمش على الجادة ولم يسلك بنفسه سبيل الاستقامة كيف ينصح غيره. ومن يغش نفسه كيف يعظ سواه، وإذا وعظ فلا يسمع منه، ولا تقبل نصيحته، فقل ما ينتفع بوعظ الواعظ، ونصح الناصح إذا لم يكن متصفا في نفسه بتلك الصفات التي ندب إليها وحض عليها. أما إن كان متصفا بها وقعت موعظته في القلب موقعا، وحلت فيه محلا مكينا، ولله در القائل:

ألا أيهـــا الـــرجل المعلـــم غيـــره هـــلا لنفـــسك كـــان ذا التعلـــيم
تـصف الـدواء لـذي الـسقام وذي الـضنا ومـــن الـضنا وجـــواه أنـــت ســـقيم
وأراك تُلقـــح بالرشـــاد عقولـــنا نـصحا وأنـــت مـــن الرشـــاد عـــديم
ابـــدأ بنفـــسك فانههـــا عـــن غـــيها فـــإذا انـــتهت عـــنه فأنـــت حكـــيم
فهـــناك يقـــبل إن وعظـــت ويقـــتدي بالقـــول مـــنك ويـــنفع التعلـــيم
لا تـــنه عـــن خلـــق وتأتـــي مـــثله عـــار علـــيك إذا فعلـــت عظـــيم

وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيطحن في النار كما يدور الحمار برحاه حتى تندلق أمعاؤه فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان، ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: نعم. كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وآتيه» أو كما قال عليه السلام، أخرجه البخاري وغيره. وكان صلى الله عليه وسلم لا يأمر بشيء إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له. وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة: 44] ما يؤذن بالإنكار على المتصف بذلك، فعقاب العالم على الزلة أعظم من الجاهل، والحمل عليه أشد لأنه عصى على بينة، وانتهك الحرمة على يقين، والمعصية في القرب أشد منها في البعد. وإن كان الجاهل لا يعذر، لكن ليس من عصي الله وهو يجهل حكم الله غير منتهك، كمن عصى الله وهو يعلم الحكم منتهكا مستخفا. نسأله سبحانه العصمة بمنه وكرمه.

الإعراب: أمرتك فعل وفاعل ومفعول. والخير مفعول ثان على إسقاط الخافض. ولكن حرف استدراك عطفت جملة منفية على جملة موجبة. وائتمرت مطاوع أمر، وبه متعلق به، وما استقمت جملة منفية معطوفة على مثلها. وما قولي: استفهامية مبتدأ. وقولي خبر. والمعنى: أي شيء قولي لك استقم ولست بأهل لأن أقول لك ذلك، واستقم جملة أمرية محكية. وبالله التوفيق وفيه من البديع الترديد في الصدر والعجز، ففي الصدر أمر وائتمر، وفي العجز استقمت واستقم. وفيه الموازنة بين استقمت وائتمرت. وبالله التوفيق

* ثم قال رضي الله عنه:

29 وَلاَ تَـزَوَّدْتُ قَـبْلَ المَـوْتِ نَافِلَـةً وَلَمْ أُصَـلِّ سِـوَى فَـرْضٍ وَلَمْ أَصُـمِ

اللغة: الزاد ما يعده المسافر للحاجة ويستعمل مجازا في الأعمال الصالحات كثيرا لأنها زاد للدار الآخرة، يجد العامل أجرها وثوابها مدخرا يوم القيامة يوم الفقر والحاجة. وقد استعمل الشعراء العمل زادا في هذا الغرض، قال الشاعر:

قالـوا اتخـذت الـزاد قلـت اقـصروا هــل يحمــل الــزاد لــدار الكــريم

وفي هذا المعنى استعمله الناظم. والنافلة والنفل: عملية التطوع، وتطلق على الحفيد. والنفَل بالتحريك: الغنيمة، والجمع أنفال. والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الاصطلاح: عبارة عن عبادة ذات إحرام وسلام أو سجود فقط. وكذا الصيام في اللغة: هو مطلق الإمساك، وفي الشرع: عبارة عن الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وما يقوم مقامهما من الفجر إلى الغروب بنية.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله متأسفا على نفسه وما مضى من عمره خاليا من نوافل الخيرات، وأنه لم يتزود قبل الموت نافلة صلاة ولا صيام، وإنما اقتصر على الفرائض من الصلاة والصيام، ففاته بذلك درجات المقربين. فإن الناس في الجنة على منازل ورتب بحسب أعمالهم. ألا ترى إلى ما ورد في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الرجل من أهل الجنة لينظر إلى الرجل فوقه كما ينظر أحدكم إلى الكوكب في السماء» لعلو درجته وارتفاع منزلته. وإذا كان عليه السلام مع حاله من العناية والكرامة عند الله يتمنى الشهادة أن يقتل في سبيل الله ثم يحيى ثم يقتل ثم يحيى ثم يقتل رغبة في الكرامة وعلو المنزلة وهو على يقين من دخول الجنة واختصاصه منها بما هو فوق الغاية، فكيف لا يتأسف على هذا المعنى من لم يشم لمقام النبوة رائحة. وهذا البيت تقرير لنفي الاستقامة عنه فيما تقدم. فإن قلت: كيف جعل تضييع النوافل مخلا بالاستقامة مع حديث ضمام بن ثعلبة لما بين له النبي صلى الله عليه وسلم الفرائض من الصلاة والزكاة والصيام قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال صلى الله عليه وسلم: «أفلح إن صدق. أو دخل الجنة إن صدق». فلولا أن فعل الفرائض وحدها استقامت ما شهد له صلى الله عليه وسلم بالجنة. فالجواب: أن الاستقامة التي نفاها عن نفسه الاستقامة الكاملة، وهي إنما تحصل في الغالب لمن أكمل فرائضه بالنوافل، فإنها جوابر ومكملات للنقص والخلل الذي يكون فيها. وأما

ضمام ففرائضه كلها كوامل بما اقتبسه من أنوار مطالعته صلى الله عليه وسلم، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. فإن قلت: كيف أقسم على ألا يزيد شيئا، وترك الوتر والعيدين والاستسقاء يوجب القدح في صاحبه ويؤدب المستمر على ذلك. فالجواب من وجهين: أحدهما أن حديث ضمام لعله كان قبل أن يشرع الوتر والعيد وسائر السنن، لأن الفرائض وحدها هي التي شرعت ليلة الإسراء. قاله الأليوري وفيه نظر. والثاني: أن يقال: لعل النبي صلى الله عليه وسلم فهم من تبيين الأعرابي أنه إنما قصد به ألا يغير أحكام الله بزيادة ولا نقصان، ولا يخالف ما أوجب الله ولا يبتدع شيئا من تلقاء نفسه من غير السنن، وأما السنن فلم يقصدها ولا خطرت له ببال. وهو جواب حسن، ونفي ذلك عنه يحتمل الحقيقة، ويحتمل أن يكون منه استقلالا لعمله وعدم الاعتماد عليها وإن صدر منه نوافل، إلا أنه لم يعول عليه فكأنه يقول: ولا تزودت كثيرة نافلة من صلاة ولا صيام، وهذا هو الظاهر والأليق بمنصب الشيخ. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ولا تزودت جملة منفية معطوفة على قوله: وما استقمت، فنفى عن نفسه الائتمار والاستقامة والتزود. وقبل متعلق بتزودت. ونافلة مفعول به. ولم أصل جملة معطوفة على قوله. ولا تزودت، وسوى ظرف عند سيبويه، وفرض مخفوض به وهو من ظروف المكان، وعند غيره اسم استثناء. واستدل سيبويه بوقوعه صلة الموصول نحو: جاء الذي سواك. ولو كان اسما لم يقع صلة. ولم أصم معطوف على لم أصل وحذف المفعول، أي: ولم أصم سوى فرضي. والله تعالى أعلم. وفيه الطباق بين الفرض والنفل، وفيه استعارة الزاد للنافلة. وفيه الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

30 ظَلَمْـتُ سُـنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى ... أَنِ اشْـتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

اللغة: الظلم وضع الشيء في غير محله، ولذا قيل: لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. والظلم أيضا النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [الكهف: 33]، أي: لم تنقص. والسنة: الطريقة والسيرة. وإحياء الظلام يستعمل عرفا في قيام الليل كله، والمراد أنه كان حيا

مستيقظا الليل كله، على وجه نهاره صائم وليله قائم، أي: هو صائم النهار كله وقائم الليل كله. وكذلك كان عليه السلام قائما مجتهدا جل الليل أو كله. والضر بضم الضاد سوء الحال، وبفتح ضد النفع. والورم النفخ. والشكوى: التشكي ويكون بلسان الحال والمقال، والمراد هنا الأول، كقول الشاعر:

شكى إلي جملي طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: ظلمت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان شأنه التهجد وقيام الليل ومكابدة النفس بالسهر والاجتهاد وطول القيام، واستمر ذلك دائما إلى أن تفطرت قدماه الشريفتان وتورمتا بكثرة ما حملهما من التعب والاجتهاد، فقد بخست نفسي سنته ونقصتها ولم أضع هذه السنة في موضعها. ولم يقل: ظلمت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشويقا للمتابعة على هذا العمل، وتنبيها على الوصف الذي يستحق به الاتباع، فكأنه يقول: من كان شأنه في العبادة هذا الشأن، وسيرته في العبادة هذه السيرة، وجعله عليه السلام محييا للظلام مجازا، فإن الظلام لا يوصف بحياة، ولكن لما كان عليه السلام مستيقظا الليل كله عاكفا على التهجد والقيام بين يدي مولاه، جعله الناظم محييا للظلام. وقد وردت أخبار في قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهجده، فمن ذلك ما رواه عوف بن مالك قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستاك ثم توضأ وقام يصلي فقمت معه فاستفتح سورة البقرة، فكان لا يمر بآية تسبيح إلا سبح ولا آية تعوذ إلا استعاذ ولا آية رحمة إلا وقف وسأل ثم ركع ورفع رأسه فقال بعد قيامه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك. ثم قرأ سورة آل عمران ثم سورة بعد سورة يفعل ذلك يعني في ركوعه وسجوده. ومن ذلك ما أخرجه النسائي عن حذيفة بن اليمان قال: صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتح سورة البقرة فقلت: يركع عند تمام المائة فمضى، فقلت: يركع عند تمام المائتين فمضى، فقلت يصلي بها ركعته فمضى، ثم استفتح سورة النساء ثم آل عمران، فكان لا يمر بآية تسبيح إلا سبح ولا آية تعوذ إلا تعوذ، وكان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده سبحان ربي الأعلى. وصلاته عليه الصلاة والسلام بهذه السور كانت مع ترتيل وتدبر ودعاء وتضرع فلا يتصور قراءة هذه السور على هذا الحال إلا مع استغراق الليل أو جله. وفي البخاري وغيره: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له:

أتتكلف هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا». انتهى. وقد اختلف في قيام الليل في حقه عليه السلام، هل كان مندوبا أو واجبا، وعلى الوجوب هل نسخ في حقه عليه السلام أم لا. المشهور أنه استمر واجبا عليه الصلاة والسلام، وأما في حق غيره صلى الله عليه وسلم فالمشهور أنه كان واجبا مرة ثم نسخ. قال ابن حبيب: كان فرضا قبل أن تفرض الصلاة، فلما فرضت نسخ، كما أن صيام عاشوراء كان واجبا، فلما فرض رمضان نسخ وجوبا وبقي مندوبا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب في قيام الليل ويحض عليه، ففي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا مقبورا ومبعوثا». قال: نعم، قال: «فقم من الليل وصل وأنت تريد رضى ربك، يا أبا هريرة، صل في زوايا بيتك يكون نور بيتك في السماء كنور الكواكب». وقد ورد أن المتهجد بالليل يبكي عليه موضع مصلاه بالأرض ومصعد عمله في السماء. وكان عليه السلام إذا قام من الليل نظر إلى الأفق ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 164] خواتم آل عمران. فينبغي الاقتداء به عليه السلام.

وفي قيام الليل فوائد، منها الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها ما فيه من الأجر العظيم والفخر الجليل، ففي الحديث: «ما بعد الصلاة المفروضة أفضل من قيام الليل». وكان بعض السلف يقول: لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال بعضهم: لذة قيام الليل ليست من الدنيا في شيء إنما هي من نعم الآخرة عجلها الله لأوليائه. ورئي الجنيد في النوم بعد موته فقيل: ما فعل الله بك، فقال: طاحت تلك الإشارات واضمحلت تلك العبارات وما انتفعت إلا بركيعات كنت أركعها في السحر.

ومنها: أن الله تعالى أثنى على قوّام الليل فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذاريات: 17]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان: 64]. ومنها موافقة القائم الساعة التي في الليل يستجاب الدعاء فيها. ومنها ما فيه من تنزل الرحمات وهبوب النفحات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» ينزل ربنا حين يبقى الثلث الأخير من الليل فيقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر». فهذا يقتضي إجابة الداعي وإعطاء السائل. ومنها ما فيه من تمحض الإخلاص والسلامة من الرياء وعدم ملاحظة

الخلق، إذ لا يتكلف القيام ويؤثره على المنام إلا كامل الإيمان صادق اليقين. ومنها ما فيه من بركة العمر وزيادته، لأن النوم موت واليقظة حياة، فإذا قام الليل فقد زاد في عمره، وإذا نام نقص منه، لأن الليل نصف الزمان، فمن نام الليل كله فقد نقص نصف العمر، ومن قام الليل فقد قام النصف من عمره. ولله درّ القائل:

إذا عاش الفتى ستين حولا ... فنصف العمر تمحقه الليالي
ونصف النصف يمضي ليس يدرى ... لغفلته يمينا عن شمالي
وثلث العمر آمال وحرص ... وشغل بالمكاسب والعيال
وباقي العمر أسقام وشيب ... وآفات تدل على انتقال

ومنها أنه يأخذ حظا من المقام المحمود وإن كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن لما رتبه على قيام الليل كان كل من وافقه عليه السلام عليه نال من المقام المحمود على قدر رتبته ومقامه. ومنها بهجة وجه القائم وبهاؤه بقوله عليه السلام: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». ومنها أنه يطرد الداء عن الجسد. ومنها سلامته من بول الشيطان. ففي الحديث: «إن العبد إذا نام أيقظه الملائكة ثلاث مرات، فإن استيقظ وقام لتهجده وإلا بال الشيطان في أذنه». ومنها تسمّع الملائكة لقراءته وفرحها بها، وكذا عوامر الجن. وقد تقدم أن بيته يرى نوره في السماء كالكوكب. وفقنا الله تعالى لقيامه بمنه وكرمه، وبسيدنا محمد نبيه صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: ظلمت فعل وفاعل. وسنة مفعول به. ومن في موضع خفض بالإضافة. وأحيا الظلام صلتها. والظلام مفعول به. والفاعل رابط. وإلى غاية، وأن اشتكت مجرور، أي: إلى أن انتهت حالته إلى الشكوى. والضر: مفعولٌ به. ومن ورم متعلق باشتكت. ومن ابتدائية ويصحبها التقليل. وبالله التوفيق. وفيه من البيان، الاستعارة في ثلاث مواضع، في قوله: ظلمت أطلق على الترك الظلم وفي قوله: أحيا الظلام جعل القيام إحياء، والعلاقة الشعور. وفي قوله: اشتكت قدماه، وفيه تجنيس الاشتقاق في قوله: ظلمت. والظلام وفيه تحسين التخلص وفيه الاقتباس. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

31 وَشَـدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى ... تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا مُتْرَفَ الأَدَمِ

اللغة: السغب: الجوع. يقال: سغب يسغب سغبا إذا جاع فهو ساغب وسغبان.

والمسغبة المجاعة. والأحشاء جمع حشا وهو ما انطوت عليه الضلوع. والكشح الخاصرة وقيل ما بين الخاصرة إلى الضلع، يقال: طويت كشحي عن الأمر إذا أضمرته. ومترف الأدم أي ناعم الجلد، والأدم الجلد فالمترف المنعّم. يقال أترفته النعمة أي طغته.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله تعالى: قد انتهى الزهد برسول الله صلى الله عليه وسلم والتقلل من الدنيا وعدم المبالاة بها، إلى أن كان يشد الحجر على بطنه من الجوع، بعد أن خيره الله بين أن يكون نبيئا ملكا أو نبينا عبدا فاختار العبودية. وبعد أن عرض عليه أن يصير جبال تهامة معه ذهبا وفضة فأعرض عنها، كما يأتي إن شاء الله. وهذا من الناظم تخلص للمدح المقصود من هذه القصيدة. والمدح يكون بأمور موجودة في الممدوح، منها ما يرجع لكسب الممدوح. ومنها ما يكون شجية وطبعا فيه. ومنها ما يكون منحة يخصه الله بها ليس في طوق البشر كالمعجزات للنبي والكرامات للولي. فابتدأ الناظم رحمه الله بالمدح على النوع الأول الذي فيه نوع كسب ورآه أولى بالتقديم إذ فيه التخلق بالعبودية وإظهار عز الربوبية، لأن من قهر نفسه وكلفها وشدد عليها في رضى مالكها بقيامه بين يديه في الليل يناجيه ويتلوا كتابه، فقد أظهر ذل العبودية وعز الربوبية. ثم أعقب ذلك بالصبر على الجوع وتحمل مشاقه لأجل ما تضمنه من المصالح والفوائد كما تقدم. والحكمة في وضع الحجر عند الجوع أن الحجر فيه برودة زائدة على غيره، والجوع مظنة الانحراف واشتعال الكبد. ومنه الصفر فإذا وضع الجائع الحجر على بطنه دفع حرارة الكبد وانحراف الجسم برودة الحجر، مع دفع ما يتوقع من الأخلاط بشد الأحشاء، فكل ذلك أدفع للألم وأبقى للعضو. وكان عليه السلام مع ما كان عليه من التقلل من الطعام وعدم الشبع ناعم الجسم من غير تنعم ومترف الأدم من غير ترف. وإنما ذم الله المترفين لأن ترفهم كان بأسباب من التنعم، بالمطاعم ولذة المشارب، فانصرفت هممهم لما يدخل في بطونهم فكانوا عبيد بطونهم وشهواتهم فلذلك كان ترفهم مذموما. وأما ترفه صلى الله عليه وسلم ونعومة بدنه الطاهر فلم يكن عن أكل كثير ولا بأطعمة متنوعة، بل بجود إلهي وخصوصية ربانية وعناية سابقة، فقد كانت الأيام تمر عليه لا يذوق طعاما كما هو معلوم من شمائله عليه السلام. وإلى هذا أشار الناظم بقوله: وشد من سغب، أي جوع أحشاءه، أي: ما اشتملت عليه بطنه. وطوى تحت الحجارة كشحا أي: ما بين

خاصرتيه مترف الأدم، أي: منعم الجلد والبشرة خرقا للعادة، إذ غالب من كان يقلل الأكل أن ييبس جلده ويبدوا عظمه، وهو صلى الله عليه وسلم لم يزده ذلك إلا نعومة وخصبا. وما أشار إليه الشيخ من شدّ الحجر من الجوع وتقلّله عليه الصلاة من الطعام معلوم، فقد جاء إليه الصحابة رضي الله عنهم في غزوة الخندق يشتكون إليه شدة الجوع، فكشفوا عن بطونهم وقد شدوا عليها حجرا حجرا، فكشف صلى الله عليه وسلم عن بطنه حجرين. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز بر ثلاث ليال تباعا حتى لقي الله عز وجل. ولم يبث شكوى لأحد. وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع ولا يمنعه ذلك من صيام يومه. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد كنت أبكي لما أرى به من الجوع، وكنت أمسح بيدي على بطنه وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: «يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مثواهم، فأجدني إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم، وما شيء أحب إلي من اللحاق بإخواني وأخلائي». قالت عائشة رضي الله عنها: فما أقام بعد شهر حتى لحق بالله عز وجل. وكان عليه السلام مع ما كان عليه قد أعطي من قوة البدن وشدة أعضائه ما لم يبلغه بشر، فكان أقوى الناس وأشدهم، قد صرع ركانة مرارا، وكان عليه السلام أسرع الناس في مشيه كأن الأرض تطوى له مع السكينة والتؤدة. وقال أنس رضي الله عنه: كان صلى الله عليه وسلم قد أعطي في الجماع قوة أربعين رجلا كان يطوف على نسائه إحدى عشرة في ساعة، ويتطهر من كل واحدة. وكان عليه السلام يصبح كحيلا دهينا أجمل من القمر ليلة البدر. وتقلله عليه السلام واكتفاؤه بالقليل منه معلوم قد تواترت به الأخبار، واشتهر غاية الاشتهار، وقد شفا في ذلك صاحب الشفا. وقد ذم الشارع الشبع ومدح الجوع وأثنى على المتصف به، قال عليه السلام: «أفضلكم منزلة عند الله أكثركم جوعا وعطشا وتفكرا، وأبغضكم إلى الله كل نئوم شروب أكول». وقال عليه السلام: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء». وقال لأسامة رضي الله عنه: «إن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وفمك ظمآن. فافعل فإنك تدرك بذلك شرف المنازل، أو تحل مع النبيين، وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار». وقال عليه السلام: «إن الشيطان يجري

من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش». وكان السلف الصالح رضي الله عنهم يعدون الابتلاء بالجوع كرامة. وروي أنه لا يُبلى بالجوع إلا الأمثل، فالأمثل ومن له عند الله خطر وله به عناية. وكان الفضيل يقول: أجعتني وأجعت عيالي فبأي وسيلة نلت هذا منك؟ وإنما تفعل هذا بأوليائك، فليت شعري هل أنا منهم فأفرح. وكان عبد الرحمان بن يزيد يقسم بالله أن الله تعالى ما صافا أحدا إلا بالجوع، ولا مشوا على الماء إلا بالجوع، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع. وقد تقدم أن الجوع المفرط مذموم وخير الأمور أوسطها، ثلث للطعام وثلث للماء وثلث للنفس. وبالله التوفيق. ومن أراد فوائد قلة الأكل فلينظر الإحياء، وقد نقلت منه جملة صالحة في شرح الهمزية عند قوله ألف البطنة. الخ. فليراجعه من أراده. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإعراب: وشد معطوف على أحيا. ومن سغب لابتداء الغاية، أي: غاية الشد من السغب، ويصحب من هنا التعليل يتعلق بشدوا. أحشاءه مفعول به. وطوى معطوف على شد وفاعلها ضمير المصطفى صلى الله عليه وسلم. والظرف يتعلق بطوى. وكشحا مفعول به. ومترف الأدم صفة لكشح، والإضافة بمن محضة، ولذلك وصفت النكرة بها لأنها في نية الانفصال، فهو بمنزلة قولك: مررت برجل حسن الوجه. وفيه من البيان الاقتباس. وفيه الإيقال وهو الإتيان بجزء بعد تمام الكلام لزيادة معنى. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

32 وَرَاوَدَتْـهُ الجِبَـالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَـنْ نَفْـسِهِ فَأَرَاهَـا أَيَّـمَا شَـمَمِ

اللغة: المراودة الملاطفة في السؤال لغرض من الأغراض. يقال: راودت زيدا، إذا استدعيته لأمر بملاطفة. وأكثر استعمال هذه المادة فيما يكون بين النساء والرجال، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ [يوسف: 23]. واستعملها الناظم في غير الأكثر. والشم جمع أشم وهو الطويل الرأس من الجبال، مثل الصم جمع أصم والعمي جمع أعمى. والشمم ارتفاع قصبة الأنف يعبر به عن الإعراض عن الشيء وعدم الالتفات إليه. وأراها أظهر لها وأبصرها والشمم الارتفاع.

الشرح: قد مرّ أن المدح يكون إما على أمور كسبية في الجملة، كالقيام

والزهد. وإما على أمور غريزية جبل عليها، كالكرم والشجاعة. وإما على أمور خارقة للعادة لا نسبة فيها للعبد، كالمعجزات والكرامات. ومراودة الجبال لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك. ومعنى البيت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتهت حاله باعتبار الزهد في الدنيا والإعراض عنها إلى أن راودته الجبال العالية، وتلطفت له أن تنقلب له ذهبا تسير معه حيث سار، وتكون معه حيث كان كرامة له وإعلاما برتبته عند الله وعلو منزلته، فأعرض عنها ورفع أنفه عليها فأراها أيما شمم، أي شمما عظيما، فلم يلتفت إليها ولا مال نحوها ولا خدعته بزخرفها ولا غرته بفتنتها. ونسبة المراودة لها مجاز، وإنما راوده الملك بها عن الله سبحانه. وأشار الناظم رحمه الله إلى ما ورد في الحديث: أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: إن الله يقرئك السلام وقال لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهبا وفضة تسير معك حيث سرت، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه ساعة ثم قال: يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، وإنما يجمعها من لا عقل له. فقال جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت. وفي حديث آخر عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا وفضة، فقلت: يا رب أجوع يوما وأشبع يوما، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك». وأراد بالشبع ما يقابل الجوع، وإنما كان شبعه صلى الله عليه وسلم ما يمسك حياته وصحته، قالت عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعا قط. وقال عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير. انتهى. وينبغي لورثته صلى الله عليه وسلم من العلماء والأولياء الاقتداء بالرسول الذي تشرفوا بالوراثة عنه في الإعراض عن الدنيا وعدم الالتفات إليها شغلا بما كلفوه من وظائف العبودية من نشر العلم وتحقيقه، وحفظ العمل وتصحيحه، وكذلك ينبغي للأولياء ألا يلتفتوا للكرامات وخوارق العادات، ولا يتشوفوا لشيء من ذلك، فإن أعظم الكرامات عند المحققين الاستقامة في الظاهر والباطن. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إنما هما كرامتان محيطتان جامعتان، تحقيق كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى

غيرهما فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضى، وكل كرامة لا يصحبها الرضى من الله وعن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مبتور. انتهى كلامه نفعنا الله به، ورزقنا من كرامة الاستقامة الحظ الأوفي بمنه وكرمه، وبسيدنا ومولانا محمد نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

الإعراب: وراودته الجبال فعل ومفعول مقدم وفاعل مؤخر، والمفاعلة هنا غير حقيقية بل مثل: سافر وعالج المريض وعافاه الله. والشم صفة للفاعل. ومن ذهب حال من الجبال، حال مقدرة كقولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا. ومن لبيان الجنس أو لابتداء الغاية. وعن نفسه متعلق براودته. وقوله فأراها فعل وفاعل ومفعول والضمير للنبي صلى الله عليه وسلم. والرؤية بصرية وتعدت للثاني بالهمزة، وفي الفاء معنى الترتيب والتعقيب. وأيما مفعول ثان لأرى. والمعنى فأراها شمما أي شمم فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، كقول الشاعر:

إذا حارمه الحجاج أيّ منافق علاه بسيف كل ما هز يقطع

أراد منافقا أي: منافق، فاستغنى بالصفة عن الموصوف. وما في قوله أيما مخفوض بإضافة أي إليه. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الاستعارة في قوله: وراودته الجبال. فإن قلت: لعل هذا من المجاز العقلي، وهو أن يكون المجاز في الإسناد ويكون مما طرفه الواحد مجاز وهو راودته، فيكون كقولك أحيا البقل زمان الربيع. فالجواب أن المجاز العقلي لا بد أن يكون فيه فاعل متروك ويكون الإسناد إليه حقيقة نحو: أحيا البقل زمان الربيع، بخلاف ما في النظم. وفيه رد العجز على الصدر. وفيه التتميم في قوله الشم. وفيه الاقتباس. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

33 وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لاَتَعْدُو عَلَى العِصَمِ

34 وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ لَوْلاَهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ العَدَمِ

اللغة: يقال أكد تأكيدا ووكد توكيدا، إذا اشتد في طلب شيء. والزهد: ترك الشيء والرغبة عنه وصرف الخاطر عن الفكر فيه والالتفات إليه، سواء كان ذلك مع التمكن منه والقدرة عليه، أم لا، إذا لم تستشرف نفسه لذلك ولا تشوفت له، وسواء

كان الزاهد محتاجا للشيء المزهود فيه أو غير محتاج، إلا أن الزاهد في الشيء مع الحاجة إليه والقدرة عليه، هي المرتبة العليا في الزاهد، والمتصف بهذه الصفة هو الزاهد الحقيقي. والضرورة والاضطرار: شدة الحاجة إلى الشيء. والعدا: الظلم والغلبة. والعصم جمع عصمة، كحرفة وحرف ومرية ومرى، والأعصم: طائر يأوي إلى شاهق الجبال. ودعوت إلى الشيء طلبت الإتيان إليه والإقبال إليه. والعدم ضد الوجود، وهو سابق للكون ولاحق له. والدنيا اسم لهذه الدار، والآخرة اسم لما بعد البعث، وسميت دنيا من الدنو لدنوها وقربها، وأصلها دنوا فقلبت الواو ياء كعليا، أو من الدناءة لخستها عند الله تعالى، يقال لرجل دني وامرأة دنيا. والله تعالى أعلم.

الشرح: يقول الناظم: ومما يدلك على تأكيد زهده صلى الله عليه وسلم، وشدة رفع همته، احتياجه في الظاهر إلى الأخذ منها، ومع ذلك لم يلتفت إليها، ولا تعلقت همته العالية بها، مع أن شأن الضرورة إلى الشيء يثمر الحرص عليه والرغبة فيه. وهذا يدل على أن زهده صلى الله عليه وسلم كان اختياريا، فقد سيقت إليه صلى الله عليه وسلم الدنيا بحذافيرها، وهاداه الملوك خوفا منا. وجلبت إليه الغنائم، ومع ذلك يبيت طاويا، ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة، إلى غير ذلك مما لا يحصى من الأخبار التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم قد تمكن من أخذ الدنيا فأعرض عنها رغبة فيما عند الله تعالى وموافقة لمحاب الله تعالى، لأن الدنيا مبغوضة لله سبحانه، فمن وافقه سبحانه في بغضها أحبه الله واجتباه. قال صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها جرعة ماء». وفي بعض الأخبار: منذ خلق الله الدنيا ما نظر إليها، ولما خلق الله الدنيا قال للبعوضة اشتريها مني، فقالت بماذا يا رب؟ فقال: بأحد جناحيك، فقالت وما نصنع بالباقي، فقال: اهبطي إلى الأرض وانبسطي فيها: فقالت: لا حاجة لي بشيء يعطل حياتي. ذكره الشيخ زروق رضي الله عنه في بعض كتبه. وقد كان عليه السلام عرف الدنيا وخساستها عند الله تعالى، لأن الله سبحانه قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [محمد: 36] الآية. وقال: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: 24] الآية. قال ابن العربي رحمه الله: في تمثيل الدنيا بالمطر فوائد، الأولى: أن المطر لا يستنزل من السماء بحيلة، كذلك الدنيا لا تنال إلا بالقسم، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف: 32]

الآية. الفائدة الثانية: أن المطر يتنزل بالسؤال والرغبة والتضرع، كذلك الدنيا وأرزاقها ملتمس بالرغبة والدعاء. الفائدة الثالثة: أن المطر في موضع سبب الحياة، وفي موضع آخر سبب الخراب، كذلك المال هو لمستحقه سبب الطاعات بإنفاقه في سبيل الخير، ولغير مستحقه سبب في الهلاك والطغيان بإنفاقه في أنواع العصيان. الفائدة الرابعة: أن المطر إذا نزل بقدر الحاجة نفع، وإن نزل أكثر من الحاجة ضر، كذلك المال إذا كان قدر الحاجة نفع صاحبه وتنعم به، وإن زاد ضر صاحبه وطغى به، وربما فرط في حقوقه، أو استغرق به في حظوظه. انظر بقية كلامه في الأليوري. ثم بين الناظم رحمه الله أن الضرورة التي بسببها يرتكب الإنسان الحرص على الدنيا والتكثر منها لا تعدوا على المعصوم ولا يتضرر بها، ولا يقع في مكروه بسببها بل هو محفوظ بعين الرعاية، ومكلوء بسابق العناية، وأفضلهم في ذلك وأعظمهم من ظهر الوجود بسببه، وأمدت الأكوان من نوره، سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ولذلك تعجب الناظم بقوله: وكيف تدعوا إلى الدنيا الخ، أي: وكيف تدعوا إلى طلب الدنيا والميل إليها ضرورة مخلوق عظيم لولاه لم تخرج هي من العدم. من كان سببا في خلق الدنيا كيف يحتاج إليها وإنما خلقت لأجله، فلا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة، لذهب كما قيل الموسوط، ولله در القائل:

ما خير من دفنت في الترب أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
أنت الرسول الذي ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا ما زلت القدم
لولاك ما خلقت شمس ولا قمر ... ولا نجوم ولا لوح ولا قلم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قاله بعض الفضلاء في زيارته لقبره الشريف. وأنشد بعض المتأخرين في هذا وأحسن كل الإحسان:

يا مصطفى وتمام الكون من سطعت ... عن كل من أنت في إيجاده سبب
فأنت لولاك ما كان الوجود ولا ... زانت مظاهره شمس ولا شهب
دنوت للخلق بالألطاف تمنحها ... وأنت للملأ العلوي تنتسب
كالشمس في الأفق العلو مجرتها ... والنور منها إلى الأبصار مقترب

قال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة وذرء البريئة وإبداع المبدعات نصب الخلق في صور كالهباء، قبل دحو الأرض

ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته، وتوحيد جبروته، فأساخ نورا من نوره، فلمع قبس من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوفق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطح البطحاء، وأمرج الماء وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، ثم أخفا الله الخليقة في غيبه، وغيبها في مكنون علمه، ثم نصب العوالم وبسط الزمان، ومرج الماء وأثار الزبد وهاج الريح، فطفى عرشه على الماء، فسطح الأرض على ظهر الماء، ثم استجابها إلى الطاعة، فأذعنت بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار ابتدعها، وأنوار اخترعها، وقرن بتوحيده نبوة محمد صلي الله عليه وسلم، فشهدت بنبوته في السماء قبل مبعثه في الأرض، فلما خلق الله آدم بانَ فضْله للملائكة، وأراهم ما خصه به من سابق العلم حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء، فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة، أسجد إليها الأبرار، والروحانيين والأنوار، ثم نبه آدم على مستودعه، وكشف له خطر ما ائتمنه عليه، بعد أن سماه إماما عند ملائكته، فكان له حظ من الخير نبأ، ونصفه مستودع نور، ولم يزل الله يخبأ النور تحت الزمان إلى أن فصل محمدا صلى الله عليه وسلم ظاهر القنوات، فدعا الناس ظاهرا وباطنا، وندبهم سرا وإعلانا، واستدعى صلى ألله عليه وسلم التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذر قبل النسل، فمن وافقه قبس من منساخ النور المتقدم اهتدى إلى سره، واستبان واضح أمره، ومن أبلسته الغفلة استخفه السخط. انتهى كلامه رضي الله عنه وأفاض علينا من بحر معارفه وعلومه آمين. ولا يستغرب مثل هذا منه وهو باب مدينة علمه صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: وأكدت زهده فعل ومفعول. وضرورته فاعل والضمير أن للنبي صلى الله عليه وسلم. والجملة معطوفة على راودته. وفيها متعلق بزهده. وإن واسمها وخبرها سيق مساق العلة. ولا تعدوا خبر إن، أي غير عادية. وعلى العصم متعلقة بتعدوا. وكيف اسم استفهام أو ظرف على قول سيبويه، فالتقدير على الأول على أي حال تدعوا إلى الدنيا ضرورة من الخ وعلى الثاني في أي حال تدعوا الخ. وضرورة فاعل بتدعوا ومن مخفوض بإضافة ضرورة إليه وهي موصولة فعائدها ضمير لولاه أو موصوفة. ولولاه وما بعده في موضع الصلة أو الصفة. ولولا حرف امتناع لوجود والضمير بعدها قيل مجرور وهو مذهب سيبويه. ولولا هنا جارة، وقيل مرفوع بالابتداء

وهو مذهب الأخفش. ووضع ضمير الجار موضع ضمير الرفع، وأصله لولا هو، وعلى مذهب سيبويه فهل يتعلق أم لا قولان. وجعل من موصولة أولى بالمقام، لأن التقدير، وكيف تدعوا إلى الدنيا ضرورة، هذا الذي اشتهر صيته وعم ذكره الآفاق. ولم تخرج الدنيا جواب لولاه، والدنيا فاعل تخرج، وأصلها دنوا كما هو قياس فعلى الصفة، وعكسوا هذا في فعلى الاسم فقالوا تقوى وأصلها وقيا ثم وقوى ثم تقوى كما هو مقرر في محله. ومن العدم لابتداء الغاية.والله تعالى أعلم. وفيهما من البيان ضرب المثل في قوله: إن الضرورة الخ وفيها التعطف في قوله: ضرورته إن الضرورة. وفيهما المجاز الإسنادي أي العقلي في قوله تدعو إلى الدنيا ضرورة الخ. والأصل، وكيف تدعوه نفسه إلى الدنيا بسبب الضرورة. والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث

في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

* بدأ هذا الفصل بقوله رحمه الله:

35 مُحَمَّـدٌ سَـيِّدُ الكَوْنَـيْنِ وَالثَّقَلَـيْـ ـنِ وَالفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

اللغة: محمد علم على ذاته الشريفة صلى الله عليه وسلم، وهو أشهر أسمائه صلى الله عليه وسلم وألذها سماعا وأشوقها إلى الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، وهو منقول من الصفة، وأصله: اسم مفعول من حمد المضعف، ثم نقل وجعل علما عليه صلى الله عليه وسلم، وهو من صيغ المبالغة معنى، إذ الثلاثي تضعف عينه لقصد المبالغة، فكان الأصل محمودا، من حُمِدَ مبني للمفعول، ثم ضعف فصار الفعل حمّد بالتشديد والمفعول محمد بالتضعيف كذلك، وذلك لتكرار الحمد له المرة بعد المرة، فالمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمدا، ولا يكون مفعل مثل مضرب وممدح إلا لمن تكرر منه الفعل مرة بعد أخرى فهو اسم مطابق لذاته، ومعناه صلى الله عليه وسلم، إذ ذاته محمودة على ألسنة العوالم من كل الوجوه، حقيقة وأوصافا، وخلقا وخلقا، وأعمالا وأحوالا، وعلوما وأحكاما، فهو محمود في الأرض ومحمود في السماء، وهو أيضا محمود في الدنيا والآخرة بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وفي الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي، ومع ذلك هو الحامد إذ ما حمده أحد إلا بما علمه إياه إذ هو نبي الجميع، فهو الحامد له على الإطلاق، وبحمده لله حمده الله على ألسنة عباده، فهو الحامد المحمود، إلا أنه خص من حيث تنزل الأمر ومبدا الفاعلية بالأحمدية، ومن حيث بلوغ الأمر ومنتهى المفعولية بالمحمدية. فكان اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، فهو صلى الله عليه وسلم خير من حُمد، وأفضل من حمد على التحقيق، لم يحمد ولم يحمد إلا هو، وكيف لا ولواءُ الحمد بيده، وهو صاحب المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون. انتهى، غالب هذا الكلام للشيخ أبي عبد الله المكي في شرح الحاجبية، نقله شارح الدليل. وأما نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد

مناف بن قصي بن كلاب بن مرة من كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان. وورد عنه صلى الله عليه وسلم: «لا ترفعوني فوق عدنان». والسيد الذي يلجأ الناس إليه في أمورهم. والكونان: موجودات الدنيا والآخرة. والثقلان: الإنس والجن، وسموا ثقلين لثقل ظهورهما بالذنوب. والفريقان فسرهما الناظم بالعرب والعجم، ويحتمل أن يكون أراد بالكونين الدنيا والآخرة فيكون معنى سيد الكونين سيد أهل الدنيا والآخرة. فعبر بالكونين عن أهل دار الدنيا وأهل دار الآخرة.

الشرح: يكون الناظم رحمه الله بعد أن ذكر أوصاف المدح ذكر المقصود بالمدح وهو سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فذكر أنه سيد الكونين: الدنيا والآخرة، والثقلين: الجن والإنس، والفريقين: العرب والعجم. ولا ريب فيما ذكر رضي الله عنه، أما كونه سيد الكونين فقد تقدم أن خلق الدنيا والآخرة والجنة والنار إنما كان لأجله صلى الله عليه وسلم، كما أفصح بذلك سيدنا علي رضي الله عنه في كلامه المتقدم فراجعه، هذا إن أراد بالكونين ذاتهما، وأما إن أراد أهلهما فلا شك أيضا أنه سيدهما، أما في الدنيا فقد كان المؤمنون يلتجئون إليه في الشدائد والنوائب المهمات ويلجئون إليه في أمر دينهم من بذل النصيحة والإرشاد، فسلكوا على منهاجه القويم، ونهجوا على طريقه المستقيم، حتى أوصلهم إلى النعيم المقيم. وأما سيادته للكفار فلكونه سببا لرفع العذاب عنهم في الدنيا، وإمهالهم إلى الآخرة. وقد كان من قبلهم من كفر عوجل بالعقاب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] وقد كان خير عليه السلام في أن يطبق عليهم الأخشبان، وهما جبلان بمكة، فأشفق صلى الله عليه وسلم ورحم كما هو خلقه الكريم وقال: «أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ويوحده» وقال تعالى لنبيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ [الأنفال: 33] والضمير للكفار. أخبر الله تعالى أنه رفع عنهم العذاب بعد أن استحقوه لكونه بين أظهرهم صلى الله عليه وسلم. وأما سيادته للملائكة فقد أمرهم الله تعالى بالصلاة عليه وتعظيمه ونصره في حروبه وصلى بهم ليلة الإسراء حتى قال بعض المحققين: إنما أسرى الله بنبيه صلى الله عليه وسلم ليقتبس من أنواره أهل السماوات، كما اقتبس منه أهل الأرض. وأما سيادته صلى الله عليه وسلم للجن

فلا شك أنه مرسل إليهم وهم مكلفون بالإيمان والعمل بما جاء به كما وردت الأخبار الصحاح، وهو نص القرآن العظيم في جن نصيبين واختلف في عددهم فقيل سبعة وقيل تسعة. وفي صحيح مسلم أن بات عندهم وعلمهم وقرأ عليهم القرآن. وروي أنه قرأ عليهم سورة الرحمان، فكان إذا قال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 13] قالوا لا بشيء من آلائك نكذب ربنا لك الحمد، ولما ولت هذه الطائفة نفرت في البلاد تنذر الجن وترشدهم وتبين لهم ما عقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وتعلموا منه، وقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا ﴾ [الأحقاف: 30] الآية ولا مرية في عبادة مؤمن الجن وقراءتهم القرآن، وقد نقل قراءتهم على بعض الشيوخ ممن كان له قدم في العلم. ونقل الشيخ أبو عبد الله الأليوري عن شيخه أبي سعيد قال: نقل عن بعض العلماء من السلف الصالح وأرباب الولايات أنه كان يجلس للطلبة يقرءون عليه القرآن، وأن بعض مؤمني الجن كان يقرأ معهم عليه، وأن ذلك الجن جاء يوما للشيخ فسلم عليه مودعا وقال: يا سيدي إن عزيمتنا اليوم قوية في الخروج لقتال قوم من كفار الجن وقتلهم ابتغاء الأجر ورجاء الثواب من الله، فإن قضى الله بالسلامة وبلوغ الأمل فيهم فلا بد لي من الرجوع إليك والجلوس بين يديك، وإن قضى الله بالشهادة فبيني وبينك قصبة تنزل بين يديك في موضع إقرائك، فإذا رأيت ذلك فاعلم أني قد استشهدت فترحم علي واسأل لي الرحمة من الأصحاب والدعاء من الحاضرين. فبينما الشيخ في حلقة بعض الأيام، والطلبة بين يديه وهو مشتغل بالإقراء وقد مرّ على خاطره ذلك الوعد، وإذا بالقصبة قد سقطت بين يديه في الحلقة فتذكر الشيخ وبكى وترحم، وسأل من الطلبة الدعاء له بالرحمة والمغفرة. انتهى. وقال أيضا: وقد شوهد كثيرا من المصروعين ممن لا يحسن قراءة آية واحدة إذا صرع يتلوا الجن على لسانه أجمل تلاوة، ويحسن فيها كل الإحسان، قال: ولقد حدثني شيخي أبو سعيد أنه كان له عجوز تربي أولاده وكانت لا تحسن أن تقرأ، وكان تعب معها في حفظ الفاتحة وسورة تصلي بها، فبعد جهد حفظت الفاتحة، فقدم ذات يوم من سفر فجاءت العجوز وسلمت عليه وجلست تتحدث معه، ثم التفت إلى العجوز فوجدها متغيرة اللون، ثم صرعت من حينها، قال: ورأيت من حالها ما أفجعني، فقلت: أقرأ عليها شيئا من القرآن لعله يخفف عنها من بركته، فجلست إليها وقلت لها، فقالت بصوت منكر غير صوتها المعهود: تكون أنت أقرأ مني ذلك لا يكون، فقلت لها: ومتى كنت أنت قارئة؟ وعهدي بك لا

تحسني الفاتحة؟ فقالت أي شيء تريد أن أقرأ لك؟ قال ولم يكن علي أصعب من حزب ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ ﴾ [العنكبوت: 46] فقلت لها اقرأ حزب ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ ﴾ [العنكبوت: 46] فاستفتحت الحزب من أوله واستمرت تقرأ قراءة حسنة حتى فرغت من العنكبوت، فافتتحت سورة الروم حتى أتت على آخرها، ثم افتتحت سورة لقمان حتى انتهت إلى الحزب بفصاحة وترتيل وقراءة حسنة وأنا أنظر إليها وأعجب من شأنها، فقلت له: لقد تعجبت مما يتعجب منه. انتهى. فقد ظهر بهذا كله سيادته صلى الله عليه وسلم للجن والإنس والملائكة. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد الناس يوم القيامة» فإنما خص ذلك اليوم لظهور انفراده بالسؤدد والشفاعة فيه عن غيره حين يلجأ الناس إليه في ذلك الموطن فلا يجدون سواه وجميع الخلق مجتمعون أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم وفيهم الأنبياء والمرسلون، وتلك الدار دار الدوام والبقاء فهي المعتبرة. وقد كان صلى الله عليه وسلم معلوما بالسيادة نسبا وطبعا وخلقا وخلُقا وأدبا قبل النبوءة وبعدها، يعرف ذلك من اعتنى بالسير، وتعرف في أحواله صلى الله عليه وسلم من الصغر إلى الكبر. وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: «أنا سيد ولد آدم» المراد النوع الإنساني فيدخل آدم عليه السلام فيه بدليل الحديث المتقدم الذي عبر فيه بالناس، ويشهد لسيادته صلى الله عليه وسلم على آدم عليه السلام قوله صلى الله عليه وسلم: «آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة» وحديث الشفاعة المشهور في تقدمه صلى الله عليه وسلم على غيره من أكابر الرسل عليهم السلام، وظهوره بالسيادة عليهم من غير منازع. وقوله: «أنا أول شافع وأول مشفع، وأنا أول من تنشق عنه الأرض». وقوله صلى الله عليه وسلم: «كنت نبيئا وآدم بين الطين والماء» صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم ومجد وعظم.

الإعراب: محمد صلى الله عليه وسلم خبر مبتدأ مضمر تقديره هو محمد أي صاحب هذه الصفات هو محمد. ولقد أحسن رحمه الله في تقديم هذه الأوصاف فشوق السامعين بذكر تلك الصفات من قوله: ظلمت سنة من أحيا الخ. فكأنه يقول: كيف لا يستحق الموصوف بهذه الصفات أن يسمى محمدا وسيد الكونين وسيد الثقلين. وسيد الكونين صفة له أو خبر ثان، وجعله خبرا أولى وأبلغ من كونه مبتدأ خبره سيد الكونين، لأن المقام مقام تعظيم وهو يناسب الإطناب لما تشوفت النفس لتعيين الموصوف بهذه الصفات، قيل لها محمد الخ. والثقلين معطوف على حذف

مضاف وكذا والفريقين. أي سيد الكونين وسيد الثقلين وسيد الفريقين. ومن عرب ومن عجم لابتداء الغاية والأحسن أن تكون بيانية للفريقين أو حال منهما. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الترصيع وهو أن يؤتى بكلمتين فأكثر متفقتين الوزن والشكل دون الحروف كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ ﴾ [المعارج: 19 - 21] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ ﴾ [الطور: 1 - 2] الآية. وفي البيت قوله: الكونين والثقلين والفريقين. وفيه الاقتباس من الحديث المتقدم.

*** ثم قال رحمه الله:**

36 نَبِيُّـنَا الآمِـرُ النَّاهِـي فَـلاَ أَحَـدٌ أَبَـرَّ فِي قَـوْلِ لاَ مِـنْهُ وَلاَ نَعَـمِ

اللغة: النبي بلا همز مشتق من النبوة وهي ما ارتفع من الأرض. والأنبياء عليهم السلام لهم عند الله منزلة ورفعة ورتبة شريفة ومكانة منيفة لا يطمع فيها أحد من البشر. وأما على لغة الهمز فهو مشتق من النبأ وهو الخبر، فتحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، أي: منبئ الخلق عن الله أو بمعنى المفعول، أي: مخبر بالغيوب من قبل الله تعالى بواسطة وبغيرها. والآمر فاعل من الأمر وهو الطلب، وهو إذا أطلق حقيقة في الوجوب إلا لقرينة على المشهور، وهو من الأعلى أمر ومن الأدنى دعاء، ومن المساوي التماس. والبرور: الصدق، ورجل بار في قوله أي صادق، والتفضيل منه أبر، والبرور أيضا خلاف العقوق. ونعم حرف جواب وقد تقدم الكلام عليها.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله بعد أن ذكر هذا الاسم الشريف: هو نبينا رفيع القدر عظيم الرتبة عند ربه، أنبأه الله وأوحى إليه. أرسله بشيرا، ونذيرا وآمرا وناهيا، فهو الآمر عن الله المبلغ، وهو الناهي. فهو الآمر بكل فعل جميل، الناهي عن كل فعل أو قول قبيح، والقبيح ما قبحه الشرع، والحسن ما حسنه الشرع، فهو عليه السلام إذا قال: لا في شيء، أو قال نعم لم يقع في الوجود خلاف مدلول قوله، وهذا عين الصدق. وإنما أراد الناظم بهذا الكلام الإغناء والمبالغة في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصدقه صلى الله عليه وسلم واجب لوجوب عصمته وثبوت أمانته، وما نشأ عليه من الطهارة والنزاهة والتقديس وعلو الهمة وعظم الأخلاق وكرم الأعراف وشدة الحياء وحصافة العقل وجزالة الرأي وغير ذلك من موجبات صدقه صلى الله عليه

وسلم. فقد كان معروفا بذلك في صغره وبعد نبوته حتى كان يسمى الصادق الأمين. وقد رغب في الصدق وحض عليه بقوله عليه السلام: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا». وفي الخبر قيل: يا رسول الله، أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: «نعم». قيل له: أيكون جبانا؟ قال: «نعم». قيل له: «أيكون كذابا». قال: «لا». ولعسر الصدق وصعوبته قالوا: ليس في المؤمنين أقل من الصديقين. فإن قلت مقتضى ما قال الناظم أنه صلى الله عليه وسلم إذا قال: نعم أو لا، لا يخلف وعده، ويشمل أيضا إيعاده بالعقوبة مع أن إخلاف الإيعاد مدح، كما قال الشاعر:

وإنـــــي وإن أوعدتـــــه أو وعدتـــــه لمخلــف إيعــادي ومنجــز مــوعدي

ولا زالت العرب والشعراء يتمادحون بالرجوع عن العقوبة والإضرار إلى الحلم والعفو وكظم الغيظ. قلت: ليس مراد الناظم هذا النمط، وإنما مراده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر بشيء أو نهى عنه لم يخالف أمره ولا نهيه ولا يرجع عن شيء من ذلك، لأنه لا يأمر إلا بمشروع، ولا ينهى إلا عن قبيح، فكيف تسعه مخالفة ما أمر به؟ أو رجوع عن ما نهى عنه. ووجه آخر أن يقال: منصرف قول الناظم رحمه الله وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدق اللسان، وأن كل ما ينطق به حق وصدق، ولا يقول لا إلا في موضع لا ولا نعم إلا في موضع نعم، مع قطع النظر عن الإيعاد والوعد، فمثل هذا لم يخطر بخاطر الناظم ولا مر له ببال، ونظير هذا البيت في منصرف القصد، ما ورد في الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: «وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل». فيقال في ضمن تمني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل في سبيل الله تمني كفر الكافر إذ قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم متحتم عليه الكفر، والجواب ما قدمنا من أن منصرف قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصد الشهادة لعلو رتبتها مع قطع نظره عليه السلام عن ما يلزم من ذلك من كون قاتله يكون كافرا، وكذلك الناظم ما انصرف قصده إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الخلق لسانا. ويحتمل البيت وجها آخر وهو أن يكون الناظم أشار بقوله: فلا أحد أبر الخ. إلى أنه عليه السلام كان إذا أمر بشيء كان أول آخذ به، وإذا نهى عن شيء كان أول منته. فعبر عن الامتثال بنعم، وعن الانتهاء بلا. والله أعلم قاله الأليوري.

الإعراب: نبينا خبر مبتدأ محذوف. والآمر الناهي خبران عن المبتدإ المحذوف الضمير، وهذا أولى من جعله مبتدأ والآمر الناهي خبران، لأن تكثير الجمل والإطالة في مقام المدح أولى وأبلغ. ولا نافية.وأحد مبتدأ والمسوغ النفي ويصح نصب أبر على إعمال لا عمل ليس، ورفعه على إهمالها. ولا يصح في أحد هنا بناؤه مع لا لعدم الوزن، وفي قول لا متعلق بأبر، وكذلك منه، لأن المخفوضات إذا تعددت واختلف خوافضها جاز تعلقها بعامل واحد، فإن اتحد عامل الخفض في المخفوضات لم يجز تعلقها بعامل واحد إلا على بدل الغلط، نحو: خرجت يوم الجمعة يوم الخميس، بخلاف ضربت زيدا يوم الجمعة عند السحر في دار بكر، فكلها تتعلق بضربت. ومن لابتداء الغاية. ولا، معمول القول. ونعم كذلك. ولا زائدة للتوكيد. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الطباق في موضعين في قوله: الآمر الناهي، وفي قوله، لا ولا نعم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

37 هُـوَ الحَبِـيبُ الَّذِي تُرْجَا شَفَاعَتُهُ لِكُـلِّ هَـوْلٍ مِـنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ

اللغة: قد تقدم الكلام على المحبة والحبيب، هنا المراد به المحبوب بمعنى أنه محبوب لله تعالى، ولذلك رتب عليه رجاء الشفاعة. والرجاء تعلق الغرض بمحبوب توفرت جميع أسبابه أو معظمها. والخوف توقع مكروه توفرت جميع أسبابه أو بعضها، وضد الرجاء اليأس، والهول: الأمر المخوف الذي يعظم خوفه. والمقتحم بالفتح: المدخول فيه بتكلف، وبالكسر: الداخل في الشيء الضيق الذي يشق الدخول فيه ويتكلف ارتكابه.

الشرح: يقول رحمه الله: نبينا صلى الله عليه وسلم هو الحبيب دون غيره ممن نال مقام الخلة، والحبيب أعلى رتبة من الخليل، واستدل عليه بوجوه، منها: أن الخليل يصل بواسطة، استنباطه من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأنعام: 75]. والحبيب يصل بلا واسطة، استنباطا من قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ [النجم: 9]. الوجه الثاني: أن الخليل مغفرته في حد الطمع بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى ﴾ [الشعراء: 82]. والحبيب مغفرته في حد اليقين، بدليل قوله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: 2]. الوجه

الثالث: أن الخليل قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ [الشعراء: 87]. والله تعالى يقول: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ [التحريم: 8] فالخليل يسأل عدم الخزي، والحبيب أعطي بغير سؤال. وابتدئ نبينا بالبشارة قبل السؤال فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: 1] الوجه الرابع: أن الخليل قال في المحنة ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: 129] والحبيب قيل له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: 64]. الوجه الخامس: أن الخليل قال: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: 84] الآية، والحبيب قيل له: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: 4]. الوجه السادس: أن الخليل قال: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: 35] والحبيب قيل له: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب: 33]. ولما كان جاه الحبيب عظيما، وقدره رفيعا، كان هو الذي ترجى شفاعته لأن الحبيب يصغى لقوله ويسمع كلامه وتقبل شفاعته إذ محبة المشفوع عند الشفيع مظنة لقبول شفاعته، ومؤذنة بقضاء حاجته، فهو عليه السلام المرجو للشفاعة عند مصادمة الأهوال المفظعة، والنوازل المعضلة، والدواهي المفزعة، التي يصعب أمرها ويشق ارتكابها ويضيق نطاق الصبر عنها. وقوله من الأهوال أراد به التهويل، كأنه قال من الأهوال المهلكة العظام الشاقة كقيامه المقام المحمود الذي لم يصبه غيره، ولا تشرف إليه أحد سواه. وحديث الشفاعة الكبرى مشهور في الصحيحين وغيرهما فلا نطيل بذكره. قال الغزالي: الذين يفزعون إلى الأنبياء عليهم السلام ليسوا من هذه الأمة لعلمهم بثبوتها لنبيهم صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم. وحكى عياض في الإكمال: أن له صلى الله عليه وسلم خمس شفاعات الكبرى، الأولى: لإراحة الناس من الموقف. الثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب. الثالثة: في قوم استوجبوا النار فشفع لهم. الرابعة: فيمن نفذ فيهم الوعيد من المؤمنين فيخرجون من النار. **الخامسة**: في زيادة الدرجات في الجنة. جعلنا الله من هذا القبيل، بجاه هذا النبي الجليل. وقد كان عليه السلام مشفقا من أمته، كثير الرحمة عليهم، مهتما بأمر شفاعتهم، لقد كانت له دعوة مستجابة أعلمه الله بقطع إجابتها، وخير بين أن يدعوا بها لنفسه بما شاء فآثر بها أمته، وهذا عين الكرم وغاية الإيثار. ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعوا بها، وأنا اختبأت دعوتي

لأمتي في الآخرة». فأخر صلى الله عليه وسلم دعوته وادّخرها لأمته يوم القيامة. جزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيئا عن أمته آمين.

الإعراب: هو الحبيب مبتدأ وخبر. والذي ترجى صفة للخبر، وترجى مع نائب فاعله صلة الموصول، والضمير المضاف رابط.ولكل هول يتعلق بشفاعته، وفي بعض النسخ في كل هول، فعلى الأولى، يريد قبل الدخول فيه فيصرفه ويدفعه قبل وقوعه، وعلى الثانية يناسب أن يكون بعد حلوله والدخول فيه فيخلص منه وهذا أنسب. ومن الأهوال يتعلق باسم الفاعل صفة لهول أي: كائن من الأهوال. ومقتحم صفة لهول وهو مصدر هاله يهوله إذا أفزعه، وهلته فاهتال أي أفزعته فانفزع، والتهويل كالتفزيع. نجانا الله منه دنيا وأخرى. آمين وفيه الاقتباس والإيقال في القافية. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

38 **دَعَـا إِلَى اللهِ فَالْمُسْتَمْـسِكُونَ بِـهِ مُسْتَمْـسِكُونَ بِحَـبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ**

اللغة: دعا إلى الشيء: طلب حضوره والوصول إليه، والمراد هنا دعاء الرسول عليه السلام الخلق إلى الله وحملهم على الصراط المستقيم. والمتمسك المعتصم: الأخذ بالشيء. والحبل: السبب المتعلق به، ويعبر كثيرا بالحبل الموصل لغرض من الأغراض. ومنفصم منقطع.

الشرح: لا شك أن سيدنا صلى الله عليه وسلم دعا الخلق إلى الله فكانت دعوته عامة إلى الأحمر والأسود. بعثه الله للخلق كافة، رحمة بهم، وحرصا على سعادتهم، ورغبة في إرادة الخير لهم، لا يبغي على ذلك أجرا ولا عوضا ولا يرجوا عليه من غير الله جزاء ولا ثوابا، كما أمره الله تعالى، فمن أجابه وسمع مقالته واعتصم بحبله المتين فقد سلك مسلك الناجين، واستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن حاد عن طريقه، ولم يهتد إلى سلوك سبيله فقد ضل عن سواء الطريق، وهوى في مكان سحيق، نسأله سبحانه العصمة والتوفيق، بمنه وكرمه. قال القطب الكامل سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم هو عين الرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: 107] فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة، والبينة القائمة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل

الردى، فما ترك شيئا يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدبا يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا حث عليه، ولا شيئا يشغل عن الله إلا حذر العباد منه، ولا عملا يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصحا في تخليص العباد من أوحال القطيعة، ومن مواطن الهلكة، إلى أن ارتحل ليل الشرك وانقطعت أغياره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع صلى الله عليه وسلم من الدين لواءه، وتمم نظامه وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه. وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام، حتى قال الراوي: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علما بحق قال الله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: 256] وقال الله سبحانه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: 3] وقال صلى الله عليه وسلم: «تركتها بيضاء نقية». فجزاه الله خيرا ما جزى نبيا عن أمته. ولما أكمل صلى الله عليه وسلم البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى، بعد أن خيره الله فاختار الرفيق الأعلى. ثم جعل الله سبحانه الدعاة في أمته أبدا ودائما سرمدا بما ورثوا منه وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الله سبحانه بذلك وجعلهم أهلا لما هنالك قال سبحانه: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: 108]. انتهى كلامه رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

الإعراب: دعا فعل ماض. وإلى الله متعلق به. فالمستمسكون مبتدأ. وبه متعلق به. ومستمسكون خبره أفاد بمتعلقه وهو بحبل. وغير منفصم صفة لحبل مع مضافه. وبالله التوفيق. وفيه من البيان الحذف المقابلي وهو الاجتزاء من كل متناسبين في الكلام بأحدهما لدلالة الآخر، وهو حذف حسن جميل الطلاوة، لما بين أجزائه من الارتباط والتقدير. فالمستمسكون به مستمسكون بحبل وثيق. وغير المستمسكون به مستمسكون بحبل واه. وفيه التشبيه في قوله: بحبل وليس باستعارة على الصحيح لذكر المشبه والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

39 فَـاقَ النَّبِيِّـينَ فِي خَلْـقٍ وَفِي خُلُـقٍ وَلَمْ يُدَانُـوهُ فِي عِلْـمٍ وَلاَ كَـرَمِ

اللغة: فاق فلان فلانا إذا زاد عليه وزاد في الشيء الذي يتعاطاه من علم أو

صناعة. والخَلق جمال الصورة. والخُلق كرم الشيم. ولم يدانوه: لم يقاربوه، يقال: دناه يدانيه مداناة إذا قاربه. والعلم معلوم والكرم سخاوة النفس.

الشرح: لما ذكر الناظم رحمه الله من صفات رسول الله أنه سيد وآمر وناه وبر وحبيب وداع إلى الله، ورأى أنه لا يفي بصفاته وإن عدد وأعيا وبالغ في الثناء والمدح، فجاء بصفة جامعة تعطي أن صفاته عليه السلام لم يصل إليها أحد، ولا مطمع في خصرها لبشر، ولا يبلغها أحد من الأنبياء فضلا عن غيرهم. فإن الأنبياء وإن حصلت لهم صفات الكمال، فما حصل لهم ما حصل ولا استمدوه إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو كان أصلها ومعدن كمالها، ولذلك فاقهم فيها وأربا عليهم في الصورة والخلق المرضية. فأما حسن الصورة وجمالها وتناسب أعضائها، فقد جاءت الآثار الصحيحة وتواترت الأخبار، فلا خفاء أنه عليه السلام كان أكمل الناس محاسنا، وأبهرهم جمالا، فقد نعته علي رضي الله عنه وأبو هريرة والبراء وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام كان أزهر اللون، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تبلغ صدره، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ربع القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد. ومع ذلك لم يكن يماشي أحدا إلا طاله، وإذا أفتر ضاحكا أفتر عن مثل حب الغمام، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه. قال البراء: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أجمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أبو هريرة: ما رأيت أجمل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن الشمس تجري في وجهه، إذا ضحك يتلألأ نوره في الجدرات. وقالت أم معبد في وصفه: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم يعبه فلجة، ولم يزريه معلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره غطف، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن. إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء. أجمل الناس وأهيبه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب. حلو المنطق، فصل لا ندر ولا هدر، كأن منطقه خرزات نظمن. إلى آخر كلامها. وقال علي رضي الله عنه: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله. وأما نظافة جسمه وطيب عرقه وريحه، فقد خصه الله عز وجل من ذلك بخصائص لم توجد في غيره، قال أنس رضي الله عنه: ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعن جابر: أنه عليه السلام مسح خده، قال: فوجدت ليده بردا وريحا كأنما أخرجها من جؤنة عطار مس طيبا أو

لم يمسه. يصافح المصافح، فيظل يومه يجد ريحه. ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان. ولم يكن يمر بطريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه عليه السلام من طيب ريحه. وهذا باب واسع استقصاؤه يملأ الدفاتر. وأما أوصافه الباطنة، فإن الله سبحانه قد خصه بالأخلاق السنية والصفات العلية، والآداب الشرعية، من العلم والدين والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والتؤدة والصمت والوقار والرحمة وحسن العشرة، وكلها جمعها الخُلق. وحسبك أن الله عز وجل أثنى عليه بذلك فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]. وتتبع قضايا هذه الأخلاق يطول جدا. ومن أراد الشفاء فعليه بالشفا. وأما علومه عليه السلام ومعارفه وما خصه الله من ذلك فبحر سبحت فيه الفهوم، وفاضت منه سائر العلوم، فقد كان عليه السلام أعلم الناس بالله تعالى قد أطلعه الله على ما في التوراة والإنجيل وما في الكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسير الأمم الماضية، وضرب الأمثال وسياسة الخلق، وتقرير الشرائع، وفنون العلم كالتفسير وعلم الحساب والأنساب وغير ذلك مما حصله واحتوى عليه دون تعلم ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا جلوس بين يدي علمائهم، بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره وأبان أمره وأعلمه وأقرأه إلى ما أطلعه الله عليه مما كان وما يكون من عجائب قدرته وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: 113].وقال في همزيته:

وســـع العالمـــين علمـــا وحلمـــا فهـــو بحـــر لـــم تُعْـــيِه الأعـــباء

وأما كرمه عليه السلام وجوده فكان عليه السلام لا يجارى في ذلك ولا يبارى، تعجز الملوك عن أدنى عطاياه ومواهبه، فقد روي عن جابر رضي الله عنه أنه قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء قط فقال لا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن. فرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة، وإنما كان جوده عليه السلام يكثر في رمضان دون سائر الشهور، لأن رمضان سوق الأرباح، ومحل التنافس في العمل، والكثرة منه لتضاعف الحسنات فيه. فإن الحسنة بألف. قال ابن شهاب يرفعه: «تسبيحة في رمضان

خير من ألف تسبيحة في غيره». مع مشاهدة جبريل فيه في كل حين، فكان يكثر جوده فيه شكرا لهذه النعم. وروي أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وهذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم قبل النبوءة وبعدها. فقد قالت له خديجة في أول الوحي حين قال لها: لقد خشيت على نفسي، فقالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. انتهى. وسأله رجل فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع بالدين وعلي قضاؤه» فقال له عمر: ما كلفك الله بهذا يا رسول الله، فقال له رجل من الأنصار: انفق يا رسول الله ولا تخش من ذي العرش إقلالا. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف البشر في وجهه، ثم قال: «بهذا أمرت». وقال أبوعلي الدقاق: من شيوخ الصوفية وعلمائهم النحارير لما تكلم على الفتوة على رؤوس الصوفية واصطلاحاتهم في ألفاظهم: ذكر ما كان عليه السلام عليه من غاية الكرم والإيثار قال: إن هذه الأخلاق بكمالها لا تكون إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي وهو يقول أمتي أمتي. وبالجملة فأوصافه عليه السلام كلها لا يمكن استقصاؤها، وخصوصا الجود والكرم، وسيأتي للناظم:

فـإن مـن جـودك الدنـيا وضـرتها ومـن علـومك علـم اللـوح والقلـم

وهو قريب مما ذكره هنا من قوله فاق النبيين، أي زاد عليهم في خلق وفي خلق. ولم يدانوه أي يقاربوه في علم ولا كرم فسبحان من خصه بذلك، وجعله أهلا لما هنالك، منحنا الله شيئا من علومه وأسراره، بجاه قدره الرفيع ومقداره، آمين.

الإعراب: فاق النبيين فعل ومفعول والفاعل ضميره عليه السلام. وفي خلق متعلق بفاق. وفي خلق معطوف عليه. ولم يدانوه مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والضمير مفعول. وفي علم متعلق بيدانوه. ولا كرم معطوف عليه. ولا، تأكيد النفي. وبالله التوفيق. وفيه من البيان الجناس في خلق وفي خلق. وفيه الإيقال. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

40 وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَـرْفًا مِـنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

اللغة: التمس طلب. والملتمس الطالب وفي الحديث التمس ولو خاتما من

حديد. والرسول من أمر بالتبليغ. والغرف من الشيء: الأخذ منه. والغرفة المرة منه. والبحر: الماء الكثير ويستعار لكثرة العلم وهو المراد هنا. والرشف: المص بالفم. يقال رشف رشفا إذا امتص. والديم جمع ديمة، وهو المطر الدائم. أقله يوم وليلة. قاله الأزهري.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: لما خص الله سبحانه سيدنا صلى الله عليه وسلم بكمال العلم ومنحه بأسرار المعرفة، كانت نسبة العلوم التي حصلت للأنبياء قبله كشيء قليل، فكلهم يلتمسون بعض البعض من علمه، ويودون لو حصل لهم من العلم الذي حواه عليه السلام، مقدارًا تكون نسبته من العلم الذي حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحواه كنسبة الغرفة تؤخذ من البحر، والمصة الواحدة من المطر الدائم. وقد استشكل كثير من العلماء كلام الناظم هذا وقالوا: هذا يحتاج إلى توقيف. وقد يجاب بأن أصل العلوم والمعارف هو العقل، فهو ينبوع العلم والمعرفة. وقد قال وهب بن منبه: قرأت في إحدى وسبعين كتابا فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من رمال الدنيا. وإذا كان العلم ينبعث من العقل ونسبة عقول الناس من عقله كنسبة رملة واحدة من رمال الدنيا، فلا يستبعد أن يكون علم، الأنبياء وغيرهم من علمه بهذه المثابة، ويندفع الإشكال. فإن قلت: كيف يمكن التماس الأنبياء منه وقد تقدموا عليه، فالجواب: أن كل واحد من الأنبياء قد عرفه وعلم به وأخذ عليه الميثاق بالأيمان ونصرته، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران: 81].. إلى قوله.. ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ [آل عمران: 81] فكلهم على بينة منه، عارف بقدره، يتعطش لرؤيته، قد تمنى كثير منهم أن يكون من أمته. وأيضا، قد تقدم أن الله تعالى إنما خلق الكون من أجله، فالأنبياء والداعون إلى الله أيضا هم نواب عنه، فلا يستبعد أن تكون علومهم فائضة من علمه صلى الله عليه وسلم. والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. ومثل الأنبياء عليهم السلام في اتساع علومهم مع نبينا صلى الله عليه وسلم كالموسرين مع صاحب الكيمياء، فإنه لا يلزم من كونهم موسرين أن يساووا صاحب الكيمياء القادر عليها المحكم لصنعتها، بل هم وإن كانوا موسرين بالنسبة لصاحب الكيمياء، فقراء وإن امتلأت مخازنهم بالمال، إذ لصاحب الكيمياء من سخاوة النفس وكثرة العطاء وعدم خوف الفقر ما ليس لصاحب المال المكتسب، قاله

الأليوري والله تعالى أعلم.

الإعراب: وكلهم مبتدأ. وملتمس خبره، ويصح إفراد ملتمس وجمعه مراعاة للفظ والمعنى قال تعالى: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل: 87] وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ۝ ﴾ [مريم: 95]. ومن رسول الله متعلق بملتمس. وغرفا مفعول بملتمس. ورشفا معطوف عليه. ومن البحر متعلق بغرفا. ومن الديم متعلق برشفا. ومن في الموضعين للتبعيض. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

41 وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عَنْدَ حَدِّهِمُ ... مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

اللغة: الحد: المنع، والمراد هنا الغاية المنتهى إليها. وإحداد المرأة: امتناعها من الزينة أيام عدة وفاة زوجها. ولدى بمعنى عند. والحِكَمُ جمع حكمة، وهي الإصابة في القول والفعل، وقيل العلم النافع المؤدي إلى العمل، وإليه رجح قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: 269] وقيل هي إشارة العقل، والحكيم من قبلها وعمل بها ولم يخالفها في شيء من أمر دينه ودنياه. والنقطة الأثر الذي يفعله القلم حين يوضع على الصفح ثم يرفع من غير كتب. والشكلة الحركة: الموضوعة على الحرف.

الشرح: يقول رحمه الله: الأنبياء عليهم السلام واقفون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مغترفين من بحر علمه وحكمه، كل واحد واقف عند غاية علمه وحكمه. ونسبة علومهم من علمه عليه السلام كنسبة نقطة الحرف من الحرف. ونسبة حكمهم من حكمه عليه الصلاة والسلام كنسبة شكلة الحرف من الحرف. فالحرف هو المقصود للدلالة، إلا أنه تتضح دلالته بنقطة وشكلة، فشبه علومه صلى الله عليه وسلم وحكمه بحروف الكتابة بنقطها وأشكالها لأنها سبب عادي لحصول العلم. وشبه ما أخذه الأنبياء عليهم السلام من تلك العلوم والحكم بنقط تلك الحروف وأشكالها. ولما كان العلم يميز الأشياء ويبينها كتمييز النقطة للحرف شبهه به. ولما كانت الشكلة تزيده بيانا ووضوحا شبه الحكمة بها، لأن الحكم تزيد للعلم وضوحا وانكشافا. فالحكم علم وزيادة إتقان فكل حكيم عالم ولا عكس. وقيل في علة ذلك: أن النقطة لها شكل واحد، والعلم حقيقة واحدة، وهو معرفة المعلوم على ما هو عليه، والشكلة

لها أربعة أشكال: الضمة والفتحة والكسرة والسكون، وكذلك الحكم تكون قولية وفعلية وعقلية. فالقولية تكون وعظا وقرآنا وبيانا للحلال والحرام وليس المراد كل قول أفاد معنى صحيحا، بل ما فيه مزيد دقة وغرابة مما لا يفطن إليه إلا الخصوص مع اشتماله على ما ينفع عاجلا أو آجلا ولو بالتنبأ ومزيد علم وفطنة. ومثله قول سيدنا علي كرم الله وجهه: ما لابن آدم والفخر، وإنما أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة. وقد كان صلى الله عليه وسلم فيها بحرا لا يدرك غوره، ولا ينزف غمره. كيف وهو صلى الله عليه وسلم ينبوع الحكمة وسراج الهدى، ومدينة العلم وإمام المتقين وقدوة العارفين. قد أفردت حكمه بالتأليف، وجمعت منها دواوين. والفعلية كالصنائع العجيبة، والأفعال الغريبة. والعقلية كاستخراج البراهين المنطقيات والأنظار العقليات. ويقال: نزلت الحكمة في ثلاث: على قلوب اليونان، وعلى ألسنة العرب، وعلى أيدي أهل الصين. فإن اليونان قد خصوا بالأنظار العقليات والعرب أعطوا الحكمة في أشعارها وخطبها، وأهل الصين قد أعطوا الصنائع البديعة، والنقوش الغريبة. فالله تعالى أعلم وأحكم وبالله التوفيق.

الإعراب: وواقفون معطوف على ملتمس لأنه في معنى الجمع. إذ لفظ كل مفرد ومعناه جمع فيصح مراعاة لفظه ومعناه فاستعمل أولا مراعاة اللفظ وثانيا مراعاة المعنى. ولديه ظرف متعلق بواقفون، وبه يتعلق عند على وجه البدل. وحدهم مضاف إليه والضمير للأنبياء. ومن لبيان الجنس في الموضعين. ولدا وعند أكمل من لدى بمعنى واحد إلا أن لدا أقل تمكنا من عند لأن عند تستعمل للحضور حسا ومعنى. ولدا لا تستعمل إلا للحضور الحسي فنقصت رتبتها عن عند ولذا بنيت لدا وأعربت عند قاله الأليوري.

*** ثم قال رحمه الله:**

42 فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ

اللغة: تمام الشيء كماله من كل وجه. ومعنى الشيء ما يعنى به ويقصد منه والمراد هنا خلقه صلى الله عليه وسلم. وصورته المراد بها خلقه وصفته الظاهرة. والاصطفاء: الاختيار والاجتباء. وسمي صلى الله عليه وسلم المصطفى لأنه اختاره الله على سائر خلقه. والاصطفاء: الافتعال، من الصفوة، أبدلت التاء طاء. والحبيب تقدم تفسيره. والبارئ: الموجد من العدم، برأ الخلق: أوجدهم وأبرزهم من العدم إلى

الوجود، ومنه البرية بمعنى الخلق. والنسم جمع نسمة وهي النفس.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله بعد أن قررها: اشتمل عليه صلى الله عليه وسلم من أوصاف الكمال، أنتج من ذلك أن الله عز وجل أكمل محاسنه الباطنة والظاهرة، فجمع الله له بين الصورة الحسنة والأخلاق الفاضلة الكريمة، وهو المراد بتمام معناه وصورته. ثم زاده تشريفا وتكريما بأن صيره منه قريبا، واصطفاه لنفسه حبيبا، فأعلى منزلته وشرف رتبته وقربه إليه زلفى، ومنحه من رضاه النصيب الأوفى، فجبله على الخير في زمن الصغر وحماه من أدناس الجاهلية، فكان أكرم الخلق على الله وأشرف البشر. قال صلى الله عليه وسلم: «لما نشئت بغضت إلي الأصنام، وما هممت بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، ثم عصمني الله ولم أفعل». ثم ما زال أمره يعلوا، ونصرته تعظم، وعناية الله به تزيد وتتمكن، ونفحات الرحمة تترادف عليه، وأنوار المعارف تشرق في قلبه حتى بلغ الغاية وحصل من شرف النبوءة وعظيم الكرامة على النهاية وفوق الغاية، فتربى عليه السلام في صغره على أكمل حال فكان أعف الناس وأصدق الناس حتى كان يسمى في صغره الأمين لما جمع الله فيه من خصال الخير، فهيئ لما يريد الله من كرامته. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أن الله عز وجل نظر إلى قلوب العباد، فاختار منها قلب محمد صلى الله عليه وسلم واصطفاه لنفسه، وبعثه برسالته، واتخذه حبيبا فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب الرحمان. انتهى. وتصدير الناظم بضمير المبتدأ يقتضي الحصر، وأنه لم يحصل لأحد من أوصاف الكمال ما حصل له صلى الله عليه وسلم من حسن الصورة وكرم الخلق. والأخبار عن الأنبياء عليهم السلام في حسن صورهم وكرم أخلاقهم معلومة مشهورة، ونبينا صلى الله عليه وسلم إمامها المشهور، ورافع علمها المنشور، فلم يبلغ واحد منهم رتبته، ولا بلغ في غاية الكمال منزلته. فإن قلت: قد ورد النهي عن تفضيله على بعض الأنبياء فكيف بالجمع، وقال أيضا: «لا تفضلوا بين الأنبياء» فالجواب أن يقال كان ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم وسيد الناس يوم القيامة، أو إنما نهى عن التفضيل الذي يقتضي التنقيص للمفضول والغض من جانبه. أو قال ذلك تواضعا، أو إنما نهى عن التفضيل في نفس النبوءة والرسالة الذي هي تلقي الوحي فإن الكل فيه سواء. وإنما التفاضل بينهم في زيادة الأحوال وخصوص الكرامات وكثرة المعجزات، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولوا العزم، ومنهم من كلم الله قال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة: 253] الآية فهي دليل التفضيل والله تعالى أعلم.

الإعراب: فهو مبتدأ. والذي مع صلته خبره. والرابط الضمير المضاف إليه الفاعل. وصورته معطوف على الفاعل، أي تم معناه وتمت صورته. واصطفاه فعل ومفعول أول. وحبيبا مفعول ثان. وبارئ فاعل. والنسم مضاف إليه. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

43 مُنَـزَّهٌ عَـنْ شَرِيـكٍ فِي مَحَاسِـنِهِ   فَجَوْهَـرُ الْحُسْنِ فِـيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

اللغة: أصل النزاهة البعد، يقال فلان منزه عن كذا، أي بعيد عنه، والمعنى هنا أنه عليه السلام. مبعّد عن أن يشاركه في صفاته الظاهرة والباطنة أحد، بل كمالها مقصور عليه. والشريك من يشارك فيما بيدك من المال أو صفة من الصفات. والجوهر لغة: النفيس من كل شيء. وعرفا المتخذ للحلي. وعند المتكلمين: الجزء الذي يستحيل قسمه. والجوهر عندهم ضد العرض.

الشرح: يقول رحمه الله: رسولنا صلى الله عليه وسلم نزهه الله ورفعه عن أن يشاركه أحد فيما خصه به من كمال الصفات الظاهرة والباطنة، فلا مطمع في نيل شيء منها لأحد من الخلق. وهذا البيت تقرير لما قبله وتوضيح له، أي: هو الذي تم معناه وصورته لا غيره. وإذا كان كذلك فقد تنزه عن أن يشاركه أحد. وقوله: فجوهر الحسن فيه غير منقسم، أخبر أن جوهر الحسن محصور فيه ومقصور عليه. والجوهر: الفرد من شأنه ألا يقبل القسم ولا يتجزأ، كذلك جوهر حسنه صلى الله عليه وسلم لا يتجزأ ولا ينقسم، فلا مطمع لأحد في نيله. فإذا شاهدته بين الخلق قلت هذا بشر كما أخبر عن نفسه صلى الله عليه وسلم، وكما قال تعالى فيه: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾[الكهف: 110] الآية. وإذا نظرت إلى ما خص به من المزايا والمناقب وما من الله به عليه من جمال الخلق وحسن الخلق قلت: ما هذا بشرا. والحاصل أنه بشر لا كالبشر، بل هو كالياقوتة بين الحجر. والحكمة في أن بعثه الله في هيئة البشر وإن باينت روحه أرواح البشر، أنه لو كان من غير البشر لما استطاع أحد من البشر ملاقاة الملائكة وأخذ الأحكام عنهم، ولكن الله تعالى قوى بواطن الأنبياء عليهم السلام لمشاهدة الملائكة، وأمر الناس بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم الباطنة والظاهرة، فالظواهر تقتدي بظواهرهم، والبواطن تقتدي ببواطنهم. منّ الله علينا بمتابعتهم ومحبتهم إلى الممات

آمين.

الإعراب: منزه خبر مبتدأ مضمر، أي هو منزه. وعن شريك متعلق به. وفي محاسنه متعلق به أيضا. ويصح تعلقه بشريك. فجوهر الحسن مبتدأ ومضاف إليه. وغير منقسم خبره. وفيه متعلق باسم فاعل حال من الحسن، والتقدير: فجوهر الحسن كائنا فيه. وصح جعله حالا من المضاف إليه وإن كان غير عامل، لأنه كالجزء منه، ألا ترى أنك تقول الحسن فيه غير منقسم، ويصح أن يكون حالا من جوهر، إلا أن إتيان الحال من المبتدأ قليل ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: 67] في قراءة الخفض. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

44 دَعْ مَـا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم   واحْكُـمْ بِمَا شِئْتَ فِيهِ مدحا وَاحْتَكِمِ

اللغة: دع: اترك. والادعاء: الزعم، ويكون عن ظن وعن اعتقاد، أي اترك ما زعمته النصارى في عيسى عليه السلام، أي اعتقدته أو ظنته من أوصاف الألوهية. واحكم بما شئت أي اقض فيه بما تريد. وصفه بما شئت من أوصاف الكمال وأحسن الخلال وأطنب فيه غاية الإطناب. فقد وجدت للمدح والثناء محلا وموضعا، إلا أنك تتحامى ما ادعته النصارى في عيسى عليه السلام من القول الشنيع والكفر الفظيع.

الشرح: خاطب الناظم من يصح خطابه ولم يقصد مخاطبا معينا فكأنه يقول: يا من يصغي لخطابي ويسمع كلامي، اترك وصف ما ادعته النصارى في نبيهم من الضلال والتشنيع الذي أداهم إلى الكفر والشريك، وتحفظ أن تقول في نبيك مثل مقالتهم في نبيهم فتضل كما ضلوا، وتكفر كما كفروا، فإذا تحفظت من مقالتهم فقل في مدح نبيك ما شئت، وبالغ في صفات كماله، وانشر مناقبه ومحاسنه، وبالغ في مدحه والثناء عليه بذكر مآثره الكريمة، وسيره الجميلة، ومعجزاته الواضحة، وآياته المتعددة التي طبقت الآفاق، واشتهرت اشتهار الشمس. وما منّ الله به عليه من النبوءة والرسالة وجوامع الخير. وتحكم كما تريد واتسع فى مدحك وثنائك فقد طاب المقال، واتسع لك المجال. ولله ذر القائل:

وقـد وجـدت مجـال القـول ذا سـعة   فـإن وجـدت لـسانا قـائلا فقـل

على أن البليغ وإن بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، وجاوز فيها الحد والنهاية،

لا يسعه أن يروم التعريض بحصر صفاته عليه السلام، ولا يسعه إلا الإقرار بالعجز والتقصير في التعبير، كما يقوله بعد هذا. وقال في الهمزية:

لـم أطـل فـي تعـداد مـدحك نطقـي ومـــــرادي بـــــذلك استقـــــصاء

غيـــــر أنـــــي ظمـــــئان وجـــــد ومـا لـي بقلـيل مـن الـورود ارتـواء

وما ضمنه الناظم في بيته هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله». وإنما اغترت النصارى حتى ادعت في عيسى عليه السلام ما ادعت ما ظهر على يديه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكونه من غير أب، فافترقت النصارى في كفرهم ثلاث فرق: منهم فرقة قالوا هو ولد الله. تعالى عن قولهم. ومنهم من قال: اتصل اللاهوت بالناسوت، أي اتصل وصف الألوهية بذات عيسى. ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة: الله ومريم وعيسى. وقد رد الله سبحانه في كتابه هذه المقالات كلها وأبطل أصلها، وبين ضعف عقولهم وركاكة اعتقادهم، وسوء مذهبهم، فقال جل وعلا: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: 75]. فأوضح السبيل، وبين الدليل، وأظهر بقوله: ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ [المائدة: 75] افتقارهما واحتياجهما إلى الطعام والشراب. ومن كان مفتقرا إلى المادة يهلك بانقطاعها، كيف يصلح للألوهية. فلا يدعي الألوهية لمن هذا شأنه إلا خسيس الهمة ضعيف العقل عديم النظر. قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ ﴾ [الأنعام: 14] ولأجل هذه الشبهة التي وقع فيها النصارى حذر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله». وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مما صنعوا فعاب صلى الله عليه وسلم على الفريقين، وصرح بلعنهم تشنيعا لحالهم، وحياطة على أمته، وحرصا على سعادتهم. جزاه الله عنا ما جزى نبيئا عن أمته. وأما إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقد صرح به القرآن العظيم معجزة له، وكذلك تكليمه الناس في المهد براءة لأمه، وانظر قوله تعالى: ﴿ بِإِذۡنِي ﴾ [المائدة: 110] فكررها دفعا لما توهمت النصارى أنه من عنده، وإنما وقعت

معجزاته بهذه الأمور لأنه كان الغالب في عصره علم الطب والتشريح، فجاءت معجزات عيسى عليه السلام خارقة لعادة الطب بإحياء الموتى الذي لا مطمع فيه، وإبراء الأكمه الذي ولد أعمى، والأبرص الذي يصعب زواله بل يتعذر. ولما كان في زمان موسى عليه السلام الغالب هيجان السحر أعطاه الله قلب العصا حية فالتقمت كل ما أبرز السحرة من الحيات وهمت بالدخول على فرعون في قصره فلما رأى السحرة ذلك أقروا أنه ليس من نمط السحر ولا في طوق البشر. ونفعهم علمهم السحر إذ علموا أن هذا الذي جاء به موسى عليه السلام ليس من فن السحر. ولما كان في زمانه صلى الله عليه وسلم هيجان الفصاحة وظهور البلاغة أعطى الله نبينا صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم الذي عجزوا عن سورة واحدة منه، وأذعنوا لبلاغته وخضعوا لفصاحته ولم يقدر أحد منهم أن يتعرض لشيء من معارضته. وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله. فكان كل نبي يأتي بالمعجزة المناسبة للفن الذي غلب في زمانه. والله تعالى أعلم. حكاية: قال الغزالي: روي أن عيسى عليه السلام مر بقرية ومعه الحواريون، فإذا أهل تلك القرية موتى في الطرق ولم يتدافنوا، بل مطروحون في السكك، فقال عيسى عليه السلام: إن هؤلاء ماتوا على خسف وعذاب نزل بهم ولو ماتوا من غير ذلك لتدافنوا. فقال له بعض الحواريين: ادع الله أن يحييهم حتى نسألوهم عن حالهم، فدعا عيسى عليه السلام، فأوحى الله إليه إذا جن الليل فادعوهم يجيبونك. فلما جن الليل ناداهم: يا أهل القرية. فأجابهم مجيب منهم: لبيك يا روح الله، فقال له عيسى عليه السلام: ما حال بكم وما قصتكم؟ فقال له: يا نبي الله بتنا في العافية فأصبحنا في الهاوية، فقال له عيسى عليه السلام: وبماذا؟ قال له: بحبنا الدنيا وطاعتنا لأهل المعاصي. فقال له عليه السلام: وكيف كان حبكم للدنيا؟ فقال: حب الصبي لأمه، إذا أقبلت فرحنا وإذا أدبرت حزنًا وبكينا. فقال له: وما بال أصحابك لم يجيبوني وأجبتني من بينهم؟ فقال: هم ملجمون بلجم من نار بيد ملائكة غلاظ شداد، فقال: فكيف أجبتني من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل العذاب أصابني معهم فأنا مغلول على شفير جهنم لا أدري أنجوا أم أكبكب فيها. فالتفت عيسى إلى الحواريين فقال: يا معشر الحواريين لأكل خبز الشعير، والنوم على المزابل، ولبس المسوح كثير مع عافية الدنيا والآخرة انتهى.

الإعراب: دع فعل أمر مضارعه يدع، وماضيه ودع، إلا أنه لم يستعمل. وهو

مما حذفت فاؤه لوقوعها بين ياء وكسرة، كيسع ويهب وغير ذلك. وما موصولة مفعول بدع. وادعته صلتها والرابط الضمير المفعول. والنصارى فاعل. وفي نبيهم متعلق بادعته. واحكم معطوف على دع. وبما متعلق باحكم. وما موصول، وشئت صلته، وحذف العائد المنصوب لتوفر شروط الحذف. ومدحا مصدر في موضع الحال من ما، أي:ما شئت مادحا.وفيه متعلق باحكم ويصح تعلقه بشئت والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

45 وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

46 فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

اللغة: نسبت الشيء إلى غيره ضممته إليه، ونسبت الرجل انسبه نسبة ونسبا ذكرت نسبه. وذات الشيء: نفسه وحقيقته. والشرف: العلو والرفعة، ورجل شريف والجمع أشراف وشرفاء. والقدر المنصب والمكانة. ونسبة الشرف للذات والعظم للقدر ظاهر التناسب. والفضل ضد النقص، قال المعري:

فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقص وواعجبا كم يدعي النقص فاضل

والحد: الغاية والمنتهى. والإعراب: البيان والإفصاح عن الشيء. والناطق ضد الصامت، والمنطق الكلام والمنطيق البليغ.

الشرح: يقول رحمه الله مبينا للبيت السابق مما تمدح به ذاته الشريفة ومقداره الرفيع، أي انسب إلى ذاته الكريمة المقدسة ما شئت من الكمالات مما يليق بها من الثناء والمدح المؤذن بكمالها، المعلن بشرفها وكرم منصبها. وانسب إلى قدره العظيم ما شئت من الصفات الجميلة التي يدل عظمها على رفعة قدره وعظم منصبه. فكل ما نسبت إلى ذاته من المحاسن، وقدره من الكمال والعظمة، فإنه أهل لذلك، وقابل لما هنالك، فإن فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكمال شرفه ليس له غاية ينتهى إليها حتى يقع البيان عن إحاطتها، فإن ما خص الله به نبيه عليه السلام من شرف الذات وعظم القدر لا حدّ له ولا نهاية فيبلغها الناطق ويقف عندها ويعرب عنها، فإن البلغاء وجميع الفصحاء وإن بالغوا وأطنبوا في وصف فضائله وكمال محاسنه لم يبلغوا من ذلك إلا كنقطة من بحر، بل يعجز كل ناطق بفمه عن بيانها والإعراب عنها. ولله در أبي القاسم بن جزي حيث يقول:

أروم امـتداح المـصطفى فيـصدني ... قـصوري عـن إدراك تلـك المـناقب
ومـن لـي بحـصر البحـر والبحـر زاخـر ... ومـن لـي بإحـصاء الحـصى والكـواكب
ولـو أن أعـضائي غـدت ألـسنا إذن ... لمـا بلغـت فـي المـدح بعـض مـآرب
ولـو أن كـل العالمـين تألفـوا ... علـى مدحـه لـم يـبلغوا بعـض واجـب
فأمـسكت عـنا هيـبة وتأدبـا ... وخـوفا وإعظامـا لأرفـع جانـب
ورب سـكوت كـان فـيه بلاغـة ... ورب كـلام فـيه عـتب لعاتـب

ورُئِي العارف ابن الفارض في النوم فقيل له: لم مدحت النبي صلى الله عليه وسلم؟ أي بالصراحة وإلا فنظما، إما في الحضرة الإلهية، أو فيه صلى الله عليه فقال:

أرى كـل مـدح فـي النبـي مقـصرا ... وإن بالـغ الإثـناء علـيه وأكثـرا
إذا الله أثنـى بالـذي هـو أهلـه ... علـيه فمـا مقـدار مـا تمدحـه الـورا

رضى الله عنهم ونفعنا بهم.

الإعراب: انسب أمر، فاعله كل. من يصح خطابه وهو معطوف على الأمر قبله. وإلى ذاته متعلق بانسب. وما مفعول. وشئت صلتها. والرابط محذوف. أي شئته. ومن شرف يتعلق بشئت أو بانسب. ومن ابتدائية أو بيانية. وإعراب العجز كالصدر. والفاء سببية. أي لأن فضل رسول الله الخ. وفضل رسول الله اسم إن ومضاف إليه. وجملة ليس اسمها وهو حد، وخبرها وهو له خبر إن. والمعنى فإن فضل رسول الله غير محدود فيعرب عنه. منصوب على جواب النفي. وعنه يتعلق بيعرب. وناطق فاعل به. وبفم متعلق بناطق. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

47 لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا ... أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

اللغة: المناسبة: الموافقة. والقدر: المقدار. وعظم الشيء يعظم عظيما وعظمة: كبر. والآية: المعجزة، وهي الأمر الخارق للعادة، المقارن لدعوى الرسالة، المتحدي به قبل وقوعه. والدارس: الذاهب الفاني الذي لم يبق له رسم. والمراد هنا العظم الذي لم يبق منه أثر. والرمم جمع رمة وهي العظم البالي.

الشرح: هذا تتميم لقوله: وانسب إلى قدره ما شئت من عظم، أخبر رضي الله عنه أن قدر الرسول صلى الله عليه وسلم عند الله عظيم، وجاهه مكين، فلو كانت

معجزاته صلى الله علبه وسلم وما أجرى الله على يده من الخوارق مناسبة لقدره العظيم لكان اسمه إذا ذكر على العظم الرميم يحيى بإذن الله من ساعته لمجرد ذكر اسمه، ويقوم بشرا سويا من غير أن يستدعيه بنفسه، ولا يقف على قبره، كما كان يفعل عيسى عليه السلام فإن قدره وعناية الله عز وجل به أعظم من ذلك كله، لكن ما شاء الله أن يظهره على يديه من المعجزات وخوارق العادات إلا ما ظهر. وإن خص عيسى بإحياء الموتى فإن الخصوصية لا تدل على التفضيل. وقد أعطي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يساوي إحياء الموتى، كحنين الجذع اليابس، وانفجار الماء من اللحم والدم، إلى ما لا يعدّ ولا يحصى. وقد روي عن الحسن أنه قال: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أنه طرح بنية له في واد كذا، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الوادي وناداها يا فلانة أجيبيني بإذن الله، فخرجت من الوادي وهي تقول لبيك وسعديك يا رسول الله، فقال لها: إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما قالت: لا حاجة لي بهما، وجدت الله خيرا منهما. وروي عن أنس بن مالك أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء فسجيناه وعزيناها فقالت: مات ابني، فقلنا: نعم، فقالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني عن كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة. قال الراوي: فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعمنا معه. وأما كلام الصبيان والمراضع له، وضروب الحيوانات، وكلام الشجر والجمادات فقد تواترت بها الأخبار. ومن أراد الشفا في ذلك فعليه بالشفا. وقد استشكل بعضهم كلام الشيخ من كون آياته لا تناسب قدره، وقال: هذا شيء يقف منه الشعر، وتشمئز منه النفوس، ويجاب بأن المعجزة مخلوقة لله تعالى، وأي محذور في المفاضلة بين مخلوقين فيصح أن يقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم قدرا عند الله من المعجزات التي خلقها الله من أجله، وأجراها على يديه. وأن الله عز وجل لو أعطاه من المعجزات، وأجرى على يديه من الخوارق على مناسبة قدره عنده، ومكانته لديه، وعنايته به، لكانت معجزاته أعظم وأوضح من المعجزات التي ظهرت في الوجود على يديه، لكنه لم يرد أن يظهر منها إلا ما ظهر. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23] وهذا كله مع قطع النظر عن القرآن فإنه كلام الله ليس بمخلوق، وينزه أن يفضل عليه شيء. وبهذا استشكل البعض المتقدم،

والجواب أن كلام الناظم عامٌّ أريد به الخصوص، كقوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: 25] وهذا شائع في كلام العرب. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لو حرف شرط، وقد تقدم بعض الكلام عليه. وناسبت فعل ماض. وتاء تأنيث وقدره مفعول. وآياته فاعل. وعظما تمييز. وأحيا اسمه جواب لو. واسمه فاعل أحيا. وحين ظرف متعلق بأحيا، ويدعى مبني للمفعول. وضميره للنبي صلى الله عليه وسلم نائب الفاعل. والجملة في موضع خفض بإضافة حين إليها. ودارس مفعول أحيا. والرمم مضاف إليه. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

48 لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا العُقُولُ بِهِ حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

اللغة: الامتحان: الاختبار. والعيا: العجز. فعله عيي يعيا إذا كلَّ في فعله. والحرص على الشيء: الجد في طلبه وتحصيله. والعقل مشتق من عقل الدابة إذا منعها، لأن العقل يمنع صاحبه من ركوب الشهوات. ولذا قيل: إذا عقلك، عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل. وأحسن ما قيل في العقل أنه نور موضوع في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد، ويذهب ويعود. فينقص إذا مرض القلب بالمعاصي، ويزيد إذا توقى العبد المعاصي والتزم الطاعات. واختلف في محله، فقيل الدماغ، لأنه يختل باختلاله. وقيل محله القلب وهو الصحيح في النظر. والمعلوم من الأثر قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: 46] وفي الحديث القدسي: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وقلبه الذي يعقل به». وأجيب عن الأول: بأن الله تعالى جعل ارتباطا بين القلب والدماغ، فمهما تأذى الدماغ حصل التأثير في العقل. وقال المحاسبي في حده: هو غريزية يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية. وقال صاحب القاموس: هو نور روحاني يدرك به العلوم الضرورية والنظرية. انتهى. وبالعقل يتفاضل الناس في الدنيا والآخرة. ولذا قيل: خير ما أعطي الإنسان عقل يزجره، فإن لم يكن فحياء يمنعه، فإن لم يكن فمال يستره، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه، فتستريح منه البلاد والعباد. والريب: الشك. وارتاب: افتعل منه أي شك. والاسم الريبة وهي التهمة. ورابني فلان إذا رأيت منه ما يريبني. وهام يهيم هيمانا إذا تحير.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه علينا ورحمته بنا وشفقته علينا، لم يختبرنا بشيء تعجز عنه عقولنا، ولا ابتلانا بشيء تتحير به أذهاننا وتكل عنه أفهامنا، ولا كلفنا بشيء يحدث عندنا شكا أو تحيرا. فما كلفنا بعلم حقيقة الروح ولا النفس. ولا كلفنا بعلم الملكوت، ولا ما فوق السماوات، ولا ما تحت الأرضين. ولا ابتلانا بالتفكر في ذات الله تعالى بل نهانا عن ذلك كله. وإنما أمرنا بالتفكر في آيات الله ومصنوعاته ومخلوقاته. ونهانا عن التفكر في ذات الله تعالى لعجز العقول عن ذلك. وقد جعل لنا مثالا من أنفسنا وهو الروح وهو بين جنبنا وبه الحياة. به نأكل ونشرب ونجيء ونذهب، ونحن لا نعرفه وهو مخلوق. فكيف يطمع أحد بعد عجزه عن معرفة ما بين جنبيه أن يدرك الذات القديمة، ويتفكر فيها والعقول كلها عاجزة عن ذلك. فمن رام هذا يقال له اعرف ما هو فيك ومنك وسبب حياتك وما به قيامك وقعودك، وهذا شيء لم تعرفه فكيف تعرف الذات العالية. ولله در القائل:

أين الروح منك في جوهرها ... هل تراها هل ترى كيف تجول
أين منك القلب في قالبه ... وهو بيت الرب حقا إذ يقول
أين نور العقل والفهم إذا ... غلب النوم فقل لي يا جهول
هذه الأنفاس لا تعرفها ... لا ولا تدرى ولا عنك تزول
أنت لا تدري صفات ركبت ... فيك حارت في خفاياها العقول
فإذا كانت خفاياك التي ... بين جنبيك بها أنت ضلول
كيف تدري من على العرش استوى ... أم تقول كيف استوى كيف النزول
كيف تجلى لم تسر كيف ترى ... فلعمري ليس ذا إلا فضول
إن مثل كيف فقد مثلته ... أو تقل أين فقد رمت الحلول
هو لا أين ولا كيف له ... وهو رب الكيف والكيف يحول
فهو فوق الفوق لا فوق له ... وهو في كل النواحي لا يزول
جل ذاتا وصفاتا وسنا ... وتعالى وصفه عما أقول

فلم يخاطبنا صلى الله عليه وسلم إلا بما تطيقه عقولنا، ولم يكلفنا إلا بمعرفة ما تحمله أذهاننا، وقال: «خاطبوا الناس بقدر ما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله». كل ذلك حرصا على سعادتنا، وألاّ نقع فيما وقع فيه من قبلنا، فلم نرْتب

فيما جاءنا به من عند ربنا، ولم نتحير في قبوله والدخول فيه، بل جاءنا بما تدركه العقول، وتنقاد إليه الطباع السليمة من أول وهلة. فلله الحمد وله المنة.

الإعراب: لم يمتحنا جازم ومجزوم، والضمير مفعول، والفاعل ضمير النبي صلى الله عليه وسلم. وبما متعلق بما قبله. وما موصولة. وتعيا العقول فعل وفاعل صلة، والرابط: المجرور بالباء. ولا يجوز هنا حذفه لعدم توفر الشروط، وهو هنا عدم اتحاد المتعلق وهو امتحن. وتعيا وحرصا مفعول من أجله، وشروطه متوفرة من اتحاد الفاعل والوقت وكونه مصدرا. وعلينا متعلق به. ولم نرتب جازم ومجزوم. وفي الفاء معنى التسبب أي بسبب ذلك لم نرتب ولم نتحير أي لم يدخل في ديننا ريبة ولا تحير. وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

*** ثم قال رحمه الله:**

49 أَعْيَـى الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ... لِلْقُـرْبِ وَالبُعْدِ فِيهِ غَيْرَ مُنْفَحِمِ

اللغة: العيا: العجز والكلل. والقرب والبعد معروفان. والمنفحم: العي العاجز الذي لم يهتد لشيء.

الشرح: يقول رحمه الله: الخلق كلهم عاجزون عن فهم المعنى والسر الذي خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، وبلغه من الرتبة العالية، والمكانة الرفيعة، ما لم يبلغه أحد من الأنبياء قبله، كبلوغه مستوى سمع فيه صرير الأقلام، وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى على أحد التفاسير، وأمّ الأنبياء والملائكة ليلة الإسراء. وكقيامه بالشفاعة والمقام المحمود الذي لم يقمه غيره، ولا هيأه لأحد سواه. ومجاوزته ليلة الإسراء مقام جبريل. وكونه رحمة للعالمين. إلى غير ذلك من الحظوة والمكانة والآيات التي خصه الله بها. فبسبب ما خصه الله من هذه الكرامات أعيا الورى فهم معناه، فهم عاجزون عن إدراك ما منحه الله تعالى، وما احتوت عليه ذاته الشريفة من المعارف والأسرار. وإلى هذا أشار القطب الواصل عارف زمانه وفريد دهره وأوانه، سيدي عبد السلام بن مشيش في تصليته حيث قال: "وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق" أي متقدم ولا متأخر، فليس يرى في حالته القرب منه والاتصال به صلى الله عليه وسلم، وفي حالة البعد منه غير منفحم، أي عاجز يعني أن من صاحبه ولزمه بمثابة من لم يدركه ولا صاحبه. قد استوى الكل في الجهل بهذا السر وفهم هذا المعنى. وحسبنا أن نقول: فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، فنعم الله وعطاياه، الأنبياء

وما خصهم به دون البشر، لا ينال بكسب ولا عمل ولا سبب إلا بجود رباني وخصوصية إلهية. والله يختص برحمته من يشاء، والله ذوا لفضل العظيم.

الإعراب: أعيا الورى: فعل ومفعول. وفهم فاعل، ومعناه مضاف إليه. وهو مضاف للضمير. فليس فعل من أخوات كان لا يتصرف. ويرى فعل مبني للمفعول، وأصله يرأى نقلت فتحة الهمزة إلى الراء بعد تحرك الياء وانفتاح ما قبلها فالتقاء ساكنان حذف الواحد لالتقاء الساكنين فصار يرى. وللقرب والبعد يتعلقان بيرى. واللام بمعنى في. وأراد للقرب منه والبعد منه فحذف من الأول ما ثبت نظيره في الثاني. واسم ليس ضمير الشأن. وجملة يرى خبرها. وغير منفحم نائب فاعل. ومنفحم مضاف إليه ما قبله. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

50 كَالـشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُـدٍ ... صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَـمِ

اللغة: الكَلّ: العي. وتكل الطرف أي تمنعه من أن يتمكن من النظر إليها كل التمكن لما يفنيه ويضعف بصره. والطرف: طرف العين والأَمم: القرب.

الشرح: يقول رحمه الله: إن هذا السر الذي خص الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغ به ما لم يبلغه أحد. أعيا الخلق فهمه والوقوف على حقيقته. فاستوى في عدم الفهم له القريب والبعيد، ومن عاصره ومن لم يره، فأشبه الشمس في هذا المعنى، فإنها تعيي الناظر إليها وتغشي بصره بشعاعها. واستوى في عدم الوصول لحقيقتها القريب والبعيد. فلا يعرف قدرها من قرب منها، كما لا يعرفه من بعد عنها. فلا يحكم عليها بصغر جرمها ولا كبره، لأنه لم يقف على حقيقة علم ذلك. فإنها تظهر للناظر من بعد صغيرة وليست كذلك وتغشي طرفه من قريب فلا يتمكن من النظر. فكلاهما لم يقف على حقيقة الشمس من صغر ولا كبر. فكذلك السر الذي بلغ نبينا صلى الله عليه وسلم من الحظوة والمكانة ما لم يبلغه غيره. استوى في عدم معرفته القريب الذي عاصره، والبعيد الذي لم يدركه. فإن قلت كيف يتصور رؤية الشمس من قريب وهو محال عادة. فالجواب: إن هذا فرض محال، يعني لو فرض أن الرائي قرب منها لم يمكنه أن يصفها، ولا أن يصل إلى حقيقتها لحر شعاعها. فإن قلت المشبه لا صغر فيه ولا كبر فكيف يتم التشبيه والمشبه به، وفيه وصف لم يوجد في المشبه. فالجواب: إن القصد إنما هو بيان الاتفاق والتسوية في أمر جامع وهو عدم إدراك المشبه والمشبه به،

والتفصيل والصغر والكبر تفصيل زائد في المشبه به. والله أعلم.

الإعراب: كالشمس إما خبر مبتدأ مضمر، أي: هو كالشمس أو يتعلق باسم فاعل محذوف صفة لمصدر محذوف. أي إعياء شبيها بالشمس إلا أن فيه التضمين وهو عيب في الشعر. والوجه الأول أولى. وتظهر فعل مضارع تفسير لوجه الشبه وللعينين. ومن بعد يتعلقان به. ومن ابتدائية. وفاعل تظهر ضمير الشمس. وتكل بضم التاء من أكل الرباعي معطوف على تظهر. والطرف مفعول به. ومن أمم يتعلق بتكل. ويصح أن تتعلق بمحذوف حال من الطرف أي كائنا من أمم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

51 وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالحُلُمِ

اللغة: التسلية: شغل القلب عن الشيء بغيره. والحلْم: ما يراه النائم. يقال حلم الرجل بالفتح رآى في نومه. وحلم أيضا بالضم اتصف بالحلم وهو الرفق والتؤدة. وتحلم تكلف الحلم والنوم.

الشرح: يقول رحمه الله: كيف يدرك هذا السر العجيب ويفهم حقيقة هذا المعنى الذي خص الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الحظوة والمكانة والاصطفاء بالتفضيل على جميع الأنبياء. وما اشتمل عليه صلى الله عليه وسلم من العلوم الربانية، والأسرار اللدنية، والحقائق العرفانية. قوم اشتغلوا بنومهم وتسلوا عنه بحلمهم. يعني أن الصحابة رضي الله عنهم إنما أدركوا من النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما يدركه النائم من خيال المرئي في النوم. يعني أنهم إنما أدركوا صورته البشرية، وأما ما اشتمل عليه باطنه من الأسرار، فلم يدركه أحد منهم ولا من غيرهم. قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «والذي بعثني بالحق لم يعرفني حقيقة غير ربي». وقال أويس القرني رضي الله عنه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ظله. قالوا: ولا ابن أبي قحافة. قال: ولا ابن أبي قحافة». ولما ذكر هذا عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، قال: صدق أويس رضي الله عنه، إن عليا رضي الله عنه كان مقامه إدراك نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعثمان رضي الله عنه أدرك قلبه. وعمر رضي الله عنه أدرك عقله. وأبوبكر رضي الله عنه أدرك روحه. وحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم السر المكنون لا يطلع عليه إلا الله تعالى. قال الإمام الجزولي رضي الله عنه، بعد نقل هذا الكلام: إذ حقيقته

الأحمدية من السر المكنون، والأمر المصون الذي انفرد به تعالى. وما أدرك منه المؤمنون إلا ظاهر صورته المحمدية، وهو الذي عبر عنه أويس بالظل. ثم إن المؤمنين متفاوتون في إدراكهم، فكل أدرك من ذلك بحسب قربه. وأعظم الناس إدراكا الخلفاء الأربعة، لأنهم أشد الناس قربا منه صلى الله عليه وسلم. لكن لما اختلفت مقاماتهم اختلف إدراكهم. فكل ذي مقام أدرك منه صلى الله عليه وسلم حقيقة توافق مقامه. وإلى هذا أشار الشيخ الشاذلي. فعلي رضي الله عنه لما غلب عليه علم الشرائع وكان حاله الانبساط بها كان حالا يقتضي إدراك نفس من ورث العلوم عنه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الانبساط من شأن النفس. ولهذا قيل لو حاولت النفس كل المحاولة على أن تصمت لما صمتت. وعثمان رضي الله عنه لما كان حاله التفكر في العلوم كان حاله يقتضي إدراك قلبه صلى الله عليه وسلم، لأن شأن القلب التفكر. وعمر رضي الله عنه لما كان شأنه التدبر في العلوم كان حاله يقتضي إدراك عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن شأن العقل التدبر. وأبو بكر رضي الله عنه لما كان الغالب عليه إدراك الحقائق، وكان حاله الانقباض عليها، كان حاله يقتضي إدراك روحه صلى الله عليه وسلم، لأن الروح من شأنها الانقباض على العلوم الحقيقية. ولهذا قيل: من شأن الروح الصمت، فلو حاولت كل المحاولة على أن تنطق لما نطقت. وكل من الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين وإن غلب عليهم علم أو حال أو كان مقامه معلوما من المقامات فهو في غير العلم الغالب عليه إمام. وفي غير حاله ومقامه، الغالب صاحب حال أو مقام، وإنما اشتهر حاله بما هو غالب عليه. انتهى كلام الجزولي رضي الله عنه. وهو حسن. وإذا تأملنا أحوال الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وضح لك وجه ما ذكره. فكان سيدنا علي رضي الله عنه باب مدينة العلم. العلوم عنده ضرورية، يجيب عن المسائل المشكلات التي تحار العقول فيها على البديهة. وتأمل قضية العنبرية وقضية السبع التي وقعوا في البئر فقتلهم وهي مكتوبة في كتب الفقه كابن عرفة وغيره. وروي عن زر بن حبيش قال: جلس اثنان يتغذيان ومع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة وجلس إليهما ثالث واستأذنهما أن يصيب من طعامهما فأذنا له وأكلوا على السواء، ثم ألقى إليهما ثمانية دراهم. وقال: هذا عوض ما أكلت من طعامكما، فتنازعا في قسمتها، فقال صاحب الخمسة: لي خمسة ولك ثلاثة. وقال صاحب الثلاثة بل نقسمها على السواء. فترافعا إلى علي فقال لصاحب الثلاثة: اقبل من صاحبك ما عرض عليك فأبى

وقال: ما أريد إلا صميم الحق، فقال علي: إذا لك درهم واحد ولصاحبك سبعة. قال: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن الثمانية أربعة وعشرون، ثلثا لصاحب الخمسة خمسة عشر، ولك تسعة وقد استويتم في الأكل فأكلت ثمانية وبقي لك واحد وأكل صاحبك ثمانية وبقي له سبعة وأكل الثالث ثمانية سبعة لصاحبك وواحد لك. فقال: رضيت. إلى غير ذلك من مسائله وقضاياه حتى كان سيدنا عمر رضي الله عنه يتعوذ من قضية ليس لها أبو الحسن ويقول: لولا علي لهلك عمر. وانظر حال سيدنا عثمان فإنه كان رضي الله عنه كاتب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسر محله القلب الذي من شأنه التفكر. ولذلك اختص بكتابة الوحي حال نزوله، والوحي كان ينزل على قلبه. وقد سارّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه بأشياء لم يعلم بها أحد قبل ذلك مرارا. وانظر حال سيدنا عمر رضي الله عنه من موافقته ربه في آيات القرآن حتى قال علي رضي الله عنه: كنا نرى أن في القرآن كلاما من كلام عمر ورأيا من رأيه. وما كان له من حسن الاستنباط وإصابة النظر في إدبار الأمور الذي هو أثر التدبر، وإمعان النظر الذي هو من شأن العقل. وحال سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في إدراك غوامض أسرار التوحيد وخفاياه الدقيقة الذي هو شأن الروح، حتى قال سيدنا عمر رضي الله عنه: كنت أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد فأجلس بينهما كأني زنجي لا أعلم ما يقولان. نفعنا الله بمحبتهم آمين.

الإعراب: كيف: اسم استفهام يستفهم بها عن الصفة، وهو في موضع الحال من فاعل يدرك وهو قوم. وفي الدنيا تتعلق بيدرك. وحقيقته مفعول مقدم. ونيام نعت له.وجملة تسلوا صفة ثانية. وإذا اجتمع الوصف بالمفرد والجملة جاز تقديم الجملة على المفرد. والأكثر عكسه. قال تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ [الأنبياء: 50]. وقال: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ ﴾ [ص: 29]. وقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: 54]. والدنيا من الدنو وهو القرب لقربها منا وملابستنا إياها، وأصلها دنوا أبدلت الواو ياء كالعليا وهو قياس فعلى إذا كان اسما ولم يخرج من هذا القياس إلا القصوى. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

52 فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

اللغة: مبلغ العلم: غايته التي ينتهي إليها، والبشر: الإنسان. والبشرة من الجلد: أعلاه.

الشرح: يقول رحمه الله: أقصا ما نصل إليه من هذا النبي الشريف، وغاية ما بلغت معرفتنا إليه أنه بشر من جملة البشر، كما صرح بذلك القرآن والسنة في غير ما موضع، قال تعالى مخبرا عنه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف: 110]. وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلي». الحديث. وأنه صلى الله عليه وسلم خير خلق الله كلهم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة. فمنها قوله عليه السلام: «أنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع». وقال عليه السلام: «أنا سيد الأولين والآخرين وسيد الناس يوم القيامة». وهو الذي علمنا منه وتحققناه بالخبر الصدق عنه. وانتهت معرفتنا إليه، فبه نؤمن، وإياه نعتقد، وعنده نقف. أما السر الذي فضل به جميع الأنبياء والحظوة والعناية التي اختص بها عن جميع الخلق فلا مطمع لنا في علم ذلك في الدنيا. ويدخل في عموم الخلق الملائكة. والإجماع على تفضيله عليهم إلا من لا يعتد بخلافه كالزمخشري. وقد مر الخلاف في التفضيل بين الملائكة والأنبياء في قول الناظم:محمد سيد الكونين.. والله تعالى أعلم.

الإعراب: فمبلغ العلم مبتدأ ومضاف إليه. وأنه بشر خبره يسبك بالمصدر، أي كونه بشرا. وأنه خير خلق الله معطوف على الخبر. وكلهم توكيد لخلق الله، وكسر الميم جائز والأشهر الضم. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

53 وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

اللغة: كل: من أداة العموم. والآي اسم جنس آية. والرسل جمع رسول وهو من بعث بالرسالة وأمر بالتبليغ فهو أخص من النبي الذي أوحي إليه بشرع. ولم يؤمر بالتبليغ. والرسل يجوز تسكين السين وضمها. والرسول يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [طه: 47].

الشرح: يقول رحمه الله: إن آيات الرسل والأنبياء عليهم السلام من لدن آدم إلى نبينا صلى الله عليه وسلم إنما اتصلت بهم ونالوها واستمدوها من نوره صلوات الله وسلامه عليه وبسببه. إذ من نوره خلقت الأشياء كلها، وبسببه كان وجود الموجودات كلها. وهذا المعنى قد تقدم في قوله: لولاك لم تخرج الدنيا من العدم. ولما كان عليه السلام قد تحدى بآيات ومعجزات دلت على صدق نبوته، وتحدى الأنبياء أيضا بآيات ومعجزات دلت على صدقهم ربما يتوهم متوهم التساوي بينه وبين سائر الأنبياء في الرتبة والمكانة والخصوصية، وذلك بأن لهم معجزات وآيات كما له أيضا كذلك، فيتوهم التساوي. وقد قال في البيت قبل هذا: وإنه خير خلق الله كلهم. بيّن بقوله: وكل آي الخ. أن ما ظهر على سائر الأنبياء من المعجزات وخوارق العادات إنما نالوها ووصلوها من نوره ومن أجله، وإذا كان عليه السلام أصل الوجود وصلة الكون وسبب كل رحمة، فلا ينكر أن يكون معجزات الأنبياء اتصلت بهم من نوره وبسببه. وقد قال عليه السلام: «كنت نبيئا وآدم بين الطين والماء». وفي حديث آخر: «بين الروح والجسد». وأتى الناظم بالحصر لإعطاء معنى زائد على مجرد الأخبار. وقد تقدمت حكاية بعض الفضلاء استقراء هذا المعنى من القرآن، إلا أن استقراء هذا القول من الآية بعيد. وقد تقدم استيفاء الكلام عليها عند قول الناظم: لولاه لم تخرج الدنيا من العدم.

الإعراب: وكل آي: مبتدأ ومضاف إليه. وجملة أتى الرسل صفة لآي. والرابط بين الصفة والموصوف المجرور بالباء. والكرام نعت للرسل. وبها متعلق بأتى. وجملة إنما خبر كل. ودخلت الفاء على الخبر لعموم المبتدأ. وإن مكفوفة بما فلذا دخلت على الفعل. واتصلت: فعل ماض. وتاء التأنيث، والفاعل ضمير آي. فالتاء لازمة كقولك الشمس طلعت. ومن نوره متعلق باتصلت. وكذلك بهم. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

54 فَإِنَّــهُ شَــمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَـــا يُظْهِـرْنَ أَنْـوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

55 حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ فِي الأُفْقِ عَمَّ هُـدَا هَـا العالَمِـينْ وأحيتْ سائِرَ الأمــمِ

اللغة: الفضل: ضد النقص وهو الكمال. والكواكب: النجوم. والأنوار جمع نور. والظلم جمع ظلمة كحرمة وحرم ودمية ودمى.

الشرح: الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم. والمعنى أنه عليه السلام شمس الفضائل، ومعدن الكمالات، وأصل الأنوار ومنبع الأسرار. فكل كامل إنما استمد كماله من كماله عليه السلام. وكل داع يدعو إلى الله تعالى فإنما هو بالنيابة عنه عليه السلام. فأنوار الأنبياء عليهم السلام مقتبسة من نوره عليه السلام. فلما طلعت شمس فضائله، وأشرقت أنوار هدايته، خفيت أنوار هدايتهم، ونسخت أحكام شرائعهم لظهور الأصل. فنسبة أنوار الأنبياء عليهم السلام لنوره صلى الله عليه وسلم كنسبة النجوم من الشمس. فإذا لم تظهر الشمس استضاء الناس بأنوار النجوم. فإذا طلعت الشمس اكتفى الناس بأنوارها لكمالها وتمام إشراقها. فشبه أنوار النبي صلى الله عليه وسلم بأنوار الشمس، وأنوار الأنبياء عليهم السلام بأنوار النجوم، وهذه الأنوار المستمدة منه عليه السلام كناية عن هداية الخلق على أيديهم، وعن العلوم والمعارف التي تقتبس ببركة اتباعهم. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الأنبياء هداية وأكثرهم أتباعا. وأمته أعظم الأمم، فقد هدى الله تعالى على يديه في زمن قليل ما لم يهد على يد أحد من الأنبياء قبله في الزمان الطويل. بل هداية الخلق على يديه عليه السلام كانت قبل ظهوره للوجود. قال الشيخ أبو عثمان الفرغاني رضي الله عنه: لم يكن داع حقيقي من الابتداء إلى الانتهاء إلا هذه الحقيقة المحمدية التي هي أصل جميع الأنبياء وهم كالأجزاء والتفاصيل لحقيقته. فكانت دعوتهم من حيث جزئيتهم عن خلافة من كلهم لبعض أجزائه. وكانت دعوته دعوة الكل بجميع أجزاء كليته. والإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: 28] والأنبياء والرسل وجميع أممهم وجميع المتقدمين والمتأخرين داخلون في كافة الناس. وكان داعيا بالأصالة، وجميع الأنبياء والرسل يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته صلى الله عليه وسلم. وكانوا خلفاءه ونوابه في الدعوة. انتهى. وهو مضمن بيت الناظم السابق مع هذا. والله تعالى أعلم. وكون النجوم مستمدة من الشمس لم يكن له أصل إلا أن بيت الناظم لا يتعين فيه هذا المعنى. وإنما مقصوده التشبيه في مطلق النور والنيابة. والله تعالى أعلم.

الإعراب: إنه شمس فضل الضمير اسم إن. وشمس خبرها. وفضل مضاف. والفاء مشعرة بالعلة والسبب، كأنه قال: لأنه فضل شمس. ولو قال شمس هدي لكان أنسب، لأن الشمس والأنوار الغرض المطلوب منها هو حصول الهداية. والرسول عليه السلام به حصلت الهداية كما تقدم. وهم كواكبها مبتدأ وخبر. ويظهرن فعل مضارع

مبني لنون النسوة، وهو في موضع الحال من الكواكب. أي مظهرات. وأنوارها مفعول ليظهرن. والهاء مضاف إليه. وللناس متعلق بيظهرن. وفي الظلم كذلك. ويصح جعله في الظلم حال من الناس. والتقدير يظهرن أنوارها للناس كائنين في الظلم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

56 أَكْـــرِمْ بِخَلْـقِ نَبِـيٍّ زَانَـهُ خُلُـقٌ بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالبِـشْرِ مُتَّسِمِ

اللغة: أكرم تعجب واستعظام. والخلق بفتح الخاء: الصورة الظاهرة. والخلق بالضم: السجايا والصفات الباطنة. وما اشتمل عليه السلام من الشيم الجميلة والخلق المرضية واشتماله بالحسن تردّيه به كاشتمال الشملة. والبشر: طلاقة الوجه وتهلله. ومتسم من السيمة وهي العلامة. يقال اتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يعرف بها، وأصله أوتسم. أبدلت الواو تاء لقربها منها في المخرج ثم أدغموا.

الشرح: يقول رحمه الله: ما أكرم خلق هذا النبي الشريف، وأجمل صورته التي زينها الله بالخلق الكريم، والسجايا الزكية، والشمائل المرضية. وناهيك أن الله تعالى أثنى عليه في كتابه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: 4]. فكان عليه السلام على نهاية من الكمال في صفاته الظاهرة، وهي خلقه وصورته. وفي صفاته الباطنة، وهي خُلقه. فتردى بالحسن واشتمل به أي صار الحسن عليه كالشملة، واحتوى على جميع أعضائه الشريفة، وجوارحه الظاهرة. واتسم بالبشر. فكان عليه السلام علامته وسماته البشر والتهلل والسرور وطلاقة الوجه، فلا يلقاه أحد إلا مبتسما متهللا. فما أكرم من خصه الله بهذه الكمالات. فجمع بين كمال الظاهر والباطن، وما أحقه عليه السلام بقول عمه أبي طالب فيه:

وأبـــيض يستـــسقى الغمـــام بـــوجهه ثمـــال اليتامـــى عـــصمة للأرامـــل

وإن كانت الأنبياء عليهم السلام كلهم على صورة حسنة وأخلاق كرام، إلا إن نبينا عليه السلام كان في أعلى درجات الكمال خلقا وخلقا صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم.

الإعراب: أكرم فعل تعجب وهو أحد صيغتي التعجب. والثاني ما أفعل. والأصل كرم خلق هذا النبي، فلما أريد التعجب، غيرت الصيغة إلى أكرم للدلالة على

التعجب، فصار لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر. وكذلك قولك: أحسن بزيد. أصله حسن زيد، فلما غير للتعجب كرهوا إسناد صيغة الأمر إلى الظاهر فزيدت الباء إصلاحا للفظ. ومنه قوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ [مريم: 38] وزانه خلق: جملة من فعل ومفعول مقدم، وفاعل مؤخر في موضع الصفة لخلق، ومشتمل صفة أخرى. وبالحسن متعلق به، ومتسم صفة أخرى. وبالبشر متعلق بها.

* ثم قال رضي الله عنه:

57 كَالزَّهْـرِ فِي تَـرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ وَالبَحْـرِ فِي كَـرَمٍ وَالدَّهْـرِ فِي هِمَمِ

اللغة: الزهر جمع زهرة وهي نُوَر النبات، وخصه بعضهم بالأبيض. وقال ابن الأعرابي: النُّوَر الأبيض، والزُّهر الأصفر، وذلك لأنه يبيض ثم يصفر، والجمع أزهار وأزاهير. والترف: النعومة وجمال البشرة، والمترفين: المفعمين، والبدر: القمر إذا كمل. وإنما سمي بدرا لأنه يبادر بطلوعه غروب الشمس. والجمع بدور. ويسمى في أول ليلة هلالا ثم كذلك. فإذا كمل سمي بدرا. ويسمى الحسن الصورة بدرا على وجه التشبيه كما قال الشاعر:

شكوت إلى بدري هواي فقال لي ألست تريد بدر السماء الذي يسري

والشرف: العلو والرفعة. والكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره. والدهر: الزمان ومرور الأيام. والهمم جمع همة. والهمة وصف معنوي يطمح به الإنسان إلى المعالي ويأنف صاحبها من الرذائل. وقيل الهمة: قوة انبعاث في النفس إلى مقصود ما تعلوا بعلوه وتنسفل بانسفاله. يعني إن انبعثت تلك القوة إلى طلب الحق كانت عالية. وإن انبعثت إلى طلب حطام الدنيا وشهواتها كانت همة دنية.

الشرح: يقول رحمه الله: لما وصف الرسول عليه السلام بكمال الخلق والخلق مجملا في البيت. قبل هذا جاء به، هنا مفصلا فأوضح وفصل ما كان أجمل. فأخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه الزهر في نضارته ونعومته وحسنه وهو الترف. فإن قلت قد ذم الله المترفين في القرآن العظيم، فكيف يمتدح به؟ قلت: ليس الترف مذموما لنفسه ولا معابا لذاته. وإنما يذم الترف المكتسب في حق الكفار، لأنهم كانوا يتعاطون أسبابه من إيثار الدنيا والانهماك في شهواتها، والميل إلى نعيمها الزائل، وزخارفها الغرارة. وأما من كان ترفه ونعيمه ونضارة جسمه من غير سبب بل بجود إلهي وعناية

سابقة من غير علاج ولا تسبب فليس مذموما في حقه، بل هو معجزة وكرامة. وقد تقدم ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الزهد والتقلل من الدنيا، مطعما ومشربا وملبسا فراجعه عند قوله: ظلمت سنة الخ. وشبهه في شرفه ورفعة قدره وعلو منصبه وشهرته بالبدر بجامع صفات العلو والشرف والنور المعنوي الذي حصلت به الهداية. وشبهه بالبحر في كرمه وسخاوته وعظيم عطاياه، فكان عليه السلام أكرم الناس وأجود الناس. على هذا الوصف نشأ من زمان الصغر. وبه وصفته خديجة قبل النبوءة لما دهمه من الوحي ما دهمه عند نزول الملك، وأدركه الخوف ولم يعلم ما أريد به وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة - وقد رأت ما به - على وجه التسكين وتهوين الأمر عليه: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق. فذكرت الأسباب المؤذنة بالسلامة والحفظ، وعرفته بحسن عاقبته من أجل ما جبل عليه من فعل الخير. وقد جرت عادة الله تعالى أن من جبل على فعل الخير لا يخشى محذورا، ولا يخاف مخلوقا. وقد تقدم بسط الكلام على كرمه صلى الله عليه وسلم عند قوله: فاق النبيين. البيت. وشبهه أيضا عليه السلام في علو الهمة بالدهر، فإن الدهر موصوف عند العرب بعلو الهمة، كسرعة بطشه وعدم اكتراثه بالأهوال النازلة، فيقولون: جار علي الزمان وأصابني الدهر بكذا. فتنسب للدهر النوازل الواقعة، والمصائب المفظعة، والحوادث الملمة لوقوعها فيه. وهو من علو همته لا يستحدي ولا يتملق ولا يتداهن ولا يشتكي لمشتك. كذلك النبي عليه الصلاة والسلام لعلو همته يصدع بالحق كما أمر به في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: 94] ولا يخشى في الحق أحدا ولا يداري فيه ولا يذعن لكافر، ولا تأخذه في الله لومة لائم. وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كانت بنو إسرائيل إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوا يده، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». ومن علو همته صلى الله عليه وسلم أن قريشا عرضوا عليه الأموال حتى يكون أكثرهم مالا، وأن يملكوه عليهم حتى لا يقطعوا أمرا دونه، وأن يكف عنهم ويتركهم لدينهم. فأبى لهمته العالية إلا القيام بأمر الله وإظهار دينه وحكمه فيهم. فسفه أحلامهم، وعاب آلهتهم، ولم يكترث بكثرتهم وجرءتهم حتى أظهره الله عليهم، وحكمه فيهم، فمنّ وأطلقهم. والحاصل أنه شبه النبي صلى الله عليه وسلم في ترفه، أي نعومة بدنه بالزهر،

والجامع النعمة والحسن والنضارة. وشبهه بالبدر، والجامع: الشهرة والنور والعلو والهداية. وشبهه في الكرم بالبحر، والجامع: العطاء والبذل وما يشتمل البحر عليه من النعم والخيرات، مع ما اشتمل عليه صلى الله عليه وسلم من جواهر العلم النفيسة، والحكم العجيبة. وشبهه في علو الهمة بالدهر، والجامع: رفعة النفس، وعدم المبالات والمدارات في الحق والتملق للغير. وقد تقدم شرفه في حقه صلى الله عليه وسلم.

"خاتمة" في مدح الكرم وذكر حكايات الكرماء. قال صلى الله عليه وسلم: «الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار». ولا شك أن الكرم أعظم خصال الخير وخلة من خلال البر، وهو وصف من أوصاف الرب سبحانه، ومن أوصاف خواصه من أنبيائه وأوليائه. وما زال ممدوحا في الجاهلية والإسلام، وعند الخاص والعام. قال المدائني رحمه الله: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر إلى الحج ففاتتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز بخيمة فقالوا: هل من شراب. فقالت: نعم فأناخوا عندها وما معها إلا شاة في جانب الخيمة، فقالت: دونكم فاحلبوها. وامتدقوا لبنها ففعلوا. ثم قالوا: هل من طعام؟ فقالت لهم: هذه الساعة ما عندي سواها، فليذبحها أحدكم حتى أهيء لكم منها طعاما. فقام إليها أحدهم فذبحها وكشفها عن جلدها، فهيأت لهم منها طعاما، فأكلوا وأقاموا عندها ثم أبردوا ثم ارتحلوا. وقالوا: نحن نفر من قريش، فإذا رجعنا سالمين بحول الله فالحقي بنا فإنا صانعون إليك معروفا. فلما أقبل زوجها أخبرته الخبر وقال لها: ذبحت لهم شاة ليس لنا سواها وأنت لا تعرفينهم. ثم إن العجوز وزوجها اضطرتهم الحاجة فأتيا المدينة وجعلا يلتقطان البسر ويبيعانه ويعيشان من ثمنه فمرت العجوز في بعض سكك المدينة بالحسن بن علي وهو جالس بباب داره فعرفها ولم تعرفه، فقال لها: يا أمة الله، أما تعرفيني. فقالت له: لا والله ما أعرفك. فقال لها: أنا ضيفك يوم كذا، فقالت له بأبي أنت وأمي أنت هو. قال: نعم. فأمر لها بألف شاة وبعثها إلى أخيه الحسين، فقال لها: بكم وصلك أخي، فقالت له: بألف شاة، فوصلها الحسين بمثل ذلك. ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين، فقالت: بألفي شاة فوصلها عبد الله بألفي شاة. وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما. وخرج عبد الله بن جعفر يوما إلى ضيعته فنزل في طريقه بحائط نخل لبعض الناس وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أوتي الغلام

بقُوتِه، وإذا بكلب قد دخل الحائط ووقف على رأس الغلام، فرمى له الغلام بالقرص كله فأكله، ثم رمى له بالثاني فأكله، ثم رمى بالثالث فأكله، وعبد الله ينظر. فقال عبد الله للغلام: كم قوتك كل يوم. قال: هذه الأقراص التي رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب بقوتك على نفسك. فقال له الغلام: يا سيدي ما هذه بأرض كلاب، وإنما جاء هذا الكلب من بلد بعيدة جائعا، فكرهت أن أرده. قال: فما أنت صانع؟ قال له: أطوي نهاري. قال عبد الله بن جعفر: نسبت إلى الكرم والسخاء وهذا أسخى وأكرم مني. ثم سأل عن صاحب الحائط والغلام واشتراهما منه وأعتق الغلام ووهب له الحائط. وروي أنه كان بفناء الكعبة ثلاثة رجال فاختلفوا في أكرم الناس وأسخاهم. فقال أحدهم: أسخى الناس وأكرمهم عبد الله بن جعفر. وقال الثاني: أسخى الناس وأكرمهم قيس بن سعد بن عبادة. وقال الثالث: أسخى الناس وأكرمهم عرابة الأوسي. وكثر كلامهم في ذلك، فقال بعضهم لبعض: ليمض كل واحد منا على صورة سائل ويسأل صاحبه حتى ننظر ما يعطيه فنحكم على العيان، فقام صاحب عبد الله بن جعفر، فمشى إليه فصادفه قد وضع رجله في غرز راحلته ليركب، فقال: يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: قل فقال: عابر سبيل اضطرت بي الحاجة. فثنى رجله عن غرز راحلته، وقال له: خذ هذه الناقة بما عليها، ولا تأخذن السيف فإنه سيف علي. ومضى الآخر إلى قيس بن سعد بن عبادة الأوسي فوجده نائما، فقال له خادمه: هو نائم فما حاجتك؟ فقال له غريب وابن سبيل بعيد الدار قد أدركني الحاجة. فقال له الخادم: حاجتك أيسر من إيقاظه، خذ هذا الكيس فيه سبعمائة دينار. واذهب إلى معاطن الإبل بأمارات من فيها يعطيك راحلة وعبدا وامض لشأنك. فلما استيقظ سيده وأخبره الخادم أنجز عتقه. ومضى صاحب بعرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متكئ على عبدين وقد كف بصره، فناداه: يا عرابة. فقال له: قل فقال: ابن سبيل وغريب منقطع أضرت بي الحاجة فخلا العبدين وصفق بيديه، وقال: أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذ العبدين. فقال الرجل: ما كنت لأقص جناحيك. فقال له عرابة: إن لم تأخذهما فهما حران، فإن شئت فخذ وإن شئت في عتق. فتركهما وذهب يلتمس الحائط، فأجمع الحاضرون أن عرابة أسخى الثلاثة لأنه فعل جهد المقل، والآخران أعطيا عن فضل. وحكي أن عبد الله بن عباس أتاه رجل فوقف بين يديه وقال: يا ابن عباس إن لي عندك يدا وقد احتجت إليها، فقال له: وما يدك؟ فقال له: رأيتك واقفا

بزمزم وغلامك يسيح لك من مائها والشمس قد أضرت بك فظللت بكسائي حتى شربت، قال له: أجل إني لأذكر ذلك، وإنه ليتردد في خاطري. وقال لغلامه: وما عندك فقال عشرة آلاف درهم ومائة دينار. فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده، فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان كافيا في شرفه وفضله، كيف وقد ولد له سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم، ثم شفع بك وبأبيك. وكان عبد الله هذا أول من وضع الموائد على الطرق. واعلم أن مراتب الجود وأرفع درجات السخاء الإيثار على النفس مع الحاجة كما قال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: 9] فنزلت في رجل من الأنصار احتمل ضيفا نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يجد شيئا عنده، فوضع طعاما يسيرا بين يديه لم يكن عنده غيره، بعدما نوم صبيانا جياعا. وأمر امرأته بإطفاء السراج فقامت كأنها تصلحه فأطفأته. فجعل يضع يده على الطعام كأنه يأكل وهو لا يأكل حتى استوفى الضيف الطعام. فلما أصبح قال عليه السلام: «لقد عجب الله من صنيعكم مع ضيفكم» فنزلت الآية: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: 9] وهكذا كان عليه السلام يؤثر على نفسه مع الحاجة. ومن أبلغ الإيثار وأعجبه حديث حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أبحث عن ابن عم لي بين القتلى ومعي شيء من ماء، فقلت: إن كان به رمق سقيته ومسحت به على وجهه. فلما وجدته آثرت إليه أن أسقيه، فأومأ إلي، أي: نعم، فذهبت إليه لأسقيه وإذا برجل يصيح آه من شدة العطش، فأشار إلي ابن عمي أن أسقيه، فذهبت إليه فإذا هو هشام ابن العاصي فذهبت إليه لأسقيه، وإذا بآخر يصيح، فأشار إلي هشام أن أنطلق إليه فأسقيه، فانطلقت إليه لأسقيه فإذا هو ميت. فرجعت إلى هشام فإذا هو ميت فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو ميت. فأي شيء أعظم من هذا الإيثار، وأي صبر أعظم من هذا الاصطبار ذكره الأليوري.

الإعراب: كالزهر خبر مبتدأ مضمر. أي هو كالزهر، أي شبيه به. وفي ترف يتعلق بشبيه أي شريف في ترفه كالزهر، وتقدر، إما كائن كالزهر في ترفه أو شبيه بالزهر. فإن قدرت شبيها جئت بالباء وإن قدرت كائنا أبقيت الكاف وبقية البيت ظاهر الإعراب. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

58 كَأَنَّـهُ وَهُـوَ فَـرْدٌ فِي جَلاَلَـتِهِ فِي عَـسْكَرٍ حِينَ تَلْقَـاهُ وَفِي حَـشَمِ

اللغة: الفرد ضد الزوج ويطلق على المفرد والمركب. والمراد به هنا غير المركب وأراد به الناظم سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. والجلالة: العظمة والهيبة. والعسكر: الجيش. والحشم: الخدم. تقول العرب لفلان حشم أي خدم. وتقول حشمت الرجل واحتشمته إذا أغضبته. ومنه سمي الحشم حشما، لأنهم يغضبون لمخدومهم.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: كان سيدنا صلى الله عليه وسلم إذا لقيته وهو وحده كأنه مستقر في جيش كبير وعدد كثير، لما كان عليه السلام عليه من الجلالة والعظمة والهيبة في القلوب. ومع ذلك هو وحده لا حشم معه ولا عبيد. والشأن والعادة أنه لا يهاب إلا من له سطوة وجبروت. يجلس حيث انتهى به المجلس. ويعود المرضى ويتبع الجنائز ويجلس مع ضعفاء أصحابه كعمار وصهيب وبلال وخباب، فلا ينصرف عنهم حتى يكونوا هم الذين ينصرفون. ويقول لهم المحيا محياكم، والممات مماتكم. وكان لا يقطع على أحد حديثا. ويلقاه العبد والأمة في الطريق فيكلمانه ويتحدثان معه فيما يعرض لهما. فيكلمانه كأنه واحد منهما ويماشيانه ويقفان معه حتى كأنه أحدهما، ومع ذلك كان من الجلالة والعظمة والهيبة في القلوب إلى النهاية وفوق الغاية، حتى كأن جلساءه على رءوسهم الطير مع عظيم ما جعل الله في قلوبهم من الهيبة والعظمة والتوقير. وكان أصحابه يتحامون الضحك في مجلسه إلا تبسما ويتحامون رفع الأصوات. وكذلك ينبغي الآن في روضته المقدسة ومسجده الشريف، فإن حرمته ميتا كحرمته حيا.ولقد روي أن أبا جعفر المنصور ناظر مالكا في مسئلة من العلم وكان ذلك في مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فرفع المنصور صوته على مالك فقال له مالك رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله عز وجل قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: 2] الآية. ومدح قوما فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: 3]. وحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا. فاستكان له

المنصور وقال: يا أبا عبد الله أستقبل الكعبة أدعوا أم أستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له مالك رضي الله عنه: ولم تصرف وجهك عنه. وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم يوم القيامة. بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك، لقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: 64]. وكل مسجد له حظ من الحرمة ما لمسجد الرسول عليه السلام، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور: 36] فلا ترفع فيها الأصوات، ولا تنشد فيها الضَّوال، ولا تعقد فيها البياعات كما هو مقرر في كتب الفقه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: كأنه الضمير اسم كأن. وفي عسكر خبرها. أي متعلق الخبر. وهو فردٌ جملة حالية أو معترضة بين الاسم والخبر. وفي جلالته متعلق بالاستقرار حال كناية. أي كأنه حالة كونه منفردا مستقرا في جلالته كائن في عسكر. وحين تلقاه متعلق بما يتعلق به الخبر. وكذلك في حشم أي كأنه وحده موجود في عسكر. وفي حشم صلى الله عليه وسلم وعلى آله.

* ثم قال رحمه الله:

59 كَـأَنَّمَا اللُّؤْلُـؤُ المَكْـنُونُ فِي صَـدَفٍ مِـنْ مَعْـدِنَيْ مَـنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسِمِ

اللغة: اللؤلؤ جمع لؤلؤة وهي الدرة وتجمع أيضا على لآلئ. فيقال لؤلؤة ولآل ولؤلؤ. وقد ورد الجمعان عن العرب، فقال الشاعر:

بقـدر الكـد تكـسب المعـال ومـن طلـب العـلا سـهر الليالـي
تـروم المجـد وتـنام لـيلا يغـوص البحـر مـن طلـب اللئالـي

والجمع على لؤلؤ. قد جاء في القرآن قال تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن: 22] والمكنون المستور: الموضوع في الكن وهو الذي يستر به. والكن الستر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا ﴾ [النحل: 81] والأكنة الأغطية. وصدفة الدر: غشاؤها والمشتمل عليها الذي حواها وجمعها. والمعدن موضع الإقامة. وقوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ [الصف: 12] أي جنة الإقامة

وموضع النعيم الدائم. والمنطق الكلام.والمبتسم موضع الابتسام ومحله.

الشرح: يقول رحمه الله متمما للبيت السابق: أي إذا لقيت هذا النبي العظيم، والرسول الكريم ذهل عقلك، ودهشت من عظمته وهيبته ولو كان منفردا وحده، وكأنك لقيته في عسكر كبير وعدد كثير. فإذا خالطته وجلست معه وجدته أحلى الناس كلاما، وأعذبهم منطقا، وأبلغ الناس وأنصحهم كلاما، ينطق بجواهر الحكم، يتلاشى الدر المكنون في جنب حسنها. وإذا تبسم كأنما يفتر عن اللؤلؤ المكنون، بل اللؤلؤ المكنون في صدفه مستمد ومنتزع من معدن مبتسمه ومحل منطقه. والمراد أنه إذا نطق نطق بجواهر الحكم. وإذا تبسم تبسم عن مثل اللؤلؤ المكنون وحب الغمام. وعكس الناظم التشبيه مبالغة. ووصف الدر بكونه مكنونا في صدفه لم يتغير من مماسة الناس ولا تناولته الأيدي، لكون ذلك أصفى له وأنصع وأبدع وأرفع. والمراد كمال جمال منطقه صلى الله عليه وسلم، وتمام فصاحته. وإذا كان اللؤلؤ المكنون في صدفه مستمدا ومنتزعا من معدن منطقه ومعدن مبتسمه، فناهيك بمنطقه ومبتسمه الذي هو الأصل المستمد منه. ولم يقتصر في وصف اللؤلؤ على كونه مستورا حتى قال: في صدف، لأنه قد يكون مستورا في غير صدفه وغشائه، لكن بروزه وتناوله الأيدي إياه عند النقل قد لا يبقى على ما كان عليه من الصفاء والصقالة والحسن حين يكون في صدفه. وإنما يكون شبيها بمنطقه عليه السلام، ومنتزعا من معدن مبتسمه إذا كان في صدفه دون غيره. وفي حديث الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألؤ في الجدر، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه. وفي آخر حديث ابن أبي هالة رضي الله عنه: جُلُّ ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام صلى الله عليه وسلم. انتهى.

الإعراب: كأنما، كأن هنا مكفوفة بما عن العمل. واللؤلؤ مبتدأ. والمكنون صفة له. وفي صدف يتعلق بالمكنون. ومن معدني يتعلق باسم الفاعل محذوف هو الخبر. أي كائن من معدني منطقه وحذفت النون للاضافة. ومنطق مخفوض بالإضافة. ومنه صفة لمنطق. ومبتسم معطوف عليه. والمراد: مبتسم منه. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

60 لاَ طِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظُمَهُ طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

اللغة: الطيب: اسم جنس لكل ما له رائحة طيبة. وأطيب الطيب المسك. وطوبى من الطيب. والأصل طيبا فأبدلت الياء واوا لضم ما قبلها. وطوبى: اسم شجرة في الجنة. وتطلق أيضا ويراد بها الحالة الصالحة وبه فسر بعضهم قوله تعالى: ﴿ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد: 29] والمنتشق: الذي يشم الرائحة. والملتثم: المقبِّل. فعله التثم. ويقال لثم يلثم إذا قبّل.

الشرح: يقول رحمه الله: لا طيب في الوجود يشبه طيب التربة التي ضمت عظام رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتوت ذلك الجسد الطيب والذات الشريفة المقدسة. فلا يعدل هذه التربة شيء من أنواع الطيب على اختلاف أنواعه ولا يقاربها. وهذا الطيب الذي أراد الناظم رحمه الله تعالى يحتمل أن يكون حسيا وهو الظاهر. وقد حدّث كثير ممن يوثق به من الحجاج ممن اتصل بالقبر الشريف أنهم يجدون في تلك البقعة روائح طيبة خارجة عن العادة. وإنما أضاف الطيب للتربة لما كانت توجد عندها. وإذا كانت الرائحة الطيبة توجد عند بعض قبور الصالحين الوارثين عنه من كثرة الصلاة عليه، فكيف لا توجد عند قبر من تطيب الوجود بطيب ريّاه. وقد كان في حياته صلى الله عليه وسلم ينفح الطيب منه، مس طيبا أو لم يمسه. وكان عرقه صلى الله عليه وسلم أطيب الطيب. وكان من توصل إليه يجعله في طيبه ومن تطيب به عبقت رائحته. وشمها أهل المدينة وعلموا به ولا يجدون له شبها في الطيب. وكان لا يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه، من طيب عرفه وعرقه صلى الله عليه وسلم. وذكر إسحاق بن راهويه، أن تلك كانت رائحته بلا طيب صلى الله عليه وسلم. وروي عن جابر رضي الله عنه قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتقمت خاتم النبوة بفمي، فكان يشم علي مسكا. وكانت كفه أطيب ريحا من المسك والعنبر كأنها كف عطار. يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضعها على رأس صبي فيعرف من بين الصبيان. وكان إذا دخل الخلاء انشقت الأرض له فابتلعت ما يخرج منه وشمت من مكانه رائحة طيبة، ولم يطلع على ما يخرج منه بشر قط. وشربت أم أيمن بوله عليه السلام غلطا لم تجد له رائحة البول. وشرب دمه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

فتصوغ فمه مسكا، وبقيت رائحته في فمه إلى أن قتل.

ولما مات عليه السلام لم يظهر منه شيء يستكره مما يظهر على الأموات، بل كان طيبا حيا وميتا. وبالجملة فهو صلى الله عليه وسلم طيب الله نفحه في الوجود فتعطرت به الكائنات. واغتذت به القلوب فطابت وتنسمت الأرواح فنمت. فلا جرم كانت التربة التي ضمت أعظمه الشريفة، لا طيب يعدلها ولا يقاربها، خصوصية خصها الله بها. ويحتمل أن يكون هذا الطيب الذي أراد الناظم معنويا عبر به عن طيب الثناء على ما حواه التراب واشتمل عليه من ذلك الجسد الطيب، والذات الكريمة والأخلاق. كما عبر عنه الشاعر بقوله:

وليس فتيت المسك ما تجدونه   ولكنه ذاك الثناء المخلف

والأول أظهر والله تعالى أعلم.

الإعراب: لا طيب لا واسمها مركب مبني على الفتح. ويعدل مضارع في موضع الصفة لاسمها عند بني تميم لأنهم التزموا حذف خبر لا التبرية. والحجازيون يرون أن حذفه كثير لا واجب. وتقدير الخبر موجود. وتربا مفعول بيعدل. وضم أعظمه جملة من فعل وفاعل ومفعول في موضع صفة لترب. وطوبى مبتدأ. ولمنتشق خبره. ومنه متعلق بمنتشق. وملتثم معطوف عليه وحذف منه لثبوت نظيره في الأول، أي وملتثم منه. انتهى.

ثم انتقل رحمه الله إلى الفصل الرابع المتعلقة بمولده صلى الله عليه وسلم فقال:

الفصل الرابع
في مولده صلى الله عليه وسلم

* بدأه رحمه الله بقوله:

61 أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ

اللغة: أبان الشيء: أظهره وأوضحه. يقال: بان الشيء ظهر. وأبانه أظهره. والمولد إما اسم زمان أو اسم مصدر. والعنصر: الأصل والمبتدأ. وعنصر الشيء مبتدأه وأوله. والمختتم: منتهاه وغايته وخاتمته.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: ما ظهر بيوم مولده من الآيات البينات، والعلامات الواضحات، والعجائب الخارقات للعادات، كل ذلك يدل على علو قدره وشرف منزلته وظهور أمره. فقد أبان وأوضح مولده بسبب ما ظهر فيه من الكرامات وخوارق العادات، عن طيب أصله وعلو قدره وعناية الله عز وجل به. أما ما ظهر في ولادته صلى الله عليه وسلم من المعجزات وخوارق العادات فشيء طبق الأفق، واشتهر اشتهار الشمس في الآفاق. واتفق الناس على صحته. فمن ذلك أن آمنه بنت وهب بشرت حين حملت به قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع بالأرض فسميه محمدا، فقولي عند وقوعه: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من الشام. قال السهيلي رحمه الله: وذلك لما فتح الله على يديه من البلاد، واستضاءت من نوره تلك العباد، بالهداية والرحمة. ومن ذلك أنه وضع رافعا رأسه، شاخصا ببصره نحو السماء. ومن ذلك ما رأته أم عثمان بن أبي العاصي من تدلي النجوم وظهور النور عند ولادته حتى لا ترى إلا النور. ومن ذلك ارتجاج إيوان كسرى وهو قصره، وغيض بحيرة طبرية، وذهاب مائها. ومن ذلك خمود نار فارس، وحراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين. ومن ذلك أن قوما من قريش كانوا عند صنم لهم كانوا يعظمونه وينحرون عنده، فلما كان يوم مولده صلى الله عليه وسلم رأوه قد انكب على وجهه، فأنكروا ذلك وردوه كما كان. فخر على وجهه فردوه ثم انكب ثالثة فاغتموا لذلك وقالوا: ما له

أكثر الانكباب؟ ما هذا منه إلا لأمر حدث. وورخوا ذلك اليوم فكان يوم مولده صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم بعثت أمه إلى جده عبد المطلب تقول له ولد غلام فأْته فانظر إليه، فجاء أبو طالب فنظر إليه وحدثته أمه بما رأت حين حملت به وما قيل لها وما رأت من العجائب يوم مولده، فأخذه عبد المطلب ودخل به الكعبة، وجعل يدعوا ويشكر الله على ما أولاه وأعطاه، ثم رده إلى أمه والتمس له الرضعاء، فوجد حليمة بنت أبي ذؤيب فكانت أمه من الرضاعة، وقصتها وما رأت في زمان رضاعه صلى الله عليه وسلم من الكرامات مشهورة نقلنا منها نبذة صالحة في شرح الهمزية. وأما ما دل عليه ما ظهر قط يوم مولده من طيب عنصره وإشاذة ذكره فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم كان أشرف قومه نسبا من قبل أبيه وأمه. روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قسم الخلق قسمين يعني أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فجعلني من خيرهم نسبا فأنا من خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلني من خيرهم ثلثا. وذلك أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة والسابقون. فأنا من السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني من خيرهم قبيلة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13] وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله. ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني من خيرهم بيتا: فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: 33]. وعن واثلة بن الأسقع: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا. واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. وانظر الشفا ففيه الشفا. وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما خلق الله آدم أهبطني من صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوين لم يلتقيا على سفاح. وعن ابن عباس: أن قريشا كانت نورا بين يدي الله عز وجل قبل أن يخلق آدم بألفي عام يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق آدم بث ذلك النور في صلبه، ثم أهبطني إلى الأرض في صلب آدم، ثم في صلب

نوح، ثم في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة، إلى الأرحام الطاهرة. فلعل الناظم أشار بطيب العنصر إلى هذا النور. والله تعالى أعلم. وكان مولده عليه السلام في ربيع الأول لليلتين خلتا منه، وقيل لثمان، وقيل لعشر، وقيل لاثنتي عشرة خلت منه وهو الصحيح. واتفقوا أن مولده كان يوم الاثنين، وأنه نبئ يوم الاثنين، وقدم المدينة مهاجرا يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وذلك سنة إحدى عشر من الهجرة، وقصة تزوج عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم بآمنة. وقصة عبد المطلب في نذر ذبحه وفدائه مشهورة فلا نطيل بها. وكما ظهرت الخوارق عند ولادته صلى الله عليه وسلم كذلك ظهرت المعجزات عند وفاته وآخر انتهائه. ولذلك تعجب الناظم منهما فقوله: يا طيب مبتدإ منه ومختتم. فالنداء للتعجب من كثرة طيبهما بما ظهر فيهما. ويحتمل أن يريد بالاختتام آخر أمره صلى الله عليه وسلم، فيصدق بما ظهر على يديه من المعجزات منذ بعثه الله إلى أن توفاه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: أبان مولده فعل وفاعل. والهمزة فيه للتعدية. عن طيب عنصره متعلق بأبان. يا طيب منادى على وجه التعجب. ومبتدإ مضاف إليه. ومختتم معطوف عليه. والمعنى: ما أطيب المبتدأ والمختتم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

62 **يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ البُؤْسِ وَالنِّقَمِ**

اللغة: الفراسة: نور من نور الله وسر من سره ينظر به المؤمن فيرى الأمر كأنه عيان. واهتداء المتفرس بفراسته إنما هو على قدر إيمانه. وقد يخبر المتفرس بما يئول إليه الأمر فيقع الأمر كما أخبر. والفراسة تكون بأمارات ومخايل. كما أن الخائف له أيضا أمارات يعرف بها. شبه الملحق بالملحق به. وأما الكاهن فهو المتلقي من الجن ما يلقى إليه فيخبر به. والمحدث هو الذي يلقي إليه الملك ما يحدث به. فيفرق ما بين الكاهن والمحدث، أن الكاهن عن الجن والمحدث عن الملك، ويخلق الله في قلبه ما يحدث به من غير نظر ولا فكرة ولا واسطة. ومن المحدثين عمر رضي الله عنه، فإنه وجه سارية على سرية، فالتقى سارية مع العدو، وكان العدو ذا شوكة، حتى كاد يستأصل المسلمين. فبينما عمر يخطب في الناس وبينه وبين سارية المسافة البعيدة، إذ حدث عمر بشأنهم، وألقى الله خبرهم في قلبه، فجعل ينادي: يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فبلغ الله صوته إلى سارية، فلجأ إلى الجبل، ولجأ المسلمون معه. فكان ذلك

سبب نجاتهم. وقد أخبر بشأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن يكن من أمتي محدثون فعمر منهم». والفرس قبيلة وهم عباد النار. وإنما أخذوا عبادة النار من السند وهم المجوس. وهؤلاء لا يأكلون لحما ولا يذبحون حيوانا، ويتناكحون فيما بينهم الأقرب، فالأقرب وأقرب. نكاحهم الأخ لأخته وابن الأخ لعمته. والإنذار والنذارة ضد البشارة، وهو: الإخبار بالمخوفات، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ [مريم: 39]. ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾ [غافر: 18] وقال عليه السلام: «أنا النذير العريان فالنجاة النجاة». والبشارة بالخير وقد تستعمل في الشر تهكما كقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: 24]. وحلول البؤس: مجيئه ووقوعه. والبؤس: الشدة والمصائب النازلة. تقول العرب بئس الرجل إذا افتقر. وبؤس إذا شجع. والنقم جمع نقمة. والانتقام: العقوبة.

الشرح: يقول رحمه الله، مبينا لما قبله وهو ما ظهر في يوم مولده من الآيات والخوارق والمخوفات، أي: هو يوم عظيم وقع فيه آيات وعجائب. والكثير منها مختص بقبيلة فارس وملك كسرى كانصداع الإيوان، وخمود النيران، وغور ماء بحيرة على ما يأتي قريبا إن شاء الله. فلما رأوا ذلك مع ما تقدم لهم من أخبار الكهان وكانوا يثقون بهم ويقطعون بصدقهم، تفرسوا بعقولهم أن البأس حال بهم. وأن تلك أمارات وعلامات تدل على تشتيت شملهم وخراب ملكهم وانقطاع دولتهم. فإن قلت قد تقدم أن الفراسة نور من نور الله ينظر به المؤمن، فكيف تصح من الكافر؟ فالجواب أن هذه ليست فراسة، وإنما رأت أسبابا ومخايل وأمارات استدلوا بها وخافوا منها على خراب ملكهم وحلول البأس بهم. والشفيق بسوء الظن مولع. وإنما سماه الناظم فراسة حرصا على التجنيس بين الفرس والفراسة. وإنما رأوا أسبابا خوفتهم، لا أنهم تفرسوا فليست الفراسة من شأنهم، لأنها نور من نور الله تعالى وهم بمعزل عنها، وإنما هي من شأن المؤمن الكامل. فقد سئل بعضهم عن الفراسة فقال: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنطق عن سره بالحق نطق مشاهدة وعيان لا نطق ظن وحساب. وقال الكتاني: الفراسة مشاهدة الحق، ومعاينة الغيب. انتهى. وذلك من مقام الإيمان. وكان مالك رحمه الله أقوى الخلق فراسة. روي أن الشافعي رحمه الله، أول ما دخل على مالك ووقع بصره عليه صعّد النظر إليه وصوبه ثم قال: يا بني، اتق الله

واجتنب المعاصي يكن لك شأن من الشأن. ودخل عليه ابن فروخ وابن غانم والبهلول بن راشد فقال في الأول: هذا فقيه بلده. وقال في الثاني: هذا قاضي بلده. وفي الثالث: هذا غالب بلده. فكانوا كذلك. وروي أن الشافعي ومحمد بن الحسن كانا في المسجد الحرام فدخل عليهما رجل فقال محمد بن الحسن: أتفرس فيه أنه نجار. وقال الشافعي: أتفرس فيه حدادا. فسألاه عن حرفته وما ينتحل به فقال: كنت نجارا وأنا اليوم حدادا وبالعكس. فأصابا معا. وحكي عن الدينوري أنه قال: كنت جالسا في مسجد بغداد في جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء فأتيت إبراهيم الخواص لأسأله شيئا يأكله الفقراء، فلما راني قال لي قبل أن أكلمه: الحاجة التي جئت إليها: يعلمها الله أم لا؟ قلت: بلى، قال: فاسكت وارجع ولا تبدي حاجتك لمخلوق. قال فرجعت فلم ألبث إلا قليلا حتى فتح الله بما فوق الكفاية. وحكى الإمام القشيري رحمه الله أن شابا قصد الجنيد ولازمه، فقال أصحاب الجنيد للشيخ: يا سيدي هذا الشاب صاحب فراسة يخبر بخواطر القلوب فقال الجنيد للشاب: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقال له الشاب: هو ذاك فاعتقد في قلبك. فقال الشيخ: قد فعلت. فقال له الشاب: فاقعد وانو ثانية. فقال له: قد فعلت. فقال له الشاب: نويت كذا وكذا. فقال الشيخ: لا. فقال له: اعتقد ثالثة. فقال له الشيخ: قد فعلت. فقال له الشاب: نويت كذا وكذا. قال: لا. قال الشاب: سبحان الله، أنت رجل صادق وأنا لا أكذب قلبي. فقال الجنيد: صدقت في الأولى والثانية والثالثة. فإن قلت: كيف يصدر من الجنيد هذا وهو كذب. فالجواب: أنه ليس بكذب وإنما معنى قوله لا أي لا أخبرك وإنما فعل هذا ليستوثق من الشاب ويحقق صدقه ويختبر أخلاقه هل يتغير أم لا. وروي أن السري السقطي كان يقول للجنيد: تكلم على الناس، فكان الجنيد يتوقاه ولا يرى نفسه لذلك أهلا. فقال الجنيد: فنمت في بعض الليالي، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وكانت تلك الليلة ليلة الجمعة فقال لي: تكلم على الناس. فاستيقظت وخرجت مسرعا حتى جئت على باب السري السقطي فدققت الباب، فلما خرج ووقع بصره علي قال لي على البديهة قبل أن أخبره: أنت لم تصدقنا حتى أمرت. فقلت: نعم. فقعدت في المسجد في الغد فانتشر الخبر في الناس، وتحدث أن الجنيد يتكلم. بينما هو يتكلم في بعض الأيام إذ وقف عليه نصراني متنكر لا يعلم به أحد. فقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله. فأطرق

الجنيد رأسه إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال للغلام: أسلم فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام من ساعته وظهرت فراسة الشيخ، وظهر أنه نصراني ولم يكن عرفه أحد لأنه جاء متنكرا. والله تعالى أعلم.

الإعراب: يوم خبر. أي هم يوم. يريد به مولده صلى الله عليه وسلم. وأفاد الخبر مع صفة. وهو جملة. تفرس فيه الفرس. وقد أنذروا خبر أن. وبحلول البؤس يتعلق بأنذروا. والنقم معطوف على البؤس.

*** ثم قال رحمه الله:**

63 وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

64 وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي العَيْنِ مِنْ سَدَمِ

65 وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالغَيْظِ حِينَ ظَمِي

66 كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالمَاءِ مِنْ بَلَلٍ حُزْنًا وَبِالمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ

اللغة: بات إذا دخل في المبيت. وبات أيضا بمعنى صار. والإيوان قصر كسرى. ومنصدع منشق من كثرة الارتجاج والاضطراب والتحرك متداعيا للسقوط. وشمل الرجل حالته وهيئته. وقيل أهله وعشيرته. والملتئم: المجتمع المتصل. وغير الملتئم الذي تفرق وانفصل بعضه من بعض. والنار خامدة الأنفاس، أي سكنت وطفيت فلم تشتعل ولم تضطرم. وأنفاسها كناية عن لهبها وشررها. والأسف: الحزن. يقال أسف يأسف أسفا إذا حزن. وساهي العين: جامدها، يعني عدم جريانها، بالدموع. والسدم: هم يصحبه ندم، إلا أن الهم الذي يصحبه ندم لا يكون إلا عن سبب من النادم وذلك هو الحامل لا على الندم لأنه يرى أنه سعى فيه وفعله حيث فعل السبب. وساء سأوة: أحزنها. وسأوة: مدينة من مدن اليمن. والمراد أحزن. أهل سأوة غيض بحيرتها وذهاب مائها لأنه ذهب ماؤها إذ ذاك وغاب فابتلعته الأرض. والوارد: الذي يرد الماء ليشرب. وقوله: بالغيظ أي متغيظا محروما مهموما حين أجهده العطش ولم يجد ماء.

الشرح: يقول رحمه الله مبينا للعلامات والأسباب التي تفرست الفرس بها: أنها مؤذنة بذهاب عزهم وخراب ملكهم وهي التي أنذرتهم بحلول البؤس والنقم بهم. إذ كانت عجائب لم يعهد مثلها عندهم. من ذلك ارتجاج إيوان ملكهم وانشقاقه فإنه

اضطرب وانشق وسقطت منه أربعة عشر شرافة. وكانوا يقولون من شدة صلابة بنائه لا يهدمه إلا نفخ الصور. ومن ذلك أيضا خمود نارهم التي كانوا يعبدونها ويعظمونها. وكان لها ألف عام لم تخمد. فخمدت يوم مولده صلى الله عليه وسلم. كتب إلى كسرى بذلك صاحب الفرس من عماله فأرّخه فكان صبيحة يوم مولده عليه السلام. فخيل للنار لما خمدت كأنها خمدت أسفا وحزنا على عبادها وخدمها الذين كانوا يعظمونها. وإن النهر جمد وغيض ماؤه ولم تجر منه قطرة حتى كأن الحقائق انقلبت في ذلك اليوم. وكأن بالنار ما بالماء من البلل فلذلك طفيت وخمدت، وبالماء ما بالنار من ضرم أي من اتقاد واحتراق، فلذلك جف الماء وذهب جريانه. ومن ذلك أن صاحب اليمن كتب إليه أن بحيرة ساوة ذهبت وغاضت وذهب ماؤها وأن واردها رجع مغموما حيث لم يبلغ حاجته ولا وصل إلى غرضه من ذهاب عطشه. ومن ذلك أن عامله على الشام كتب إليه ليخبره أن وادي سأوة انقطع تلك الليل فلم يجر ماؤها. ومن ذلك أن أصنام الدنيا كلها أصبحت منكوسة. وأن صنم قرية انكب على وجهه فأقاموه، ثم انكب ثانية فأقاموه مرتين أو ثلاثا فهتف بهم هاتف يسمعونه ولا يرون شخصه، وأنشد:

تردى لمولود أضاءت لنوره ... جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طرا فأرعدت ... قلوب ملوك الأرض بالشرق والغرب
ونار بلاد الفرس ناحت وأظلمت ... وقد بات شاه الفرس في أعظم الكرب
وصارت عن الكهان بالغيب جنها ... فلا مخبر عنهم بصدق ولا كذب
فيا لقصي ارجعوا عن ضلالكم ... وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب

فهذه آيات بينات، ومعجزات واضحات، وخوارق عادات، أظهرها الله تعالى عند ولادته صلى الله عليه وسلم عناية به وكرامة له، فسعد بها أقوام وشقي بها آخرون. {من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له}. اللهم نور قلوبنا بمعرفتك، وأمتنا على محبة هذا النبي الكريم آمين.

الإعراب: وبات إيوان كسرى جملة معطوفة على ما قبلها. وهو منصدع جملة حالية من فاعل. بات كشمل أصحاب كسرى في موضع الصفة لمنصدع أي منصدع انصداعا شبيها بانصداع شمل أصحاب كسرى في الانصداع والتفرق. ويصح جعله من الإيوان. وغير ملتئم إما صفة لمنصدع وإما حال من الإيوان فيكون منصوبا. والنار

خامدة الأنفاس جملة اسمية. من مبتدأ وخبر معطوفة على جملة بات. الخ. ومن أسف يتعلق بخامدة. ومن لابتداء الغاية ويصحبها التعليل. وإعراب العجز كالصدر. وساء سأوة فعل ومفعول. وإن غاضت بحيرتها فاعل أي وساءها غيض بحيرتها. ورد واردها فعل ونائب فاعله. وبالقيظ يتعلق برد وكذلك حين وهو مبني لاتصاله بفعل مبني. وظمي مع فاعله جملة مخفوضة بالإضافة. وكأن حرف تشبيه. وبالنار صلة موصول محذوف هو اسم كأن. أي كأن الذي استقر بالنار ما وجد بالماء من البلل. وكأن الذي بالماء من الاحتراق ما استقر بالنار من ضرم. وحزنا مفعول من أجله. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

67 وَالجِـنُّ تَهْـتِفُ وَالأَنْـوَارُ سَاطِعَةٌ وَالحَـقُّ يَظْهَـرُ مِنْ مَعْنى وَمِنْ كَلِمِ

اللغة: الجن مشتق من جن يجن إذا استتر. وهتف الجن: صياحها وإتيانها بالأخبار للكهان. يقال: هتفت الحمام: صاحت. والأنوار جمع نور. والمراد ها هنا: البراهين والآيات لأنها توضح الحق وتبينه وتُذهب بظلمة الجهل والكفر. كما أن الأنوار الحسية توضح الأشياء الحسية وتظهرها. وساطعة أي نيرة مضيئة بادية. والحق ضد الباطل، وظهوره من المعنى أراد به انتكاس الأصنام. وخمود النيران وغيض الماء وانقطاع الوادي وظهوره. من الكلم أراد به سيف بن ذي يزن. وثيق وسطيح وغيرهما من المخبرين به عليه السلام وكل ناطق أشار إليه أو تكلم به من هواتف الجن وغيرهم. فكانت المعاني تخبر عنه بلسان الحال. والجن والكهان يخبرون عنه بلسان المقال.

الشرح: أخبر رحمه الله: أن الجن هتفت وأخبرت بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم للوجود. وبظهور رسالته حين أرسله الله تعالى. وأخبر أن الأنوار ساطعة، والمراد بها دلائل نبوته وبراهين صدقه من نطق الجمادات وأخبار الكهان والأحبار من اليهود والنصارى وغيرهم. فظهر الحق من المعاني بنطق لسان الحال، ومن الكلام بنطق لسان المقال. وأراد بالأول انتكاس الأصنام، وغيض الماء وانصداع الإيوان وغير ذلك. وأراد بالثاني أخبار الكهان والأحبار والرهبان. أما هتف الجن عند وجوده صلى الله عليا وسلم فذكر بعض العلماء أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم هتف هاتف على الحجون وهو يقول:

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت ولا ولدت أنثى من الناس واحده

كما ولدت زهرية ذات مفخر مجنبة لؤم القبائل ماجده

وهتف آخر بجبل أبي قبيس أربعة أبيات فيها معنى ذلك. وأما هتفها عند مبعثه صلى الله عليه وسلم فأمور كثيرة منها قصة سواد بن قارب وكان كاهنا في الجاهلية، قال رضي الله عنه: كنت نائما على جبل من جبال السرّاة ليلة من الليالي فأتاني آت فضربني برجلي وقال: قم يا سواد بن قارب أتاك رسول من لؤي بن غالب. قال فرفعت رأسي وجلست فأدبر وهو يقول:

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأقتابها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قدامها كأذنابها

وأتاه في الليلة الثانية فضربه برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤي بن غالب. فرفعت رأسي وجلست فأدبر وهو يقول:

عجبت للجن وأخبارها ورحلها العيس بأكوارها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوها مثل كفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قدامها كأدبارها

ثم أتاني في الثالثة فقال مثل ما تقدم في المعنى. قال: فلما أصبحت اقتعدت بعيري فأتيت مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ظهر فأخبرته الخبر وبايعته. وفي بعض طرقه: أنه أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى ما جاءه به رئيه وهو هذا:

أتاني رئيي بعد هدء ورقدة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك نبي من لؤي بن غالب
فرفعت أذيال الإزار وشمرت بي العِرْمِسُ الوجنا عجول السباسب
فأشهد أن الله لا شيء غيره وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يابن الأكرمين الأطالب
فمر نائما يأتيك من وحي ربنا وإن كان فيما جئت شيب الذوائب
وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

ومنها قصة الخثعميين. قال أبو هريرة: بينما قوم من خثعم عند صنم لهم كانوا

يتحاكمون إليه إذ سمعوا هاتفا يهتف:

يـــا أيهـــا الـــناس ذووا الأجـــسام ومـــسندوا الحكـــم إلـــى الأصـــنام
أكلكــــــم أوره كالكهـــــــام ألا تـــــرون مـــــا أرى أمــــــام
مـــن ســـاطع مجلـــوا دجـــا الظـــلام ذاك بنـــــي ســـــيد الأنـــــام
مـــن هاشـــم فـــي ذرره الـــسنام مـــستعلن بالـــبلد الحـــرام
جـــاء يهـــدّم الكفـــر بالإســـلام أكـــرمه الـــرحمان مـــن إمـــام

قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا فلم تمض بهم ثلاثة حتى فاجأهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه قد ظهر بمكة. ومنها ما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية قد ذبح له رجل من العرب عجلا فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت قط أنفذ منه. وذلك قبل الإسلام بشهر. فيقول: يا جماعة ذريح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله. وهذا باب واسع جدا انظر الكلاعي. وأما إخبار الكهان بظهوره ومبعثه صلى الله عليه وسلم فأمر شهير، فمن ذلك: قصة شق وسطيح. وذلك أن ربيعة بن نصر ملك اليمن رآى رؤيا هالته وفزع لها فلم يدع كاهنا ولا ساحرا ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعهم إليها فقال لهم: رأيت رؤيا وفزعت لها. فقالوا له: اقصهها علينا حتى نخبرك بها. فقال لهم: إن أخبرتكم بها لم أطمئن بتأويلها وإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن نخبره. فقال له رجل منهم: إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى شق وسطيح فلا يعلم أحد ذلك غيرهما وكانا كاهنين. أما شق فاسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود. وأما سطيح فاسمه مصعب بن يشكر. فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق فقال له الملك: إني رأيت رؤيا هالتني وأفزعتني فأخبرني بها فإنك إن أخبرتني بها وأصبتها أصبت تأويلها. فقال له سطيح: أفعل. رأيت حصة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمَة فأكلت منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئا يا سطيح فما عندك في تأويلها. فقال: أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش. فقال الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع. فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده. قال: لا بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم فيقتلون ويخرجون منها

هاربين. قال: ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم. قال: يليه إرم ذي يزن. فخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع. قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه. قال: نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي. قال: وممن هو هذا النبي؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد به المحسنون ويشقى به السيئون. قال: أحق ما تخبرني. قال: نعم. والشفق والغسق والفلق إذا اتسق، إن ما أنبأتك لحق. ثم قدم عليه شق فقال له كقوله لسطيح. وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم، رأيت حصة خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمه فأكلت منها كل ذات نسمه. فلما قال له ذلك: عرف أن قد اتفقا وأن قولهما واحدٌ إلا أن سطيحا قال قد وقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة. وقال شق: وقعت بين روضة وأكمهْ فأكلت منها كل ذات نسمه. فقال الملك: ما أخطأت منها يا شق شيئا فما عندك في تأويلها. قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسان، ليهبطن أرضكم السودان، فليغلبن على كل ناعمة البنان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران. قال له الملك: وأبيك يا شق إنّ هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن أفي زماني أم بعده؟ قال: لا بل بعده بزمان، ثم ينقذهم عظيم ذو شأن، يذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشأن. قال غلام ليس بدعي ولا مدي يخرج من بيت ذي يزن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: ينقطع برسول مرسل يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم يجزى فيه الولاة. يدعى إلى السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحق ما تقول؟ قال: إي، ورب السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك لحق ما فيه أمض. فوقع في نفس ربيعة بن نضر ما قالا فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور، فأسكنهم الحيرة، فمن بقية ربيعة النعمان بن منذر. انتهى من الاكتفاء. ومن ذلك رؤيا الموبذان، وذلك أنه رآى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. وكانت هذه الرؤيا لما ارتج إيوان كسرى. قال الخطابي من حديث هانئ بن هانئ المخزومي وقد أتت مائة وخمسون سنة قال: لما كانت الليلة

التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجس إيوان كسرى فسقطت منه اثنتا عشرة شرفة وغاضت بحيرة ساوة وفاض وادي السموت وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك ألف عام. وأري الموبذان أن خيلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فصبر عليه تشجعا حتى عيل صبره. رآى ألا يدخر ذلك عن فرسه ومرازبته فلبس تاجه وقعد على سريره ثم بعث إليهم. فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا: لا إلا أن يخبرنا الملك. فبينما هم كذلك إذ ورد عليه كتاب بخمود النار فازداد غما إلى غمه، ثم أخبر بما رآى وما هاله من ذلك. فقال الموبذان وأنا أصلح الله الأمير قد رأيت في هذه الليلة رؤيا وقص عليه رؤياه في الإبل. فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون من ناحية العرب. وكان أعلمهم في أنفسهم. فكتب عند ذلك كسرى إلى النعمان ابن المنذر أن يوجه إليه برجل عالم بما يريد أن يسأله. فوجه إليه بعبد المسيح الغساني. فلما قدم عليه قال له الملك: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه. قال: ليخبرني الملك عما أحبّ فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه فأخبره بالذي وجه إليه. فقال له: علم ذلك عند خال لي يسكن مشارق الشام يقال له سطيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك عنه. فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سطيح وقد أشرف على الموت فسلم عليه فلم يرد عليه سطيح جوابا. فأنشد عبد المسيح شعرا يمدحه فيه. فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح، أتى إلى سطيح، على جمل مشيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رآى إبلا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها. يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس فليست الشام لسطيح شاما. يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح. فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بمقالة سطيح فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا. قد كانت أمور فهلك منهم عشرة إلى أربع سنين. وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، ففتح المسلمون بلاده وانقطع ملكهم وأبدلها الله بالإسلام والحمد لله. وممن أخبر أيضا بظهوره صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه سيف بن ذي يزن المتقدم ذكره في كلام شق وسطيح. وذلك أنه لما ظهر على الحبش وأخرجهم من اليمن أتته

وفود العرب وأشرافها وأشعارها يهنونه ويمدحونه ويذكرون ما كان من حسن بلائه وطلبه بثأر قومه. فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب في وجوه من أشراف قريش فقدموا عليه صنعاء فأذن، لهم فلما دخلوا عليه دنا عبد المطلب منه فاستأذنه في الكلام فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك. فقال عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا، شامخا بادخا، وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله وبسق فرعه في أكرم موطن وأطيب معدن. وأنت أيها الملك رأس العرب الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد. سلفك خير سلف، وأنت لنا منه خير خلف. فلن يخمل من أنت سلفه. ولن يهلك من أنت خلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي فرحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزية. فقال له سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم فقال: أنا عبد المطلب بن هاشم. قال ابن أختنا. قال: نعم. قال: ادنه فأدناه. ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال لهم:مرحبا وأهلا قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم وأنتم أهل الليل والنهار، فلكم الكرامة ما أقمتم، والحباء ما ظعنتم. ثم أنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، فأقاموا شهرا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف. ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب، فقال إني مفوض إليك من سر علمي أمرا لو يكون غيرك لم أبح له به. ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه فليكن عندك مكتوبا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، إني لأجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون، الذي اخترناه لأنفسنا، واجتبيناه دون غيرنا، خبرا عظيما وخطرا جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة. فقال له عبد المطلب: مثلك أيها الملك سر وبر، فما هو فداك أهل الوبر، زمرا بعد زمر؟ فقال: إذا ولد بتهامة غلام بين كفيه شامة كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة. فقال له عبد المطلب: لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد. ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من سره إياه ما ازداد به سرورا. فقال له ابن ذي يزن: هذا زمانه الذي يولد فيه وقد ولد، اسمه محمد، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد ولدناه مرارا، والله باعثه جهارا، وجاعل له منا أنصارا، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، ويكسر الصلبان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمان، ويدحض الشيطان. قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله،

وينهى عن المنكر ويبطله. فقال له عبد المطلب: عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك وطال عمرك فهل الملك ساري بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح. فقال له ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات والنصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب، فخر عبد المطلب ساجدا. فقال له: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك هل أحسست بشيء مما ذكرت لك. فقال عبد المطلب: كان لي ابن وكنت عليه رفيقا فزوجته كريمة من كرام قومه فجاءت بغلام فسميته محمدا فمات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه. فقال له ابن ذي يزن: إن الذي قلت، لكما قلت فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود فإنهم أعداؤه، ولن يجعل الله عليه سبيلا واطو ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لا آمن أن تدخل عليهم النفاسة من أن تكون لهم الرئاسة فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم ولولا أعلم أن الموت مختر من قبل مبعثه، لسرت نجيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتب الناطق والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره وأهل النصرة له وموضع قبره. ولولا أني أخاف عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه بذكره. ولكني صارف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك. ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء وحلس وهو ثوب يبسط في البيوت تحت الثياب، ومائة من الإبل وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكريش وعاء رجل مملوءة عنبرا وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك كله وقال له: إذا حال الحول فأتني. فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول. فكان عبد المطلب كثيرا ما يقول:: يا معشر قريش، لا يغبطني أحدكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه. فإذا قيل له: فما ذاك؟ قال: ستعلمون نبأه ولو بعد حين. انتهى. ومن هذا المعنى حديث سلمان الفارسي الطويل، وفي آخره: أنه كان يخدم أسقفا بعمورية، فلما حضرته الوفاة قال: إلى من توصي بي وإلى من تأمرني؟ فقال له: والله ما أعلم أصبح على مثل ما كنا عليه أحدا من الناس، ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كفه خاتم النبوءة، فإذا استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات وغيب. انظر بقية حديثه وقد نقلته في شرح الهمزية بتمامه. ومن هذا أيضا حديث النعمان السباني وكان من أحبار يهود

باليمن. فلما سمع بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه فسأله عن أشياء. ثم قال: إن أبي كان يختم على سفر فيقول له: تقرأه حتى تسمع بنبي خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه. قال: نعم فلما سمعت بك فتحته فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة. وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنك خير الأنبياء، وأمتك خير الأمم، واسمك أحمد صلى الله عليه وسلم. وأمتك الحامدون، وقربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم، لا يحضرون قتالا إلا وجبريل معهم، يحن الله إليهم كحنين الطير على أفراخه. ثم قال لي: إذا سمعت به فاخرج إليه وآمن به. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه. فأتاه يوما فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حدثنا يا نعمان فابتدأ النعمان الحديث من أوله إلى آخره، فرئي النبي صلى الله عليه وسلم يبتسم. فقال: أشهد أني رسول الله، وهذا النعمان هو الذي قتله الأسود العنسي. والله تعالى أعلم.

الإعراب: والجن تهتف مبتدأ وخبر. والأنوار ساطعة كذلك. والحق يظهر كذلك جمل من مبتدا وخبر. والجاران يتعلقان بيظهر. والكلم جمع كلمة. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

68 عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلاَنُ البَشَائِرِ لَمْ ... تُسْمَعْ وَبَارِقَةُ الإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ

اللغة: العمى ضد البصر. والصمم فقد السمع. والإعلان ضد السر. والبشائر جمع بشارة بالكسر والضم وهي الخبر السار. وقال بعضهم: البشارة بالكسر الخبر، وبالضم ما يعطى على ذلك. والمراد بها الآيات والعلامات التي ظهرت يوم مولده صلى الله عليه وسلم. والبارقة: سحابة ذات برق. والإنذار: التخويف والتحذير. وتشم: تنظر من شمت البرق شيما إذا نظرت إلى سحابته أين تمطر.

الشرح: لما لم ينتفع الكفار بحاسة السمع حين سمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم على ألسنة الكهان وسيف بن ذي يزن، ورؤيا الموبذان وكلام شق وسطيح، وقد كان ذلك عندهم موثقا به مقطوعا بصحته، جعلهم كأنهم صم حين رأوا ما رأوا من البراهين الساطعة، والعلامات الواضحة، والخوارق التي طبقت الآفاق، والأخبار بالمنبيات وهم يعلمون ذلك. ولا يتمارون في شيء منه وهم يشاهدون ذلك فما استيقظوا ولا اتعظوا ولا انتفعوا بحاسة السمع والبصر. فلا جرم، جعلت في حقهم كأنها مفقودة في ذلك لمساواتهم في ذلك من فقد سمعه وبصره فلم يروا شيئا. وبهذا

المعنى أخبر الله عنهم في كتابه حيث قال: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾ [البقرة: 18] فنفى حاسة السمع والبصر إذ لم يحصل لهم بهما انتفاع وقد عرفت أنهم عرفوا ما جاءت به الكهان. وخبر سيف لعبد المطلب ورؤيا الموبذان، والعجائب التي ظهرت يوم مولده، وما عاينوا عند بعثته من المعجزات فما أفادهم ذلك كله إلا الاستمرار على الكفر والضلال. نعوذ بالله من سوء الحال. وإلى ذلك أشار بقوله: عموا وصموا. البيت. أي عموا فلم يبصروا بارقة الإنذار أي ما خوفهم وأنذرهم مع وضوحه كالبرق اللامع وصموا فلم يسمعوا إعلان البشائر بظهوره صلى الله عليه وسلم. وهو كثير لا ينحصر. وقد تقدم بعضه. ففي كلامه لف ونشر معكوس. والله تعالى أعلم.

الإعراب: عموا بفتح العين فعل وفاعل والضمير للفرس. وصموا بفتح الصاد جملة معطوفة على ما قبلها. فإعلان مبتدأ والبشائر مضاف إليه. ولم تسمع بضم التاء فعل مبني للمفعول خبر. والحسب التأنيث من المضاف إليه. وبارقة مبتدأ. والإنذار مضاف إلى ما قبله. وتشم بضم الفوقانية مبني للمفعول خبر. والعائد ضمير النائب فيهما. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

69 مِنْ بَعْدِمَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنَهُمْ ... بِأَنَّ دِينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

70 وَبَعْدَمَا عَايَنُوا فِي الأُفُقِ مِنْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

اللغة: الأقوام يطلق على الذكور والإناث. وقيل يختص بالذكور. والكاهن الذي يخبر بالمغيبات. والدين الطريقة وهنا المراد به طريقتهم التي تدينوا بها. واعوج الشيء فهو معوج إذا صار ذا عوج. يقال في المحسوسات عوج بفتح العين والواو، وفي المعاني بكسر العين وفتح الواو. وقام الشيء: اعتدل واستوى كاستقام. وقام الأمر: دام. وأقامه الله أدامه وهو المراد هنا والله أعلم. وعاينوا: شاهدوا. والأفق: ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض وجمعه آفاق. وشهب جمع شهاب وهو: شعل نار ساطعة من النجوم ترمى بها الشياطين عند استراق السمع. ومنقضة ساقطة. والوفق من الموافقة بين الشيئين يقال حلوبته وفق عياله، أي لها لبن قدر كفايتهم. والصنم واحد الأصنام وهو الوثن الذي يتخذ للعبادة من خشب أو نحاس أو حجر أو نحو ذلك.

الشرح: يقول رحمه الله: عموا وصموا من بعدما ظهر الحق ووضح الأمر بلسان المقال ولسان الحال. أما لسان المقال فما أخبرهم به كاهنهم من أن دينهم الذي هم متلبسون به معوج لا يستقيم، وأنه سيدبر وينقطع. وأن دين النبي صلى الله عليه وسلم مستقيم وثابت لا يزول. وإليه أشار بالبيت الأول عند قوله: أبان مولده. وأما لسان الحال: فما عاينوا وشاهدوا من رمي النجوم وسقوطها من نواحي السماء ومنعها الجن من استراق السمع. وما عاينوه أيضا من سقوط الأصنام وانتكاسها وكان هذا عند ولادته عليه السلام. وقد تقدم عند قوله: أبان مولده. وأما أخبار الكهان ورمي النجوم فإنما كان قرب مبعثه صلى الله عليه وسلم. وقد كان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما بعض أموره عليه السلام لا تلقي العرب لذلك بالا حتى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها. ذكر أبو جعفر العقيلي بإسناد له إلى لهب بن مالك قال: حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة فقلت: بأبي أنت وأمي نحن أول من عرف حراسة السماء ورصد الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك أنا جئنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك، وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة وكان من أعلم كهاننا فقلنا: يا خطل، هل عندك علم بهذه النجوم التي يرمى بها فإنا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها؟ فقال: إيتوني بسحر، أخبركم الخبر، أخير أو ضرر، أو لأمر أو حذر. قال: فانصرفنا من عنده يومنا. فلما كان من غد في وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدمه، شاخص إلى السماء بعينيه. فناديناه: يا خطل يا خطل. فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا. فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته: أصابه إصابة، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه، يا ويلاه ما حاله. بالباله بلباله. عاوده قُبالة تقطعت حباله وغيرت أحواله. ثم أمسك طويلا ثم قال: يا معشر بني قحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسم بالكعبة والأركان، والبلد المؤتمن السدّان، لمنع السمع عتاة الجانّ. بثاقب بكف ذي سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشأن، يبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهدى وفاصل الفرقان. يمنع من عبادة الأوثان. قال: فقلنا له: يا خطل، فما نزل لقومك؟ فقال: أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير نبي الإنسان، برهانه مثل شعل الشمس، يبعث في مكة دار الحمى، يحكم بالتنزيل غير اللبس. فقلنا له: يا خطل، وممن هو؟ فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما في حلمه طيش، ولا في خلقه هيش، يكون في

جيش وأي جيش، من آل قحطان وآل أيش. فقلنا: بين لنا من أي قريش هو؟ فقال: والبيت ذي الدعائم، والدير والحمائم، إنه لمن نجل هاشم، من معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم. فقال: هذا هو البيان، أخبرني به رئيس الجان. ثم قال: الله أكبر جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر. ثم سكت وغشي عليه. فما أفاق إلا بعد ثالثة: فقال: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، لقد نطق عن مثل نبوة والله ليبعث يوم القيامة أمة وحده. يعني لأنه لم يكن تابعا لملة وهو مع ذلك مؤمن كما رأيت. وتقدم خبر شق وسطيح وغيرهما من الكهان من الإخبار برسول الله صلى الله عليه وسلم. وحكمة رمي النجوم خيفة التباس الوحي بخبر السماء فليلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله لوقوع الحجة وقطع الشبهة. وقد أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بشأن رمي النجوم فقال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ ﴾[الصافات: 6 - 7] الآية وقال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن: 1 - 2].. إلى قوله.. ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ ﴾ [الجن: 9]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من الأنصار: ما كنتم تقولون في هذه النجوم التي يرمى بها. قالوا: يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمى بها مات ملك وولد ملك وولد مولود مات مولود. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كذلك ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم، فسبح من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا. ثم يقول بعضهم لبعض: مم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا تسبيحهم. فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا. فيقولون مثل ذلك حتى ينتهي إلى حملة العرش. فيقال لهم: مم سبحتم؟ فيقولون: قضى الله في خلقا كذا وكذا. للأمر الذي كان فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ثم يأتون به الكهان فيخطئون بعضا ويصيبون بعضا. ثم إن الله حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم. انتهى. فإن قلت: قد وجدنا بعض الكهان يخبر بالمغيبات في زماننا هذا. فالجواب: إن حجبهم إنما كان في زمانه صلى الله عليه وسلم

لئلا يلتبس الوحي على الناس. فلما انقطع الوحي رجعت الشياطين إلى استراق السمع إلاّ أنه ضعف عما كان عليه قبل بعثه عليه السلام. والرجم إنما كان بشهب منفصلة من نار الكواكب، لا إنهم يرجمون بالكواكب، لأنها مارة في الفلك وما ذلك إلا كقبس يؤخذ من نار والنار ثابتة. والله تعالى أعلم.

الإعراب: من بعد متعلق بعموا وصموا فهو مطلوب لهما من باب التنازع. وما موصول حرفي فيسبك مع ما بعده بمصدر مجرور. والأقوام مفعول مقدم بأخبر. وكاهنهم فاعله مؤخر وجوبا لاتصاله بضمير المفعول. وبأن متعلق بأخبر. ودينهم اسم أن. والمعوج نعته. ولم يقم خبرها بضم الياء. وفتح القاف من أقام ضد أعوج. أو بفتح الياء وضم القاف من القيام وهو الثبوت. وبعد بالنصب معطوف على محل بعد المجرور قبله بمن. ويجوز زجره بالعطف على لفظه كقول الشاعر:

فإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلترعك العواذل

يروى بنصب دون وخفضها. وما عاينوا موصول حرفي. وفي الأفق متعلق بعاينوا. ومن شهب بضم الشين بيان لما. ومنقضة نعت لشهب. ووفق منصوب بنزع الخافض. أي: على وفق ويجوز أن يكون حالا لأنه بمعنى مثل وإضافته لا تعرف. وما موصول اسمي. وفي الأرض صلتها. ومن صنو بيان لما. وتقدير البيتين. عموا وصموا من بعد إخبار الكهان أن دينهم المائل عن الحق لا يقام ولا يدوم ومن بعدما عاينوا من الشهب المنقضة من السماء على الشياطين على وفق سقوط الأصنام وانتكاسها. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* ثم قال رحمه الله:

71 حَتَّى غدَا عَنْ طَرِيقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِنَ الشَّيْطَانِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

اللغة: إذا نقيض راح. يقال غدا يغدوا غدوة أي ذهب أول النهار. والوحي: الإسراع ومنه الحديث الوحا الوحا أي العجل العجل. ولما كان ما يتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم بعجل سمي وحيا. وقيل أصل الوحي: الإخفاء وإلقاء المعنى في الخفاء، وهو على ثلاثة أقسام: وحي بمعنى الإلهام، ووحي بمعنى الوسوسة، ووحي بإلقاء الملك، وهو خاص بالرسل. وطريق الوحي أبواب السماء. والمنهزم المغلوب. والشياطين جمع شيطان بمعنى البعيد إن كان من شطن: إذا بعُد، لأنه بعيد من رحمة الله. أو المحرق إن كان من شاط إذا احترق. ويقفوا إثر منهزم أي يتبع أثره من

قفوت أثره إذا تبعته. وسمي النبي صلى الله عليه وسلم مقتفيا، لأنه اقتفا أثر الأنبياء وجاء بعدهم.

الشرح: يقول رحمه الله: ما زالت الشهب تنقض على الشياطين وتحرقهم وتطردهم من مقاعد السمع حتى غدا منهزم منهم يقفوا ويتبع في انهزامه أثر منهزم آخر. يعني أن صورتهم في استراق السمع كانوا واحدا فوق واحد حتى يصلوا إلى السماء فإذا رمي الأعلى بالشهاب فروا وانهزم من تحته إثره. وقيل إذا رمي الأعلى طلع من تحته لمكانه ثم يرمى كذلك وهكذا إلى الأسفل. واختلف العلماء هل هذا الرمي حادث أو كان قديما؟ فقيل: هو حادث.وقيل كان قديما لكن الحادث الكثرة. قال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ ﴾ [الجن: 9] وهذا يقتضي أن الرجم كان في الجاهلية ولكنه لم يكن بمستأصل. وكان الحرس لكنه لم يكن شديدا. ولما جاء الإسلام اشتد الأمر حتى لم يكن فيه إلا يسير ساعة. قال: ويدل على هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رآى كوكبا راجما: ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول ولد ملك مات ملك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس الأمر كذلك» انتهى. وقد تقدم. وهذا هو الصحيح أن الحادث الكثرة فقط. والمل ء يدل عليه ملئت. واختلف أيضا هل كان هذا عند مبعثه صلي الله عليه وسلم أو عند مولده. ذكر الزمخشري في سورة الجن عن ابن عباس أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات. فلما ولد عيسى عليه السلام حجبوا عن ثلاث. فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم حجبوا عن السماوات كلها انتهى. فهذا يدل على أن ذلك كان عند مولده. والله تعالى أعلم.

الإعراب: حتى غاية لما قبلها. وهو الانقضاض. وهي هنا. وغدا فعل ناقص. ومنهزم اسمها. ويقفوا في موضع الخبر أي حتى صار منهزمهم قافية إثر آخر. وعن طريق الوحي متعلق بمنهزم. وهو على حذف الموصوف أي شيطان منهزم. ومن الشياطين في موضع الصفة له. وإثر ظرف ليقفوا، ومنهزم مضاف إليه ما قبله. والله تعالى أعلم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* ثم قال رضي الله عنه:

72 كَـأَنَّهُمْ هَـرَبًا أَبْطَـالُ أَبْـرَهَةٍ أَوْ عَـسْكَرٌ بِالْحَـصَى مِنْ رَاحَتِهِ رُمِي

73 نَبْذًا بِـهِ بَعْـدَ تَـسْبِيحٍ بِبطْـنِهِمَا نَـبْذَ الْمُـسَبِّحِ مِـنْ أَحْـشَاءِ مُلْـتَقِمِ

اللغة: الهرب: الفرار. والأبطال جمع بطل وهو الشجاع. وأبرهة ملك الحبشة الذي قصد هدم الكعبة الشريفة. ويقال له الأشرم. والعسكر الجيش. والحصا جمع حصاة وهي الحجارة الصغيرة الصلبة. والراحة الكف. والنبذ: الطرح. والتسبيح: التنزيه من كل نقص. والبطن ضد الظهر. والمراد بالمسبح يونس عليه السلام من قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصافات: 143] والأحشاء جمع حشا وهو ما انضمت عليه الضلوع. والملتقم هنا الحوت الذي التقم يونس عليه السلام من قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ ﴾ [الصافات: 142].

الشرح: شبه رحمه الله الشياطين عند فرارهم وهربهم أمام الشهب المنقضة عليهم بشيئين. أحدهما: أبطال أبرهة في فرارهم وهروبهم عند نزول العذاب عليهم حين عزموا على هدم الكعبة. فحمى الله بيته المكرم، وكعبته المشرفة، وانهزموا يتساقطون على كل طريق. والثاني عسكر: أهل بدر حين رماهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحصا فانكبوا على وجوههم يزيلون الحصا من أعينهم فقتلوا وأسروا وانهزموا. وكذلك فعل مع أهل حنين. فأوْ للتخيير. كأنه يقول إن شئت شبهتهم بأبطال أبرهة، وإن شئت شبهتهم بعسكر أهل مكة. والجامع بينهما أن الشياطين منهزمون هربون مرميون. وأبطال أبرهة هاربون مرميون بالحجارة. وكذلك العسكر الذي رماه صلى الله عليه وسلم بالحصا فانهزموا وهربوا في كل وجه ووقع ذلك ببدر وحنين. وستأتي قصتهما إن شاء الله عند قوله: وسل حنينا. وأما قصة أبرهة فهي مشهورة في السير. واختصارها: أنه بنى في اليمن بيتا وأراد أن يصرف إليه حج العرب فذهب أعرابي فأحدث في البيت الذي بنى أبرهة، فغضب لذلك واحتفل في جموعه وركب الفيل وقصد مكة وغلب على من تعرض له في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل إلى مكة فرت قريش إلى الجبال والشعاب، وأسلمت له البلد. فلم يكن للبيت من يحميه من العرب ويقف دونه، وجاءت قدرة الواحد القهار، وأخذ العزيز المقتدر، فأصبح أبرهة عازما على هدم بيت الله الحرام، فبرك فيله بذي الغميس ولم يتوجه قبل مكة

فيضعوه بالحديد فلم يمش إلى ناحية الكعبة. وكان إذا وجهوه إلى غيرها هرول. فبينما هم كذلك في أمر الفيل بعث الله عليهم طيرا جماعات سودا من البحر، وقيل خضرا. عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقره ورجليه. كل حجر فوق العدسة ودون الحمصة. فرمتهم بتلك الحجارة. فكان الحجر منها يقتل المرمي به وتنهرس لحومهم جدرا وأسقاما. فانصرف أبرهة بمن معه يريد اليمن. فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة. وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتى مات. وحمى الله بيته المعظم وانتصر لسدنته. انتهى. وقد نقلت قصتهم بأطول من هذا في شرح الهمزية عند قوله:

إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفـ ـيل ولم ينفع الحجا والذكاء

وقوله: نبذا به الخ. لما ذكر في البيت قبله رمي النبي صلى الله عليه وسلم بالحصا من راحتيه الكريمتين. أخبر في البيت الذي بعده أن ذلك الرمي وذلك النبذ للحصا كان بعد آية أخرى ومعجزة تقدمتها وهي أن سبح ذلك الجنس لا ذلك الحصا الذي رمى به لكن آخر من جنسه في بطن كفيه صلى الله عليه وسلم. ثم شبه ذلك النبذ بعد التسبيح في بطن الكفين بنبذ يونس عليه السلام من بطن الحوت الذي التقمه وذلك بعد تسبيح يونس عليه السلام، فشبه النبذ بالنبذ وكما أن نبذ يونس عليه السلام كان بعد أن سبح في بطن الحوت كذلك الحصا كان نبذه بعد أن سبح لله عز وجل في باطن كفي النبي صلى الله عليه وسلم، أي جنسه كما تقدم. فذلك منبوذ مسبح وهذا كذلك. وتسبيح الحصا في كفي النبي صلى الله عليه وسلم من جملة معجزاته، وحديثه مشهور أخرجه أبو داود والطبراني وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال: أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفا من حصا فسبحن في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعن التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ثم في يدينا فما سبحن. وفي رواية أخرى ذكر أنهن سبحن في كف عمر وعثمان وعلي رضي الله عن جميعهم. وقصة يونس عليه السلام قرآنية مشهورة غريبة وهو يونس بن متى نبي بني إسرائيل، نبئ وهو ابن ثمانية وعشرين سنة، بعثه الله إلى قومه فدعاهم إلى ما جاء به فلم يجيبوه، وطال عليه أمرهم فسأل الله عذابهم، فقيل له: إن العذاب ينزل بهم يوم كذا وكذا. فأخبرهم يونس بذلك وقال بعضهم لبعض: إن رحل عنا فالعذاب نازل بنا لا محالة، وإن أقام عندنا علمنا أنه كاذب. فلما كان سحر ذلك اليوم الذي توعدهم بنزول العذاب فيه خرج يونس عليه السلام ورحل عنهم، فحينئذ تيقنوا بالعذاب، وعلموا صدقه، فخرجوا

بأجمعهم إلى البراز، وفرقوا بين صغار البهائم وأمهاتها، وتابوا إلى الله وتضرعوا، فرفع الله عنهم العذاب. وأقام يونس بموضعه خارجا عنهما ينتظر الله لهم ونزول العذاب بهم. فلما رآى أنه لم ينزل بهم وأن ما أوعد الله به من العذاب لم ينفده ساءه ذلك، ورآى أنهم يحملونه على الكذب في كل ما جاء به، فحلف لا رجع إليهم أبدا. وروي أنه كان من دينهم قتل الكذاب فخافهم على نفسه وفر على وجهه وعتبه الله على فراره وهروبه بالآفاق من حيث إنه فر عن غير إذن مولاه. والأنبياء يؤاخذون بما لا يؤاخذ به غيرهم ويعاتب عليهم ما يعد حسنة في حق غيرهم. إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين. والعيب اليسير في ذي الشرف كبير. ولما أبق فر إلى البحر ودخل في السفينة. يروى عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأبعدت في البحر وركدت ولم تجر، والسفن تجري يمينا وشمالا فقال صاحب السفينة فينا الأبق فينا صاحب ذنب، فتعالوا نقترع وهي المساهمة فأخذوا لكل واحد سهما وجمعوها ورموا بها إلى البحر. وقالوا: اللهم ليطف سهم المذنب وتفرق سهام الغير فطفا سهم يونس فأعادوا ثانية وثالثة، وفي كل مرة يطفوا سهم يونس وتقع القرعة عليه فأجمعوا أن يطرحوه في البحر فجاء إلى كل ركن من أركان السفينة ليرمي نفسه منه وإذ بدابة بدواب البحر ترقبه وترصد إليه فجاء إلى الركن الآخر فوجدها كذلك حتى دار بالجهات كلها وهي تدور معه وترقبه ولا تفارقه، فعلم أن ذلك من الله فترامى إليها فالتقمته. وروي أنها التقمته بعد حصوله في الماء. وروي أن الله عز وجل أوحى إلى الحوت إني لم أجعل يونس لك رزقا، وإنما جعلت بطنك له حرزا وسجنا. وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: 141] يعني من المغلوبين في القرعة والمساهمة. والمدحض: المغلوب في المساهمة والمسابقة وغيرهما. والمليم هو الذي أتى بما يلام عليه. ثم إن الله تعالى استنقذه وخلصه من بطن الحوت بعد مدة، واختلف في المدة التي أقام بها يونس في بطن الحوت. فقالت فرقة ساعة من نهار. وقيل سبع ساعات. وقيل ثلاثة أيام. وقيل سبعة أيام. وقيل أربعة عشر يوما. وقال السدي أربعين يوما. وجعل الله تعالى سبب استنقاذه من بطن الحوت مع القدر السابق تسبيحا. واختلف الناس في ذلك فقال ابن جبير: هو قوله سبحان الله. وقالت فرقة بل التسبيح هنا صلاة التطوع. واختلفت هذه الفرقة فقال قتادة وابن عباس: صلاته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة. فإن من ذكر الله في الرخاء نفعه في الشدة. كان الضحاك بن قيس يقول على منبره: اذكروا الله

في الرخاء يذكركم في الشدة. إن يونس عليه السلام كان عند الله ذاكرا، فلما أصابته الشدة نفعه ذلك الذكر. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات: 143 - 144]. وإن فرعون في الرخاء كان طاغيا، فلما أدركه الغرق قال آمنت فلم ينفعه ذلك. فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة. وقال الحسن بن أبي الحسن: كان تسبيحه صلاته في بطن الحوت. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إلى العرش. فقالت الملائكة: يا ربنا هذا صوت ضعيف من موضع الغربة. فأجاب الله دعوته. قال ابن جبير: الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الصافات: 143].. إلى قوله.. ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 87] وروي أن الحوت طاف بالبحر كله حتى رماه في ناحية من الموصل، فنبذه الله في عراء من الأرض. والعراء: الأرض التي لا شجر فيها. ونبذ كالطفل المنخوس بضعة لحم. وقيل كاللحم النيء إلا أنه لم ينقص من خلقه شيء. فانتعشه الله في ظل اليقطينة بلبن أروية كانت تغدوا عليه وتروح. وقيل كان يتغذى من اليقطينة ويجد عندها ألوان الطعام. وأكثر الناس على أن اليقطين شجر القرع. وعلى هذا تسميته شجرا إما مجازا وإما أن يكون الله أنبتها على ساق خرقا للعادة. لأن الشجر عند العرب ما كان له ساق، وإلا فهو نجم. وشجر القرع فيه خصال حميدة برد الظل ولين الملمس وطول الورق والذباب لا تقربه. حتى قال النقاش: إذا رش ماؤه في موضع لا يقربه الذباب. وفي هذه القصة أنشد ابن أبي الصلت:

فأنبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله ألفيا ضاحيا

فنبت يونس عليه السلام وصح جسمه. روي أنه كان يوما نائما فأيبس الله اليقطينة فانتبه لحر الشمس فأعظم شأنها وجزع لذلك. فأوحى الله إليه: يا يونس أتجزع ليبس اليقطينة ولم تجزع لهلاك مائة ألف أو يزيدون تابوا إلي فتبت عليهم. وهذا عتاب من الله عز وجل لنبيه يونس عليه السلام لما سأل الله عذابهم وإن كانوا كفارا، وغضبه عليهم إنما كان لله لكن الأكابر يعاتبون على أدنى شيء، لأنهم مطالبون بالأدب بما لا يطالب به غيرهم. وكثيرا ما يقول الله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: 48] ثم إن الله تعالى رده إلى قومه وأرسله

إليهم فآمنوا به وصدقوه وبقي فيهم حتى توفى الله الجميع. فسبحان من لا انقضاء لملكه ولا انتهاء لحياته، فهذا اختصار قصة يونس عليه السلام.

الإعراب: كأنهم حرف تشبيه. والضمير اسمها. وهربا حال أي هاربين. وقيل مفعول من أجله، والعامل فيه ما في كان من معنى التشبيه. وذو الحال اسمها. وأبطال خبرها. وأبرهة مضاف إليه صرف للضرورة. أو عسكر معطوف على أبطال. وبالحصى متعلق برمي. ومن راحتيه كذلك. ومن لابتداء الغاية. ونبذا مصدر مؤكد، والعامل فيه محذوف دلت عليه الجملة قبله لأن الرمي نبذ وزيادة فهو كقوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: 88] وشبهه أي نبذه نبذا. وبعد تسبيح ظرف للمصدر وبه متعلق بنبذ. وقال الأزهري: الظرف والجار يتعلقان برمي ولا يصح أن يتعلق بنبذ لأن المصدر المؤكد لا يعمل. انتهى. وقد يغتفر في الظرف ما لا يغتفر في غيره. وببطنهما متعلق بتسبيح. والباء ظرفية. وأراد بالبطن الباطن. ونبذا لمسبح مصدر مشبه به مفعول مطلق. والعامل نبذا المتقدم وهو: مضاف إلى المفعول. وحذف الموصوف أي نبذ الإنسان السبح. ومن أحشاء متعلق بنبذ الثاني. وملتقم مضاف إليه ما قبله. والله تعالى أعلم.

الفصل الخامس
في معجزاته صلى الله عليه وسلم

* بدأه رحمه الله بقوله:

74 جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجَارُ سَاجِدَةً   تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلاَ قَدَمِ

75 كَأَنَّمَا سَطَّرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ   فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ بِاللَّقَمِ

اللغة: الدعوة النداء. والأشجار جمع شجرة وهو ما كان على ساق من نبات الأرض. والسجود معروف والمراد به هنا الانقياد والخضوع. والمشي معروف. والساق أوله معقد الشراك وآخره الركبة. والقدم طرف الرجل وأحد الأقدام. والسطر الخط وقيل الصف من الشيء. يقال بنا سطرا وغرس سطرا وهو مصدر في الأصل. يقال بفتح الطاء وسكونها. وفروع الشجرة أغصانها وقضبانها. واللقم وسط الطريق.

الشرح: لما ذكر رحمه الله معجزة رمي الحصاء وانهزام الجيش بذلك وتسبيح الحصا في كفه عليه الصلاة والسلام، اتبع ذلك لمعجزة سجود الشجر له صلى الله عليه وسلم وإجابتها دعوته وانقيادها لأمره. وعبر عن الانقياد والخضوع بالسجود إذ لم يثبت أنها سجدت حقيقة. وإنما ثبت السجود له حقيقة من البعير والغنم. فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا فجاء بعير فسجد له. ومثله عن جابر ويعلى بن مرة وعبد الله بن جعفر قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه فوضع مشفره في الأرض وبرك فخطبه وقال: «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس». وفي خبر آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه. وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حائطا لأنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار وفي الحائط غنم فسجدت له فقال أبو بكر: نحن أحق بالسجود منها لك يا رسول الله. الحديث. وأما الشجر فالذي ثبت منها أنها كلمته وأنه دعاها فأجابته. فثبت في الحديث

الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو الأشجار فتجيبه منقادة خاضعة حتى تقف بين يديه فتشهد له بالرسالة ثم يأمرها فترجع. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بشجر ولا حجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله». والذي أشار إليه الشيخ هو ما ذكره عياض في الشفا بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فدنا منه أعرابي فقال: يا أعرابي أين تريد؟ قال: إلى أهلي. قال: هل لك إلى خير. قال: وما هو؟ قال: تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السمرة وهي بشاطئ الوادي فادعها فإنها تجيبك. قال: فدعوتها فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه. فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال ثم رجعت إلى مكانها. وعن بريدة قال: سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية. فقال له: قل لتلك الشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى و قفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: السلام عليك يا رسول الله. قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع. فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك. قال: لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. قال فائذن أقبل يديك ورجليك. فأذن له. إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى. فقول الناظم: تمشي إليه على ساق بلا قدم. مبالغة في الإعجاز، لأن القدم تعين صاحبها على المشي وهذه الأشجار جاءته مع أنها بلا قدم. وأبرزها الناظم إبراز العجب الغريب بعد تقرير المعجزة. والله تعالى أعلم. ثم شبه في البيت الثاني الأثر والخط الذي صنع ساقها في وسط الطريق بالخط وفي قوة التشبيه أن وجه الأرض كأنه لوح أو ورقة لذلك السطر. وشبه أغصانها بالكاتب وما عملته عروقها من التخديش في الأرض بعد مرور أصلها بالكتابة على ذلك الخط. فالأشجار فعلت الخط بعروقها والفروع عملت الكتب البديع على ذلك السطر وأحكمته. والله تعالى أعلم.

الإعراب: جاءت فعل. وتاء تأنيث. ولدعوته متعلق به. والباء سببية. والأشجار فاعل. وساجدة حال منه. وتمشي حال ثانية من الأشجار أو من الضمير في ساجدة فهي على الأول من الأحوال المترادفة، وعلى الثاني من المتداخلة إليه. على ساق

متعلقان بتمشي. وبلا قدم في موضع الصفة لساق، أي كائنة بغير قدم. كأنما حرف تشبيه مهمل. وسطرت فعل. وفاعله مستتر يعود على الأشجار. وسطرا مفعول به لا مصدر لأن المراد هنا الأثر لا المصدر. ولما متعلق بسطرت. وما موصولة وعائده محذوف أي لما كتبته. ومن بديع متعلق بكتبت. ومن بيان لما في اللقم متعلق بكتبت أيضا. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

76 **مِثْلَ الغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةً تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي**

اللغة: الغمامة واحد الغمام وهي السحاب. وتقيه أي تحفظه. والوطيس: التنور. والهجير: نصف النهار إذا كان حارا. وحمي الوطيس: إذا اشتد حره. وقد قاله عليه السلام يوم حنين حين اشتد القتال. شبه شدة الحرب بالتنور إذا حمي واشتد حره.

الشرح: أشار رضي الله عنه إلى معجزة أخرى، وهي تظليل الغمام، إلا أنها كانت قبل البعثة فتسمى إرهاصة. وأما بعد البعثة فلم يثبت ذلك. وثبت أنهم كانوا يظلون عليه من الشمس في عدة مواطن. وإنهم كانوا في أسفارهم إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها له صلى الله عليه وسلم. وتظليلها قبل البعثة كثير فاش. شهد ذلك ميسرة خادمه في طريق الشام وبحير الراهب حين نزلوا قرب داره تحت شجرة فانقلب ظل الشجرة إليه صلى الله عليا وسلم. ورأت ذلك خديجة حين قدم من سفره ذلك وهو الحامل لها على تزوجه صلى الله عليه وسلم حسبما هو مقرر في علم السير. وقال في همزيته:

فكأن الغمام استودعته من أظلت من ظله الدُّفَفاء

وفي تظليل الغمام له صلى الله عليه وسلم حكمتان أحدهما حسية والأخرى معنوية. أما الأولى فإرهاص وتأسيس لنبوته صلى الله عليه وسلم وإعلام لما يصير إليه أمره من العناية والعز. وأما الثانية فإشارة إلى أن من اتبعه من أمته واستظل بظله نال الأمن الشامل والعز الدائم. وإلا فهو صلى الله عليه وسلم غني عن ظل الغمام بل هو ظل وأمان لغيره من الأنام. وأيضا وقع التظليل باعتبار الشاهد زيادة في حفظه وصيانته والاعتناء بشأنه وتنبيها على ما يجب له من حفظ حرمته وتعظيم أمره حيث سخر له الغمام وهو جامد فاستودعه وحفظه. فما بالك بالعقلاء والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الإعراب: مثل الغمامة خبر مبتدأ مضمر. أي أمر الأشجار في سجودها مثل الغمامة أو حال من الأشجار. وأنى المشددة ظرف زمان وفيه معنى الشرط. وسار فعل ماض شرط له. وسائرة حال من الغمامة. وصح مجيء الحال منه مع كونه مضاف إليه، لأن مثل بمثل مماثل فهو عامل في الحال. وجواب الشرط محذوف أي فهي سائرة معه. وتقيه فعل مضارع يتعد الاثنين أولهما الهاء وثانيهما حر وطيس. والجملة إما صفة لسائرة على أن الوصف يوصف وهو الصحيح. وإما حال من الغمامة أو من الضمير المستكن في سائرة. وللهجير متعلق بحمى. وحمى فعل ماض وفاعله ضمير وطيس. والجملة نعت وطيس. وتقدير البيت أمر الأشجار مثل الغمامة تسير أنى سار فهي سائرة تظله حيث سار. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

77 أَقْسَمْتُ بِالقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ

اللغة: القسم اليمين. والنسبة: الشبه. يقال بين فلان تناسب أي نسبة في شيء ما. وبر في يمينا صدق فيما حلف عليه. وقسم مبرور أي صادق.

الشرح: أشار رحمه الله إلى معجزة انشقاق القمر وشق صدره صلى الله عليه وسلم وأتي بها في قالب بديع ساقها مساق اليمين. فأخبر أنه أقسم بانشقاق القمر وما عطف عليه ما سامه الدهر بظلم واستجار به صلى الله عليه وسلم. إلا وجده لخلاصه غير مطلوب وموجر. وأتى بعد القسم بجملة الاعتراض بين القسم وجوابه، ذكر فيها أن بين القمر وقلبه صلى الله عليه وسلم نسبة، وتلك النسبة هي التي أوجبت عند الناظم تعظيم القمر حتى انتهت حاله إلى أن أقسم به. لأن العرب لا تقسم إلا بمعظم. فلما عظمه الناظم رحمه الله بسبب النسبة التي بينه وبين قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقسم به. وهذه النسبة التي بينهما هي الانشقاق. فكما انشق القمر معجزة له صلى الله عليه وسلم كذلك انشق قلبه صلى الله عليه وسلم حين أتاه الملكان يغسلان قلبه بماء زمزم. ومرة أخرى أتياه بطست حملوا ثلجا وبردا. فرآى الناظم أن القمر حصل له الشرف والتعظيم فانشق كما انشق قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فينبغي لمن أقسم به أن يبر قسمه. فلذلك قال: أن له نسبة مبرورة القسم. أي يجب أن يبر قسمها أو مبرورا قسمها، لأنه قسم عظيم. أما انشقاق القمر فقصته متواترة قرآنية رواها جمهور

من الصحابة. قال تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝ ﴾[القمر: 1 - 2]. فأخبر سبحانه وتعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي. وجاء في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشهدوا». وفي رواية أخرى: حتى رأيت الجبل فوق فرجتي القمر. فقال كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة. فقال رجل منهم: إن محمدا إن كان سحرنا فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها فسلوا من يأتيكم من بلد آخر. هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك. وعن أنس: سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية. فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما. وأما انشقاق قلبه صلى الله عليه وسلم ففي الحديث الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم ورأت أمي حين حملت بي أنها خرج منها نور أضاء لها قصور الشام. واسترضعت في بني سعد بن بكر. فبينما أنا مع أخ لي نرعى بهما لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا فأخذاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه. ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم. فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها. انتهى. وشق صدره صلى الله عليه وسلم تعدد أربع مرات على ما قال ابن حجر الهيثمي. أحدها هذه التي كانت في صغره، وحكمته: تطهيره عن نقائص الصبا فيكون على أكمل صفة الرجولية، ولذلك نشأ على أكمل الأحوال. وثانيها: وهو ابن عشر سنين في قصة له مع عبد المطلب، رواها أبو نعيم في الدلائل، وعبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد أبيه. وثالثها: في غار حراء عند ابتداء الوحي. رواه الطيالسي والحارث وأبو نعيم وهو ضعيف. ورابعها: ليلة الإسراء وهذا صحيح متفق عليه. رواه البخاري وغيره. وهذا الشق على هذه الكيفية البديعة البالغة في خرق العادة من خواصه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يثبت أنه حصل للأنبياء قبله. نعم تطهير قلوبهم عليهم الصلاة والسلام حاصل قطعا وبالله التوفيق.

الإعراب: صدره ظاهر. وجملة إن مع اسمها المؤخر وخبرها المقدم اعتراضية

بين القسم وجوابه وبين المعطوف والمعطوف عليه. وفائدتها تأكيد المقسم به على من أقسم به كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ [الواقعة: 76 - 77] فجاء بجملة الاعتراض ليدل على تعظيم المقسم به وفخامته. ولا يجوز أن تكون هذه الجملة جواب القسم. وإن كانت صالحة لذلك من جهة اللفظ لأنها ليس فيها كبير فائدة. وليس ذلك بمقصود للناظم. وقوله مبرورة القسم نعت لنسبة وهي من الصفة المشبهة. وله خبر إن. ومن قلبه يتعلق باستقراره. والله تعالى أعلم وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

78 وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمِ وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي

اللغة: حوى جمع. يقال حواه يحويه حيا وحواية أي جمعه وأحرزه. والغار: الكهف في الجبل شبه البيت. وقال ثعلب هو المنخفض في الجبل والمطمئن من الأرض. وجمْع قلته أغوار، وكثرته غيران. ويقال أيضا فيه غور ومغارة. والخير الكرم والشرف. والطرف: العين، ولا يجمع لأنه في الأصل مصدر يصلح للواحد والجماعة. قال تعالى: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: 43] والعمى فقد البصر.

الشرح: لما أقسم رحمه الله بانشقاق القمر عطف عليه قسم آخر وهو القسم بما حوى الغار. أي أقسمت بالقمر وبما حوى الغار من فضل ومن كرم لاحتوائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر. فحفظهما الله فيه وأعمى عنهما أعين الكفار مع حرصهم على ذلك وبذل مجهودهم في إدراكه. وقد جعلوا الجعائل لمن رده إليهم فحجبهما الله وسترهما عنهم مع شدة قربهم. ولله دره في الهمزية حيث قال:

واختفى منهم على قرب مَرآه ومن شدة الظهور الخفاء

فحفظ الله نبيه وأتم هجرته ونصر دينه. وقصة الغار مشهورة متواترة قرآنية. واختصارها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظر إذن الله عز وجل في الهجرة من مكة. وكان أبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدغنة قد عزم على الخروج من مكة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعل الله يجعل لك صاحبا. فلما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال. وقال أبو بكر للنبي صلى الله

عليه وسلم: لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بالك باثنين الله ثالثهما». وكان سبب خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا إلى المدينة بعدما سبق في الأزل اجتماع قريش على إذايته وتمكنهم من ذلك حين مات عمه أبو طالب فاجتمعوا في دار الندوة يدبرون ما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم، وتصور لهم الشيطان في هيئة شيخ جليل فوقف على باب الدار، فلما رأوه قالوا: من الشيخ؟ قال: من أهل نجد سمع ما استعددتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا تعدموا منه رأيا. فقالوا: أجل، فدخل معهم وقد اجتمع أشراف قريش. فقال قائل منهم: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد علمتم وإنا والله لا نأمنه من الوثوب علينا بمن اجتمع معه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا. قال: فتشاوروا. فقال قائل منهم: احبسوه في الحديد واغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهير والنابغة حتى يصيبه ما أصابهم من الموت. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه لخرج أمره من وراء هذا الباب الذي أغلقتم دونه فيوشك أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ويغلبوكم على أمركم فانظروا غير هذا. قال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا لا نبالي أين ذهب. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال. والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل بحي من العرب فيغلبهم بقوله وحديثه حتى يبايعوه ثم يسير بهم إليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد. دبروا رأيا غير هذا؟ فقال أبو جهل: والله إن لي رأيا ما أراكم وقعتم عليه. فقالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ فقال: هو أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا قويا وسيطا فينا ثم نعطي كل واحد منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه. فإذا فعلنا ذلك تفرق دمه في القبائل فلم يقدروا بنو عبد مناف على حرب القبائل جميعا فيرضون بالعقل فعقلناه. فقال النجدي: هذا الرأي لا أرى غيره. فتفرقوا على ذلك. فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك. فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه، فلما رآى عليه السلام مكانهم قال لعلي: «نم على فراشي واشتمل بردي هذا فإنه لن يخلص إليك شيء». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ حفنة من تراب في يده وجعل ينثر على رءوسهم ويتلوا سورة يس إلى يبصرون. وأخذ الله

بأبصارهم عنه ولم يبق واحد منهم إلا وقد وضع التراب على رأسه ثم انصرف إلى حيث أراد. وأتاهم آت فقال: ما تنتظرون. فقالوا: محمدا، فقال: خيبكم الله قد والله خرج عليكم ولا ترك منكم رجلا إلا وضع ترابا على رأسه. فوضع كل واحد يده على رأسه فإذا عليه تراب. فأنزل الله في تلك القصة: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: 30] فعند ذلك أمر الله نبيه بالهجرة وأذن عليه السلام لأبي بكر في الصحبة فقال له: يا رسول الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا العمل. ولم يعلم أحد بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علي وأبو بكر وأمر عليه السلام عليا أن يتخلف بعده حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودائع الناس التي عنده، إذ لم يكن أحد عنده شيء يخاف عليه إلا ودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يعلم من صدقه وأمانته. ثم شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، فخرج هو وأبو بكر إلى غار في جبل بأسفل مكة فدخلاه، ودخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه. وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع ما تقول قريش ثم يأتيهما ليلا ليخبرهما. وكان عامر بن فُهيرة يروح عليهما بغنم أبي بكر فيحلبان ويذبح. قالت أسماء: ولما خرج أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم أتى نفر من قريش فيهم أبو جهل فدفعوا الباب فخرجت إليهم. فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ فقلت: لا أدري. فرفع أبو جهل يده ولطم خدي لطمة طرح منها قرطي. وكان فاحشا خبيثا. فلما عرفت قريش بخروجهما جعلت مائة ناقة لمن يردهما فطمع في ذلك سراقة بن جعشم. قال: فكنت أرجو أن أردهما وآخذ مائة ناقة فركبت في طلبهما فبينما فرسي يشتد إذ عثر بي فسقطت عنه فأخذت قداحي وهي الأزلام ثلاثة في أحدهما لا تفعل وفي الأخرى نعم وفي الثالثة غفل. وكانت هذه الأزلام عندهم نوعا من الزجر. فاستقسمت بها فخرج الذي أكره أي لا تفعل، فأبيت إلا أن أتبعه فاتفق لي ذلك في الثانية والثالثة ثم عثر بي فرسي فذهبت يده في الأرض وسقطت عنه ثم انتزع يده وتبعها دخان. قال فعرفت إذ ذاك أنه منع مني. فناديته: أنا سراقة بن مالك انظراني أكلمكما والله لا يأتياكما مني شيء تكرهانه. وطلبت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا يكون آية بيني وبينه. قال: اكتب له يا أبا بكر. فكتب لي فجعلته في كنانتي ورجعت إلى قريش. فلم أذكر عنه شيئا. وقلت: ما رأيت أحدا. واستمرت قريش في طلبهما حتى وصلوا إلى الغار

فأمر الله تعالى شجرة نبتت تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا بفم الغار ونسجت عنكبوت على فم الغار فلما رأت قريش ذلك وهمّ بعضهم بدخول الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار، وعليه العنكبوت أقدم من ميلاد محمد. قالوا فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل العنكبوت. وقال إنها جند من جنود الله. فانصرفوا وأعمى الله أبصارهم، وصرف قلوبهم، وحفظ نبيه عنهم لما يريد به من كرامته وإعلاء دينه. وأقام أبوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام. وكان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سراقة حتى فتح مكة وفرغ من حنين والطائف فخرجت لألقاه ومعي كتابي فلقيته في الجعرانة قال: فدخلت في كتيبة من الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته. قال: والله لكأني أنظر إلى ساقه في غرزه كأنه جمارة. قال: فرفعت يدي بالكتاب فقلت: يا رسول الله، هذا كتابك وأنا سراقة بن جعشم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا يوم وفاء» فمثُلْتُ بين يديه ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تلاحق به المهاجرون فلم يبق بمكة إلا محبوس أو مفتون انتهى. وقد ظهرت في طريقه هذه معجزات وآيات نقلها أهل السير وبالله التوفيق.

الإعراب: وما حوى معطوف على القمر. أي أقسمت بالقمر وبما حواه الغار. والغار فاعل. والعائد محذوف. ومن خير ومن كرم متعلقان بحوى. ومن لبيان الجنس. وكل: طرف مبتدأ ومضاف إليه. ومن الكفار صفة لطرف. وعمي خبره. وعنه يتعلق بعمي. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله ورضي عنه:**

79 فَالـصِّدْقُ فِي الغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا وَهُـمْ يَقُولُونَ مَا بالغَارِ مِنْ أَرِمِ

اللغة: الصدق معروف والمراد به هنا، النبي صلى الله عليه وسلم جعله نفس الصدق مبالغة. لأن العرب تقول فلان صدق وعدل إذا كثر منه الصدق والعدل. فجعل الناظم الغار محتويا على الصدق وظرفا له والصدق مظروف له. والصديق أيضا أبو بكر لكثرة تصديقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به. كان رضي الله عنه يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما يتكلم وهلة من خرق العوائد، وكل ما يخرج من طور العقل من غير فكر ولا نظر. واسمه عتيق لحسنه وعتاقة وجهه. وقيل

اسمه أبوعبد الله وعتيق لقب له. وأبوه أبو قحافة واسمه عثمان بن عمر. ولم يرما لم يبرحا. يقال ما رمت أفعله أي ما برحت وما رمت المكان وما رمت منه. والمصدر ريم وهو من الأفعال المختصة بالنفي. وماضيه رام ويريم. وفي الحديث الصحيح في قصة العابد: فلم يرم حتى قتل الغلام وواقع الجارية. وأما رام يروم فمعناه طلب. وأرم بمعنى أحد. يقال ما في الدار من أرم أي من أحد. ومثله كتيع. وديار يعني من الأسماء المختصة بالنفي.

الشرح: أخبر في هذا البيت أن الصدق وهو النبي صلى الله عليه وسلم كان في الغار، وكذلك الصديق رضي الله عنه لم يبرحا منه. وأن الكفار يقولون حين انتهوا إلى الغار في طلبه ما به أحد. فحمى الله نبينه بما رأوه. ولوشاء الله لأعمى أبصارهم من غير عنكبوت ولا حمامتين، لكن شاء الله تعالى أن يجعل سببا لصرفهم حتى يوقنوا أن ذلك لا يمكن أن يوجد عادة في موضع قريب العهد بالعمران. فجعل ذلك سببا لقطع طمعهم وصرفهم بحكمته والله حكيم عليم.

الإعراب: فالصدق مبتدأ. وفي الفار خبره. والصديق معطوف على المبتدأ. فهو كذلك وخبره محذوف. أي كذلك. وجملة لم يرما لا محل لها وهي في قوة التأكيد اللفظي ولا يجوز أن تكون خبرا عن المبتدأ ولا أن تكون حالا، لأن العامل مختلف. واعترض على الناظم حذف الياء ما يرما فقد تقدم أن مضارعه يريم بالياء مثل يبيع فإذا أسند إلى المثنى قلت يريمان. فإذا دخل الجازم قلت يريما وأجيب بأنها لغة ضعيفة. وأن التثنية لحقت المفرد. وقد حكى بعضهم قراءة شاذة: فقولا له قولا لينا. وهي مثل قول الناظم. وجملة وهم يقولون حالية. والربط بالواو. وبالغار خبر مقدم. ومن أرم مبتدأ. ومن زائدة لتوفر شروط زيادتها الثلاثة النفي وتنكير مجرورها وإرادة الاستغراق. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

80 ظَنُّوا الحَمَامَةَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ

اللغة: الظن: الاحتمال الراجح والعلم الجزم المطابق. والجهل: الجزم غير المطابق. والوهم: الاحتمال المرجوع. والشك: استواء الطرفين. والحمام عند العرب ذوات الأطواق من نحو الفواخت والقماري ونحو ذلك يقع على الذكر والأنثى. والتاء الداخلة عليه للوحدة لا للتأنيث، وعند العامة الدواجن واحدتها حمامة. والعنكبوت:

دابة معلومة والبرية: الخلق. ولم تحم أي تدر. يقال حام يحوم حوما وحومانا دار.

الشرح: لما قال في البيت قبل هذا وهم يقولون ما بالغار من أرم. قدر إنسانا يسأله فقال: لم يقولون ذلك؟ فقال: ظنوا حين رأوا الحمام تدور على فم الغار. والعنكبوت قد نسج على وجه الغار أنه ليس فيه أحد. لأن العادة ألا تدور الحمام على غار معمور. حين أي تقدم رجل منهم ورآى الحمامتين رجع وقال لأصحابه: ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيها أحد. وكذلك العادة أيضا ألا ينسج العنكبوت إلا على موضع غير معمور، ويكون ذلك النسج بعد مدة من الزمان، ألا تراهم لم يتفقدوا الغار لأجل ذلك، بل قال قائل منهم: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار، إن عليه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد. فرجعوا. إلى آخر ما تقدم. وأراد الناظم لم تنسج على خير البرية وصاحبه فحذف المعطوف للعلم به كقوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل: 81] أي والبرد. أو يكون خصه صلى الله عليه وسلم بالذكر لأنه الأصل وأبو بكر تابع. وفي كلامه لف ونشر معكوس. فرد قوله: لم تنسج للعنكبوت ولم تحم للحمام وهو قليل بالنسبة للترتيب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: 52]... إلى قوله... ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 52] فرد قوله: فتطردهم لقوله ما عليك من حسابهم من شيء. وقوله: فتكون من الظالمين لقوله: ولا تطرد. وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: 106] الآية وهو ظاهر والأحسن الترتيب كقوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص: 73] لتسكنوا لليل ولتبتغوا للنهار. وكرر الناظم ظنوا للتأكيد. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ظنوا فعل وفاعل. وأصل ظن للتردد بين معتقدين يترجح أحدهما. والحمام مفعول أول. ولم تحم مفعول ثان. وظنوا العنكبوت معطوف على ما قبله. وجملة لم تنسج مفعول ثان لظن الثانية. ويروى بالياء والتاء لأن العنكبوت مما يذكر ويؤنث ففي كلامه تورية. وقد تقدم بيانه. وعلى خير البرية متعلق بتنسج. وكسر الميم بتحم للقافية. وبالله التوفيق.

* **ثم قال رحمه الله:**

81 وِقَايَـةُ اللهِ أَغْـنَتْ عَـنْ مُضَاعَفَةٍ مِـنَ الـدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

اللغة: الوقاية: الحفظ مصدر وقاه الله وقاية. بالكسر حفظه. والمضاعفة للتكرار. والدروع المضاعفة هي التي نسجت حلقتين حلقتين. وواحدها درع وهو الزرد. والأطم الحصن. وهو مفرد وجمعه آطام. مثل عنق وأعناق. ويجمع أيضا على أطوم وال فيه جنسية فهو جمع في المعنى.

الشرح: أخبر رحمه الله في هذا البيت: أن حماية الله سبحانه أغنت النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه وهما في الغار عن الدروع المضاعفة، وعن الحصون المرتفعة فحفظهما الله سبحانه بلا دروع ولا حصون مشيدة. مع أن العادة إنما تقع النجاة بهما. فانظر كيف وقعت الحماية بأضعف الأشياء. وهو نسج العنكبوت الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾ [العنكبوت: 41] فأغنت عن أقوى الأشياء وهي الدروع المضاعفة التي قال الله فيها: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: 80] فإذا كان العبد بعين الله وتحت نظره وكلائته لا يضره من كاده ولا يقدر عليه ما عاداه. ولا يحتاج لدرع سابغ، ولا لحصن مانع، وأغناه الله عن القبائل والعشائر. وإذا لم يكن بعين الله وتحت كلائته لم تنفعه الدروع السابغة، ولا الحصون المانعة. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: «واعلم إن الخلائق لو اجتمعوا على أن يعطوك شيئا لم يرد الله أن يعطيك لم يقدروا ولو اجتمعوا على أن يصرفوا عنك شيئا أراد الله أن يصيبك به لن يقدروا على ذلك. فإذا سألت فاسأل الله وإن استعنت فاستعن بالله واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا ولن يغلب عسر يسرين». انتهى. فكن واثقا بالله في جميع أمورك قوي اليقين في الاعتماد عليه في حركاتك وسكناتك ترى من عجب قدر الله ما يقف العقل دونه. حكي أن أبا حمزة الخراساني عاهد الله تعالى ألا يكل أمره إلى مخلوق ولا يسأل حاجته من بشر وأن يقطع الوسائل بينه وبين ربه فبينما هو يمشي في بعض الطرق إذ زلقت رجله ووقعت في بئر فهم أن يستغيث بمن يمر على الطريق لعله يخلصه ويعينه عن الخروج والخلاص من تلك الهلكة فذكر العهد الذي بينه وبين ربه فأمسك وقال عهد عاهدت به ربي لا أنقضه فأنا بعينه وهو يراني ويعلم حالي فجرد

يقينه وأقام بموضعه ينتظر الفرج. وإذا بقوم مروا بالطريق فقال بعضهم لبعض تعالوا نسد باب هذا الغار لئلا يسقط فيه أحد. فأجمعوا على ذلك فقال أبو حمزة: هذا مظنة الهلاك وهم أن ينقض العهد فقوى الله يقينه وإيمانه ثم أمسك وهو يراهم يسدون فم الغار ففعلوا وانصرفوا. قال: فبينما هو كذلك وقد أسلم نفسه للقدر السابق في علم الله وإذا هو بهمهمة على فم البئر وحركة أزالت ما على فم البئر فنظر وإذا بأسد على فم البئر فدلى ذنبه حتى أخذ بها أبو حمزة وصعد فهمهم الأسد وانصرف. فهتف به هاتف: يا أبا حمزة ليس هذا من العجب نجيناك بالتلف من التلف وأنشدوا:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى فأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفتُ في أمري فأبديت شاهدي إلى غائبي واللطف يعرف باللطف
أراك ربي من هيبتي لك وحشمة فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محبا أنت في الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وانظر قوة يقين هذا السيد فعرض نفسه للهلاك وأنف عن نقض العهد الذي بينه وبين ربه. نفعنا الله ببركاته، ومنحنا مما منحه. فإن قلت: هل يجوز لأحد أن يفعل مثل هذا؟ قلت: لا إلا أن يكون عنده من اليقين مثله. وإلا كان قاتل نفسه. وإن كان عندك يقين أبي حمزة فافعل ولا تبالي فإن الله يخلصك ويجعل لك من أمرك مخرجا. حكي عن بعض المتصوفة أنه قال: اعتكفت في مسجد مع بعض الأصحاب منقطعين للعبادة معولين على الفتوح. فأقمنا أياما لم يفتح لنا بشيء حتى أخذ الجوع منا ما أخذ، وضعفنا عن العبادة وخفنا الهلاك. فأجمع رأيهم على أن يخرج منا واحد يتسبب ويسأل لحصول الاضطرار. فقال: فخرجت لذلك فلقيني الخواص فسلمت عليه فقال لي على البديهة: الحاجة التي خرجت إليها يعلمها الله أم لا؟ فقلت يعلمها. فقال لي: ارجع وتأدب ولا تجعل حاجتك عند مخلوق. فرجعت فما مرت ساعة حتى من الله وفتح. انتهى. فأصل هذا كله قوة اليقين والثقة بالله تعالى. فإن كنت مثل هؤلاء القوم فافعل مثلهم وإلا فإياك والمخاطرة. والحكايات في هذا المعنى كثيرة مذكورة في محلها وبالله التوفيق.

الإعراب: وقاية الله مبتدأ ومضاف إليه. وجملة أغنت خبره أي مغنية. ومن مضاعفة متعلق بأغنت. ومن الدروع في موضع الصفة لمضاعفة. وأصل الكلام عن الدروع المضاعفة. وإنما عكس الناظم لوجهين أحدهما: أن الصفة هنا مقصودة

باعتنائها فقدمها. الثاني: أن مضاعفة فيها إبهام فإذا سمعها السامع اشتاق إلى تفسيرها. والتشويق نوع من البديع. وعن عال متعلق أيضا بأغنت. ومن الأطم في موضع الصفة لعال. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

82 مَـا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلاَّ وَنِلْـتُ جِـوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

اللغة: سامه: كلفه. يقال سمته الشيء: كلفته إياه. قال بعضهم: وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر. قال تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 49] وسامني الدهر ضيما: كلفني وأولاني. وسامت الماشية: رعت. وسام السلعة: طلب بيعها. والضيم: الظلم والنقص. يقال ضامه يضيمه: ظلمه. واستضامه فهو مستضام أي مظلوم. واستجار به إذا طلب منه أن يجيره وأن يحميه. ونلت: أصبت. والجوار بالضم والكسر: الحماية والاحترام. ولم يضم لم ينقص ولم يذل.

الشرح: أخبر رحمه الله أنه ما أصابه الدهر بلمة. أو نزلت به نازلة أو تخوف أمرا مخوفا فاستجار برسول الله صلى الله عليه وسلم ولاذ بجنابه الرفيع، وعزه المنيع، وتوسل بجاهه العظيم ومقداره الكريم إلا آمن ما كان يحذر، وتخلص مما كان يخاف، وصار في كنف منيع، وحرز حصين. وكيف لا وقد لاذ بسيد الوجود، ومنبع الكرم والجود، فلا ريب أن من كان في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم حصلت له النجاة والعز واكتنفته العصمة والحفظ في الدنيا والآخرة. بخلاف جوار غيره صلى الله عليه وسلم، فإنما يدفع في الغالب عوارض الدنيا. وكان الجوار في العرب شيئا متعارفا عندهم إذا أجار أحدهم أحدا لم يقدر أحد أن يصل إليه بشيء كما فعل أبو بكر الصديق وغيره. وهذا الذي أشار إليه الناظم من كونه مهما مسه شيء واستجار به صلى الله عليه وسلم حصل له الحفظ والنجاة منه ومن غيره. هو مجرب صحيح واقع له ولغيره. وقد تقدم في خطبة هذا الشرح أنه أصابه فالج ألزمه الفراش وأبطل نصفه فنظم هذه القصيدة، فشفاه الله ببركاته صلى الله عليه وسلم. وكل من التجأ إليه صلى الله عليه وسلم في شدة أو كربة وجد الغوث أقرب إليه من نفسه، ولا سيما من أكثر الصلاة عليه. أخبر الشيخ الصالح موسى الضرير رحمه الله أنه قال: ركبنا البحر المالح، وقامت علينا ريح تسمى الإقلابية، قلّ من ينجوا منها من الغرق. وضج الناس خوفا من

الغرق، فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: قل لأهل المركب يقولون ألف مرة: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات الخ. قال: فاستيقظت وأعلمت أهل المركب بالرؤيا، فصلينا بها نحو الثلاثمائة وفرج الله عنا. انتهى. وذكرها مجد الدين صاحب القاموس بسنده مثله، كما نقله في شرح الدليل. وذكر أبو عبد الله بن أبي الخصال أنه لما أقعد كتب رقعة يستشفع بها بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعثها، فلما وضعت عند القبر الشريف برء من حينه وهي هذه:

كتاب رقيد من زمانته مشف بقبر رسول الله أحمد يستشفي
له قدم قيد الدهر خطرها فلم يستطع إلا الإشارة بالكف
ولما رآى الزوار يبتدرونه وقد عاقه عن قصده عائق الضعف
بك أسفا واستودع الركب إذ غدا تحية صدق تفعم الركب بالعرف
فيا خاتم الرسل الشفيع لربه دعاء نهيض خاشع القلب والطرف

وقال في آخرها:

وأنت الذي نرجوه حيا وميتا لصرف خطوب لا تريع إلى صرف

وقال ابن الجلاء رضي الله عنه: دخلت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وبي شيء من الفاقة، فتقدمت إلى القبر وسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ضجيعيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم قلت: يا رسول الله، بي فاقة وأنا ضيفك الليلة. ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر. فإذا أنا بالنبي صلى الله عليه وسلم جاء ودفع إلي رغيف خبز فأكلت نصفه وانتبهت فإذا في يدي نصف الرغيف. قيل أن ابن الجلاء عاش بعد ذلك أربعين سنة لم يحتج فيها إلى طعام الدنيا ولا إلى شرابها ببركة الأكلة. انتهى. وهذا باب واسع وسيأتي للناظم:

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه وجدته لخلاصي خير ملتزم

وبالله التوفيق.

الإعراب: ما سامني هو جواب القسم المتقدم وهما قسمان جاء لهما بجواب واحد. والدهر فاعل. وضيما مفعول ثان لسام لأنها تتعدى إلى مفعولين لأنها من باب كسى. والياء مفعول أول. وجملة: واستجرت معطوفة على سامني، فهو من جملة الجواب. إلا إبطال النفي. ونلت الواو واو الحال، والجملة حالية. والتقدير: إلا نائلا

وهو على إضمار قد. لأن الفعل الماضي إذا وقع حالا لا بد من اقترانه بقد إما ظاهرة أو مقدرة وهي حال مقدرة إذ ليس في وقت السوم والاستجار نائلا، لكنه يقدر النيل بعد. والعامل في الحال فعل من معنى الفعلين المتقدمين. لأن هذه قيد فيهما كأنه قال: ما اجتمع لي إيلاء الضيم والاستجار به إلا وأصبت منه جوارا لم يضم. ومنه في موضع الصفة لجوار. وكذلك لم يضم أي غير مضام. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

83 وَلاَ التَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلاَّ اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

اللغة: التمست: طلبت. والغنا ضد الفقر. والمراد بالدارين: الدنيا والآخرة. واستلمت: نلت أو اعتنقت ومنه استلام الحجر. والندى العطاء والبذل.

الشرح: يقول رحمه الله: ما انصرفت همة أحد لطلب الدنيا والآخرة وتمنى على الله أن يجمع له بينهما فتوسل به أو استشفع بجاهه إلا نال مراده وبلغ أمله وغاية طلبه. ولم يرد الناظم تخصيص نفسه بذلك، وإنما مراده العموم، فهو في قوة قوله: ولا التمس أحد غنى الدارين من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بلغ أمله ونال أمنيته. وإنما أسند الفعل لنفسه لأنه حصلت له التجربة فأخبر بما جرب وهو عنده مقطوع به. ولما كان عليه السلام هو الوسيلة العظمى في هذه المطالب وبه نلت وبجاهه العظيم بلغت جعلها كأنها من يده وتحت ملكه. وقد ورد: «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم». وقد ورد أيضا: «من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة علي وليختتم بالصلاة علي. فإن الله يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما». وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل حاجة فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله ثم يصلي على مولانا محمد ثم يسأل حاجته. فهذه حوائج الدنيا وقد تقدمت حكاية ابن الجلاء حيث استغنى عن الطعام والشراب ببركة الأكلة التي أكلها من يده صلى الله عليه وسلم. وأما حوائج الآخرة فلو لم يكن إلا ما يناله المصلي عليه والمادح له من الكرامة في الدنيا والآخرة لكان كافيا. وقد قال عليه السلام: «جاءني جبريل عليه السلام وقال: أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا. ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا». وفي رواية أخرى: «من صلى عليك واحدة صلى الله عليه بها عشر أمثالها. ومن صلى عليك واحدة كتب الله بها عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له بها عشر درجات».

وقد جاءت أحاديث متعددة بصلاة الله عشرا على من صلى عليه صلى الله عليه وسلم. واحدة أخرجها مسلم وغيره قال القاضي أبو عبد الله البلالي: اعلم أن الصلاة من الله رحمة، ومن رحمه الله رحمة واحدة فهو خير له من الدنيا بما فيها فما الظن بعشر رحمات كم يدفع الله بها من البلايا والمحن، ويستجلب ببركاتها من لطائف المنن. وقال الشيخ ابن عطاء الله رضي الله عنه: من صلى عليه مرة واحدة كفاه الله همّ الدنيا والآخرة فكيف بمن صلى عليه عشرا. وقال ابن شافع: انبسط جاهه صلى الله عليه وسلم حتى بلغ المصلي عليه لهذا القدر العظيم، وإلا فمتى كان يحصل لك أن يصلي الله عليك فلو عملت في عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة بما عملت في عمرك كله من الطاعات، لأنك تصلي على حسب وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته. هذا إذا كانت صلاة واحدة فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة. انتهى. ومعنى البيت أن الناظم رحمه الله لم يطلب الغنى في الدنيا وهو أن يرزق العافية فيها بالكفاية من الغنى والسلامة من الأمراض والآفات، والغنى في الآخرة بالثواب الجزيل، والرضى من الملك الجليل، من عنده صلى الله عليه وسلم إلا تلقى ذلك وباشره وحصل له ووصل إليه من خير مقبل وهو يده صلى الله عليه وسلم. ولما كان حصول ذلك بسببه وبالتوسل به جعل ذلك كأنه من عنده ومن قبله. ولما كانت النعمة تنال من اليد في الغالب قال من يده على جهة المجاز وهو يريد من عنده. وعبر أيضا عن حصوله بالاستلام وهو التقبيل على جهة المجاز. وأخبر أن ذلك العطاء والجود وهو الندا أخذه من خير مستلم، أي مقبل وهو يده الشريفة صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: ولا التمست معطوف على سامني. فهو جواب مثله. وغنى الدارين مفعول به. ومن يده متعلق بالتمست. وإلا إيجاب بعد النفي. واستلمت في موضع الحال من الفاعل. أي إلا مسكما الندى وهي حال مقدرة. ومن خير متعلق باستلمت أو بحال محذوفة من الندى. أي حاصل من خير مستلم. ومستلم اسم مفعول مضاف إليه ما قبله. وهو على حذف الموصوف أي من خير كفّ مستلم.

* ثم قال رحمه الله:

84 لاَ تُنْكِرِ الوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ ... قَلْبًا إِذَا نَامَتِ العَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

اللغة: الإنكار ضد الإقرار. والوحي تقدم تفسيره. والرؤيا ما يراه النائم في نومه

وهو مصدر على وزن حبلى. وجمعه رؤىً. وأما البصرية فهي بالتاء. قيل: وقد يستعمل أحدهما مكان الآخر مجازا. قال البيضاوي في تفسيره: الرؤيا انطباع الصورة المنحذرة عن أفق المتخيلة إلى الحس المشترك. والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من التدبير البدني أدنى فراغ. فيتصور فيها ما يليق من المعاني الحاصلة هناك. ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بأدنى شيء استغنت عن التفسير وإلا احتاجت. انتهى مختصرا. والقلب: الشكل الصنوبري وهو محل العقل ومقره عند المحققين. والعين: الجارحة المعلومة. والنوم: آفة تدرك الحواس وركود يقوم بالجوارح دون القلب والروح. ولذلك قيل الرؤيا إدراك حقيقة.

الشرح: لما قدم الناظم معجزة شق صدره صلى الله عليه وسلم. ذكر هنا ما ترتب على ذلك وهو تطهيره وتهيئه لنزول الأنوار وإدراك الوحي فلا يمكن أن يتسلط عليه النوم. فلذا قال رحمه الله مخاطبا لكل من يصح خطابه: لا تنكر أيها المخاطب الوحي من رؤياه صلى الله عليه وسلم. فإن قلبه يقظان وإن نامت عيناه. ففي الصحيح أن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر. فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» وكان عليه السلام إذا نام لا يوقظه أحد حتى يستيقظ لأنهم لا يدرون ما هو فيه. وفي الحديث: «رؤيا الأنبياء وحي». واعلم أن الرؤيا إدراك حقيقة وعلم صحيح والمرء في يقظته ومنامه لا ينفك عن حالته التي هو عليها، فإن كان في تخليط وتلاعب مع البطالين انتقل لمثل ذلك في المنام. وإن كان في يقظته في علم وتحقيق، انتقل لمثل ذلك. فلقنه ملك الرؤيا مثل ما كان فيه من التحقيق. فالرؤيا أقرب للحق لأنها بواسطة الملك، وليس عند الملك إلا الحق، فلذا كانت جزءا من النبوة، لأن الملك هو الذي يلقيها للعبد. ولذلك كانت بشرى لأنها خبر من الملك عن الله تعالى. وإنما تخلفت الرؤيا عن الصدق من بعض الناس لاستيلاء الغفلة وانهماكهم في شهوات البطن والفرج، فيقع من النوم في غمرة فلا يرى شيئا، كالسكرة والولهة.وأما حاله صلى الله عليه وسلم فهو بشري الظاهر، ملكي الباطن. فهو كيف ما اختلفت أحواله في حق وتحقيق مع الملك في كل طريق. وأما نومه عليه السلام عن صلاة الصبح في قضية الوادي، وقال ابن العربي تعددت مرارا. فالجواب عنها من وجوه. أحدها: أن قوله عليه السلام أن عيناه تنامان ولا ينام قلبه إنما يعني في غالب أحواله.

وهذه الحال ندرت فأنامه الله سبحانه عن الصلاة لما أراد من بيان هذه السنة. ويدل على هذا حديث العلاء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها: «لو شاء الله لأيقظنا، ولكن أراد أن تكون سنة لمن بعدكم». ولذا قال ابن عباس: «ما يسرني أن لي الدنيا بما فيها بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بعد طلوع الشمس». فهذه رخصة عظيمة أعلمنا الله بها. فالنائم عن الصلاة لا إثم عليه. الثاني: أن طلوع الشمس إنما يدرك بحاسة البصر وهو يأخذه النوم، وأما القلب فلا يدرك طلوع الشمس وإن كان يقظانا، وإنما يدرك ما في عالم الملكوت. الثالث: أن معنى قوله: لا ينام قلبي من أجل أنه يوحى إليه في المنام. فقد يكون قلبه مشغولا بسماع الوحي وفهمه عن الله تعالى، فلا يسعه مع ذلك نظر ولا شغل. والله تعالى أعلم. وقد ورد في الحديث الصحيح: «الرؤيا من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». ومعنى ذلك، أنه عليه السلام نزل عليه الوحي في ثلاثة وعشرين سنة، وكان في ستة أشهر منها قبل نزول الملك يرى الرؤيا فتخرج كفلق الصبح حسبما في الحديث. ونسبة ستة أشهر من ثلاثة وعشرين سنة، جزء من ستة وأربعين جزءا فبهذا اللحظ كانت الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا لصحتها وصدقها، إلا أن هذا يحتاج إلى توقيف يعلم به أنه بقي عليه السلام ستة أشهر يرى الرؤيا ثم جاء الملك على إثرها. مع أنه وقع في بعض الروايات: «الرؤيا من الرجل الصالح جزء من سبعين»، وفي رواية أخرى: «من أربعين». وفي أخرى: «من خمسة وأربعين». والجواب الصحيح في الجمع ما أشار إليه الطبري وأن ذلك باختلاف حال الرائي. فالمؤمن الصالح نسبة رؤياه من ستة وأربعين، ومرة من الأربعين. والفاسق من سبعين وما بينهما كل على نسبته. قال ولهذا قال في رواية السبعين الرؤيا الصالحة، ولم يقل من الرجل الصالح. لم يشترط كون الرائي صالحا. وأجاب عياض رحمه الله فقال: قيل أن المنامات دالات، والدلالات منها خفي، ومنها جلي. فما ذكر فيه السبعون أريد به الخفي. وما ذكر فيه الأربعون والستة والأربعون أريد به الجلي. وقيل: تكون الرؤيا من ستة وأربعين في حق من كان من أهل إسباغ الوضوء على المكاره، والصبر على المشقات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فبحسب هذا تكون رؤياه من الأربعين إلى السبعين ولا تنقص عن الأربعين. انتهى. والحاصل أن نسبة الرؤيا من الوحي إنما هو باعتبار الصدق والصحة على اختلاف الروايات، وذلك باعتبار اختلاف أحوال الرائي. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لا تنكر مجزوم بلا. والوحي مفعول به. ومن رؤياه متعلق بتنكر. وقيل من لبيان الجنس. كقوله تعالى: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج: 30] وقلبا اسم إن. وخبرها المجرور قبله. وإذا ظرف زمان مستقبل بني لافتقاره إلى جملة فعلية يضاف إليها ونامت العينان جملة مضاف إليها. ولم ينم جواب إذا. وهو العامل فيها. وإذا جزمت على الشذوذ كان العامل شرطها فيكون عاملا فيها معمولا لها. لأن الجزم ليس بها في الحقيقة. وإنما هي لتضمنها معنى إن. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

85 وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ

اللغة: البلوغ إلى الشيء: الوصول إليه. ويطق على الاحتلام الذي هو أمارة البلوغ. وتقدم معنى النبوة. والمحتلم من بلغ الحلم الموجب للتكليف. والحلم أيضا ما يراه النائم. ويقال فيها أحلام إذا كانت مختلطة.

الشرح: يقول رحمه الله مشيرا إلى الوحي المتقدم الذي يحصل له صلى الله عليه وسلم في النوم: أي فذلك الوحي وهو الرؤيا التي كان يرى حين بلوغه نبوته ووصولا إلى درجة كمالها ونهايته إلى سر البعث. وكانت تلك الرؤيا الصالحة مبادئ الوحي ومقدمات له ومبشرات. فلا يستنكر صدقها حتى تخرج مثل فلق الصبح. واستعمل الناظم رحمه الله في هذا البيت طريقة شعرية على جهة التورية. يقول: إن تلك الرؤيا منه عليه السلام كانت حين بلغ مبلغ النبوءة، وكانت علامة على نبوته. كما أن الاحتلام للانسان يكون حين يبلغ مبلغ الرجال ودليلا عليه. فليس ينكر عليه بلوغه حينئذ لصحة علامة بلوغه. قال ابن إسحاق: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته بالنبوءة إذا خرج لحاجة أبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. قال: فليتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله عن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه فلا يرى إلا الشجر. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في رمضان».. انتهى.

الإعراب: فذاك مبتدأ وهو إشارة إلى كون رؤياه وحيا من مبتدأ النبوءة. وحين

خبر أي متعلق بالخبر، أي حاصل حين بلوغ. وبلوغ مضاف إليه ما قبله. ومن نبوته في موضع الصفة لبلوغ. واسم ليس ضمير الشأن. والفاء سببية. وينكر فعل مضارع مبني للمجهول وفيه متعلق بينكر وحال: نائب الفاعل. ومحتلم: مضاف إليه. وجملة ينكر خبر ليس إن كانت ناقصة. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

86 تَبَارَكَ اللهُ مَا وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ وَلاَ نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ

اللغة: البركة: كثرة الخير وزيادته. وتبارك الله: تكاثر خيره وتزايد وتعاظم وتعالى وتقدس. والمتهم من الوهم لأن من اتهم بشيء فقد توهم وجوده فيه.

الشرح: جعل الناظم رحمه الله تبارك الله استفتاحا لما بعده كقوله صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله، المؤمن لا ينجس» وفيه معنى التعجب من قول من يقول: أن هذه المرتبة الشريفة تنال بكسب واجتهاد. ثم استأنف فقال: ما وحي بمكتسب. أي لا ينال بكسب ولا حيلة. وإنما يكون بتخصيص الكبير المتعال، يختص برحمته من يشاء، ويفعل في ملكه ما يريد. وهذا مذهب أهل الإسلام أن النبوءة ليست مكتسبة. وهو رد على الفلاسفة القائلين بأن الوحي ينال بالاجتهاد. وهو باطل. فإن الله سبحانه غني عن جميع خلقه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية. ولكن الله يمن على من يشاء من عباده. قال تعالى في حق الرسل عليهم السلام: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [إبراهيم: 11] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: 110] إلى غير ذلك من الآيات. وأما الولاية فقال بعض العلماء: أنها تنال بالعمل والمجاهدة. بمعنى أن الله تعالى يخلق فيه ذلك ويقويه عليه حتى يدرك ما قسم له في أزله، وهذا مقام السلوك ورتبة السالكين. وأما المجذوبون فتطوى لهم طريق السلوك، ويصلون بمحض العناية الربانية. ثم قال الناظم رحمه الله: ولا نبي على غيب بمتهم. المراد بالغيب: الوحي وخبر السماء الغائب عن أهل الأرض. أي لا يمكن أن يتهم نبي على ما يأتي به من الوحي والأخبار المغيبة بحيث يزيد فيها أو ينقص. أو يقول شيئا من عنده لوجوب عصمته ووفور ثقته. قال تعالى في حق نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝ ﴾ [التكوير: 24] أي

بمتهم. وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: 3 - 4] ومناسبة هذا البيت لما قبله ظاهرة. والله تعالى أعلم.

الإعراب: تبارك فعل غير متصرف لفظا ومعنى. أما عدم تصرف لفظه فلا يستعمل منه مضارع ولا أمر ولا غيره. فهو كنعم وبيس. وأما عدم تصرف معناه فلأنه مختص بالله تعالى. لا يقال تبارك زيد ولا عمر. وما حجازية. ووحي اسمها. وبمكتسب خبرها. والباء زائدة في الخبر، ولا نبي معطوف على وحي. وبمتهم معطوف على مكتسب. وعلى غيب متعلق بمتهم. هكذا قال بعضهم وفيه نظر. والظاهر أن لا حجازية، ونبي اسمها، وبمتهم خبرها. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

87 كَـمْ أَبْـرَأَتْ وَصِبًا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ وَأَطْلَقَـتْ أَرَبًـا مِـنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ

اللغة: أبرأه الله من المرض: شفاه. والوصب: المرض. يقال: وصب يوصب وصبا: مرض. ووصب الشيء يصب وصوبا إذا دام. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات: 9] أي دائم. واللمس لمس اليد ويكنى به عن الجماع. والراحة الكف. ومنه قول الشاعر فيه صلى الله عليه وسلم:

لـه راحـة لـو أن معـشار جـودها علـى البـر كـان البـر أنـدى مـن البحـر

وجمعها راح على طريقة اسم الجنس. ويطلق الراح على الخمر. والأرب على وزن غرف. جمع إربة كغرفة وهي العقدة التي لا تنحل حتى تحل حلا لعسرها. والربقة: الحبل ويجوز فيها الفتح. وقال الجوهري: الربق بالكسر حبل فيه عقدة تشد به البهم. كالعروة الواحدة ربقة. وفي الحديث خلع ربقة الإسلام من عنقه، والجمع ربق. ورباق واللمم بفتح اللام: مس الجن. والرجل ملموم به لمم.

الشرح: يقول رحمه الله كثيرا من المرات وضع عليه السلام راحته الكريمة المشرفة على الأ وصاب والأمراض الصعبة الشاقة فبرئت من ساعتها ببركته صلى الله عليه وسلم وكثيرا أيضا من المرات أطلقت يده وحلت عقدا من حبل الجنون، فزال ذلك عمن أصابه ونسب ذلك إلى الراحة على جهة المجاز. وإنما أراد أبرأه الله بسببها، وأطلقه بسبب مسها، كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ [المؤمنون: 110] وإنما المعنى حتى نسيتم بسببهم ذكري. واستعار العقدة والحبل لمن به جنون. لأن الذي

يصيبه الجن كأنه قد ربطه الجن بحبله فكان بمنزلة المربوط الموثق. فإذا زال جنونه صار كأنه أطلق وحل من ذلك الربط. وأشار بالسطر الأول إلى ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مسح بيده الكريمة المباركة على مريض شفاه الله وأبرأه، وذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم. فمن ذلك ما ذكره عياض رضي الله عنه أنه وضع يده صلى الله عليه وسلم على رأس حنظلة بن حزيم وبرك عليه. فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه وبالشاة قد ورم ضرعها فيوضع على موضع كف النبي صلى الله عليه وسلم فيذهب الورم. ومسح صلى الله عليه وسلم على رأس صبي به عاهة فبرئ واستوى شعره. ومن ذلك أنه كانت في كف شرحبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الفرس فشكاها للنبي صلى الله عليه وسلم فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها ولم يبق لها أثر. ومن ذلك ما روي عن قتادة بن النعمان، أنه أصيبت عينه يوم أحد حتى سقطت على وجنته فردها عليه السلام، فكانت أحسن عينيه. وروى النسائي عن عثمان بن حنيف أن أعمى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يكشف عن بصري. فقال له عليه السلام: «انطلق فتوضأ ثم قل اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تكشف عن بصري اللهم شفعه في». قال فكشف الله عن بصره. وأشار بالشطر الثاني إلى ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة بابن لها به جنون فمسح صلى الله عليه وسلم صدره فثعّ ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى. وعن طاوس لم يؤت النبي صلى الله عليه وسلم بأحد به مس فصك في صدره إلا ذهب المس والجنون. وفي الصحيح: أن امرأة جاءت وبها جنون فقالت: يا رسول الله ادع الله لي؟ فقال لها: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت لك» فاختارت الصبر ودخول الجنة. فقالت: يا رسول الله إني أكشف. فدعا لها ألا تكشف. فأجيبت دعوته صلى الله عليه وسلم. وهذا أمر كثير شهير، ومن أراد فيه الشفاء، فعليه بالشفا.

الإعراب: كم خبرية. إما ظرف زمان أي كم مرة أو مصدر أي كم إبراءة وحذف التمييز فيهما. وأبرأت فعل ماض رباعي. والفاعل مؤخر وهو راحته. ووصبا مفعول مقدم. وباللمس متعلق بأبرأت. والباء للاستعانة أو السببية. وأطلقت معطوف على أبرأت فهو داخل تحت كم على التقديرين أي وكم مرة أطلقت أو كم إطلاقة أطلقت. وأربا مفعول به. ومن ربقة متعلق بأطلقت أو صفة لأرب فيتعلق بمحذوف.

أي حاصلة من ربقة اللمم. ومن لابتداء الغاية. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

88 وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

اللغة: الإحياء: إعطاء الحياة. ويستعمل مجازا في اخضرار النبات. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً ﴾ [الحج: 5].. إلى قوله.. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ [فصلت: 39] والسنة والعام متحدان في المعنى. وهي منقوصة اللام. قيل أصلها واو وقيل هاء. ويظهر الخلاف في الجمع فيقال: سنهات أو سنوات. وإذا أطلقت عند العرب فالمراد بها السنة المجذبة أوقعوا ذلك عليها إكبارا لها واستطالة. يقال أصابتهم سنة. والشهبة في الألوان: البياض الذي على السواد. والغرة: بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم. يقال فرس أغر، ورجل أغر، أي شريف. وفلان غرة قومه أي سيدهم. وهم غرر قومهم. والأعصر جمع عصر وهو الدهر. وجمع كثرته عصور. والدهم جمع أدهم والدهمة: السواد.

الشرح: أشار رحمه الله إلى معجزة إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ونزول الأمطار. ولا مرية أنه صلى الله عليه وسلم كان مجاب الدعوة في الأمطار وغيرها. وقضية الاستسقاء متكررة مشهورة أخرجها أهل الصحيح وغيرهم. ففي البخاري عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدبارا قال: اللهم سبعا كسبع يوسف. فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم قال الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ ﴾ [الدخان: 10].. إلى قوله.. ﴿ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ [الدخان: 15 - 16] فالبطشة الكبرى يوم بدر. فقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم. انتهى. وخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رجل المسجد يوم الجمعة ورسول الله، صلى الله عليه وسلم يخطب، فاستقبل الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وجاع العيال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه

ثم قال: «اللهم أغثنا». ثلاثا قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت انتشرت ثم أمطرت فلا والله ما رأينا الشمس سبتا. قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاستقبله قائما وقال: يا رسول الله هلكت الأموال، وتهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها. قال فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر». قال فأقلعت عنا وخرجنا نمشي في الشمس. انتهى. وإلى هذا وأمثاله أشار الناظم بقوله: وأحيت السنة الشهباء دعوته. والسنة الشهباء القاحطة. ووصفت بالشهوبة لكونها عديمة المطر والنبات بسبب القحط. يقال سنة شهباء وبيضاء أي قاحطة عديمة المطر لا تنبت شيئا. وقوله: حتى حكت غرة في الأعصر الدهم. يعني أن الناس لجئوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند احتباس المطر عنهم تلك السنة الشهباء فدعا لهم، فأذهب عنهم ما نزل بهم ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم. فكانت السنة شهباء ثم صارت بدعوته صلى الله عليه وسلم في حسنها وخصبها ونضارتها وما ظهر فيها من الخيرات بالنسبة إلى غيرها من سني القحط كالغرة فيهن لشهرتها. فهي بالنسبة إلى غيرها من سني القحط الدهم كغرة الفرس. وإنما وصف سني القحط بالدهم لأن العرب تستثقل السواد وتكرهه، فتقول: سنة سوداء وسنين سود يعني شديدة. ويقولون في سنة كثيرة الخصب إذا أتت في سنين مجذبة هذه غرة في هذا الزمان الأدهم. ولكون السواد عندهم مستثقلا تجدهم يكنون عنه بالبياض على جهة التفاؤل قال الشاعر:

كالفحم يدعى بالبياض تفاؤلا والنفس تعرف ما حقيقة حكمه

وكذلك تستثقل السنين المجذبة إذ فيها التضييق وكثرة الحاجة أعاذنا الله منها بمنه.

الإعراب: وأحيت عطف على كم. وما بعدها عطف معجزة على معجزة. ولا يصح عطفه على أبرأت. مدخولا لكم التكثيرية بعدم تكرار إحياء السنة الشهباء. كذا قال بعضهم وفيه نظر. فقد تكررت إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم في المطر بمكة والمدينة يعلم ذلك بالوقوف على علم السير. والسنة مفعول مقدم. والشهباء نعت له. ودعوته فاعل وضميره الرسول عليه السلام. وحتى حرف ابتداء. وحكت فعل. وتاء

تأنيث وغرة مفعول. وفي الأعصر صفة لغرّة متعلق بالاستقرار ولا يصح تعلقه بحكت، لأن الحكاية لم تكن في الأعصر. والدهم جمع أدهم. وحقه أن يكون بسكون الهاء لأن أفعال الصفة تجمع على فعل كأحمر وحمر وأبيض. لكن الناظم اتبع حركة الدال، وهو صفة للأعصر. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

89 بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلْتَ البِطَاحَ بِهَا سَيْبٌ مِنَ اليَمِّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ العَرِمِ

اللغة: العارض: السحاب يعترض في الأفق. ومنه قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف: 24] وجاد ضد بخل يقال جاد بكذا يجود جودا فهو جواد وقوم جود كقذال وقذل. وسكنت الواو لأنها حرف علة. وخلت ظننت. وفي المثل من يسمع يخل. والبطاح جمع أبطح على غير قياس وهو مسيل واسع فيه دقائق الحصا، ويجمع أيضا على أباطح. والسيب: العطاء. واليم: البحر. والعرم: الوادي. قاله الأزهري.

الشرح: هذا تتميم للبيت السابق، ويقال أن ذلك الإحياء المتقدم وهو اخضرار النبات ونيعه. كان بسبب سحاب جاد بمطر غزير حتى تظن أيها السامع أن بطاح الأرض من كثرة المياه نزل بها فيض من البحر أو سيل من الوادي الذي أرسل على سبأ فخرق سدهم. فإن قلت: سيل العرم كان مفسدا فكيف يصح التشبيه به في هذا المقام. فالجواب أن التشبيه إنما هو في وجه الكثرة دون الإفساد قصدا للمبالغة. والله تعالى أعلم. وهذا الذي حملته عليه من جعل أو إغيائية هو أقرب وأسلم من التكلف إلى أنه يحتاج إلى نقل يصحح دخولها على الماضي. وجعلها بعضهم عاطفة على قوله حكت الخ. وهو في غاية التكلف. والله تعالى أعلم.

الإعراب: بعارض متعلق بحكت. والباء سببية.وجملة جاد في موضع الصفة لعارض. وأو عاطفة لمصدر منسبك على مصدر متصير من الفعل السابق. أي كان من العارض جود فظن منك أيها المخاطب. أو عاطفة على قوله حكت على ما تقدم. وخلت فعل وفاعل. والبطاح مفعول أول. وبها خبر مقدم، وسيب مبتدأ مؤخر. والجملة في محل المفعول الثاني. والسيب بالكسر. قال ابن السكيت: بحر من الماء، وبالفتح العطاء. ويصح هنا المعنيان. ومن العرم صفة لسيل. وهو بفتح العين وكسر الراء. وبه نهاية الفصل الخامس، فإلى الفصل السادس.

الفصل السادس
في شرف القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم

* بدأه بقوله: قال رحمه الله:

90 لَمَّا شَكَتْ وَقْعَهُ البَطْحَاءُ قَالَ لَهُ ... عَلَى الرُّبَا وَالهِضَابِ انْهَلَّ وانْسَجِمِ

91 فَأَدَّتِ الأَرْضُ مِنْ رِزْقٍ أَمَانَتَهَا ... بِإِذْنِ خَالِقِهَا لِلنَّاسِ وَالنَّعَمِ

92 وَأُلْبِسَتْ حُلَلاً مِنْ سُنْدُسٍ وَلَوَتْ ... عَمَائِمًا بِرُءُوسِ الهِضَبِ والأَكَمِ

93 وَالنَّخْلُ بَاسِقَاتٌ تَجْلُو قَلاَئِدُهَا ... مِثْلَ البَهَارِ عَلَى الأَبْصَارِ وَالعَلَمِ

94 وَفَارَقَ النَّاسَ دَاءُ القَحْطِ وَانْبَعَثَتْ ... إِلَى المَكَارِمِ نَفْسُ النَّكِسِ وَالبُرُمِ

هذه الأبيات الخمس مع أربع بعدها إلى قوله أعني ووصفي الخ. لم تثبت في كثير من النسخ ولم يشرح عليها كثير من الشراح. قال الشيخ الفقيه القاضي المتفنن أبو عبد الله بن مرزوق: أن ناظمها هو الشيخ الفقيه الكاتب الأديب أبو الحسن علي بن الجياب رئيس الأدباء بالأندلس وهي تتصل بقوله بعارض جاد إلى قوله دعني الخ.

اللغة: شكى أمره إلى الله شكوى وشكاة وشكاية أظهر فاقته. والوقع: مصدر وقع وقياسه وقوعا. والبطحاء: ما انخفض من الأرض. والمراد به هنا موضع المدينة المشرفة وما حولها. والربا جمع ربوة وهو ما ارتفع من الأرض. ويقال فيها الرابية والرباة. قاله في القاموس وهي الكدا الصغار. والهضاب جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة. أو الجبل الطويل الممتنع المنفرد، ولا يكون إلا في حجر الجبال والخضرة قاله في القاموس. وانهل المطر: كثر نزوله، وانهل الدمع سال وجرى. وانسجم المطر أيضا سال. وأدت الأرض أخرجت ما عندها. كأدى ما عليه أخرجه وقضاه. والرزق معلوم. والأمانة ما يجب حفظه وصونه. والناس بنو آدم. والنعم البقر والغنم والإبل. والحلل جمع حلة بالضم. قال في القاموس إزار ورداء ولا يكون إلا من ثوبين أوثوب له بطانة. والسندس بالضم ضرب من الديباج. قاله في القاموس. والعمائم التيجان. والهضب جمع هضبة وتجمع على

هضاب وتقدم تفسيره. والأكم جمع أكمة بالتحريك: التل من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله. قاله في القاموس. وبسقت النخل: انتشرت وارتفعت. وجلا الأمر: كشفه وأظهره. وجلا العروس جلوة ويثلث وجلاء ككتاب. واجتلاها: عرضها عليه مجلوة. والبهار: نبت طيب الريح وكل حسن منير. قاله في القاموس. والعنم: شجر حجازي له ثمرة حمراء شبه بها البنان المخضوب. قاله في القاموس. وفارق زال وذهب. والداء المرض. والقحط احتباس المطر. يقال قحط العام كمنع وفرح قحطا وقحوطا وأقحط. وانبعث إلى الشيء: أرسل إليه. يقال بعثه كمنعه أرسله كابتعثه. فانبعث وبعث الناقة آثارها. وفلانا من منامه أهبه. قاله في القاموس. والمكارم جمع مكرمة بالضم وهو الكرم. والنفس: الروح خرجت نفسه. والدم والجسر والعين. يقال نفسته أصبته بعين. ونافس عاين. قاله في القاموس. وقال أيضا النكس: المقصر عن غاية الكرم. والضعيف والنصل ينكسر سخه والسهم ينكسر فوقه. انتهى بتقديم وتأخير. والبرم محركة من لا يدخل مع القوم في المسير. أي ثقيل. والجمع أبرام. ويطلق على السآمة والضجر. قاله في القاموس.

الشرح: أشار رحمه الله إلى تتميم معجزة الاستسقاء الذي ثبت في الصحيح. ولفظ البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: أصاب الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فبينما النبي يخطب يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا؟ فرفع يده وما نرى في السماء قزعة. فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب بأمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحاذر على لحيته صلى الله عليه وسلم. فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى. وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال فادع الله لنا. فرفع يديه وقال: «اللهم حوالينا» فما يشير بيديه إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت مثل الحوبة وسال الوادي وادي قناة شهرا. ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود. انتهى. وزاد في رواية أخرى: «اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» فأشار الناظم بالبيت الأول إلى قول الأعرابي الذي طلب رفع المطر حين كثر: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال الخ. ونسب الشكوى إلى البطحاء على طريق المجاز، أي لما شكت وقعه أهل البطحاء. ويحتمل أن يكون بلسان الحال أي لما كثر ماء البطحاء وكادت أن تغرق من

كثرة الأمطار قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: على الربا والهضاب انهل. أي صب وانسجم أي أنزل. وإنما خص هذه المواضع بطلب النزول لأنه فيها ينفع بإمساك الماء ونبت العشب. لأنه إذا نزل في الجبال كثر ماء العيون، وكذلك إذا نزل على الربا وهي الكدا الصغار يكثر نباتها. وزاد في الحديث: بطون الأودية لدوام مياهها ومنابت الشجر لسقي عروقها. قال العارف ابن أبي جمرة رضي الله عنه فيه أي: في الحديث من الفقه أنه لا يطلب من رفع الأذى إلا قدر ما تحقق أنه أذى لأنه مما تهدم البناء وغرق المال وهي الإبل، لأنها تتوحل بكثرة المطر ولا يصلح لها به حال، والصحاري ما دام المطر فيها كثرت الفائدة فيها في المستقبل من كثرة المرعى والمياه وغير ذلك من المصالح. وفي هذا دليل على ما أعطى الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم من الإدراك العظيم للخير على سرعة البديهة. وقوله: فما يشير بيديه إلى ناحية من السحاب، فيه دليل على عظيم معجزاته صلى الله عليه وسلم في ذلك. وهو أن سخرت السحاب له كلما أشار إليها امتثلت بالإشارة دون كلام، لأن كلامه صلى الله عليه وسلم بمناجات للحق. وأما السحاب فبالإشارة، فلولا الأمر لها بالطاعة له صلى الله عليه وسلم لما أطاعت، لأنها مأمورة حيثما تسير وقدر ما تقيم. وقال عند قوله: حتى ثار السحاب أمثال الجبال، وفي هذا الموضع دليل على عظيم قدرة الملك الجليل، يؤخذ ذلك من سرعة اختراعه عز وجل لذلك السحاب العظيم في هذا الزمان القريب جدا. وفيه دليل على عظيم حرمة النبي صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من سرعة إسعافه صلى الله عليه وسلم في مطلوبه في الوقت. وفيه دليل على أن الدعاء من أكبر وسائل الخير يؤخذ ذلك من سرعة الفائدة بدعائه صلى الله عليه وسلم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من ألهم الدعاء فقد فتح عليه أبواب الخير» ولهذا يقول الصوفية: إن الدعاء نفسه هو عين الخير وقضاء الحاجة في حكم التبع. وقوله فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة فيه دليل على أن الإعطاء يكون على قدر حرمة الشفيع، فلما كان هنا الشفيع صاحب الحرمة المعظمة، توالت الأمطار حتى استوفوا ما أرادوا من الخير. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «أئمتكم شفعاؤكم فانظروا من يشفع لكم». وقالت الصوفية:قدم محبوبك عند مطلوبك تجد مرغوبك. انتهى المراد منه باختصار وتقديم وتأخير. وأشار بالبيت الثاني وما بعده إلى فوائد تلك الأمطار وما حصل بها من النفع المدرار. فقال: فأدت أي أعطت وأخرجت الأرض بتلك الأمطار من رزق أمانتها أي من رزق خزانتها الذي كان

مستودعا فيها وهي كالأمينة عليه لكونها حافظة له بإذن خالقها. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج: 5] وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: 9] الآية. وقوله للناس والنعم قال تعالى: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة: 27]. قوله: وألبست حللا من سندس أي: كسيت الأرض بأنواع النبات وصارت في مثل الحلة الخضراء. ولوت: أي شدت عمائما أي تيجانا من نور الأشجار وأنواع الأزهار برؤوس الهضب أي الجبال. والأكم أي الكدي. شبه ما أنبت الله بتلك المطر بحلة خضراء كسيت بها الأرض. وما انفتق به من النور والزهر في رؤوس الجبال والكدي بعمائم بيض أحاطت بتلك الجبال أو الكدي، ومن جملة ما نبت به النخل وجميع الأشجار. ولذلك قال: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ [ق: 10] أي طويلات منتشرات. تجلوا قلائدها أي تتزين بقلائدها كالعروس المجلوة بقلائد الجوهر في عنقها. شبه العرجون المعلق في النخل بالقلائد التي تعلق في عنق العروس المجلوة المتزينة. وتلك القلائد مثل البهار وهو نبت طيب الريح. والعنم وهو شجر له ثمرة حمراء. يعني أن تلك القلائد حين تطيب وتحمر تكون مثل البهار والعنم في طيب الرائحة واللون. هذا ظاهر كلامه. وانظر هل يكون لتمر النخل ريح وأما اللون فمسلم. ولما نزل المطر وكثرت الخيرات فارق الناس أي زال عنهم داء القحط أي الجوع والشدة بحصول الخصب والرخاء. وانبعثت أي أطلقت وأرسلت إلى المكارم أي إلى الكرم والجود نفس النكس أي الشحيح الضعيف. والبرم أي الضجر الثقيل الذي لا يسير مع القوم ولا يخالطهم لشدة قنوطه وضجره. أو خوفا من أن يسأله أحد شيئا كما قال عليه السلام: «البخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والجواد قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار» أو كما قال عليه السلام.

الإعراب: لما حرف وجود لوجود مختصة بتعليق الماضي. والجملة بعدها شرطها وهي قوله شكت. ووقعه مفعول به. والبطحاء فاعل. وقال جواب لما. وفاعله ضمير النبي صلى الله عليه وسلم. وله متعلق بقال. وعلى الربا والهضاب متعلق بانهل. وانسجم وانهل فعل أمر وفتح تخفيفا لتضعيفه. وأدت الأرض فعل وفاعل. والفاء سببية. ومن تبعيضية. ورزق أمانتها مجرور ومضاف على معنى في. وبإذن متعلق

بأدت. وخالقها مضاف إليه. وللناس متعلق بأدت. وألبست معطوف على أدت. وحللا مفعول ثان. ومن سندس صفة لحلل. ولوت معطوف على ألبست. وعمائما مفعول به. وبرؤوس الهضب متعلق بلوت. والباء بمعنى على. فالنخل مبتدأ. وباسقات خبره. والفاء سببية أي بسبب تزخرف الأرض بالمطر صارت النخل باسقات. وجملة تجلو حال من ضمير الخبر. وقلائدها مفعول به أو على إسقاط الخافض. أي تتزين بقلائدها. ومثل البهار يحتمل أن يكون حالا. لأن إضافتها لا تعرف أو خبر. أي وذلك مثل البهار. وعلى الأبصار حال من البهار. وعلى بمعنى في. أي كبصر وهو على حذف مضاف. أي مثل البهار في رؤية الأبصار والعنم. وفارق الناس فعل ومفعول. وداء القحط فاعل. وانبعثت معطوف على فارق. وإلى المكارم متعلق بانبعثت. ونفس النكس فاعل. والبرم معطوف عليه. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

95 إِذَا تَتَبَّعْتَ آيَاتِ النَّبِيِّ فَقَدْ أَلْحُقْتَ مُنْفَخِمًا مِنْهَا بِمُنْفَخِمِ

اللغة: تتبع الشيء حصره واستقصاؤه. وآيات النبي صلى الله عليه وسلم معجزاته الدالة على صدقه. وألحقت الشيء بالشيء: أوصلته به. والمنفخم: العظيم. قال في القاموس: فخم ككرم والفخم العظيم القدر. ومن المنطق الجزل. والتفخيم: التعظيم. ومن ترك الإمالة والفخيمة كجهينة التعظم والاستعلاء. والفيخمان كزعفران: المعظم يصدر عن رأيه ولا يقطع أمر دونه. انتهى.

الشرح: يقول رحمه الله: إذا تتبعت معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وخوارق العادات التي ظهرت على يديه وجدتها كلها عظاما مفخَّمة. بعضها في العالم العلوي كانشقاق القمر والمعراج ونزول الأمطار. وبعضها في العالم السفلي لتكليم الضب والظبي والجمل من الحيوانات وتسليم الحجر والشجر ونبع الماء وحنين الجذع من الجمادات وهي كثيرة جدا. وفي هذا المعنى قال في الهمزية:

إن من معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده الإحصاء
كيف يستوعب الكلام سجاياك وهل تنزح البحار الركاء
ليس من غاية لوصفك أبقيها وللقول غاية وانتهاء
إنما فضلك الزمان وآياته فيما نعده الآناء

فإذا تتبعت آياته صلى الله عليه وسلم وألحقت بعضها ببعض فقد ألحقت منفخما منها بمنفخم. كما قال تعالى في معجزات سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف: 48]. والله تعالى أعلم.

الإعراب: إذا ظرف زمان مستقبل خافضة لشرطها منصوبة بجوابها. وتتبعت جملة الشرط مخفوضة. وآيات النبي مفعول والجواب محذوف. أي وجدتها كلها عظاما. فقد ألحقت الخ. فقوله فقد ألحقت هو دليل الجواب ويصح أن يكون جوابا. ومنفخما مفعول به. ومنها نعت لمنفخم. وبمنفخم متعلق بألحقت. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

96 قُلْ لِلْمُحَاوِلِ شَأْوِي فِي مَدَائِحِهِ ... هِيَ الْمَوَاهِبُ لَمْ أَشْدُدْ لَهَا زِيَمِ

97 وَلاَ تَقُلْ لِي بِمَاذَا نِلْت جَيِّدَهَا ... فَمَا يُقَالُ بِفَضْلِ اللهِ ذَا بِكُمِ

98 لَوْلاَ العِنَايَةُ كَانَ الأَمْرُ فِيهِ عَلَى ... حَدِّ السَّوَاءِ فَذُوا نُطْقٍ كذِي بُكْمِ

اللغة: حاول الشيء أراده. والشأْوُ: السبق. والمدائح جمع مديح. والمواهب العطايا. والمنن والزيم لم يذكر له في القاموس معنى يناسب هنا. فإنه قال زام كمنع زاما وزؤوما: مات وحيي وأكل شديدا والرجل ذعره كزامه. وفي كلمة طرحها لا يدري أحق هي أم باطل. وكفرح وعنا فهو زيم اشتد ذعره كازدام. وإلزامة الصوت الشديد. والحاجة وشدة الأكل والشرب والريح. ومن الطعام ما يكفي. والكلمة: وموت زوام كغراب كريه أو مجهز. وأزامه على الأمر والجرح غمزه حتى لزق جلدته ويبس الدم عليه. انتهى. ولعل هذا يقرب أي لم أشدد لها جلدي بحزام أو نحوه. بمعنى لم أستعد لها. والجيد من الشيء أكمله وأحسنه. والعناية: الاهتمام والقصد. يقال عناه يعنيه ويعنوه عناية أهمه. واعتنى به اهتم. وحد الشيء منتهاه. والسواء: العدل والوسط كذا في القاموس. فمعناهما على حد السواء أي تعادلان في متنهاهما. والنطق والبكم متضادان وهما معلومان.

الشرح: يقول رحمه الله: قل أيها السامع لمن يقصد سبقي ومغالبتي في مدائحه صلى الله عليه وسلم: لا مطمع لك في ذلك فإن ذلك، ليس من كسبي وتكلفي، وإنما هي مواهب لم أتكلف لها ولم أشدد لها جلدي وأفرغ لها جهدي، فلو كانت من كسب

لأمكن التكلف لاستخراج مثلها. ولا تقل لي أيها المخاطب بأي شيء نلت هذه البراعة حتى أتيت بهذه البلاغة في مدحه صلى الله عليه وسلم. فإن فضل الله لا يعلل بشيء حتى يسأل عن علته جل حكم الأزل أن ينضاف إلى الأسباب والعلل. لولا العناية الربانية، والإرادة السابقة، كان الأمر في مدحه عليه السلام على حد سواء. فالناطق به والأبكم عنه سواء. يعني أن الإقدام على مدحه عليه السلام يجوز في العقل وجوده وعدمه. لأنه ممكن كسائر الطاعات. فمن سبقت له العناية فتق على لسانه ما يليق بجانبه عليه السلام من المدح. ومن لم تسبق له بذلك عناية كان كالأبكم باعتبار ذلك. والله تعالى أعلم.

الإعراب: قل فعل أمر يتسلط على الجمل أو ما في معناها. وللمحاول متعلق به. وشأوا مفعول بالمحاول وفي مدائحه يتعلق بشأْوى وهي المواهب محكي بقل. وجملة لم أشدد حال من المواهب أو نعت على أن للجنس، أي هي المواهب غير متكلف لها. ولا تقل نهي. ولي متعلق به. وكذلك بماذا متعلق بنلت. وهي استفهامية مركبة مع ما. وغلب الاستفهام ونلت جيدها محكية بتقل. أي ولا تقل لي نلت جيدها بماذا. وقدم للصدرية. وما نافية. ويقال مبني للمجهول. ولفضل الله نائب. وذا إشارة مبتدأ. وبكم جار ومجرور خبر. وكم استفهامية يستفهم بها عن العدد. وكأنه هنا أخرجها عن معنى العدد وأراد بها مطلق الاستفهام. والله تعالى أعلم. ولولا حرف امتناع. وقد تقدم الكلام عليها عند قوله لولا الهوى. والعناية مبتدأ والخبر محذوف. أي: حاصلة. وكان ناقصة. والأمر اسمها. وفيه متعلق به. وعلى حد السواء خبرها. أي موجودا على حد السواء. وذو نطق مبتدأ. وكذي خبره أي شبيه بذي بكم. والله تعالى أعلم. وهذا آخر الأبيات التي زادها ابن الحباب.

*** ثم قال رحمه الله:**

99 دَعْنِـي وَوَصْـفِي آيَـاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُـورَ نَارِالقِـرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ

اللغة: دعني اتركني. والآيات المعجزات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. وظهرت وضحت وأنارت كظهور نار القرى وهي التي كانت الكرماء وأشراف العرب يفعلونها. كانوا يقصدون الربا والمواضع المرتفعة فيوقذون النار هناك فيهتدي الساري ليلا بها فيقصدها. والتائه الضال يأوي إليها فيقوم موقدها بحقه ويجد مناخا ورفدا وطعاما وكرامة. والعَلَمُ يطلق على الجبل وعلى اللواء وعلى الرجل

المشهور فهو مشترك. وكانت العرب يفتخرون بذلك فينحرون الجزر ويقومون بالضيف حق القيام، وبهذا كان معظم فخرهم. ولله در حاتم حامل لواء الكرم في زمانه فقد حكي أنه كان يأمر غلمانه بإيقاد النار وينشد:

أوقــد فــإن الليــل ليــل قــر والــريح يــا مــوقد ريــح هــر

إن جلبت ضيفا فأنت حر

فكان يحض غلامه ويبشره إن ناره إن جلبت ضيفا وحصل غرض سيده صار حرا. فبهذا المعنى كانوا يتمادحون ويذمون من كان على ضد هذا. ومنه قول الشاعر يهجوا قوما بالبخل واللئامة فقال:

قــوم إذا أكلــوا أخفــوا كلامهــم واســتوثقوا بــرتاج الــباب والــدار

إذا نــبح الــضيفان كلــبهم قالــوا لأمهــم بولــي علــى الــنار

والقِرَى: الطعام الذي يقدم للضيف أول نزوله ويسمى أيضا النزل.

الشرح: يقول رحمه الله: اتركني مع وصف هذه الأبيات البينات، والبراهين الساطعات، الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم، فأرسل عناني، وأطلق لساني، وأتلذذ بذكر معجزاته الواضحة، وبراهين نبوته الساطعة، التي طبقت الآفاق، واشتهرت اشتهار الشمس في الطباق، فصارت من الوضوح والظهور كنار القرى على علم به. فصدعت بالحق، ودلت على الصدق، فاهتدى بها من سبقت له السعادة، وضل عنها من وجبت له الشقاوة. نسأل الله سبحانه أن يميتنا على محبة هذا النبي الكريم، وأن يجمعنا معه في دار النعيم، آمين.

الإعراب: أعني فعل أمر لا ماضي له من لفظه على المشهور. والياء مفعول به. ووصفي مفعول معه. وآيات مفعول بوصفي. وله نعت لآيات. وجملة ظهرت صفة ثانية لها. وظهور مفعول مطلق نوعي. ونار القرى مضاف إليه ما قبله. وليلا ظرف للمصدر المشبه به. وعلى علم متعلق به أيضا. وفيه من البيان التتميم، فإنه لم يكتف بظهور نار القرى في الشهرة حتى بالغ في ظهور النار بقوله ليلا، فإن ظهور النار في الليل أشهر من ظهورها في النهار. وكونها على جبل أشهر وأشهر. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

100 فَالـدُّرُّ يَـزْدَادُ حُـسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِم وَلَـيْسَ يَـنْقُصُ قَـدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

اللغة: الدر جمع درة. ويجمع أيضا على درر وهي اللآلئ جمع لؤلؤة. وهي بيضاء ساطعة البياض. ونظم الدر: جمعه في سلك أو خيط. ونظمت الكلام: جمعته على وزن مخصوص.

الشرح: يقول رحمه الله: فمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم كلها في غاية الشرف والنفاسة كالدر والياقوت. ولا شك أن الدرر بعد أن بلغت في الحسن الغاية إذا نظمت وجمعت كانت أجمل وأشرف منها قبل النظم. وكذلك معجزات سيدنا صلى الله عليه وسلم إذا نظمت ونسقت زادت حسنا وجمالا يوقعها في القلوب موقعا عظيما، ويحلها في النفوس محلا مكينا. مع أن ذكرها غير منظومة لا ينقص من قدرها، ولا يحط من رتبتها وشرفها كالدر والياقوت. بخلاف سائر السلع، فإنها إذا جمعت وطويت وزينت زادت قيمتها. وإذا لم تنظم ولم تطو نقصت قيمتها. والله تعالى أعلم.

الإعراب: فالدر مبتدأ. وجملة يزداد خبره. وحسنا تمييز وهو مبتدأ. ومنتظم خبره. والجملة حالية من فاعل يزداد. وليس إما حرف كمال لدخولها على الفعل. وإما فعل وهو المشهور. واسمها ضمير الشأن. وجملة ينقص قدرا تفسير لضمير الشأن وخبر ليس. وقدرا تمييز. وغير منتظم حال من ضمير ينقص، وفيه المقابلة بين ثلاثة، والموازنة بين حسنا وقدرا.

* ثم قال رحمه الله:

101 فَـمَا تَطَـاوَلَ آمَـال الْـمَـدِيح إِلَى مَـا فِـيهِ مِنْ كَرَمِ الأَخْلاَقِ وَالشِّيَمِ

اللغة: التطاول: الطموح للشيء والتشوف له. والآمال جمع أمل وهو تعلق الغرض بمحبوب رجاء الوصول إليه. والمدح والمديح: الثناء على الممدوح بصفة الكمال. والشيم جمع شيمة وهي الطبيعة. والهمز لغة نادرة. والأخلاق جمع خلق.

الشرح: يقول رحمه الله إذا كان وصفه عليه السلام لا يصل إليه أحد إلى غايته ولا يقف على نهايته، ولو وصف ما عسى أن يصف. فماذا يفيده الطموح إلى أخلاقه، والتشوف إلى شيمه الجميلة. وهو لا يصل إليها بل يقصر المدح عن ذلك ولو كان ما كان. وكيف يصل الإنسان إلى وصف من قال الله تعالى فيه ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: 10]

ووصفه بوصفين من صفاته فإنه غير ممكن كما قال الشاعر:

إذا قال الله فيه جل جلاله رءوف رحيم في مساق كلامه

فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز لمختلفيه نثره ونظامه

وقد تقدم أن التطاول: الطموح للشيء والتشوف إليه. ولما كانت العادة أن من تشوف لشيء رفع رأسه وتطاول عنقه لذلك الشيء. عبر الناظم عن تشوف آمال المديح بالتطاول. وجعل للمديح أملا تطاول به وتشوف لمدح هذا النبي الشريف والثناء عليه. وجمع صفاته فأنكر عليه الناظم وسدل عليه الحجاب، وسد في وجهه الباب، وكأنه يقول: ما لك وللتطاول إلى شيء لا تقدر على إحصائه، ولا تستطيع حصر صفاته. وتقدمت أبيات الشيخ ابن جزي في هذا المعنى عند قوله: فإن فضل رسول الله. البيت.

الإعراب: فما مبتدأ. وتطاول خبره. أي أيّ شيء تطاول آمال المديح. والاستفهام للانكار. كأنه أنكر عليه تشوفه لما لا يقدر عليه. وطموحه إلى شيء لا يحصل به غرضه. والمديح مضاف إليه ما قبله. وكذلك آمال قبله. وإلى متعلق بتطاول. وما موصولة. ومن بيانية متعلقة بما تعلق به الموصول. أي أيّ شيء تطاوله إلى الذي وجد فيه من كرم الأخلاق والشيم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

102 آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَانِ مُحْدَثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ المَوْصُوفِ بِالقِدَمِ

اللغة: الآيات جمع آية وهي العلامة. والمراد بها هنا القرآن العظيم فإنه مشتمل على آيات وبراهين تدل على صدق الذي جاء بها. والرحمان: كثير التفضل والإحسان. والمحدثة نقيضة القديمة. والموصوف بالقدم هو الحق سبحانه فإنه كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان.

الشرح: لما كان قال قبل هذا: أعني ووصفي آيات له الخ. وأراد بالآيات ما ذكر قبله من معجزاته وعلاماته صلى الله عليه وسلم. أخبر هنا أن له أعظم من ذلك وهو القرآن العظيم، إذ هو كلام الله تعالى، ووصف من صفاته، أنزله عليه وبعثه به إلى الخلق. ومعجزاته لا يحصى عددها بألف ولا آلاف، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى بها. وأقصر سورة في القرآن ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ ﴾ [الكوثر: 1] فكل آية

بعدها وقدرها فهي معجزة، ثم فيها نفسها معجزات على ما بينه الأئمة. فأتى بهذه المعجزة العظيمة على جهة التجريد المعنوي مما ذكر من الآيات. وذكر بعضهم أن قوله آيات من تفسير لقوله ما فيه من كرم الأخلاق. وأنه يشير إلى قول عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويغضب لغضبه. وفيه نظر إذ القرآن العظيم ليس منحصرا في الأخلاق والآداب فقط، بل هو محتو على علم السير وأنباء الأمم والمواعظ والحكم وأخبار الدار الآخرة، وعلى أمور كثيرة منها هذا. وكأن الذي حمله على ذلك أنه رآى أن مراده بالآيات في قوله: أعني ووصفي الخ. ما ذكر قبله من معجزاته عليه السلام. ولم يذكر القرآن من جملتها، فرآه غير مرتبط بما قبله، فاحتاج إلى تكلف ما قال. والذي يظهر أن وجه المناسبة أنه لما قال أعني ووصفي آيات قدر سائلا يسأله. وإذا وصفت تلك الآيات هل تستوفي ما اشتمل عليه صلى الله عليه وسلم من كرم الأخلاق. فقال: فما تطاول آمال المديح الخ. ثم لما ذكر أنه لا يصل الإنسان إلى مدحه بحصر أوصافه، ذكر ما هو كالدليل على ذلك. وهو أنه صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن العظيم الذي لا تتناهى معجزاته، وهو من جملة آياته صلى الله عليه وسلم. فقال آيات حق أي له آيات حق، وأضافه إلى الحق مبالغة. كما يقال رجل صدق ورجل عدل لكثرة صدقه وعدالته. وقوله من الرحمان أي منزلة من عند الرحمان لأنها كلامه. وقوله محدثة باعتبار نزولها. كما قال تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2] وقوله قديمة يعني باعتبار ذاتها لأنها صفة الله سبحانه وتعالى الموصوف بالقدم. وصفة القديم قديمة. واعترض على الناظم في وصف القرآن بالحدوث وفيه إيهام. وأجيب بأنه أزال الإيهام بقوله بعد في صفاتها قديمة، وارتكب هذا لرعاية البلاغة والبديع. إذ الشيء الواحد لا يكون قديما حادثا. وأضاف الآيات إلى الرحمان إشعارا بأن هذه الآيات أنزلها رحمة للعباد، وموافقة للقرآن في قوله: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]. والله تعالى أعلم.

الإعراب: آيات مبتدأ والخبر محذوف. أي له آيات حق ومن الرحمان في موضع الصفة لآيات. ومن لابتداء الغاية. أي ناشئة صادرة من الرحمان. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا للمبتدأ. ومحدثة إما صفة للمبتدأ أو خبر ثان عنه. وقديمة كذلك. وصفة الموصوف بدل من آياته. أو خبر مبتدأ محذوف. وبالقدم يتعلق بالموصوف.

وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

103 لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا ... عَنِ المَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

اللغة: المقارنة: المصاحبة والملاصقة. من اقترن الشيء بصاحبه إذا صاحبه. والزمان تعاقب الليل والنهار. ومثله العصر. ويقال لليوم والليلة عصران. والأخبار: الإعلام. والمعاد: المرجع والمصير والوقوف للحساب بين يدي الله تعال ويكون اسم مصدر وزمان ومكان. وعاد قبيلة، وهم قوم هود عليه السلام. وإرم قيل هو أبو عاد كلها. وقيل هي القبيلة بعينها. وقيل هو أجدادها. وقال جمهور المفسرين: هي مدينة لعاد عظيمة كانت باليمن. وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية. وقال ابن المسيب: هي دمشق وهما ضعيفان.

الشرح: يقول رحمه الله: أن تلك الآيات وهي القرآن لم تقترن بزمان ولا اتصلت به. لأن الزمان حادث، والقرآن كلام الله تعالى، وكلامه: صفاته. وهو قديم وصفاته قديمة. إذ لا تحد بزمان ولا مكان. وهي مع ذلك تخبرنا عن الآتي والماضي. لأن ذلك موجود في علم الله تعالى كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا، وسنة خالية، ومثلا مضروبا، فيه نبأكم ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق طول المدد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه. وهو الفصل ليس بالهزل. من قال به صدق، ومن حكم به عدل. ومن عمل به أجر. ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم. ومن طلب الهدى من غيره أضله الله. ومن حكم بغيره قصمه الله. وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين. وعصمة لمن تمسك به. ونجاة لمن اتبعه. لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب. لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة. هو الذي لم ينته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝ ﴾[الجن: 1 - 2]. انتهى. وقد اقتضى هذا الحديث فوائد كثيرة اشتمل عليها القرآن العظيم. فمن جملتها ما ذكره الناظم: من أن فيه الخبر عن الماضي والآتي. وعبر عن الآتي بالمعاد. وعن الماضي بعاد وإرم. ولا شك أن الآيات قد أخبرت عن أحوال يوم القيامة. وما فيه من الأهوال والشدائد. ومن النعم واللذائذ. وهو

كائن لا محالة. وهذا من وجوه إعجاز القرآن. وهو إخباره بالمغيبات وما لم يقع. وقد أخبر بأمور كثيرة من المغيبات. فجاءت على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح: 27] الخ. ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: 3]. وقوله: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: 28] وأمثاله كثيرة. وكذلك أيضا من وجوه إعجازه: إخباره عن القرون الماضية، والأمم السابقة، والشرائع الدارسة. مما لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الشاذ من أحبار أهل الكتاب. فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه. ويأتي به على نصه فيعترف العالم بذلك لصحته وصدقه. وأن مثله لم ينله بتعلم. وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب. ولا اشتغل بمدارسة ومناقبة. ولم يغب عنهم ولا جهل أحد حاله منهم. وقد كان أهل الكتاب كثيرا يسألونه صلى الله عليه وسلم عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلوا عليهم. ومنه ذكر قصص الأنبياء مع قومهم وأشباه ذلك. انظر الشفا والله تعالى أعلم. وقصة عاد مذكورة في القرآن العظيم مرارا. روي أن الله سبحانه أعطاهم من القوة في الأجسام والبسط في البلاد وكثرة الأموال ما لم يعط غيرهم من الأمم. فلما طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، أرسل إليهم هودا عليه السلام فكذبوه، وتمادوا على ما هم عليه، فحبس عنهم المطر ثلاث سنين. وكانوا أهل حرث وحوائط وماشية. وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب. فلما حبس عنهم المطر وغلت الأسعار. أرشدهم هود عليه السلام إلى الاستغفار والتوبة، ووعدهم بالمطر إن فعلوا ذلك، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: 52]. وكذلك فعل نوح عليه السلام مع قومه قبله. فلم يفعلوا، فأرسل قوم هود عليه السلام ناسا إلى مكة يطلبون الغيث فاشتغلوا باللهو وشرب الخمر حتى أيقظهم أخوهم الذي نزلوا عنده. فقاموا يستغيثون فأرسل الله تعالى على بلادهم الريح، فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم فرحوا وقالوا: هذا عارض ممطرنا. وكان هذا العارض قد طلع عليهم من الجهة التي كانوا يمطرون منها. فلما رأوه من تلك الجهة استبشروا. وقال الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: 24] في قولكم إيتنا بما تعدنا إن كنت من

الصادقين. وقيل قائله لهم هود عليه السلام ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾[الأحقاف: 24 - 25] فكانت الريح تحملهم وتشدخ رؤوسهم وتهدم مساكنهم وتنسفها نسفا. وتحمل الظعائن بأحمالها. وروي أنها كانت تدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم، وتقطعهم عضوا عضوا. وكانت ترفعهم في الهواء مع ما كانوا عليه من القوة. وحكى ابن عطية: أن الريح كانت تهب على الناس فيهم العادي وغيره، فتنزع العادي من الناس وتذهب به. نعوذ بالله من سخطه وغضبه. وكان عليه السلام إذا هبت الريح يقول: «اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا» لأن الريح إذا وقعت مفردة كانت للعذاب، وإذا كانت جمعا كانت للرحمة. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لم تقترن جملة مستأنفة أو صفة لآيات أو خبر آخر. وبزمان يتعلق بتقترن. وهي تخبرنا جملة معطوفة أو حالية. ومفهوم الحال معطل. وعن المعاد متعلق بتخبرنا وعن للمجاورة. المعنوية وكذلك عن عاد وعن إرم. والمعاد هنا اسم مصدر والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

104 دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

اللغة: دامت أي ثبتت واستمرت. ولدينا أي عندنا. وفاقت علت وارتفعت. والمعجزة أمر خارق للعادة مقارن لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه. بخلاف الكرامة فإنها مقارن لدعوى الولاية. وسميت المعجزة معجزة لأن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها.

الشرح: يقول رحمه الله: إن معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع كثرتها انقرضت وذهبت بذهابهم. بخلاف معجزات القرآن وآياته الباهرة، وأنواره الساطعة، فإنها باقية ما بقي الدهر. محفوظة بحفظ الله تعالى. قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾ [الحجر: 9] وقال عليه السلام: «ما من نبي إلا وأوتي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة»، فهو محفوظ إلى يوم القيامة.حجة بالغة، وآياته باهرة، ومعارضته ممتنعة. والأعصار كلها طافحة بأرباب البلاغة والبيان، وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة

وفرسان اللسان. والملحد فيهم كثير، والمعاند حريص على معارضته. فما منهم من أوتي بشيء يؤثر في وجه معارضته. بل كانت الروعة تلحقهم بمجرد سماعه. ومن تعرض لهذا الأمر أتى بخرافة يتضاحك منها إلى يوم القيامة. فإن قلت التوراة والإنجيل باقيان إلى اليوم. فالجواب أن التوراة والإنجيل لم ينزلهما الله تعالى للإعجاز، وإنما أنزلهما لبيان الأحكام والشرائع. بخلاف القرآن فإنه أنزله الله تعالى للإعجاز بألفاظه، وللأحكام بمعانيه. فآية واحدة فيها إعجاز وأحكام وعلوم وأسرار. أذاقنا الله حلاوة معانيه وأسراره آمين. ولما تولى الله حفظه بقي محفوظا إلى يوم القيامة. بخلاف التوراة فقد وكل الله حفظها إلى أحبار اليهود قال تعالى: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة: 44].. إلى قوله.. ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: 44] فبدلوا وغيروا وحرفوا الكلم من بعد مواضعه، ولهذا المعنى أشار الناظم بقوله: دامت لدينا أي فلا تعدم ما بقيت الدنيا. ففاقت هذه المعجزة، وعلت على سائر المعجزات التي صدرت من الأنبياء عليهم السلام، لأنها انقطعت بموتهم. فانقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها فجاءت ولم تدم. والقرآن العزيز على ما كان عليه من وقت نزوله إلى وقتنا هذا. وكذا حكمه إلى يوم القيامة وبالله التوفيق.

الإعراب: دامت جملة مستأنفة لا محل لها. ولدينا ظرف متعلق بدامت وهو ظرف غير متصرف. قال ابن أبي الربيع: ولا يجوز إدخال من عليه. لا تقول جئت من لديك. أي من عندك. ولا تقول أخذت هذا من لدى زيد. كما تقول أخذته من عند زيد. وهل هي مبنية كلدى أو معربة كعند. ذكر فيها ابن أبي الربيع قولين. والفاء في فاقت للعطف والتسبب. وفاقت معطوف على دامت. ومن النبيين صفة لكل أو لمعجزة. أي صادرة من النبيين. وإذ جاءت متعلق بفاقت. ومعناها هنا التعليل لا الزمان الماضي. كقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ [الزخرف: 39]. وقد اختلف فيها في الآية. فقيل إنها حرف ومعناها السببية. وقيل على أصلها من الظرفية وقاله الفارسي. وهي بدل من اليوم. وجعل اليوم في حكم الماضي لتحققه. فكأن الزمانين واحد لاتصالهما. كما عبر عن المستقبل بالماضي فقال: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: 1]. وقال أبو علي الشلوبين: إنها ظرفية لكن العامل فيها محذوف تقديره وجب ذلك لكم إذ ظلمتم. قال: وهذا أولى من إخراج الكلمة عن أصلها. والواو في قوله ولم تدم واو

الحال من فاعل جاءت. ووقع الربط بالواو والضمير وتقديرها بالمفرد إذ جاءت غير دائمة. والله تعالى أعلم.

* ثم قال:

105 مُحْكَمَاتٌ فَمَا تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْغِينَ مِنْ حِكَمِ

اللغة: المحكم من الكتاب هو المبين الواضح المعنى. ويقابله المتشابه وهو ما استأثر الله بعلمه. وقد يطلع عليه بعض أصفيائه قال تعالى: ﴿ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ [آل عمران: 7]. ويمكن أن يكون محكمات في البيت بمعنى متقنات من الإحكام وهو الإتقان مبالغة فيه. والشبه جمع شبهة وهي الالتباس. ويبقين أي يتركن. والشقاق: الخلاف والعداوة. ولا يبغين أي لا يطلبن من بغيت الشيء طلبته. والحكم الحاكم.

الشرح: يقول رحمه الله: إن تلك الآيات وهي القرآن العظيم محكمات أي واضحات بينات لا يبقى معها شك ولا ريب ولا التباس لمعاند ولا لمخالف. لوضوح دلائلها وبراهينها كما قال تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: 9]. أو هي متقنات بديعات الألفاظ والمعاني. وبهذا فسر قوله تعالى: ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ [هود: 1] لكن قوله فما يبقين من شبه الخ. يرجح الأول أي فما يتركن شبهة لمعاند ولا معارض لوضوحها وظهور معانيها وبلاغتها التي أعجزت الفصحاء، وأفحمت البلغاء. بحيث لم تبق شبهة لمعاند، ولا شك لمرتاب، بل أذعنوا وأقروا مع شدة عداوتهم وحرصهم على تكذيبه. فعجز البشر عن معارضته، والإتيان بمثله. فمن موفق سبقت له السعادة، ومن شقي حاسد سبقت له الشقاوة: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزمر: 19]. ومن بالغ من الكفار الغاية في الفصاحة والبلاغة أقر بأن القرآن العظيم ليس من نمط البشر، ولا داخلا تحت قدرة مخلوق. فما أبقت لمعاند شبهة ولا داخله شك. ولما سمع المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل: 90] الآية قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغذق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا البشر. وسمع رجل من الكفار آخر يقرأ:

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: 80] قال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا. وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوما بالمسجد فإذا هو بقائم على رأسه يشهد شهادة الحق، فاستخبره عمر فأجابه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلا يقرأ آية قال: فتأملتها فإذا فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: 52]. وسمع الأصمعي كلام جارية فأعجبته فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت له: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: 7] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. إلى غير ذلك مما يطول ذكره. ومن أراد الشفا في هذا المعنى فعليه بالشفا. وقد نقلته بتمامه في شرح الهمزية. فإن قلت: كيف نفى عنها إبقاء الشبهة لأهل الشقاء وقد وجد كثير من أهل الضلال والزيغ متصفين بالشبهة والكبر. فالجواب أن يقال: ليس فيها ريب باعتبار ما ينبغي وما يستحق. فكأنه يقول: ما ينبغي أن يكون فيها ريب ولا تستحق ذلك باعتبار ذاتها. ومن جعل فيها الريب فبضلاله وعدم توفيقه. وأما هي في نفسها فليس فيها ريب لوضوح دلالتها وكمال إعجازها وهو معنى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ [البقرة: 2] وقوله: ولا يبغين من حكم يعني أن تلك الآيات لا تطلب حاكما يحكم بين معاندها ومخالفها، بل هي الحاكمة على غيره. قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: 114] أي فصلت وبينت أحكامه. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الطارق: 13 - 14] وبالله التوفيق.

الإعراب: محكمات خبر مبتدأ محذوف. أي هي محكمات وتقديره مفردا أولى لأن المؤنث من جموع القلة وجموع القلة، يعامل في الغالب معاملة الواحدة بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ [التوبة: 36] الآية. وأما قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: 83]

فمأول أي ترى عين كل واحد منهم تفيض. ومحكمات جمع محكمة ضعف لقصد المبالغة. وما نافية. والفاء الداخلة عليها مشعرة بالسببية. أي فلذلك لا تبقى شبهة لذي شقاق ونفاق وعداوة. ويبقين مبني لنون النسوة. ومن زائدة في المفعول وفائدة زيادتها التأكيد. ولذي شقاق متعلق بيبقين وهو رباعي ماضيه أبقى. وذي بمعنى صاحب. ولا يبقين مثل فما يبقين. إلا أن بقي ثلاثي. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

106 مَـا حُورِبَتْ قَطُّ إِلاَّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ

اللغة: المحاربة مفاعلة من الحرب وهي ضد الصلح. والحرب في الأصل المشقة والقهر والمغالبة. وسمي المحراب محرابا لمحاربة المصلي للشيطان والوساوس. والمراد بها هنا المعارضة والمخاصمة. وقط ظرف زمان الماضي. يقال ما رأيته قط. قال الجوهري: كانت قطط فسكن وأدغم. ومنهم من يضم القاف اتباعا. ومنهم من يخففها بحذف الأولى مع فتح القاف وضمها وهي قليلة. وعاد: رجع. والحرب بفتح الراء مصدر حرب بالكسر: إذا اشتد غضبه. يقال رجل حرب كفرح. وأسد حرب. والأعادي جمع كثرة لعدو. والسلم الصلح. ويقال أيضا فيه السلام. والسلم بكسر السين وإسكان اللام فيهما. وملقي السلم كناية عن الانقياد والعجز عن المعارضة. وعليه حمل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ [النساء: 94] في قراءة القصر.

الشرح: يقول رحمه الله: ما رام أحد معارضة هذه الآيات الكريمة ونازع فيها وادعى أن له قوة على الإتيان بمثلها إلا أقر بالعجز ونكص على عقبيه وصار أعدى الأعادي إليها. والقاصد لمعارضتها من غضبه منقادا إليها، مقرا بالعجز عن معارضتها، معترفا بإعجاز بلاغتها. قد زال عنه ذلك العناد، وارتفع عنه ذلك اللجاج بسبب وضوح دلالتها، إلا الحاسد فإنه وإن علم الحق لا يزول حسده وعناده كما قيل:

كـل العـداوة قـد تـرجو إزالـتها إلا عـداوة مـن عـاداك مـن حـسد

وسيأتي التنبيه عليه في كلام الناظم هذا. وعجزهم عن معارضتها دليل قاطع على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها من عند الله. فإنهم كانوا أرباب هذا الشأن، وأئمة الكلام وفرسان البلاغة في علم اللسان، خصوا بما لم يخص به أحد من

الأمم. جعل الله لهم ذلك فيهم طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة. كانوا أفصح الأمم في المقال والكلام. يأتون بالعجب العجاب، والسحر الملال الفصاحة طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم. فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسول كريم بكتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42] أحكمت آياته، وفصلت كلماته، جاءهم بلغاتهم التي بها يتحاورون. وفنهم الذي ينتحلون. فجعل يصرخ بهم كل حين وينادي بهم على رؤوس الملأ أجمعين. قل: ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ [هود: 13] ثم تنزل معهم بأن يأتوا بسورة واحدة. وذلك أن المفتري أسهل، والمختلى أقرب وأيسر. فلم يزل يقرعهم به، ويذم آلهتهم وهم عن معارضته عاجزون وعن مماثلته مفحمون، فخادعون أنفسهم بقولهم: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ ﴾[المدثر: 24 - 26]. وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: 25]. وقوله تعالى: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾ [الأنفال: 31] بمجرد الدعوى منهم. وقد قال لهم: ولن تفعلوا. وقال تعالى: ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: 88]. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم، وأتي بخرافة يتضاحك منها إلى يوم القيامة. وجلهم أقروا بالعجز وأذعنوا. ولم يخف على أهل الفصاحة والبلاغة منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم. وهكذا ورد عنهم حين اجتمعوا للمعارضة. فممّا ورد عنهم أن الوليد بن المغيرة لما سمع كلامه صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليه القرآن رق، فجاءه أبو جهل منكرا عليه فقال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا. وفي خبره الآخر حين جمع قريشا عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيا لا يكذب بعضكم بعضا. فقالوا: نقول: كاهن. فقال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه. قالوا: مجنون. قال: ما هو مجنون ولا بخنقه ولا وسوسته. قالوا: نقول شاعر. قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله وجيزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر. قال: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه باطل. وإن أقرب القول أنه ساحر، وأنه

يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته. فتفرقوا وجلسوا على الطرق محذرون الناس فأنزل الله في الوليد: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [المدثر: 11] الآيات. وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم لقد علمتم أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته، والله لقد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. وقال النضر بن الحارث مثله. وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخيه أنيسا فقال: والله ما سمعت بالشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية وإنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي زر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم. فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر كاهن ساحر. لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أقرار الشعر فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر. وأنه لصادق وإنهم لكاذبون. والأخبار في هذا النوع كثيرة فلنقتصر على ما ذكرنا. وقوله: ما حوربت هو على وجه الاستعارة. استعار الحرب أولا للعناد. واستعار آخرا السلم للانقياذ والرجوع حتى يكون مناسبا للحرب.

الإعراب: ما حوربت مبني للمجهول. والنائب ضمير الآيات. وقط ظرف زمان مبني على الضم لقلة تمكينه وعدم تصرفه، وقيل لإبهامه. وبنيت على الحركة للالتقاء الساكنين. وكانت ضمة لأنها غاية فهي ظرف مقطوعة عن الإضافة. وإلا إيجاب بعد النفي. ومن لابتداء الغاية ويصحبها هنا التعليل. وأعدى الأعادي اسمها مضاف إلى الأعادي. وملقي خبرها. فإن عاد من أخوات كان. ويمكن أن يكون عاد تامة. وأعدى فاعل. وملقي حال. والإضافة فيه غير محضة. والأول أظهر. ومن متعلقة بعاد على من أجاز التعلق بالناقص. ومن منع يعلقها بملقي. هذا على النقص، وإما على التمام فلا إشكال. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

107 رَدَّتْ بَلاَغَـتُهَا دَعْـوَى مُعَارِضِهَا   رَدَّ الغَـيُورِ يَـدَ الجَـانِي عَـنِ الحُرُمِ

اللغة: البلاغة الفصاحة يقال بلغ الرجل بلاغاً فهو بليغ. وسئل بعضهم عن البلاغة فقال: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. وقال آخر: معان كثيرة في ألفاظ قليلة. وقال ابن المعتز: بلوغ المعنى ولم يحل سفر الكلام. وفرق بعضهم بين الفصاحة والبلاغة فقال: البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ. والدعوى: ما يدعيه الإنسان من قوة

أو قدرة أو علم أو صناعة. وأراد بالمعارض الذي يتعاطى القدرة على المثال والنسج على المنوال ويروم أن يصنع مثل ما صنعت وقد لا يقدر. وعارضت كتابي بكتابك: قابلته وعرضت بفلان قلت قولا تعنيه. والمعاريض في الكلام التورية. قال عليه السلام: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» والغيور فعول من غار الرجل على أهله يغار غيرا وغيرة وغارا. يقال: رجل غيور ورجال غير، وامرأة غيرا ونساء غيار. والغيور الشرعي هو الذي يحمله دينه على الغيرة في الحق فيغير ما يرى من المناكر. وفي الحديث: «لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش». والجاني فاعل الجناية المعدي على ما لا يحل له. والحرم جمع حرمة وهي ما لا يحل انتهاكه. والحريم الذي يحرم مسه. وحريم الدار ما كان متصلا. والحرَم ذو الحرمة. ورجل حرام أي محرم. وشهر حرام أي محترم. والجمع حرم. قال تعالى: ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: 36]. والمحروم الذي يحرم الخير.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: كل من ادعى معارضة تلك الآيات ورام ذلك فإن بلاغتها وفصاحتها ترد دعواه وتبطل مسعاه. إذ هي في أعلا درجات البلاغة التي بلغت حد الإعجاز. فلا يقدر أحد أن يعارضها ولا يأتي بشيء من مثلها. ومن تعاطى ذلك من سخفاء العرب ظهرت فضيحته فانكشف عواره لجميع الخلق وسلب الله فصحاء العرب وبلغاءهم من فصاحة كلامهم. ولم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مذعنين، من بين مهتد ومفتون. ولأجل هذا لما سمع المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: 90] الآية قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر. ما يقول هذا بشر. وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: 94] فسجد وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلا يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: 80] قال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وقد تقدم. وقد اختلف العلماء في وجه عجزهم فأكثرهم يقول إنه مما جمع في قوة جزالته وفصاحة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون مقدورا للبشر. وإنه من باب الخوارق الممتنع إقدار الخلق عليها، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وتسبيح الحصا. وذهب الشيخ أبو الحسن

إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم الله هذا وأعجزهم عنه كما يكون الإنسان مثلا قادرا على الكلام أو على القيام فيقول له النبي معجزتي ألا تتكلم، فلا يتكلم. أولا تقوم فلا يقوم بعد أن كان قادرا على ذلك. وقال بهذا القول جماعة من أصحابه. وقال بعضهم: أنه من مقدورهم ولكن صرفت عنه دواعيهم. وهذا مردود بدليل أن ثم من ادعى ذلك ورامه كمسيلمة وشبهه، فلم يبق إلا القولان المتقدمان. وعلى كلا القولين فعجز العرب عنه ثابت. وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله. فلم يفعلوا أقطع وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى بالتقريع. والاحتجاج لمجيء بشر مثلهم بشيء من قدرة البشر لازم. وهو أبهر آية وأقمع دلالة. وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل وتجرعوا كاسات الصغار والذل، وكانوا بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ولا يرضونه إلا اضطرارا. انظر الشفا. ثم شبه الناظم ذلك الرد برد الرجل الذي يغار على انتهاك حرمه يد من يريد الجناية عليها. وعلى ما لا يحل انتهاكه بعنف وشدة. وعلى الرد باليد لأن الجناية إنما تكون في الغالب باليد. والمأثور عن كل من ادعى معارضة هذه الآيات أو رام شيئا من ذلك كما حكي عن غير واحد، فيحكى أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه وشرع فيه فمر بصبي يقرأ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود: 44] فرجع ومحى ما عمل. وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر. وكان أفصح أهل وقته. وكان يحيى بن حكم الغزال بتخفيف الزاي بليغ الأندلس في زمانه، يحكى أنه رام شيئا فنظر في سورة الإخلاص فحذا على مثلها ونسج بزعمه على منوالها، ومن للبشر بجلال الإلوهية وكمالها فقال فاعترته خشية ورقة حملته على التوبة والإنابة. إلى غير هذا ممن حكي عنه مثل هذا. عصمنا الله من تعاطي الفضول. وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ ﴾ [سبأ: 51] ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: 34]. ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ [هود: 44] الآية ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: 40] الآية تبين لك أن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة، وفصولا جمة. وهذا عين البلاغة التي بهرتهم عن المعارضة، وأيستهم عن رجاء المماثلة، فلا مطمع لمعاند، ولا قدرة لمعتبر، والحمد لله رب العالمين.

الإعراب: ردت فعل ماض. وتاء تأنيث مجازي. ودعوى مفعول به. ومعارضها مضاف إليه. ورد الغيور مصدر مشبه به. أي ردا مثل رد الغيور. ويد الجاني مفعول المصدر. ومن الحرم متعلق برد أيضا. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

108 لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ فِي مَدَدٍ ... وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ وَالقِيَمِ

اللغة: الموج ما ارتفع من الماء. والجمع أمواج. وقد ماج البحر موجا وموجانا ومووجا وتموجا. والمدد ما يمد به. يقال أمددت الجيش بمدد. قال أبو زيد: مددنا القوم: صرنا مددا لهم. وأمددتهم بغيرنا وأمددناهم بفاكهة. والجوهر: حجر ينتفع به. والواحدة جوهرة. وإضافته للبحر لأنه معدنه. والقيم جمع قيمة وهي الثمن.

الشرح: يقول رحمه الله: إن المعاني التي احتوت عليها آيات القرآن لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها وإن تحت كل لفظة منها معاني جمة وعلوما زواخر ملأت الدواوين. من بعض ما استفيد منها حتى قال سيدنا علي رضي الله عنه: لو شئت أن أوقر من معاني فاتحة الكتاب مائة بعير لقدرت على ذلك أو لفعلت. فينقدح لذوي البصائر وأرباب القلوب الذين خصهم الله بالعلم والفهم في كتابه من العلم والفهم ما لا يضبط بحساب ولا يحصره العد. وما غاب عنهم مما استبد الله ورسوله بعلمه أكثر وأعظم. وقد قال الحسن: أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها في أربعة منها في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ثم أودع علوم الثلاثة في الفرقان. انتهى. وقال الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقران. وقال آخر: ما قال النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ولا حكم بشيء إلا وهو أصله في القرآن قرب أو بعد. وقال آخر: ما من شيء في العالم إلا وهو فيه. فقيل له: أين ذلك الخانات؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ [النور: 29] فهي الخانة. وقال آخر: ما من شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فقهه الله تعالى. حتى أن عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة استنبط من آخر سورة المنافقين، لأنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم. وقال آخر: لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به ثم بينه النبي صلى الله عليه وسلم سوى ما استأثر به ثم ورث ذلك معظم الصحابة رضي الله عنهم مع تفاوتهم

بحسب تفاوت علومهم، كأبي بكر فإنه أعلمهم، وكعلي كرم الله وجهه، لقوله صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنه: جميع ما أبرزته لكم من التفسير فإنما هو من علي رضي الله عنه. وكابن عباس رضي الله عنه لقوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وفي رواية: «وعلمه الحكمة» ومن ثم قال: «لو ضاع لي عقال لوجدته في كتاب الله». ثم ورث عنهم التابعون معظم ذلك، ثم تقاصرت الهمم عن حمل ما حمله أولئك من علومه وفنونه فنوعوا علومه أنواعا ليضبط كل طائفة علما وفنا. ثم أفرد غالب كل علم بتآليف لا تحصى. وقال بعضهم: علومه خمسون علما وأربعمائة علم وسبعة آلف وسبعون الف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينها من اللفظ، لكن هذا لا يحصيه إلا المتكلم به. وقال آخر: اشتمل القرآن على كل شيء كما قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]. أما العلوم فلا تجد مسألة إلا وهي في القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الأنبياء والملائكة وعيون أخبار الأمم السالفة. وشأنه صلى الله عليه وسلم وغزواته وأخباره إلى مماته، ثم شأن أمته من بعده. وبدء خلق الإنسان إلى موته، وأمارات الساعة وجميع أحوال البرزخ والحشر، والجنة والنار. وفيه كيفية الاحتجاج على طريق أهل الجدل من المتكلمين. وهو مشحون بذلك من الأقيسة، والنتائج وعلم الهندسة، وغير ذلك مما يطول ذكره. ومن أفرغ قلبه في تدبره وجد ذلك، وبالله التوفيق. وتشبيه الناظم تلك المعاني بأمواج البحر حسن، فإن الموجة إذا جاءت في البحر وأبصرها الناظر، فبينما هو ينظر إليها، مصروف الخاطر إليها، إذا بأخرى قد ترادفت عليها أكثر وأعظم، وهكذا يطول التفات الناظر إليها، كذلك الآية من القرآن، لا ينقدح فيها معنى الناظر العارف، فأعاد النظر إلا انقدح له معنى آخر هو أعلى وأعظم، على قدر رتبته في العلم. وما انقدح له في جنب ما لم ينقدح كنقطة في بحر. وهذا في حق فحول العلماء الذين لهم البصر الثاقب، والتصرف في العلوم والغوص على المعاني الدقيقة، والفهوم الغامضة. وربما يأتي من هو أعلم منهم فيربي عليهم وينقدح له معان غابت عنهم من الدور النفيسة، والغرائب العجيبة. إذ فوق كل ذي علم عليم. فشبه المعاني المستمدة من الآيات بموج البحر في الكثرة وعدم

الانتهاء. فكما أن أمواج البحر مترادفة متتابعة لا غاية لها ولا نهاية، كذلك المعاني التي احتوت عليها آيات القرآن لا حد لها ولا نهاية، ولو بلغ المتبحر في العلم ما عسى أن يبلغ، فإنه لا مطمع له في حصرها إذ لا ينتهي إلى رتبة في الفهم واستنباط المعاني إلا وفوقها أعظم منها. وما يغيب عن الأبصار وفحول العلماء الذين حازوا فضل السبق في كل فن أعظم وأكثر. والله يؤتي فضله من يشاء. فإن قلت كيف شبه معاني الآيات التي لا تفنى، بأمواج البحر وهي فانية. فالجواب من وجهين، أحدهما: أن التشبيه في مطلق الكثرة، وإن كان المشبه به يعنى فهو على حد قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107] فالخلود دائم، والسماوات والأرض فانية. لكن يقال منصرف القصد لا طول، وأكثر دواما يوجد في الدنيا. وقد شاهدنا الأمم الماضية، والقرون الخالية، تموت وتفنى قرنا بعد قرن، والسماوات والأرض دائمة على ما كانت عليه منذ خلقت. فلطول دوامها، جعل الخلود مدة دوامها. الوجه الثاني: أن المراد من المعاني ما علمت الخلق من جهابذة العلماء، وفحول الأمة، ووصلت إليه وفهمته من معانيه هو المشبه بموج البحر في المدد. وقول الناظم وفق جوهره في الحسن والقيم، يعني أن المعاني المستنبطة من القرآن فوق الجوهر المستخرج من البحر في حسنه وقيمه. أما حسن الجوهر فمشاهد محسوس. وأما حسن معاني القرآن فإنها تروق سامعها ومستنبطها، ويجد في نفسه سرورا بها وفرحا بفهمها. ولا قيمة للجوهر عنده بالنسبة لهذه. وقد كان بعض العلماء يقوم ويشطح طربا عند فهمه مسألة عويصة أو دقيقة من القرآن العظيم. وفي ذلك يقول الزمخشري:

وتمايلي طربا لحل عويصة ألذ عندي من مدامة خمر

فإن المسألة من العلم يفهمها الطالب ويحصلها، ويشرح صدره بها، لو بذل له فيها الأثمان العالية، والأموال الطائلة، وكانت مما يمكن تسليمها، ويكون خروجه منها في ملكه وتحت قدرته، ما سمحت نفسه بذلك، ولا ساومها بالدنيا وما فيها. إذ قيمة ما عنده أعظم، وقدره أشرف. أذاقنا الله من ذلك الحظ الوافر بمنه وكرمه.

الإعراب: لها معان مبتدأ مؤخر. وخبر مقدم وهو المسوغ للابتداء بالنكرة. ومعان كجوار في منعه وتنوينه. وكموج في موضع الصفة لمعان وهي مسوغ ثان. واختلف في تعلق كاف التشبيه هل بالاستقرار كسائر حروف الجر، أو يتعلق بشبيه، لأنه

الذي يدل عليه فيه قولان، وفي مدد يتعلق بموج لنيابته مناب ما يتعلق به. وفوق معطوف على كموج. فهو مثله، إما أن يتعلق بصفة أيضا، لمعان أي كائنة فوق جوهره. وفي الحسن يتعلق بفوق لنيابته منه بكائن أو مستقر. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* ثم قال رحمه الله:

109 فَمَا تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلاَ تُسَامُ عَلَى الإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

اللغة: فما تعد أي لا تنضبط ولا تنحصر بحساب. والعجائب جمع عجيب وهو الأمر يتعجب منه. وتسام هنا ضمن معنى تعاب إذ لا تعاب ولا تشان. وإنما قلنا ضمن معنى تعاب لأن سام بمعنى كلف يتعدى بنفسه قال تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: 49] والمصنف عداها بحرف الجر. والسأم الملل والقنط. قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾ [فصلت: 49] أي لا يمل. قال الشاعر:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وقول هذا الناس كيف لبيد

الشرح: هذا البيت من تتمة ما قبله فإن معاني أي القرآن وما احتوت عليه من العجائب والدرر النفائس إذا كانت لا غاية لها وأنها مثل موج البحر في المدد. فكيف تعد عجائبها أو تحصى كما جاء الحديث: «لا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه». وقد تقدم هذا الحديث فصدر هذا البيت لما قبله. وأما العجز ففيه معنى زائد على ما قبله فإنه أخبر فيه أن هذه الآيات على كثرة تردادها لا تمل ولا تسأم، بل تردادها يوجب لها تشويقا ومحبة. وغيرها من الكلام المنظوم الرائق ولو بلغ في الفصاحة والبلاغة ما عسى أن يبلغ مع الألحان العجيبة، والطريق المستحسنة، التي تأخذ بمجامع القلوب، ويؤثر سماعها في النفوس، وتصغى لسماعها الآذان. لكنه يمل مع الترديد، ويستثقل إذا عيد. فلا يكاد يعاد مرتين أو ثلاثا، إلا وقد مجته الطباع، وملته النفوس، وأنفت من سماعه، واستثقلت إعادته. وآيات الكتاب العزيز لا تخلق على كثرة الرد، ولا يستثقل خبرها المعاد. بل تردادها يزيدها حسنا وجمالا. كما قال في حرز الأماني:

وخير جليس لا يمل حديثه وترداده يزداد فيه تجملا

وهذا من جملة إعجازه، أعني كون قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه. بل الكثرة من تلاوته تزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضا طريا.

الإعراب: فما تعد مبني للمجهول. ولا تحصى معطوف عليه. وعجائبها نائب أحد الفعلين. ويضمر في الآخر ضميرها. ولا تسأم معطوف على الفعل المبني قبله. وفيه ضمير نائب يرجع للآيات. وعلى الإكثار يتعلق بتسأم وكذلك بالسأم.

*** ثم قال رحمه الله:**

110 قَـرَّتْ بِهَـا عَـيْنُ قَارِيهَـا فَقُلْتُ لَهُ لَقَـدْ ظَفِـرْتَ بِحَـبْلِ اللهِ فَاعْتَصِـمِ

اللغة: قال ابن سيدة في المحكم: قرت عينه تقر هذه أعلى يعني بكسر الماضي وفتح المضارع. واختلف في اشتقاقه فقال بعضهم: معناه بردت وانقطع بكاؤها. وقيل من القرار أي رأت ما كانت متشوفة إليه فقرت ونامت. وقال ابن طريف: قرت العين تقر قرة بردت سرورا كما سخنت بالحزن. انتهى. يعني أن دموع الفرح بارد، ودموع الحزن سخن. وقد تقدم الكلام عليه في أول القصيدة. والقاري: التالي. والظفر: اللحوق. والوصول إلى الشيء. يقال: ظفر بعدوه وظفره مثل لحق به ولحقه. فهو ظفر. والحبل في اللغة السبب وتستعيره العرب في العهد والوصلة والمودة. وتستعير انقطاعه في عكس ذلك. ووجه استعارته لهذه، اجتماعه معها في التوصل إلى المراد. وهذا وجه استعارته للقران وهو الذي أراد الناظم ألا ترى أنه وصلة إلى معرفة توحيد الله تعالى وشرائعه. وغير ذلك من علومه التي لا تحصى. ووصلة إلى رضاه وثوابه والنجاة من سخطه وعتابه. واعتصم استمسك.

الشرح: يقول الناظم: قرت بتلك الآيات عين قارئها، أي فرحت وسرت بقراءتها، وذلك بسبب ما يحصل له من انشراح صدره، وتنوير قلبه بما ينقدح له بزواجره وأوامره، ونواهيه ومواعظه وقصصه، من زيادة الإيمان، وحصول الإيقان، وما يحصل له أيضا من الثواب المرتب على كل حرف من القرآن، وذلك عشر حسنات لكل حرف. قال عليه السلام: «أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». وما يحصل له أيضا من تنزل السكينة حين قراءتها، وتنوير منزله وفرح الملائكة ومؤمن الجن وعمار داره بقراءته. خرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أسيد بن حضير أنه كان يقرأ ليلة من الليالي قال: فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها. فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «تلك الملائكة كانت تستمع قراءتك ولو دمت عليها لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم». وكان قد قطع القراءة حين رآى الظلة. ولا شك أن القارئ يحصل له قرارة

العين وانشراح الصدر بالأجور والمثوبات المرتبة له على التلاوة مع استنارة منزله، وفرح الملائكة وعمار داره، مع دعائهم له، لا سيما إن رزق فيها فهما، ووفق للعمل، فحينئذ يقال: له لقد ظفرت وفزت بحبل الله، أي بالسبب الموصل إلى الملة، ونلت الوسيلة العظمى، وحصلت على موجب السعادة، والفوز بالنعيم الدائم في الآخرة. فاستمسك به والزمه، وحافظ عليه، وجاهد نفسك في تلاوته والإصغاء إليه والعمل بما فيه. فإن كتاب الله العزيز هو النور المبين، والحبل المتين، والصراط المستقيم. نور القلب وراحة النفس وشرح الصدر ومفتاح السعادة لمن تمسك به. اللهم اشرح به صدورنا، واجعله ربيع قلوبنا، ونور بصائرنا، وذهاب همنا وغمنا بمنك يا أرحم الراحمين.

الإعراب: قرت فعل ماض. وتاء التأنيث. وبها متعلق به. وعين فاعل. وقاريها مضاف. وسهل المهمزة ياء. فقلت: معطوف على قرت. والفاء للترتيب والتعقيب. ولقد ظفرت اللام جواب القسم. أي والله لقد ظفرت والتاء فاعل للمخاطب. وبحبل الله متعلق بظفرت. واعتصم فعل أمر كسرت الميم للوزن.

* **ثم قال رحمه الله:**

111 إِنْ تَـتْلُهَا خِـيفَةً مِـنْ حَرِّ نَارِ لَظَى أَطْفَـأْتَ نَارَ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

اللغة: التلاوة: القراءة. وإنما سميت تلاوة، لأنها يتلوا بعضها بعضا. والخيفة الخوف. ولظا اسم من أسماء جهنم أعاذنا الله منها. ولها أسام كالجحيم والنار وجهنم والسعير والهاوية وغير ذلك. وأطفأت حرها أذهبت وقودها. وإطفاء النار تسكينها وخمودها. وإطفاء الشر تسكينه وإزالته. والورد الماء المورود. والشبم بفتح الشين وكسر الباء الموحدة البارد.

الشرح: يقول الناظم رحمهُ الله مخاطبا لكل من يصح خطابه: إن تتل أيها القارئ هذه الآيات بنية صادقة، وقصد صحيح، وتوسلت بتلاوتها، ولجأت إليها خوفا من نار لظى فإنك تطفئ حرها من ورد مائها البارد. وهذا على جهة الاستعارة، لما كانت تلاوة الآيات تنجيه من حرها وتقيه من عقابها صار كأن للآيات ماء باردا. ولما كان قد تسبب في الخلاص منها صار بمنزلة من أطفأها. وإلا فلهبها لا يطفئ، وإنما المراد خلاص التالي منها، وعدم تعذيبه بها. فصارت بالنسبة إليه كالمطيات لما لم يتضرر بها. وينبغي لهذا التالي أن يرتل قراءته بحيث يتمكن من فهم الآيات، وتدبر المعاني فعلى قدر التأني. والسكون والتدبر في التلاوة تنقدح المعاني. ولهذا أمر الله

سبحانه نبيه بترتيل القراءة فقال: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: 4] أي اقرأه بترتيل وتأدب وتدبر، فإن ذلك أدعى للحضور، حتى يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني. أما المسرع الذي يهذي القرآن هذّا، ولا يعطي الحروف حقها من الأداء فإنه لا يتأتى له التفكر والتدبر. وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: لا خير في قراءة لا تدبر فيها، ولا خير في عبادة لا فقه فيها. ولهذا كان الكثير من السلف إذا مر بآية رحمة أو عذاب كررها وأعادها. روي أن الحسن البصري قام ليلة كاملة بسورة عم يكررها ويبكي. قال الأليوري حدثنا شيخنا الأستاذ أبو سهل رضي الله عنه ورحمه قال: عرض في المجالس الجمهورية النظر في الذكر والتلاوة أيها أنفع وأعظم تأثيرا في القلب فإن شيوخ المتصوفة يرشدون إلى الذكر ويرجحونه على التلاوة لترداد الأذكار، ويرون ذلك أشد تأثيرا في القلب بسبب التكرار. قال الشيخ: تفكرت حظا من الليل أنظر في الأنفع منهما ثم نمت ولم ينقدح لي شيء أعتمد عليه، فرأيت فيما يرى النائم قائلا يقول قم وأنشد قلت وما أنشد قال:

إذا الأحباب فاتهم التلاقي ... فما صلة أفضل من كتاب

فلما استيقظت قلت هذا إعلام من الله أعلمني أن تلاوة كتابه أفضل ما يتقرب به إليه وأنفع من الذكر. فأصبح وذكر ذلك في مجلسه الجمهوري للعامة انتهى.

الإعراب: إن تتلها مجزوم بحذف الواو. والهاء مفعول به. وخيفة مفعول من أجله. ومن حر نار لظى متعلق بخيفة. وأطفأت جواب الشرط وهو في الشذوذ. كقول الشاعر من يكذني بسوء كنت منه الخ. ونار لظى مفعول به. ومن وردها متعلق بأطفأت. ومن لابتداء الغاية. ومن وردها والشبم نعت لوردها. والصفة هنا أحط من الموصوف لأن المضاف للضمير في رتبة العلم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

112 كَأَنَّهَا الحَوْضُ تَبْيَضُّ الوُجُوهُ بِهِ ... مِنَ العُصَاةِ وَقَدْ جَاءُوهُ كَالحُمَمِ

اللغة: الحوض: مجتمع الماء. وجمعه حياض بقلب الواو ياء لانكسار ما قبلها. وحوض الماء جمعه. وتحوّضه: صنع له حوضا. والوجوه جمع وجه وهو معلوم. ووجوه الناس أشرافهم. والعصاة جمع عاص. والحمم جمع حممة وهي الفحمة.

الشرح: جعل الناظم آية القرآن التي يتلوها القارئ في كونها تشرح الصدور وتنور القلوب وتبيضه بعد سواده بمثابة الحوض الذي يبيض العصاة الذين نفذ فيهم الوعيد وخرجوا من النار بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي الشفاعة فيمن نفذ فيهم الوعيد من عصاة أمته فيخرجون سودا كالفحم. وهو يشير إلى ما جاء في الحديث خرجه البخاري وغيره. ففي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تبارك وتعالى أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون وقد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل. ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية». انتهى. إلا أن هذا الحديث كما ترى إنما ورد فيه أنهم يلقون في نهر الحياة. فإن أراد الناظم بالحوض مطلق مجتمع الماء حتى يصدق بهذا النهر فمسلم. وإن أراد بالحوض حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحتاج إلى توقيف ونقل يساعده. والله تعالى أعلم. وكون القلوب تسود بالمعاصي، وتبيض بالتلاوة والطاعة، وارد في الحديث أخرجه الترمذي وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أذنب العبد ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن ندم واستغفر انصقل قلبه منها، وإن زادت زاد حتى يعلوا قلبه فذاك الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: 14] والإيمان بالحوض واجب. وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «حوضي ما بين عدن وعمان أبرد من الثلج وأحلى من العسل، من كذب به اليوم لا يشرب منه يومئذ» وسئل الباجي هل قبل الصراط أو بعده فقال: لا أدري. وقال أبوحامد: الحوض بعد الصراط ومن صفته أنه أبرد من الثلج وأحلى من العسل. أنه قيل مسافة مسيرة شهر، وكيسانه على عدد النجوم، من شرب منه لم يظمأ أبدا. انتهى. قلت ما قاله أبو حامد من كونه بعد الصراط خلاف قول الجمهور. والله تعالى أعلم.

الإعراب: تبيض الوجوه جملة حالية من الحوض. أي مبيضة الوجوه به وهو وجه الشبيه. وهي حال مقدرة والعامل فيها ما في كان من معنى التشبيه. ويجوز أن تكون استئنافا بيانيا على تقدير سؤال عن وجه الشبه كأن قائلا قال: ما وجه الشبه بالحوض فقال: تبيض الوجوه به وهذا أحسن. وبه متعلق بتبيض. والباء سببية. ومن العصاة يتعلق بحال محذوفة من الوجوه. ومن للتبعيض. أي كائنات من العصاة.

ويحتمل أن يكون المراد بالوجوه الأشخاص مجازا، من إطلاق اسم البعض على الكل لما كان الوجه أشرف الأعضاء. والإنسان عبر به عن الإنسان وتكون من على هذا البيان وهو الظاهر. لأن الذي في الحديث المتقدم هو بياض لون الإنسان كله لا وجهه فقط ولا يبعد الآخر. لأنه قد جاء يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأسنده إلى الوجه. وجملة قد جاءوه كالحمم حالية من العصاة. وحصل الربط بالواو وبالضمير وتقديرها بالمفرد جائية كالحمم. وكالحمم يتعلق بحال محذوفة من فاعل جاء. أي مشبهين بالحمم أو كائنين كالحمم على الخلاف المتقدم في متعلق كاف التشبيه. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

113 وَكَالصِّرَاطِ وَكَالمِيزَانِ مَعْدِلَةً فَالقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

اللغة: الصراط والسراط والزراط الطريق. وأراد به الناظم هنا الجسر المنصوب على جهنم. أعاذنا الله منها. والميزان معروف وأراد به ميزان الأعمال يوم القيامة. والقسط: العدل. يقال أقسط إذا عدل. وقسط جار. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن: 15] ولم يقم: لم يعتدل ولم يستو. من قام الشيء إذا اعتدل واستوى.

الشرح: يقول رحمه الله: إن آيات القرآن كما أنها شبيهة بالحوض في تبييض القلوب وتنويرها، كذلك هي شبيهة بالصراط والميزان في إقامة العدل. فما قام العدل إلا بهذه الآيات. ولا عرفت الأوامر والنواهي والتكاليف الموظفة على العباد إلا منها، فمنها عرف الجائز والممتنع. ومنها علم الأولين والآخرين، والصحف الأول، والكتب القديمة. قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]. والصراط والميزان حسيان عند أهل السنة، والإيمان بهما واجب. أما الصراط فيبتلى به الخلق ويمتحنون بالجواز عليه. فمنهم ناج مسلم، ومنهم هالك مخردل. قال سعيد بن أبي هلال: بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر، وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع. وورد في بعض الأحاديث: أن مسيرته ثلاثة آلاف سنة. ألف سنة منه صعود وألف سنة منه هبوط وألف سنة استواء. وقيل خمس مائة صعود وخمس مائة هبوط وخمس مائة استواء. والناس متفاوتون في سرعة النجاة، فيمر أولهم كالبرق، ثم

كالريح، ثم كالطير، ثم كالفرس السريع، ثم كالرجل السريع. وهذه طبقات ورتب على قدر أعمالهم. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم سلم سلم». وقالت عائشة رضي الله عنها: أيذكر الرجل حبيبه يوم القيامة يا رسول الله؟. فقال لها: «أما في ثلاث مواطن فلا: عند الصراط وعند الميزان وعند تطاير الصحف بالشمال والأيمان». يعني أن الإنسان يكون في هذه المواطن في شغل شاغل. وقد ورد أن الله يأمر جبريل أن يقف على الصراط ولا يأذن لأحد في المرور حتى يسأله عن ثلاث عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكسبه وفيما أنفقه. وجعلها أيضا تشبه ميزان الأعمال يوم القيامة في العدل وعدم الجور والظلم. فمن وقف معها كان ماشيا على الصراط المستقيم، ومن حكم بها كان حاكما بالعدل، مقسطا عادلا. والميزان أيضا عند أهل السنة حسي، له كفتان ولسان يجعل صحائف أعمال الحسنات في كفة، وصحائف السيئات في كفة. ويحدث الله تعالى في الجهة التي يريد ثقلا أو خفة على حسب ما جاءت به الآثار. فإن قلت: كيف يتصور وزن الأعمال وهي معان؟ فالجواب من وجهين: الأول: أن يقال إنما توزن البطائق وصحف الأعمال كما تقدم. الثاني: أن أحوال الدار الآخرة خرق عوائد فلا يمتنع أن يجعل الله في كفة الحسنات نورا، وفي كفة السيئات ظلمة، فأيهما رجح علم أمره. ووجه ثالث أن يقال: أن أصل الأعمال تتشكل في ملك الدار، كما ورد في عمل الإنسان أنه يدخل عليه قبره فيقول له: من أنت؟ فيقول له: أنا عملك الحسن. وفي القبيح عكسه. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ﴾ [النجم: 40] يراه متشكلا ولعله في القبر. وروي أن داوود عليه السلام سأل من الله تعالى أن يريه الميزان فأراه إياه قد ملأ ما بين السماء والأرض، فغشي عليه ثم أفاق فقال: يا رب ومن يستطيع أن يملئ هذا؟ فقال الله تعالى: إذا رضيت عن عبدي ملأته بذرة. قلت: وحديث البطاقة يشهد لهذا. وقوله: فالقسط من غيرها في الناس لم يقم. يعني أن من طلب العدل من غير القرآن لا يقوم عدله أبدا ولا يستقيم حكمه. وقد تقدم في الحديث: «هو **الفصل** ليس بالهزل من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله». الحديث والله تعالى أعلم.

الإعراب: وكالصراط وكالميزان معطوفان على قوله كأنها الحوض أو خبر عن مبتدأ محذوف. أي هي كالصراط والميزان. ومعدلة تمييز محول عن الفاعل. أي استقر

عدلها. والقسط مبتدأ ولم يقم خبره. ومن غيرها وفي الناس يتعلقان بيقم. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

114 لاَ تَعْجَبَنْ لِحَسْودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا ... تَجَاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الحَاذِقِ الفَهِمِ

اللغة: العجب مصدر عجب يعجب إذا أظهر العجب وهو الاستغراب. ويقال: أمر عجاب وعجيب. والعجْبُ بالسكون: ما انضم إليه الورِك من أصل الذنَب. وقد ورد أن التراب يأكل من ابن آدم كل شيء إلا عجب الذنب. ومنه خُلق وفيه يركب. والحسد تمني زوال النعمة من المنعم عليه. وإن لم يكن للحاسد فيها مطمع وهو أقبح المعاصي. وراح بمعنى صار. والإنكار ضد الإقرار. والتجاهل: إظهار الجهل وليس بجاهل. كما قال ابن المعتز:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا ... تجاهلت حتى ظن أنني جاهل

والحذق والحذاقة: المهارة في الشيء. وقد حذق القرآن حذقا وحذاقا. والاسم الحذاقة. والحذاقي فصح اللسان والفهم بكسر الهاء اسم مبالغة في الفهم وهو تعقل الشيء وإدراكه. يقال فهمت الشيء عقلته وأفهمته لغيري. ورجل فهم سريع الفهم.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: لا تعجب أيها المخاطب لحاسد معاند أنكر هذه الآيات بعد ظهور إعجازها، وغطى عن محاسنها بعد إشراق أنوارها. ورماها بالسحر والكهانة تجاهلا منه وحسدا، مع ما هو عليه من كمال العقل وكمال الفهم. إذ الحسد يمنع من الإنصاف كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: 33]. وقال تعالى في حق اليهود: ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]. فقد علموا قطعا أنها ليست من نمط كلامهم ولا يقدر على مثلها أحد من المخلوقين. وقد صرح بهذا أكثر عظمائهم المشار إليهم بالفصاحة والبلاغة والقدرة على الكلام. ومن لم يصرح بذلك وكتمه فذلك تجاهل منه طمعا في إطفاء نور الله بأفواههم. وأبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي كلمة نبيه ولو كره المشركون. فأجهدوا أنفسهم في الإنكار وإظهار التجاهل. وقالوا: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ﴾ [الأنفال: 31]. وقالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا

ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [فصلت: 26]. الآية. ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت: 5]. فأظهروا التجاهل. وكل واحد منهم حاذق فهم يقطع بصحته ويفهم معناه ويعلم أنه ليس من نمط كلام البشر. ولكن يتجاهل. ولا حامل له إلا الحسد. وقد صرح بذلك أبو جهل حيث قال: تعاطينا نحن وبنو عبد مناف من الشرف، نحروا فنحرنا، وأطعموا فأطعمنا، وأعتقوا فأعتقنا، حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى يدرك هذا؟ والله لا نؤمن به أبدا. انتهى. وقوله: وهو عين الحاذق الفهم من إضافة المؤكد إلى المؤكد.

الإعراب: لا تعجبن مجزوم المحل بلا الناهية بني لنون النسوة. - بل لنون التوكيد - ولحسود متعلق به. وراح فعل ناقص بمعنى صار. وجملة ينكرها خبره. وقيل حال. وتجاهلا مفعول لأجله، وهو عين الحاذق. الفهم مبتدأ وخبر ومضاف إليه. والجملة في موضع الحال من فاعل ينكر. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

115 قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

اللغة: الرمد: وجع العين وانتفاخها. يقال رمدت عينه رمدا من باب فرح. وعين رمدا. والسقم: المرض. ويقال فيه أيضا سقم بضم السين مثل حزن وحزن. ويقال أيضا فيه سقام.

الشرح: أتى بهذا البيت شاهدا على ما قبله من النهي عن العجب من إنكار الحاسد لتلك الآيات تجاهلا مع كونه عين الحاذق الفهم. فقال ما حاصله: عدم وجود الحقائق لذي آفة ليس قادحا في ثبوتها. فلا يلزم من عدم وجدان الشخص الذي معه آفة حقيقة الشيء التي يجدها. السالم منها أنها ليست موجودة في نفس ذلك الشيء. ألا ترى أن الشمس في غاية الوضوح والظهور. وفيها للخلق منافع كثيرة. ومع ذلك قد تنكر ضوءها العين التي بها رمد. بسبب رمدها وعدم انتفاعها بها فالعيب في العين لا في الشمس. ولا يقدح ذلك في ثبوت ضوئها، لأن ذلك لآفة. وكذلك الماء العذب قد ينكر طعمه فم السقيم ويجده مرا لأجل سقمه. فالآفة في فم السقيم لا في الماء العذب الحلو. ومثل ذلك قول الشاعر:

ومن يكن ذا فم مر مريضا يجد مرا به الماء الزلالا

وكذلك قول الشاعر:

وكم عائب ليلى ولم ير وجهها   فقال له الحرمان حسبك ما فات

فكما أن العين الرمدا قد تنكر ضوء الشمس وتتأذى بها مع وضوحها وانتفاع الناس بها. كذلك الحاسد المعاند قد ينكر هذه الآيات الكريمة، ومعانيها العجيبة، وفصاحتها الرائقة، وبلاغتها المعجزة مع غاية ظهورها، ووضوح إعجازها. ويظهر التجاهل بها وذلك لمرض قلبه وظهور حسده. فلا تستغرب ذلك ولا تعجب منه فإنه بمثابة الرمد للعين فإنه أشبه شيء به. ألا ترى رمد العين يكره ضوء الشمس ويأنف من النظر إليه. وذلك لضعف بصره وكراهيته النظر إليه. وإعراضه عنه لا يقدح في ضوء الشمس، ولا يغض منها ولا يحط من قدرها. فالمرض في العين بمثابة المرض في قلب الحاسد المعاند. والآيات في حسنها ونورها وانشراح الصدر بها، لا يغض مرض الحاسد وإنكاره منها، ولا يقدح فيها ولا يحط من قدرها. كما أن نور الشمس بالنسبة لمرض العين كذلك. ولم يكتف بمثال واحد حتى أعقبه بمثال آخر إعياء في الحمل على المنكر، وزيادة في البيان فقال: وينكر الفم الخ. فجعل السقم الموجب لكراهة طعم الماء وادعى مرارته مع كونه حلوا بمثابة مرض قلب الكافر بالنفاق والكفر الحامل على الغض والنقص من جناب الآيات الكريمة، والقدح فيها مع حسنها وعذوبة ألفاظها وانشراح الصدر بها. فكما أن الماء العذب لا يحيله عن وصفه إلا سقيم الجسم مريض الفم. كذلك حسن الآيات الكريمة لا ينكرها إلا مريض القلب بالكفر والنفاق. نسأل الله سلامة الظاهر والباطن آمين.

الإعراب: قد حرف تقريب. وتنكر فعل مضارع من الرباعي. والعين فاعل. وضوء الشمس مفعول. ومن رمد يتعلق بتنكر. ومن لابتداء الغاية وصحبها التعليل. والجملة استئنافية بيانية. كأن قائلا قال له: لم نهيت عن التعجب من مثل هذا؟ فقال: قد تنكر الخ. وإعراب العجز كإعراب الصدر. وفيه من البيان المقابلة. قابل خمسة بخمسة، تنكر بمثله والعين بالفم وضوء بطعم والشمس بالماء ومن رمد بسقم. وهو بيت حسن. وفيه إقامة المثال مقام الشاهد. وهو من صميم البيان. وفيه الاستناف في قوله قد تنكر. وفيه الإسناد المجازي. والله تعالى أعلم. وبه أنهي **الفصل السادس**، فإلى **الفصل السابع**.

الفصل السابع
في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم

* ثم بدأ الإسراء والمعراج بقوله:

116 يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ العَافُونَ سَاحَتَهُ   سَعْيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

اللغة: يمم ييمم تيمما: قصد. ويممت زيدا قصدته. ومنه التيمم. والعافون الطالبون المعروف. وهو جمع عاف ويكسر على عُفات. والاستعفاء: طلب العفو. وعفت الدار درست. والريح تعفوا الدار والعافية والمعافاة مصدران لعافى. والعافي: الطلل الدارس. والساحة: الفضاء الذي بين الدور. والجمع سوح. والسعي يطلق على المشي المعتاد وعلى الجري وعلى كل عمل. ومنه ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [الإسراء: 19] ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم: 40] أي عمله. والسعاية النميمة. والمتون جمع متن وهو الظهر. ومتنت الرجل ضربت ظهره. ومتن كل شيء: ما ظهر منه. والمتين: القوي. ومنه «إن هذا الدين متين» أي قوي شديد. والأينق جمع ناقة. والرسم جمع رسوم وهي الناقة الشديدة التي تؤثر في الأرض لشدة وطئها. فالرسم في اللغة: بقية آثار الشيء. ورسم الدار: بقية آثارها.

الشرح: مهد للشرح بقوله: لما فرغ من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض معجزاته انتقل إلى فدائه والتوسل به على جهة الالتفات. وعقب النداء بأوصاف تحمل الكريم على الإجابة فقال: يا خير من قصد الطالبون ساحته ومنزله مشاة على أرجلهم، وركبانا على النوق الرسم أي الشداد. وقدم الماشي على الراكب جريا على محاذات الآية الكريمة: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [الحج: 27] واعتناء بالماشي لأنه أكثر أجرا من الراكب. وكان منهم من إذا أشرف على البيت أو على الروضة الشريفة نزل ومشى على رجله تعظيما لذلك المقام الشريف، والمحل الرفيع. ولما ورد أبو الفضل الجوهري على المدينة وقرب من بيوتها ترجل عن دابته وأخذ في البكاء وجعل ينشد:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا   فؤادا لعرفان الرسوم ولا لبا

نـزلنا علـى الأكـوار نمـشي كـرامة ... لمـن بـان لـنا أن نلـم بـه ركـبا

ولقد أشرف بعضهم على المدينة فأنشأ متمثلا:

رفـع الحجـاب لـنا فـلاح لـنـا ... ضـرب قمـر تقطـع دونـه الأوهـام
وإذا المطـى بلغـت بـنا محمـدا ... فظهـور هـي علـى الـرجال حـرام
قـربت بـنا مـن خيـر مـن وطـئ الثرى ... فلهـا علينـا حـرمة وذمـام

ولقد أبلغ الناظم رحمه الله في هذا المعنى وأجاد حيث قال في همزيته:

فتـرى الـركب طائـرين مـن الـشوق ... إلـى طيـبة لهـم ضوضـاء
فكـأن الـزوار مـا مـست البأسـاء ... منهم خلقـا ولا الـضـراء
كـل نفـس منها ابـتهال وسـؤل ... ودعـاء ورغـبة وابـتغـاء
وزفيـر تظـن منـه صـدورا ... صـادحات يعـتادهن زقـاء
وبكـاء يقـريه بالعـين مـد ... ونحـيب يحـثه اسـتعـلاء
وجـسوم كأنمـا رحـضتها ... مـن عظـيم المهابـة الرحـضاء
ووجـوه كأنمـا ألبـستها ... مـن حـياء ألـوانها الحـرباء
ودمـوع كأنمـا أرسـلتها ... مـن جفـون سـحابة وطفـاء

وفي كلامه رضي الله عنه إشارة إلى زيارة قبره صلى الله عليه وسلم. وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم من أهم القربات وأربح التجارات وأفضل الطلبات. وإذا توجه لزيارته أكثر من الصلاة والسلام عليه، وقصد الصلاة بمسجده والتبرك بروضته ومنبره وقبره، ومجلسه وملامس يديه ومواطئ قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه. ويتبرك أيضا بمن عمره من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين. والاعتبار بذلك كله. وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها. وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من زارني في المدينة محتسبا كان في جواري، وكنت له شفيعا يوم القيامة». إلى غير هذا من الأحاديث الدالة على فضل زيارته صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: يا: حرف نداء. وخير منادى مضاف. ومن: يجوز أن تكون موصولة. أي يا خير الذي قصد العافون ساحته. وأن تكون موصوفة. أي يا خير شخص أو إنسان. يمم العافون ساحته. ويمم العافون صلة أوصفة. والعافون أصله العافيون نقلت

حركة الياء إلى الفاء، فذهبت حركة الفاء الأصلية وقلبت الياء واوا ثم حذفت لساكنين. وسعيا مصدر في موضع الحال من العافين أي ساعين. وفوق: ظرف معطوف على سعيا فهو حال أيضا. أي كائنين فوق متون الأينق. والأينق جمع ناقة. وأصله أنوق. فحذفوا الواو لثقلها مضمومة في جمع وعوضوا منها الياء أولا، إذ لا يلزم في العوض أن يكون مكان المعوض منه، فوزنه على هذا أيفعل. وقيل قلبت الواو إلى أول الكلمة ثم أبدلت ياء. والرسم صفة الأينق. وفيه من البيان الطباق بين سعيا وفوق متون أي ماشين وراكبين. وفيه الاقتباس ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾ [الحج: 27] الآية. وفيه الالتفات وهو كونه انتقل من الغيبة إلى الخطاب. كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: 5] بعد قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس: 10].

*** ثم قال رحمه الله:**

117 وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

اللغة: الآية: العلامة. والمعتبر: المتفكر. وعبر الرءيا: إذا فسرها. وعبرت عن الرجل إذا تكلمت عنه. وعبرت الدنانير وزنتها. والعبير: ضرب من الطيب. والنعمة: الدعة من العيش والاتساع فيه مع العافية. والمغتنم الفائز بالشيء. وقيل طالب الغنيمة. والغنيمة الفيء.

الشرح: يقول رحمه الله متمما للاستغاثة به واصفا له بوصفين عظيمين عطفهما على ما قبله. أي يا من قصده الطالبون فسعدوا بما طلبوا. ويا من هو الآية الكبرى لمتفكر فيما خصه الله من الأفعال الحميدة، والخصال الكريمة، مع تمام الصورة وحسن البهجة وترتيب البنية. كما قال بعضهم:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان وجهه ينبئك بالخبر

وجعله صلى الله عليه وسلم آية كبرى لمن اعتبر وتدبر. لأنه صلى الله عليه وسلم أتى بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والأمور العظام، فيحق أن يقال فيه أنه آية كبرى. وذلك كانشقاق القمر وحبس الشمس، وإحياء الموتى وإبراء ذوي العاهات والمرضى. والإخبار بالقرون الماضية، والأمم السالفة. والعلْم بكُتب الأولين والآخرين وقصص الأنبياء. ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته. وكلام الشجر وشهادتها له بالنبوءة وإجابتها دعوته. وحنين الجذع وتسبيح الحصا في كفه.

وكلام الذئب والظبية وسؤالها منه الشفاعة لها عند الأعرابي. وكلام الضب وإيمانه به، وسجود البعير، وإخبار الشاة إياه أنها مسمومة. وبركة يده فيما لمسه أو باشره. وانقلاب الأعيان له كعسيب النخل الذي دفعه لعبد الله بن جحش فصار في يده سيفا، وكان ذلك يوم أحد. ووقع مثل ذلك لعكاشة فعاد في يده سيفا طوالا، فبقي عنده حتى قتل في قتال الردة. ومن ذلك إخباره عن الملائكة والجن. وإمداد الله له بالملائكة، وعصمته ممن أراده من الأعداء. وما ترادفت عليه أخبار الرهبان والكهان والأحبار من علماء أهل الكتاب. من صفته وصفة أمته واسمه وعلامته. وذكر الخاتم التي بين كتفيه. وما ظهر عند مولده من الآيات، وما حكته أمه ومن حضر مولده من العجائب. وقد تقدم الكلام على هذه الأشياء. ولولا الخوف من إطالة الكلام لأطلت أكثر من هذا، وفصلت هذه الآيات كما هي مذكورة في محالها. وقد شفا القاضي في الشفا. فلا مرية أنه صلى الله عليه وسلم آية كبرى لمن تدبر واعتبر. وأما كونه صلى الله عليه وسلم النعمة العظمى لمغتنم فلا خفاء بذلك عند أرباب البصائر وذوي العقول. فإن الله سبحانه أنعم به على الخلق وأرسله رحمة للعالمين. قال الله تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 164] الآية فكان صلى الله عليه وسلم منة مسداة ورحمة مهداة. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم. ومجد وعظم، وشرف وكرم، هو عين الرحمة. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة، والبينة القائمة. وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى. فما ترك شيئا يتقرب إلى الله تعالى إلا ودعا إليه. ولا شيئا يشغل عن الله إلا وحذر العباد منه. ولا عملا يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه. ولم يألوا نصحا في تخليص العباد من أوحال القطيعة. ومن مواطن الهلكة، إلى أن ارتحل ليل الشرك وانقضت أغياره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره. فرفع صلى الله عليه وسلم من الدين لواءه، وتمم نظامه وقرر فرائضه وأحكامه. وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام، حتى قال الراوي: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علما. فبحق قال الله سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: 256]. وقال سبحانه

وتعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: 3] انظر تمام كلامه رضي الله عنه ونفعنا به. والمراد بالمغتنم في كلام الشيخ المؤمن. إذ هو يغتنم شريعة المصطفى ويغتنم الاقتداء به. وكثرة الصلاة عليه في بقية حياته. فيفوز بالفلاح الدائم، وبالنعيم المقيم في جوار من اغتنم اتباعه وشريعته صلى الله عليه وسلم. ولما كان صلى الله عليه وسلم هو النعمة العظمى. قصد العافون ساحته ومحله فاتصل البيت بما قبله. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ومن منادى معطوف على المنادى قبله وهو مبتدأ. والآية خبره. والكبرى صفة للآية. ولمعتبر يتعلق بالآية. ولمغتنم يتعلق بالنعمة لأنها مصدر. وفيه من البيان المقابلة. قابل فيه أربعة بأربعة من هو بمن هو. والآية بالنعمة، والكبرى بالعظمى، ومعتبر بمغتنم. وفيه التعطف لذكر من في الصدر والعجز. وفيه الترصيع في آية ونعمة. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

118 سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

اللغة: السرى سير الليل. يقال سرى يسرى سُرى. ويقال أسرى إسراء. وذكر الليل مع أسرى مع كونه خاصا بالليل ليفيد تقليل المدة. والحرم حرم مكة والمدينة. ولذلك يقال الحرمان والداجي: المظلم. يقال دجى الليل دجوا: أظلم. والبدر والقمر ليلة أربعة عشر. والبدرة كيس فيه عشرة آلاف.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سريت من حرم مكة شرفها الله تعالى ليلا إلى حرم بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى. وسمي الأقصى في ذلك الوقت إذ كان أقصى بيوت الله الفاضلة. وجعله حرما من الحرمة والتعظيم. لأن بيت المقدس له من الحرمة والتعظيم ما ليس لغيره من المساجد. إذ هو أحد المساجد الثلاثة المعظمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد إيليا». ومثل سرى النبي صلى الله عليه وسلم بالليل سرى البدر في الليل المظلم. ووجه الشبه الاهتداء. لأن النبي صلى الله عليه وسلم يهتدى به. والبدر يهتدى. ألا ترى قضية الأعرابي وقد ضلت له ناقته، فتعب في طلبها حتى يئس منها، فبينما هو كذلك، إذ طلع البدر فوجدها بسببه فنظر إليه وأنشد:

ماذا أقول وقولي فيك ذو حضر وقد كفيتني التفصيل والجملا
إن قلت لا زلت مرفوعا فأنت كذا أو قلت زانك ربي فهو قد فعلا

فإن قلت: الاهتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم أعظم من الاهتداء بالبدر. فكيف شبه به؟ فالجواب: أنه شبه به من حيث إنه محسوس يدركه كل واحد. والاهتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم معنوي يعرفه الخاصة منهم. فشبه المعنوي بالمحسوس والأخفى بالأجلى. وقول الناظم: ليلا مستغنى عنه، لأن الإسراء مختص بالليل. لكن أتى به تأكيدا للاقتباس، لأنه أشار بهذا البيت إلى الآية. ولما ذكر في الآية أتى به هو كذلك. وبما أجاب به المفسرون. يجاب به عن الناظم. ومما أجيب به أنه ذكر منكرا ليفيد تقليل مدة الإسراء. وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين يوما. والتنكير قد يدل على التكثير، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: من الليل. أي بعض كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ ﴾ [الإسراء: 79] أي في بعض الليل فتهجد قاله الزمخشري رحمه الله. وقضية الإسراء معلومة من الدين لا خلاف فيها بين الأمة، مصرح بها في القرآن العظيم. وشرحتها صحاح الأخبار، وفيها عجائب وخوارق. وقد وردت فيها أخبار كثيرة منتشرة. أذكر منها شيئا على جهة الاختصار. لأن الناظم يشير إلى بعضها في الأبيات الآتية. فمن ذلك ما في مسلم عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل. يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى انتهيت بيت المقدس. فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء عليهم السلام. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين. ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن. فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قال: ومن معك؟ قال محمد. قال: قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه؟ قال: ففتح لنا. فإذا أنا بآدم صلى الله عليه وسلم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما وسلم. فرحبا بي ودعوا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم وإذا

هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة وذكر مثله فإذا أنا بإدريس عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ [مريم: 57] ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله فإذا أنا بموسى صلى الله عليه وسلم فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال: فلما غشيها من ألوان الله ما غشيها تغيرت. فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله تعالى إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى صلى الله عليه وسلم فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمك لا يطيقون ذلك، فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي؟ فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت حط عني خمسا. فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشرا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئا فإن عملها كتبت له سيئة واحدة. قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه». قال القاضي عياض رحمه الله قد جود ثابت هذا الحديث ما شاء ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا. وقد خلط فيه غيره تخليطا. قال: وقد وقعت في حديث الإسراء زيادة على ما في هذا الحديث. وذكر منها نكتا سيأتي التنبيه على بعضها إن شاء الله حيث أشار الناظم إليها. ولا خلاف أن قصة الإسراء كانت بعد الوحي. وقد قال غير واحد: أنها كانت قبل الهجرة بسنة. وقيل قبل هذا. واختلف السلف والعلماء رضوإن الله عليهم هل وقع الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم أو بِروحه على ثلاثة أقوال. الأول: أنه أسري به صلى الله عليه وسلم بالجسد في اليقظة وإليه ذهب معظم السلف والمسلمين. قال

عياض: وهو الحق وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدري والضحاك وابن مسعود وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وعد جماعة يطول ذكرهم. والقول الثاني أنه بالروح وأنه رؤيا منام مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي. وإليه ذهب معاوية وغيره. والقول الثالث: أن الإسراء كان بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح. قال عياض والحق من هذا والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار. ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة. إذ لو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: 17] ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار وقذفوا به. ولما ارتد به بعض ضعفاء من أسلم وافتتنوا به. إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، ولولا أنهم علموا أن خبره إنما كان عن جسده وفي يقظته ما وقع منهم إنكار. والله تعالى أعلم.

الإعراب: سريت فعل وفاعل. ومن حرم يتعلق بسريْت. وليلا ظرف زمان يتعلق بسريت. وإلى حرم كذلك. وكما سريت ما مصدرية والمصدر المقدر مجرور بالكاف. أي كسري البدر. والجار والمجرور في موضع الصفة لمصدر محذوف، أي سريا شبيها بسرْي البدر على من أجاز ذلك. وعلى مذهب سيبويه في مثل هذا يكون في موضع الحال من المصدر الذي يدل عليه سريت. ويجوز ان تكون ما كافة. ومن الظلم يتعلق بصفة محذوفة لداج. ومن للتبعيض والبيان. وفيه من البيان الاقتباس. وليلا تأكيد له. وفيه التشبيه. وفيه التعطف في قوله كما سرى مع قوله سريت. وفيه الترديد لتكرار حرم في الصدر مرتين. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

119 وَبِــتَّ تَرْقَــى إِلَى أَنْ نِلْــتَ مَنْزِلَةً مِــنْ قَــابِ قَوْسَــيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

اللغة: بات يفعل إذا فعله ليلا. ورقى يرقى رقيا إذا صعد. والقاب القدر. يقال بين زيد وعمرو قاب قوس. أي قدره. ويقال فيه أيضا قيب وقيد قوس. ورام الشيء يرومه إذا طلبه وطمع فيه وعالج الوصول إليه.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وبت في ليلة

الإسراء تعلوا وتترقى شيئا بعد شيء إلى أن وصلت إلى منزلة لم يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل. ولم يطلبها أحد ولا حاولها ولا طمع فيها. وإنما قال: ولم ترم أي لم تقصد لأن الشيء إذا لم يدرك قد يطمع فيه ويحاول الوصول إليه. فنفى ذلك بقوله: ولم ترم مبالغة في الرفعة والعلو لذلك المقام. وقوله: من قاب قوسين أي صعد وقرب حتى كان مقدار مسافة قربه قوسين عربيين أو أدنى من ذلك. كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ ﴾ [النجم: 8 - 9] وقد اختلف المفسرون في ظاهر هذه الآية من الدنو والقرب فأكثرهم يقول إن الدنو والتدني منقسم بين نبينا صلى الله عليه وسلم وجبريل، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من سدرة المنتهى. وقال ابن عباس: هو محمد صلى الله عليه وسلم دنا فتدلى من ربه. وقيل معنى دنا قرب. وتدلى: زاد في القرب. وقيل معناهما واحد أي قرب. وحكى مكي والماوردي عن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرب تعالى دنا من محمد فتدلى إليه أي عظمته وأمره. وحكى النقاش عن الحسن قال: دنا من عبده محمد فتدلى، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته. وقال ابن عباس هو مقدم ومؤخر. تدلى الرفرف لمحمد ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه قال: فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي. وفي الصحيح عن أنس عرج به جبريل إلى سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إليه ما شاء. وأوحى إليه خمسين صلاة. وقال جعفر بن محمد: الدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود. وقال أيضا: انقطعت الكيفية من الدنو ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب. انتهى. قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله بعدما ذكر الآثار المتقدمة: اعلم أن ما وقع في إضافة الدنو والقرب هنا من الله وإلى الله تعالى فليس بدنو مكان ولا بقرب مُدى، بل كما ذكرنا عن جعفر الصادق: ليس بدنو حد وإنما دنو النبي صلى الله عليه وسلم من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته. ومن الله تعالى مبرة وتأنيس وبسط وإكرام. ويتأول فيه ما يتأول في قوله صلى الله عليا وسلم: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا». وهو نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان. انتهى.

تتميم: اختلف السلف في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه. فأنكرته عائشة

رضي الله عنها. ومذهب ابن عباس رضي الله عنه أنه رآه بعينه. قال الماوردي: إن الله قسم الرؤيا والكلام بين محمد صلى الله عليه وسلم وموسى. فرآه محمد مرتين وكلمه موسى مرتين. قال القاضي: والحق الذي لا مرية فيه أن رؤيته جائزة في الدنيا عقلا. والدليل على جوازها سؤال موسى إياها. ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز. بل لم يسأل موسى إلا جائزا، ولكن وقوعه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، أو من علمه الله. ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: 103] إذ معناها لا تحيط به. أو أبصار الكفار. وقال مالك رضي الله عنه: لم ير في الدنيا لأنه باق وأبصار أهل الدنيا فانية. فإذا كان يوم القيامة رزقوا أبصارا باقية، فرئي الباقي بالباقي. وهذا كلام حسن وليس فيه استحالة الرؤية، وإنما لم تقع لضعف القوة، فإذا قوى الله من شاء من خلقه وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: بات هنا ناقصة ومعناها إذا كانت كذلك مصاحبة الصفة للموصوف ليلا. تقول بات زيد ساهرا إذا صحبه السهر جميع ليله. والتاء اسمها. وترقى في موضع خبرها. أي راقيا. وأن نلت مصدر مجرور بإلى. أي نيلك منزلة. ومن قاب جار ومجرور في موضع الصفة لمنزلة. ومن للبيان. وجملة لم تدرك صفة لمنزلة. وكذلك لم ترم معطوفة على جملة الصفة. أي غير مرئية ولا مرومة. وفيه من البيان الاقتباس وهو إشارة إلى الآية أو الحديث من غير تصريح بلفظهما. وفيه الإيقال في القافية. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله.**

120 وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

اللغة: قدمتك آثرتك بالتقديم عليها ورأتك لذلك أهلا. والنبي أعم من الرسول. والخدم جمع خادم كحرس وحارس. وهو من خدم الإنسان من غلام أو جارية.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد انتهت منزلتك في علو منصبك وعظم جاهك ودنوك من ربك المنزلة التي لم تحصل لغيرك من الأنبياء قبلك على شرفهم وعلو مرتبتهم. إلى أن قدمتك وآثرتك بالتقديم عليها.

ورأتك أهلا لذلك لمزيتك عليهم ومعرفتهم بما لك عند الله من الحظوة والكرامة. وأفضل القوم إمامهم فقدموه شفيعا لهم. روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: «لقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فأممتهم». وهذا أدل دليل على عظيم منصبه عندهم حيث اختاروه للامامة. وذلك لعلمهم أنه أفضل الخلق على الله. وقول الناظم: وقدمتك جميع الأنبياء من العموم الذي أريد به الخصوص، إذ لم يقدمه جميع الأنبياء. ولا كانوا حضورا بجملتهم ببيت المقدس، والذي ورد أن جبريل خرج به يرى الآيات فيما ينزل من السماء إلى الأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس. ووجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم. والظاهر أنه أمهم ببيت المقدس وأمهم في السماء. وقد ورد أن ملكا أخذ بيده فقدمه فأم أهل السماء وفيهم آدم ونوح. فالظاهر أن هذا من العام المخصوص كقوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: 25] وإنما أهلكت من أرسلت عليه. وقوله: والرسل من عطف الخاص على العام لشرف الرسل وكرامتهم. وذكر الشيء مجردا بعد ذكره مجملا يدل على شرفه من جهة ذكره مرتين. وقوله تقديم مخدوم على خدم يعني أن تقديم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شبيه بفعل الخدم مع المخدوم. وهو تقديمهم له وتعظيمهم إياه. قال بعضهم: هذه عبارة قبيحة والعذر عنه أن يقال أن التشبيه وقع في التقدم خاصة. فكما أن المخدوم متقدم على الخادم. كذلك نبينا صلى الله عليه وسلم متقدم على الأنبياء والرسل. لأن الله جعله أشرفهم وأكرمهم. لأن التشبيه وقع في الخدمة. والله تعالى أعلم.

الإعراب: وقدمتك فعل وفاعل ومفعول. وبها متعلق بقدمتك. والباء سببية. هذا إذا أعدنا الضمير على المنزلة. وإن أعدناه إلى السماء فالباء ظرفية. وتتعلق أيضا بخدم. أو بحال محذوفة. أي كائنين. أو من الكاف في قدمتك. أي كائنا فيها. والرسل معطوف على الأنبياء عطف خاص على عام. كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة: 98]. لأن الرسل أعظم من الأنبياء عليه السلام. وتقديم مفعول مطلق لقدمتك على حذف مضاف. والأصل تقديما مثل تقديم مخدوم الخ. فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعلى خدم يتعلق بتقديم. وفيه من البيان الاقتباس والتشبيه. فإنه جعله بمثابة المخدوم

بالنسبة إلى غيره. والأنبياء بمثابة الخدم له. وفيه التجريد فإنه جرد الرسل من الأنبياء وهم داخلون في الأنبياء. جردهم بالذكر لشرفهم وقد تقدم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

121 وَأَنْـتَ تَخْـرِقُ الـسَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ   فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ العَلَمِ

اللغة: اخترق افتعل من خرقت الأرض: قطعتُها. ويقال فلان يخترق الأرض يقطعها ويجوبها. والطباق جمع طبقة. والمراد بالسبع الطباق: السماوات السبع. وصفت بذلك لأن بعضها فوق بعض. والموكب: الجماعة من الناس ركبانا ومشاتا. والعلم هنا الراية. ومعنى كونه صاحب العلم أي المشهور المشار إليه المعتنى به. لأن صاحب العلم أبدا مشهور منظور إليه بالأصابع.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنت يا رسول الله في ليلة الإسراء تقطع السماوات السبع. وتسلكها سماء بعد سماء بالأنبياء عليك وعليهم السلام في جماعة كنت فيها المشار إليه والمنظور له بمنزلة صاحب العلم والمتبوع. هذا حاصل ما ذكره وفيه إشكال. لأنه يقتضي أن الأنبياء والرسل الذين كانوا في السماء كانوا يخترقون معه السبع الطباق. وهذا لم يثبت وإنما ثبت، في الحديث أن الذي كان يخترق إنما هو جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقط. والجواب: أن قوله بهم حال من فاعل يخترق، أي ملتبسا بهم ومصاحبا لكل نبي في سمائه، ومارا عليهم، لأنه لا يخلوا سماء من نبي. وإنما الإشكال إذا علق بهم بتخترق. والموكب الذي كان عليه السلام فيه صاحب العلم هم الملائكة أما الأنبياء، فلم يكونوا معه. وقيل عبر به عن جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: قوله وأنت تخترق جملة في موضع الحال من كاف قدمتك. والسبع مفعول بتخترق والطباق صفة له. وبهم يتعلق بحال محذوفة. أي ملتبسا ومارا بهم كما تقدم. وفي موكب يتعلق بحال محذوفة من فاعل تخترق. وكنت في موضع الصفة لموكب. وهي صفة سببية أي في موكب كائن أنت فيه صاحب العلم. وفيه يتعلق بكنت. أو صاحب على الخلاف في التعلق بالفعل الناقص. وفيه من البيان الاقتباس والاستعارة في قوله صاحب العلم. لأن المراد كنت بالنسبة إليهم كصاحب العلم بالنسبة إلى غيره.

* ثم قال رحمه الله:

122 حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شأْوًا لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقًى لِمُسْتَنَمِ

اللغة: لم تدع لم تترك. والشأو: الطلق والسبق. تقول: شأوت القوم شأوا: سبقتهم. وقال الشاعر:

حتى إذا ما جرى شأوى وابتل عطفه تقول هزيز الريح مرت بإثقاب

والمستبق المبادر إلى الشيء أو طالب السباق والحريص عليه. والدنو: القرب. والمرقى هنا اسم مصدر. وهو التصعد والعلو. والمستنم: طالب العلو والاستعلاء.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا: بلغت من المراتب ومن المنازل ما لم يبلغها أحد، ووصلت إلى غاية لم يصلها بشر. حتى لم تدع طلقا لسابق من القرب. بل جزت على كل أحد ولم تدع أيضا علوا ولا تصعدا لمستعل. بل ارتفعت واستعليت عليه وهو يشير إلى رفعته ليلة الإسراء وبلوغه إلى مكان لم يبلغه أحد. حتى سمع صرير الأقلام، فسبحان من خص من شاء بما شاء، ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

الإعراب: حتى هنا حرف ابتداء لأنها دخلت على الجملة الفعلية. وذهب ابن مالك إلى أنها في مثل هذا حرف جر. وإذا اسم مجرور بها. وجعل إذا من الظروف المتصرفة بدليل دخول حرف الجر عليها. والجمهور أنها لا تتصرف، وأن حتى في مثل هذا حرف ابتداء لدخولها على الجملة الشرطية. وتدع فعل لم يستعمل منه إلا المضارع والأمر خاصة. وما عداهما استغني عنه بنظيره من ترك الذي بمعناه. ولمستبق يتعلق بشأو أو صفة له. والأول أولى. ومن الدنو يتعلق بتدع. ومن للابتداء وصحبها التعليل. ولا مرقى معطوف على شأوا. وكرر لا للتأكيد. ولمستنم تتعلق بمرقى أو بصفة له. والأول أظهر. وفيه من البيان المقابلة قابل شأوا بمرقى. ومستبق بمستنم. وفيه الموازنة بين مرقى وشأوا. ومستبق ومستنم. وفيه الاستعارة في قوله شأوا لمستبق. ومرقى لمستنم. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

123 خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

اللغة: خفضت الشيء حططته ووضعته. وخفض العيش تستنه واتساعه والمقام

موضع القدمين وبالضم الإقامة بالموضع والإضافة النسبة واللصوق بالشيء يقال أضفت ظهري إلى الحائط أي ألصقته قال الشاعر:

ولمـــا دخلـــناها أضـــفنا ظهـــورنا إلـــى كـــل حـــارى جديـــد مـــشطب

وضفت فلانا نزلت به. وأضفته إذا ملت به إلى الضيافة. وضافت الشمس وتضيفت إذا مالت للغروب. والنداء الإقبال بالدعاء على من تخاطبه. وبالفتح الكرم. ويطلق على المجلس. وجمعه أندية. والعَلَمُ لفظ مشترك يطلق على اللواء. وعلى الرجل المشهور وعلى الجبل وعلى الاسم المعين وهو المراد هنا.

الشرح: يقول رحمه الله: خفضت كل مقام وكل منزلة لغيرك من الأنبياء بإضافة مقامك إلى كل مقام من مقاماتهم. فانخفضت مقامات غيرك بالنسبة إلى مقامك. هذا بالنسبة إلى الأنبياء فما بالك بالأولياء. فخفضت جميع المقامات إذ رفعك الله إلى أعلا المنازل. ورقاك إلى أشرف المراتب. حتى نوديت مصاحبا للرفعة والعلو، وملتبسا بما لم يبلغه أحد كأنك الفرد العلم. وهذه تورية حسنة. فإنه أوهم أنه أراد خفض اللفظ بالإضافة. وإنما أراد خفض المقام والمنزلة. وأوهم رفع الاسم العلم وإنما أراد رفع المسمى. وعلو منزلته عند ربه. فوقعت التورية في كلامه في موضعين. أحدهما: قوله خفضت فأراد الخفض المعنوي. وورّا بالخفض النحوي. ورشحها بقوله: بالإضافة إذ الخفض النحوي لا يكون إلا بإضافة. إما بإضافة اسم إلى اسم، وإما بإضافة فعل إلى اسم. وهذا الثاني يكون بواسطة حرف الجر. الموضع الثاني: قوله بالرفع. أراد الرفع المعنوي وهو العز والرفعة، وورّى بالرفع النحوي. وهو لقب من ألقاب الإعراب وقد وقع لأهل الأدب كثير من التورية بألقاب الإعراب مثل قول بعضهم:

ومعـــتقدا أن الرياســـة فـــي الكبـــر فأصـــبح ممقـــوتا بـــه وهـــو لا يـــدري

يجـــر ذيـــول العجـــب طالـــب رفعـــة ألا فاعْجَـبوا مـــن طالـــب الـــرفع بالجـــر

ومثل المفرد العلم النكرة المقصودة في البناء على الضم الذي عبر عنه الناظم بالرفع خرج به عن الاصطلاح لكن اضطره إلى ذلك التمكن من التورية. والله تعالى أعلم.

الإعراب: خفضت جواب إذا في البيت قبله. وبالإضافة يتعلق بخفضت. وكذلك إذ أي وقت فدائك بالرفع. ويمكن هنا إذ صحبها معنى التعليل. ومثل المفرد

حال من التاء في نوديت. وإضافة مثل لا تعرف. والعلم نعت للمفرد. وفيه من البيان التورية. وهو أن يأتي باللفظ له معنيان قريب وبعيد. فتأتي به موهما القريب وأنت تريد البعيد. كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ [الذاريات: 47] أي بقوة وفيه التشبيه. وفيه الإيقال في القافية وفيه المطابقة بين الخفض والرفع. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

124 كَـيْمَا تَفُـوزَ بِوَصْـلٍ أَيِّ مُـسْتَتِرٍ عَـنِ العُـيُونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَـتَمِ

اللغة: الفوز: النجاة والظفر بالمنية. وفاز فلان مضى في المفازة. واستوفز الرجل فهو مستو فز إذا لم يطمئن في المكان. والسر والسريرة: ما أسررت وكتمت. والمستتر: الخفي. والكتم: الإخفاء والكتمان كذلك.

الشرح: هذا البيت تعليل لما تقدم في الأبيات قبله، من قوله سريت من حرم ليلا إلى حرم. وبت ترقى وتصعد وأنت تخترق السبع الطباق، وانخفضت جميع المقامات بالنسبة إلى مقامك حتى نوديت مصاحبا للرفعة والعلو. وذلك كله لكي تفوز بوصل وقرب من ربك الذي أولاك من الكرامة ما أولاك. وآتاك من الحظوة والمكانة ما آتاك. وأظهر جاهك ومزيتك بذلك على جميع الأنبياء. وخصك بالسر المكتوم الذي لم يطلع عليه أحد من الرسل. ولا خص به أحدا من الأنبياء. ولعل هذا السر المكتوم هو المراد بقوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ [النجم: 10] فأطلعه الله على أسرار وغيوب. وشاهد ما شاهد من ملكوت السماوات والأرض ومن الملأ الأعلى. ورآى من آيات ربه الكبرى. وفي بعض الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «علمني ربي ليلة الإسراء علوما شتى، فعلم أخذ علي كتمانه، وعلم خيرني فيه، وعلم أمرني أن أبلغه». قال علي كرم الله وجهه: فكان النبي صلى الله عليه وسلم يسرّ إلى أبي بكر وعمر وعثمان وإلي ما خير فيه. ذكره جمع من الشرّاح. قال المحلي: ولم أقف على أصل له في كتب الحديث. ويصح أن يكون علة لقوله: خفضت كل مقام لتفوز وحدك بالرفعة والمقام الذي لم يبلغه أحد من الأنبياء غيرك. والوصل المستتر بلوغ مستوى بحيث سمع فيه صرير الأقلام. ونودي يا محمد ليهدأ روعك ادنه. وهو مقام شريف من الوصول والقرب لم يبلغه غيره ولا ناله أحد من الأنبياء سواه. والله ذو الفضل العظيم.

الإعراب كي: يحتمل أن تكون مصدرية والنصب بها نفسها. والمصدر مجرور بلام محذوفة. وحذفها هنا جائز كما في إن. وأن والمجرور يتعلق بنوديت. أو بفعل محذوف. أي فعل الله ذلك لأجل هذا. أو يكون خبرا لمبتدأ محذوف فيتعلق باسم فاعل. أي ذلك كيما تفوز. ويحتمل أن تكون كي الجارة. والنصب للفعل بعدها بأن مضمرة وجوبا. ويتعلق بما تقدم. وما زائدة كما تزاد لا بعدها. وأي صفة لوصل. وفيها معنى التعظيم. كما تقول: مررت برجل. أي برجل أي كامل. وأراد أي وصل مستتر. فحذف الموصوف وأقام صفة مقامه. لأن الصفة هي المقصودة. فهو من المواضع التي يجوز فيها حذف الموصوف قياسا. وعن العيون يتعلق بمستتر. وسر معطوف على وصل. وأي صفته. ومكتتم صفة لمحذوف. أي أي سر مكتتم. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الموازنة بين مكتتم ومستتر. وفيه المقابلة بين اثنين، وصل بسر، ومكتتر بمستتر. وفيه التعطف لذكره له في الصدر والعجز. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

125 فَحُـزْتَ كُـلَّ فَخَـارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ وَجُـزْتَ كُـلَّ مَقَـامٍ غَـيْرَ مُزْدَحَمِ

اللغة: الحوز ضم الشيء إلى نفس مالكه. والفخار: التمدح بالخصال الجميلة. يقال الفخار والفخار بالفتح والكسر. والفخارة والفخيرة والفخيرا. وجزت الشيء: تخطيته. وجزت كل مقام أي تخطيت المقامات وجاوزتها وعلوت عنها. غير مشترك أي لم يشارك فيها أحد ولا زاحمك ولا ضيق عليك.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا للرسول صلى الله عليه وسلم: فحين خفضت كل مقام بالنسبة إلى مقامك حزت كل ما يتمدح به من الخصال الحميدة والأفعال السنية. ولم يشاركك فيه أحد من الأنبياء والرسل والملائكة. وجزت كل منزلة رفيعة، وكل مكانة شريفة مررت بها في السماوات ليلة الإسراء غير مزدحم في ذلك، لأنك ليس لك شريك فيها. فأنت منفرد وحدك، لأنه إنما يكون الازدحام مع الاشتراك لا مع الانفراد.

الإعراب: يجوز في غير، أن تكون نعتا لكل، فيكون منصوبا. أو لفخار فيكون مخفوضا. وكذلك غير مزدحم. وفيه من البيان التجنيس المصحف في حُزْت وجئت. وفيه مقابلة شيئين بشيئين. كل فخار بكل مقام. ومشترك ومزدحم. وفيه التعطف في كل وكل، وغير وغير، في الصدر والعجز. والفاء في قوله فجزت مشعرة بالعلة. والله

تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

126 وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

اللغة: جل الشيء: عظم. والله عز وجل ذو الجلال، أي ذو العظمة. ومصدره جلالة وجلالا. والمقدار: القدر. والقدر من الرجال وغيرهم: الوسط. والقدر: آنية معروفة. والقدير من اللحم ما طبخ في القدر. والقدار: الطباخ. ووليت من الولاية. يقال ولاه تولية إذا أعطاه ولاية. والرتب جمع رتبة وهي المنزلة. وعز الشيء عزازة إذا قل. وعز إذا غلب. ومنه عزني في الخطاب. ويقال عزا إذا امتنع. والإدراك الوصول. وأوليت أعطيت. يقال: أولاه معروفا: أعطاه. والنعم جمع نعمة وهي الدعة والخفض من العيش.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد عظم مقدار ما ولاك الله تعالى من الرتب العظيمة، والمنازل الشريفة، والكرامات المنيفة. وقل أو امتنع إدراك غيرك ما أولاك الله تعالى وأعطاك من النعم الكثيرة، والخيرات الفائقة. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: 113].

الإعراب: وجل معطوف على حزت. ومقدار فاعل به. وما مضاف إليه ما قبله. يجوز أن تكون موصولة. والضمير العائد عليها محذوف لاجتماع شروطه الأربعة. ويجوز أن تكون نكرة موصوفة. والجملة في موضع الصفة. والضمير الرابط بين الصفة والموصوف محذوف. وهو جائز إذا كانت الصفة جملة بالحمل على الجملة الواقعة صلة لشبهها بها من جهة أن الصفة مع موصوفها كالشيء الواحد. كما أن الصلة مع الموصول كالكلمة الواحدة فحكمه حكمه في الإثبات والحذف. إلا أنه عند سيبويه في الصفة أقل منه في الصلة. ومن حذفه في الصفة قول الشاعر:

أبحت حما تهامة بعد نجد ... وما شيء حميت بمستباح

وأراد حميته فحذف الهاء. وقول الآخر:

وما أدري أغيرهم تناء ... وطول العهد أم مال أصابوا

فأصابوا في موضع الصفة لمال. وأراد أم مال أصابوه. ومن رتب يتعلق بجل.

ومن للبيان. وإعراب الشطر الثاني كالأول. وفيه من البيان الجناس الاشتقاقي بين وليت وأوليت. وفيه التعطف لتكراره من وما في الصدر والعجز. وفيه الموازنة بين جل وعز ومقدار وإدراك. وفيه مقابلة أربعة بأربعة، جل بعز، ومقدار بإدراك. وما وليت بما أوليت، ومن رتب بمن نعم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

127 بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلاَمِ إِنَّ لَنَا ... مِنَ العِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمِ

اللغة: البشرى مصدر بشرت بتخفيف العين. أبشره بالضم بشرى وبشورا وبشرار. ويقال أبشره وبشره بالتشديد. وبشرته بكسر الشين بشرا وبشورا وتبشر. واستبشر فرح. والاسم البشرى والبشارة. مثلث الباء في البشارة وضدها النزارة. والبشر طلاقة الوجه وظهور البشر والسرور عليه. والبشر: الإنسان. والبشارة أعلا الجلد. والمعشر: الجماعة مخلطين. كانوا أو غير ذلك. والإسلام: الانقياد. وفسره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»والعناية والاعتناء: الاهتمام. تقول العرب: عنيت بحاجتك أعني بها عناية ووعنينا فأنا به عن. وهي صيغة موضوعة لما لم يسم فاعله. وحكى ابن الأعرابي بناءه للفاعل. والركن: الناحية والجهة القوية التي يستند إليها. ويقال ركن إلى الشيء إذا مال إليه بالكسر. وهو أفصح من الفتح. والأولى لغة القرآن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [هود: 113] والهدم معروف.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله بعد ذكره حاله صلى الله عليه وسلم في الإسراء، وما تضمنه من الكرامات والمناجات، والرؤية وإمامة الأنبياء، والعروج به إلى سدرة المنتهى. وما رآى من آيات ربه الكبرى على جهة المخاطبة حيث قال: يا خير من يمم العافون ساحته الخ الأبيات. فقال هنا: لنا الفرح التام والسرور الدائم يا معشر الإسلام. فإن لنا معشر المسلمين من العناية والحظوة والمكانة عند الله تعالى ركنا وثيقا لا ينهدم. وهو ما جعل الله لنا من الكرامة والعناية والرفعة والشرف بسببه صلى الله عليه وسلم ومن أجله. فكما أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء. كذلك أمته هي أفضل الأمم، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 110] وقال

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143] أي خيارا عدولا لتكونوا شهداء على الناس. ولو لم يكن من شرف هذه الأمة وتفضيلها على سائر الأمم إلا قبول شهادتها على الأمم قبلها لكان ذلك أدل دليل على مزيتها عليهم وفضلها. فإن قلت كيف تشهد على ما لم تر والأمم كلها متقدمة عليها. فالجواب: أنهم علموا وحصل لهم الجزم بما شهدوا من كتاب الله تعالى، فإنه أخبر بأحوال الرسل وما جرى لهم مع أممهم، وما أجيبت به الرسل من قبلهم. فشهدوا بما أخبرهم به الصادق المصدوق عن الله تعالى. ومن تفضيلهم أيضا ما خصهم الله تعالى به من التخفيف ووضع الأثقال التي كانت على من قبلنا. فقبل توبتنا لمجرد الندم والعزم على عدم العودة. وقد كانت توبة من قبلنا بقتل الأنفس. وكانت الأمم السالفة تؤاخذ بالخطأ والنسيان وهما مرفوعان عنا. وقد ستر الله على هذه الأمة فلم يفضحها، وأمرها بالستر على نفسها وعلى غيرها، ولعلها المخصومة بقوله تعالى: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. والله تعالى أعلم.

الإعراب: بشرى مبتدأ. ونعته محذوف. أي بشرى عظيمة. ولنا خبره. ومعشر منصوب على الاختصاص تقديره أخص معشر الإسلام. والإسلام مضاف إليه ما قبله على حذف مضاف آخر. أي أهل الإسلام. وإن بفتح الهمزة وكسرها. ولنا خبرها مقدم. ومن العناية حال من الضمير في لنا. وركنا اسم إن مؤخر. وغير نعت لركنا. ومنهدم مضاف إليه. والجملة تعليلية. فإن كسرت إن فهي تعليل مستأنف. وإن فتحت فعلى تقدير لام العلة. وفيه من البيان الاستعارة المرشحة. فإنه استعار للعناية ركنا. ورشحها بعدم الانهدام. وفيه الإيقال في قوله غير منهدم. لأن التتميم إذا وقع في القافية سمي إيقالا، وإذا وقع في غيرها سمي تتميما. فاختلف اسمه باختلاف محله. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

128 لَمَّا دَعَا اللهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ ... بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

اللغة: دعا نادى. ويكون أيضا بمعنى سمى. قال الشاعر:

دعتني أخاها أم عمرو ولم أكن ... أخاها ولم أرضع لها بلبان

أي سمتني. ومنه ما في البيت. والداعي إلى كذا من دعاه إلى الأمر سامه.

وقوله تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الأحزاب: 46] أي داعيا إلى توحيده. وما يقرب منه الدعوة إلى الطعام يتعدى بإلى وباللام. والادعاء في الحرب: الانتساب. والدعوة: ادعاء الولد. والدعي المنتسب لغير أبيه. ويجمع على أدعياء. قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [الأحزاب: 4]. والطاعة موافقة الأمر. والأمم جمع أمة وهي الجيل من كل حي. وأم الكتاب: اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: 39] وأم الكتاب أيضا فاتحة الكتاب. ومكة أم القرى. والأم: الوالدة. وجمعها أمهات. ويقال أمات، والأول أفصح. وفي أم بنات غير آدم أمهات وأمات أفصح. وأممت القوم: تقدمتهم. وأممتهم بتشديد الميم. الأولى قصدت قصدهم. والطاعة: الموافقة والامتثال، وهي ضد المعصية. والكرم: الشرف. وفي الحديث: «الكرم التقوى».

الشرح: يقول رحمه الله لما كان أخبر قبل هذا في البيت السابق، أن لنا معشر الإسلام من الاعتناء ورفعة المنزلة ركنا غير منهدم. قدّر إنسانا سأله: لم كانت لكم هذه العناية وهذه المنزلة؟ فقال مجيبا لما سمى الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء وهو الذي دعانا لطاعته بأكرم الرسل. كنا أكرم الأمم بسبب ذلك. أي لما كان النبي صلى الله عليه وسلم أكرم الرسل كانت أمته أكرم الأمم. وقد ظهرت ثمرة ذلك لدينا وآثار العناية علينا. فكانت الأمم إذا فعلت حسنة كتبت لها حسنة وأقلّ. التضعيف لهذه الأمة، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة. والسيئة واحدة بمثلها. ومن حسنات هذه الأمة ما لا ينضبط بحساب، ولا يدخل تحت تقدير، كحسنات الصيام والصبر. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10]. وقال: [الصوم لي وأنا أجزي به]. إلى غير ذلك من الخصوصيات التي تقدمت قبل هذا. ومما خصت به هذه الأمة عناية بها ليلة القدر، فإن العمل فيها يعدل ألف شهر. قيامها خير من قيام ألف شهر، لا ليلة قدر فيها. والله تعالى أعلم وأكرم.

الإعراب: لما حرف وجود لوجود. أو ظرف بمعنى حين على القول الآخر. ودعا الله فعل وفاعل. وداعينا مفعول به. وسكن الياء على لغة من يعرب المنقوص بتقدير الحركة مطلقا. وقيل قدر فيه الحركة ضرورة. وقال المحلي: هو بدل من لفظ الجلالة، وكأنه حذف المفعول. أي لما دعانا الله داعينا لطاعته. ولطاعته حينئذ متعلق

بدعا. وكذا بأكرم الرسل. وعلى أنه مفعول به يتعلق بطاعته بداعينا. وبأكرم الرسل يتعلق بدعا. ومعناه سمى. وكنا الخ جواب لما. وفيه الترديد في الصدر والعجز. ففي الصدر لما دعا وداعينا. وفي العجز بأكرم وكنا أكرم. وبه تتمة الفصل السابع، فإلى الفصل الثامن.

الفصل الثامن

جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته

* بدأه رضي الله عنه بقوله:

129 رَاعَتْ قُلُوبَ العِدَا أَنْبَاءُ بِعْثَتِهِ كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِنَ الغَنَمِ

اللغة: راعت أفزعت وخوفت. والروع الفزع: الشيء الرائع الفائق في الجمال. كأنه يروع ناظره. والروع بضم الراء الذهن والقلب. ومنه الحديث: «أن روح القدس نفث في روعي» أي ألقى في ذهني. والأنباء جمع نبأ وهو الخبر. والبعثة: إرسال الرسول، والمراد نبينا صلى الله عليه وسلم. والبعث في اللغة مطلق الإرسال. يقال بعثت البعير: حللت عقاله. والبعث: اسم لقوم يبعثون في وجه من الوجوه. ويوم البعث يوم القيامة. والنبأة الصيحة. وأجفلت النعم: نفرتهم. وجفل البعير: هرب مسرعا. وغفل جمع غافل كنازل ونزل. والتغفل: الختل والأخذ بمكر وعلى غرة. ودابة غفلى: لا سيمة لها. ورجل غفل لا حسب عنده.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: إن الكفار كانوا في غفلة من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم. غير ملفتين لها. فلما سمعوا أنباء بعثته قبل ظهوره من الأحبار والكهان وهواتف الجان راعت وأجزعت قلوبهم.وكذا من سمع بها بعد ظهوره صلى الله عليه وسلم دخله الفزع والخوف. فكان الكفار حين سمعوا أخباره صلى الله عليه وسلم بمثابة الغنم الغفل جاءتهم صيحة على غرة وغفلة فنفرتهم وبدّدت شملهم، وفرقت جمعهم، وروعت قلوبهم. ولو لم تكن غافلة عنها ما جفلت منها. كذلك الكفار لو كانوا ملتفتين إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ليؤمنوا به ما فزعوا منه. وفي حديث الصحيحين: «نصرت بالرعب مسيرة شهر». وروى الطبراني: «إني نصرت بالرعب مسيرة شهرين» والمراد به ما في شرح العمدة قال: روينا «نصرت بالرعب شهرا أمامي. وشهرا خلفي» ويقاس بذلك اليمين والشمال. فيكون المراد بالأول شهرا من أي جهة من الجهات الأربع. قاله المحلي. وما جاءت أيضا بعثته صلى الله عليه وسلم إلا جامعة للشمل، ومأمنة من الخوف، ومؤذنة بالسعادة. ولكن شاء الله عدم

توفيقهم كما سبق في علمه، فَدُعُوا فلم يجيبوا، ونصحوا فلم يقبلوا، وندبوا لاجتماع الشمل، فتفرقوا فصموا عن سماع الحق وعموا عن رؤية الآيات وأوضح المعجزات، مع الدهاء والعقل الراجح، لكن إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، سلب لذوي العقول عقولهم، حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره. ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة: 13] الآية.

الإعراب: قلوب مفعول راعت. وأنباء فاعله. وكنبأة نعت لمصدر محذوف. أي راعت قلوبهم روعا. كروع صيحة. أجفلت أي نفرت فأجفلت في موضع الصفة لنبأة. وغفلا مفعول به. ومن الغنم يتعلق بمحذوف صفة لغفل. ومن ابتدائية أو لبيان الجنس. وفيه التشبيه. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

130 مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حَتَّى حَكَوْا بِالقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِ

اللغة: المعترك: موضع القتال ومواطين الحرب، وحيث تتقارع الأبطال. مشتق من الاعتراك وهو القتال. يقال: أرسلها العراك أي معتركة. ورجل عريك أي صريع. وتقع المادة في غير القتال. يقال رجل بين العريكة إذا كان سلسا. وناقة عروك إذا لم يعرف سمنها من هزالها. ولقيته عركة بعد عركة، أي مرة بعد مرة. والقنا جمع قناة وهو الرمح. ويجمع أيضا على قنوات. ورجل قنّا أي صاحب قنا. والقنو: العذق من النخل. والجمع قنوان. والقنية: ما اتخذ لغير البيع. ويقال فيه القنوة. والقنيان أيضا. ورجل أقنى، وامرأة قنوى: إذا ارتفع أنفهما حلقة. وفعله قني كعلم. والوضم: ما يقطع عليه اللحم. وهو ما يضع الجزار عليه اللحم معد لمن يشتريه. يقال: وضمت اللحم وضما: إذا وضعته على الوضم. وأوضمت له اتخذت له وضما.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله لما راعت قلوب العدا أنباء مبعثه. وقد جاءهم بالبينات والمعجزات الواضحات الدالة على صدقه. ولم يأل جهدا لحي نصحهم وإنقاذهم من النار. فنفروا وكذبوا وصرفهم الله عن قبول الحق. لما سبق من شقاوتهم. سلطه الله عليهم فأبادهم واستأصل شأفتهم حتى علا دينه، وأعز الله الإسلام وأهله برسوله صلى الله عليه وسلم. وأذل الكفر وجنوده. فما زال صلى الله عليه وسلم يلقاهم في كل معترك للقتال حتى حكوا أي شابهوا اللحم الملقي على الوضم من تقطيع

سيوف المسلمين لحومهم. ففعلت السيوف فيهم ما فعلت آلة الجزار في اللحم على الوضم. فصارت لحومهم قطعا قطعا بمثابة المقطوع على قرضة الجزار. وقد كان عليه السلام يباشر قتال المشركين بنفسه، ويباشر الحرب والطعن بذاته. إذ كان من النجدة والشجاعة بالمكان الذي لا يجهل. وقد حضر المواقف الصعبة التي فر فيها الأبطال والكماة غير مرة. وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر. قال سيدنا علي كرم الله وجهه: كنا إذا حمي الوطيس، واشتدت الحرب واحمرت الحدق. اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. وكان الشجاع منا في الحرب الذي يكون قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو. وعن أنس رضي الله عنه، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فكفاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم إلى الصوت. وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري، والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا. وقال عمران بن حصين رضي الله عنه: ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب. ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد صلى الله عليه وسلم لا نجوت إن نجا. وقد كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدي يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أقتلك إن شاء الله». فلما رآه يوم أحد شد أبي على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هكذا، أي خلوا سبيله. وتناول الحربة من الحرث ابن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض. ثم استقبل النبي صلى الله عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تردى منها عن فرسه حتى كاد يسقط مرارا. وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه. فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد صلى الله عليه وسلم. وهم يقولون: لا بأس عليك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك. والله لو بصق علي لقتلني. فمات بسرف في قفولهم لمكة. قاله في الشفا. فإن قلت: لم لم يستن الخلفاء بسنته فيباشرون القتال بأنفسهم كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم؟ فالجواب: إن الذي درج عليه الملوك من ترك مباشرة القتال صواب. وهو من السياسة. إذ لو باشر الملك القتال لربما أصابه سهم عابر فيكون ذلك سببا لهزيمة المسلمين وفل شوكتهم. وقد كان صلى الله عليه

وسلم في أول أمره يحرس ويخاف عليه حتى نزل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: 67]. وصار موعودا بالنصر وفتح البلاد، فكان إذ ذاك يباشر القتال بنفسه ولا يبالي لأنه كان على ثقة من وعد ربه، فلا يصاب بإذاية ولا ينال بمكروه، بخلاف غيره من الملوك. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ما زال فعل ناقص منفي في اللفظ موجب في المعنى. أي ثبت واستمر. وفي زال ضمير اسمها يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم. ويلقاهم جملة فعلية خبرها. وتقديرها بالمفرد ما زال لاقيهم. وفي كل معترك متعلق بيلقى. وحتى حرف ابتداء ومعناها الغاية. وجملة حكوا ابتدائية. وبالقنا يتعلق بحال محذوفة. أي ملتبس بالقنا. والباء للمصاحبة. وعلى وضم في موضع الصفة. للحم يتعلق بمحذوف. وعلى هنا للاستعلاء الحسي. وفيه من البيان التشبيه. شبه شيئين بشيئين. شبههم ملتبسين بالقنا باللحم على الوضم.وفيه التمكن في القافية.والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

131 وَدُّوا الفِـرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ أَشْـلاَءَ شَـالَتْ مَعَ العِقْبَانِ وَالرَّخَمِ

اللغة: ودوا تمنوا. ووددت الشيء ودادة تمنيته. وفلان ودك وود يدك مثل حبك وحبيبك. وودا اسم صنم. والفرار معلوم. وكاد من أفعال المقاربة. والغبطة: التمني. وغبطه يغبطه غبطا وغبطة إذا تمنى حاله ولم يرد زواله. وهذا فرق ما بينها وبين الحسد وأنه تمني حالة المحسود مع نزعها عن المحسود، واستبداد الحاسد بها أو مطلق زوالها. فالمؤمن يغبط ولا يحسد. وقوله عليه السلام: «لا حسد إلا في اثنتين» الحديث أراد به الغبطة. وأشلاء جمع شلو وشلا. وهو قطع اللحم. وأشلاء الإنسان أعضاؤه بعد البلاء والتفرق. وشالت ارتفعت. يقال شالت الناقة بذنبها وأشالته رفعته. والعقبان والعقابين جمعا أعقب وأعقبة. وهما جمعا عقاب وهو طائر من العتاق. والرخم جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنها مبرقعة بسواد وبياض. ورخمت الجارية رق صوتها فهي رخيمة الصوت إذا كان منطقها لينا.

الشرح: يقول رحمه الله: إن الكفار لما نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ومكن سيوفهم من رقابهم، وجعل يستأصلهم بالقتل، تمنوا الهروب منه. وودوا الخلاص بما يمكنهم من الحيل حتى انتهت حالتهم من شدة الأمر يرون قطع اللحم

ممن مات منهم تذهب بها العقبان والرخم، فيكادون أن يحسدوا تلك القطع. وصاروا يودون أن يكونوا مثل تلك الأشلاء التي تطير بها العقبان من أجل ما حل بهم من الضرب الأليم، والطعن الشديد. قلت وقد وقع ما يقرب من هذا يوم بدر، فكثير من قريش وغيرهم هم بالرجوع حتى قال بعضهم: رأيت البلايا تحمل المنايا. وكذا بقية غزواته. كان يدخل الرعب قلوب أعدائه قبل لقائه. وكذلك غزوات أصحابه بعده. كقضية اليرموك والقادسية وغيرهما. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ودوا فعل وفاعل ومفعول. فكادوا عطف بالفاء على ودوا. وفي الفاء معنى التسبب.والضمير للكفار. وهي من نواسخ الابتداء من أخوات كان إلا أن خبرها لا يكون إلا فعلا مضارعا. ولا يكون مفردا إلا نادرا. كقوله: فأبت إلى فهم. وما كدت آيباء. واسمها في بيت الناظم الواو، وخبرها يغبطون. وأتى به الناظم على الأكثر وهو عدم اقترانها بأن. وبه يتعلق بيغبطون. والباء سببية. وأشلاء مفعول بيغبطون. ومنعه من الصرف ضرورة. إذ لا علة لمنع صرفه. وهو جائز في الضرورة عند الكوفيين ممنوع عند البصريين لأنه ليس فيه رد فرع على أصل. واحتج الكوفيون على منعه بأبيات، منها قوله:

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

قال ابن الطائع: والصحيح في هذه المسألة أن يقال هي ضرورة قليلة. ويحمل إنكار سيبويه على أنه لم يسمعها. وقال الأستاذ أبو الحسين بن أبي الربيع: مذهب البصريين عندي هو الصحيح ولم يسمع من كلام العرب منع ما ينصرف إلا شاذا. وكما لا يقاس على الشاذ في النثر فلا يقاس على الشاذ في النظم. انتهى. وشالت جملة في موضع الصفة. لأشلاء أي شائلة. ومع فيها أقوال أحدها من قبيل الظروف مطلقا مضافة أو غير مضافة. الثاني من قبيل الأحوال مطلقا مقدرا باسم الفاعل، وذلك بعد صحة التركيب. فإذا قلت خرجنا معا كان التقدير خرجنا مصاحبين. وإذا قلت خرجت معك كان التقدير خرجت مصاحبك. فلولا هذا التقدير لم يجز أن يكون حالا في حال الإضافة. لأن الحال لا تكون إلا نكرة. الثالث: أنها ظرف في حال الإضافة، وحال في حال الإفراد. والرابع: أنها من قبيل الحروف في حال الإسكان. وزعم النحاس أن النحويين مجمعون على ذلك. ومقتضى كلام سيبويه لزوم الاسمية في كل حال. وحكى الكسائي إسكان العين لغة ربيعة. وخصه سيبويه بالشعر على التشبيه بها.

والخامس أنها حرف مطلقا. السادس: وهي مسألة تصريفية أن الاسم ثنائي اللفظ في حال الإضافة والإفراد كيدوم. والسابع: أنه كذلك في حال الإضافة، ومن باب عصا ورحاً في حال الإفراد. والأصح من الأقوال الثالث. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان تجنيس الاشتقاق في أشلاء وشدلت. وفيه المبالغة وهو أن يكون للشيء وصف فتريد التعريف بمقدار شدته أو ضعفه فتدعي له من زيادة الشدة أو الضعف ما يستبعد. أو يحيل العقل ثبوته لئلا يظن أنه دون مقدار ما وصف به. واختلف أهل البيان فيها. فمنهم من ردها مطلقا. ومنهم من قبلها مطلقا محتجا بأن خير الكلام ما بولغ فيه. وهذا هو المرضي لكن لا على الإطلاق. فإن فضل الصدق لا يجحد، وغالب المبالغة على الإطلاق مخطئ. وخير الأمور أوسطها. والمبالغة ثلاثة أوصاف راجعة إلى دعوى المتكلم الوصف اشتدادا أو ضعفا على مقدار فوق ما يسلمه العقل ويستغربه. وذلك المقدار إما ممكن في نفسه أو غير ممكن. والممكن إما ممتنع عادة أو غير ممتنع. فإن أمكن عادة سمي تبليغا كقول الشاعر:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

وإن امتنع عادة سمي إغراقا. وإن امتنع عقلا سمي غلوا. والإغراق نوعان أحدهما ما اقترن به ما يقربه من حد الصحة كقد وكاد ولولا ولو وحرف التشبيه وهو أحسنها. ومنه بيت الناظم، لأنه أتى بكاد. والثاني ما لم يقترن به شيء من ذلك، كقول الشاعر:

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

وأما الغلو فضربان مقبول ومردود. وهو مبسوط في علم البديع فلا نطيل به. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

132 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلاَ يَدْرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

اللغة: الليالي جمع ليلة على غير قياس. ونظيره أهل وأهال. ومفرده القياسي ليلا لكنه لم يتعمل. وكذلك أيضا، تصغيرهم ليلة لييلة على غير قياس. وكأنه تصغير ليلاة ولم يستعمل وقد غلط الأئمة المتنبي حيث قال: ليلتها المنوطة بالشاد فصغر على القياس وهو مرفوض في كلام العرب. وإن كان القياس ولا يدرون لا يعلمون. يقال

دريته ودرية به دريا ودرية ودرية ودراية. أي علمت به. ولا يقال في حقه يدري وإنما يقال يعلم لأجل اشتقاقه من درية الصيد ختلته وخدعته. والأشهر الحرم أربعة، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. ثلاثة سرد وواحد مفرد. وكانت العرب لا تستحل بها القتال إلا حيّان خثعم وطيئ فإنهما كانا يستحلان الشهور كلها. فكان الذين ينسئون الشهور أيام الموسم يقولون حرمنا عليكم القتال في هذه الشهور، إلا دماء المحلين فكانت تستحل دماءهم في هذه الشهور. انتهى ما قاله صاحب الصحاح.

الشرح: يقول رحمه الله: أن الكفرة من شدة ما دهمهم من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما نزل بهم من الهم والغم يمضي عليهم الزمان لا يعرفون ما مضى منه ذهولا بما دهمهم وأصابهم من الأمر العظيم، والهول الشديد. إلا زمان الأشهر الحرم فإنهم يعرفون عدتها بسبب أمنهم من الحرب والقتال، فترجع إليهم قلوبهم ويسكن عنهم روعهم. فيتغشون بها وينتظرون فراغها وانفصالها بالنسبة لأيام التعب والمشقة. وانتظار ما عودوا في غيرها من المصائب النازلة، والأمور المستكرهة، فتستريح نفوسهم في أيام الأشهر الحرم. وتطمئن قلوبهم وترجع إليهم عقولهم التي كان الخوف قد استولى عليها وأذهبها. فحينئذ يمكنهم عد الأيام، فهم يعدون أيام الراحة لقصرها، وراحتهم فيها، ولا يعدون أيام الشدة والقتال، لأنهم مأخوذون عن أنفسهم. وخص الليالي بالذكر إما استغناء بها عن الأيام، لأنهما متلازمان. واقتصر عليها، لأن الشهر يدخل بها. وإما أن يكون خصها بالذكر لأن الذهول عنها أعظم، لأنها محل السكون والراحة. فإذا ذهلوا عما مضى منها دل ذلك على عظم ذهولهم وكثرته. هذا والناس مختلفوا الأغراض في هذا المعنى. فمنهم من يعد أيام الراحة إشفاقا عن ذهابها وهذا هو الغالب. ومنه قول ابن سهل الإسرائيلي:

مضت لي عنك لا ألقاك عشر   أطلت على الزمان العتابا
ولست أعد هذا اليوم منها   لعل الله يفتح فيه بابا
فإن تك لم تعد ولم تحقق   فلي شوق يعلمني الحسابا

فعد أيام الهجر ولم يعد أيام الوصال. وكذلك قول الشاعر:

أعد الليالي ليلة بعد ليلة   وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا

وحكى أبو بكر قال: قال لي عطاء المقدسي: كان لي شيخ صوفي إذا كان له يوم صالح خالص أخذ جوزة فجعلها في البرينة. فإذا سئل عن عمره أخذ البرينة فعد

الجوز وقال: هذا عمري. فكان يرى أيام العمر هي ما عمره بالعمل الصالح. وهو له. وهو الذي ينبغي أن يعده ويحسبه دون ما لا منفعة فيه فلا يعد ولا يحسب. وقال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم: 5] هي أيام العافية والنعم، وإن المراد بها ذلك. إلا أن الغالب اليوم على الناس عد أيام التعب والمشقة. فترى المريض يعد أيام المرض و المديان يعد أيام الماضية والباقية من أجل الدين، وقد يترك عد أيام العافية وأيام الحزن. فالأول: للترفه والراحة، فيشتغل القلب بلذاته فلا يعد. والثاني: للتعب وترادف الهموم، فيشتغل عن أهم مصالحه فضلا عن العد. أو يعد فينسى العدة لشغل قلبه. انتهى. وكان عليه السلام يتحامى قتال الكفار في الأشهر الحرم حتى أنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: 36] فقاتلهم في سائر الأشهر. وقال سعيد بن المسيب: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرم القتال في الأشهر الحرم لما أنزل الله في ذلك، حتى نزلت براءة. انتهى. ذكره الطبري. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: 36] المراد بذلك المعاصي تشريفا بالتخصيص. وإلا فالظلم محرم في كل زمان. والله تعالى أعلم.

الإعراب: الواو في ولا يدرون واو الحال. ودخول الواو على المضارع المنفي سائغ عند بعضهم. وما مصدرية ظرفية والتقدير: مدة عدم كونها من ليالي الأشهر الحرم. وهذا الظرف منصوب بيدرون. وتكن تامة وفاعلها ضمير الليالي. ويجوز أن تكون ناقصة. والمجرور خبرها. ويلزم حينئذ تأنيث تكن. لكون اسمها ضميرا. وعلى أنها تامة يعرب المجرور بعدها حالا. وفيه من البيان الترديد في قوله الليالي، لأنه علقها أولا بمعنى ثم رددها معلقة بمعنى آخر. ويسمى التعطف. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

133 كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ العِدَا قَرِمِ

اللغة: الدين المراد به هنا الإسلام. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 19] والضيف يطلق على المفرد والجمع. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الذاريات: 24] وكانوا جماعة من الملائكة. وقد يجمع

أيضا على أضياف وضيوف وضيفان. ويقال امرأة ضيف وضيفة. قاله الجوهري. وحل: نزل. والساحة: فضاء المنزل أو فضاء يكون بين دور الحي. ويجمع على ساح وسوح. والقرم بسكون الراء: السيد المعظم. والأقرم: الفحل المكرم. والقرامة: ما تقشر عن الخبز. والقرم بكسر الراء: مشتهى اللحم صفة من قولهم قرم إلى اللحم يقرم قرما إذا اشتهاه.

الشرح: شبه الناظم رحمه الله الدين بضيف نزل ساحة الكفار بكل سيد معظم مشتهي إلى لحم العدا ومشتاق له. فهو حريص على نيله شديد البحث عنه. فأضافوهم بأنفسهم ولحومهم. وأراد بالقرم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام. وهو بيت حسن ويقرب منه قول الشاعر:

وقائلة ماذا النحول وذا الضنا ... فقلت لها قول المشوق المتيم

هواك أتاني وهو ضيف أجله ... فأطعمته لحمي وأسقيته دمي

ومن عكس هذا المعنى قوله:

وقائلة ما بال جسمك ناعم ... وعهدي بأجسام المحبين تسقم

فقلت لها قلبي بحبك لم يبح ... لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

الإعراب: كأنما حرف تشبيه. وما كافة. والدين مبتدأ. وضيف خبره. وجملة حل في موضع الصفة لضيف. وساحتهم مفعول بحل. وبكل قرم يتعلق بحل. وقرم صفة لقرم المسكن. وإلى لحم العدا يتعلق بقرم الصفة. والتقدير: حل لكل قرم قرم إلى لحم العدا. وفيه من البيان التشبيه والتجنيس الاشتقاقي. وفيه المجاز حيث جعل الدين ضيفا حل الساحة وأحل غيره. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

134 يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ ... يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

اللغة: يجر: يقود. من جررت البعير قدته. والخميس: الجيش. لأنه خمس فرق، المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق. ومنه قول الشاعر: قد نضرب الجيش الخميس الأزورا. والسابحة: الخيل الشديدة السير، لأنها تسبح بيدها فيه. وسبح الفرس: جريه. وفرس سابح: حسن الجري. والسبحة الجري. والسبحة صلاة التطوع. والسبحة: الخرزات التي يسبح بها، يعني حبوب السبحة. والأبطال جمع بطل وهو

الشجاع. والتطمت الأمواج: ضرب بعضها بعضا.

الشرح: يقول رحمه الله: إن ذلك الدين الذي نزل ساحة الكفار طالبا ضيافة بها من معه من السادات بما يشتهونه من لحوم الكفرة. يجر بحرا هائلا، وهو جيش الشجعان يرمي بموج متلاطم يدخل بعضه في بعض. وذلك الجيش على خيل سابحة. واستعار الناظم للجيش، لأنه يشبه البحر، لأجل ما يحتوي عليه من الزروع اللامعة، والسيوف البارقة. ثم أضافه إلى الخميس تجريدا. فهو كقولك رأيت قمر وجهك. ووصف ذلك البحر بأنه فوق خيل سابحة ترشيحا للاستعارة. ثم لما جعل ذلك الجيش بحرا، ومن صفة البحرانية يرمي بالأمواج، جعل الجيش أيضا يرمي بالأمواج المتلاطمة. إلا أن هذه الأمواج من الأبطال، لأن الأبطال يشبه الأمواج من حيث الاضطراب، وترادف بعضها إثر بعض. فتكر على العدو قطعا قطعا، فتشمر على العدو، وتترادف كترادف أمواج البحر. وأراد بالالتطام القطعة من الخيل مع القطعة الأخرى واتصالها بها، كما تلتطم أمواج البحر ويتصل بعضها ببعض. والالتطام في المشبه به أوضح. وعبر بهذا كله عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلاء دينه، وتمكين سيفه وسيوف الصحابة من أعداء الدين، ومكذبي الأنبياء والمرسلين. حتى غلب الإسلام، وعلا دين الإسلام على جميع الأديان. ووصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم أبطال شجعان أمر شهير لا يحتاج إلى استدلال. وقد وصفهم الله تعالى بالشدة على الكفار فقال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] وقال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: 54]. وإذا سمعت غزواتهم وتأملت حروبهم واجتهادهم وبذل أموالهم وأنفسهم في نصر دين الله تعالى ظهر لك استحقاقهم لوصف الشجاعة، واختصاصهم، بها بل لا ينبغي أن يوصف بها غيرهم:

هم الرجال وغير أن يقال لمن ... لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

ولو ذكرت حالهم وأوصافهم لاستقلت به أسفار نفعنا الله بهم وعشرنا معهم آمين.

الإعراب: يجر مضارع. وفاعله ضمير الضيف. وبحر مفعول به. وفوق صفة لخميس يتعلق بالاستقرار. وسابحة صفة جارية مجرى الأسماء فلا يحتاج إلى تقدير موصوف. وجملة يرمي صفة لبحر لا لخميس لأنه المقصود. وتقديره بالمفرد أي

راميا. وبموج يتعلق بيرمي. والباء للاستعانة وقيل زائدة. ومن الأبطال صفة لموج تتعلق بالاستقرار أيضا وملتطم نعت لموج. وفيه من البيان الاستعارة في موضعين في قوله: يجر بحر خميس. وفي قوله: بموج من الأبطال: والعلاقة في الأول الكثرة وفيه ترشيح الاستعارة بقوله: فوق سابحة. لأن السابحة إنما هي المراكب. والأجفان في البحر أو الحوت الذي يسبح في الماء. فشبه الخيل بالمراكب العائمة، أو الحوت السابحة. وجعل الخيل كأنها عائمة لحسن مشيها وجريها. وترمي بموج ترشيح ثان. وملتطم ترشيح ثالث. وفيه الجناس المصحف في قوله يجر بحر ومثله قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: 104] والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله ورضي الله عنه:

135 مِـنْ كُـلِّ مُنْـتَدِبٍ لله مُحْتَـسِبٍ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

اللغة: المنتدب من ندبه للأمر فانتدب له. أي دعاه له فأجابه. فالمنتدب المجيب والمراد هنا سحابة الرسول صلى الله عليه وسلم. لأنهم دعوا إلى الجهاد فأجابوا. والمحتسب الطالب أجره من الله وهو من عمل عملا يبتغي به وجه الله تعالى. والحسبة والحسبان احتساب الأجر. والحسب الشرف. ويسطوا يقهر ويغلب. قال الجوهري: السطو: القهر بالبطش. يقال سطا به أي بطش به. والمستأصل القلاع. يقال استأصل الشيء أي قلع أصله وقطعه. وهو استفعل به الأصل. ومصطلم: مفتعل من الصلم وهو قطع الأذن. فيرجع إلى الاستئصال، وأبدلت التاء صادا لقربها منها في المخرج.

الشرح: يقول رحمه الله: إن هذا الجيش الذي يرمي بموج من الأبطال منتدب لله تعالى. أي مجيب له في دعائه إياه للقتال بقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: 123] وبغير ذلك من الآيات. قاصدين بذلك وجه الله تعالى وابتغاء ثوابه ونصرة دينه. لا رياء ولا سمعة، ولا حمية ولا رغبة في جاه ولا مال. يسطون على الكفار بسيوفهم، ويستأصلون الكفر برماحهم. حتى انقطع دابر الكفر وظهرت أعلام الإسلام. فجزاهم الله عن أهل الإسلام خيرا.

الإعراب: من كل منتدب بدل من قوله من البيت قبله. من الأبطال وهو صفة لموصوف محذوف. أي من كل إنسان منتدب. ولله متعلق بمنتدب. ومحتسب صفة

لمنتدب. وحذف معموله أي محتسب لله فعله. ويسطو في موضع الصفة لمحتسب ومنتدب. وفيه ضمير يرجع لمحتسب أو منتدب. ويستأصل يتعلق بيسطو. وللكفر يتعلق بمستأصل. وأراد للكفر أيضا فحذف لدلالة الأول عليه. وفيه من البيان الترصيع في قوله منتدب مع محتسب ومصطلم. وفيه أيضا الموازنة بين منتدب ومحتسب ومصطلم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

136 حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلاَمِ وَهْيَ بِهِمْ مِـنْ بَعْـدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

اللغة: غدا بمعنى صار. والملة: الدين والشريعة. وامتل الرجل: دخل في ملة الإسلام. والرحم: القرابة. وفي الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر» وتطلق على وعاء الولد في البطن. وناقة رحوم بها داء في رحمها. والغربة: البعد عن الوطن. والغريب: البعيد عن ألفه وقرابته. وغروب الشمس غيبوبتها. سمي بذلك لبعد الشمس فيه عن الأفق. كما سمي الغريب لبلده عن وطنه وأهله.

الشرح: يقول رحمه الله: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يقاتلون الكفار ويستأصلونهم بالسيوف، ويجاهدون في الله حق جهاده، لنصرة دينه ورجاء ثوابه محتسبين الأجر على الله حتى ظهر دينه، واشتهرت شريعته، وعلت كلمته، وكثر أتباعه. حتى صارت ملة الإسلام وشريعة الإيمان موصولا رحمها بعد الغربة وقطع الرحم. وكأن الناظم أشار إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء» وهذا البيت على جهة التمثيل، شبه الإسلام بالمرأة الغريبة التي ليس لها رحم وأهل. فليس لها وصل رحم بسبب عدم ذلك. فلما كثر الإسلام وفشا والحمد لله صارت ملة الإسلام بمنزلة المرأة الموصولة الرحم، بسبب الأهل والقرابة. وكان المسلمون قبل ظهور الإسلام يخشون التظاهر بالإسلام، ويعبدون الله سرا خوفا على أنفسهم. وكان الكفار يعذبون من أسلم كعمار وصهيب وبلال وخباب. وكان عليه السلام يقول: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو أبي الحكم بن هشام». فسبقت دعوته في عمر رضي الله عنه واشتهر الدين إذ ذاك، وعبدوا الله جهرا من يوم إسلامه. وقد كان للكفر في مبدإ الإسلام شدة، ولأهله ظهور وقوة، حتى راموا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون. فكم حرصوا على قتل النبي صلى الله عليه وسلم وجعلوا فيه

الجعائل. واستعانوا عليه بالجيوش، وعملوا فيه الحيل، فلم ينفعهم مع مراد الله شيء. والله غالب على أمره. وفي البيت إشارة إلى صلة الرحم. وقد رغبت فيه الشريعة. قال صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى أنا الله وأنا الرحمان، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي. فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته». وفي الحديث أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الرحم معلقة بالعرش تقول: اللهم من وصلني فصله ومن قطعني فاقطعه». إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا المعنى.

الإعراب: حتى حرف ابتداء ومعناها الغاية. وملة اسم غدت. وقوله وهي بهم موصولة. الرحم جملة من مبتدأ وخبر في موضع خبرها دخلت عليها الواو قليلا تشبيها بجملة الحال. والباء في بهم سببية يتعلق بموصولة. ويحتمل أن يكون موصولة منصوبا خبر غدت. والجملة من قوله وهي بهم حالية. أي حتى صارت ملة الإسلام. والحالة أنها مصحوبة بهم أي بتلك الأبطال موصولة الرحم وعلى هذا اقتصر المحلي. فيتعلق الجار بكون خاص وحذف لقيام الدليل. ومن بعد يتعلق بموصوله. وفيه التشبيه. لأنه جعل الملة بمنزلة المرأة فيما ذكر. وفيه التمكين في القافية. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

137 مَكْفُولَةً أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ

اللغة: مكفولة محفوظة. من كفل زيد اليتيم حفظه وعاله. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: 37] والكفالة أيضا الضمان. والبعل: الزوج. والجمع بعولة. ويقال للمرأة أيضا: بعل وبعلة، مثل زوج وزوجة. وامرأة متبعلة إذا كانت مطيعة لزوجها. وباعل بعض القوم بعضا أي تزوج بعضهم إلى بعض. والبعل: اسم صنم، والأرض التي لا يصيبها المطر إلا مرة في السنة. والبعل من النخل: ما شرب بعروقه من غير سقي وتيتم: مضارع يتيم. الصبي بالكسر يتيم يتما ويتما بالفتح والضم وهو فقدان الأب. وفي البهائم فقدان الأم. وفي الطيور فقدان أحدهما. وتئم مضارع آم. وأصله أيم تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار آم كباع. ومضارعه يئيم. وحذفت عند الجازم الياء للساكنين. ومصدره أيما وأيوما ومعناه خلو المرأة عن الزوج بكرا كانت أو ثيبا. وامرأة أيم أي خالية عن الزوج والجمع أيامى. قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [النور: 32].

الشرح: يقول رحمه الله: ما زال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعده يستأصلون الكفار بالقتل والسبي والجلاء إلى أن صارت ملة الإسلام موصولة الرحم. بعدما كانت غريبة كما تقدم.مكفولة محفوظة أبدا منهم بخير أب وخير بعل يقومان بوظائفها وبما تحتاج إليه. كما أن المرأة ذات الأب والزوج مكفولة يقوم أبوها بوظائفها ومئونها مع قيام الزوج بحقوقها. فجعل ملة الإسلام حين صار المسلمون يقومون بها ويعملون بمقتضياتها ويعتنون بأحكامها ويحافظون على فرائضها بمنزلة المرأة المكفولة بخير أب وخير بعل. وجعل المسلمين القائمين بها بمنزلة أبيها وبعلها وهم خير أب وخير بعل. وإنما شبه الملة بالمرأة المكفولة بالأب والبعل ولم يشبهها بالمرأة المكفولة بأحدهما لأنها إذا كانت كذلك لم ينقصها شيء، بل تكون على أتم الوجوه. بخلافها إذا كانت دون أحدهما فإنها ينقصها بعض مآربها. وخص الكفالة بالأب والبعل لأنها بهما أتم، وجعل ذلك الأب والبعل خير الآباء والبعولة. لأن الكفالة تختلف باختلاف أحوالهما. فإذا كانوا على هذا الوجه كانت الكفالة على ما ينبغي وكان القيام على أكمل الوجوه. ثم قال: فلم تيتم ولم تئم؟ لا شك أنها إذا كانت كذلك ذات أب وبعل فليست بيتيمة ولا أيم. ورد تيتم إلى الأب وتئم إلى البعل. وهو بيت حسن للغاية، بني فيه على التمثيل وهو المجاز المركب.

الإعراب: مكفولة يصح نصبه خبرا ثانيا لغدا. ورفعه خبرا ثانيا لهي على ما تقدم في موصولة. وأبدا ظرف متعلق بمكفولة. ومنهم متعلق بمكفولة. وبخير كذلك والمراد مكفولة بأب خير أب. فأضاف الصفة للموصوف. وكذلك خير بعل. ولم تيتم ولم تئم مجزومان. وكسرت في الثاني للوزن. وفيه من البيان الاستعارة في جعله لملة الإسلام أبا وبعلا يكفلانها فلم يحصل لها يتم ولا أيم. وفيه الترديد في قوله بخير أب وخير بعل. وفيه تجنيس الاشتقاق في تيتم وتئم. وفيه التذييل في قوله فلم تيتم ولم تئم، وهو الإتيان بعد تمام الكلام بجملة تامة تشتمل على ما تقدم تفيد التأكيد. وهو على قسمين: ما يكون مثلا نحو قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [العنكبوت: 57] بعد قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: 34] وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]. وما لا يكون مثلا كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: 17] والذي

في البيت من هذا الثاني. وفيه المقابلة في رده تيتم إلى الأب وتئم إلى البعل. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: 82] في مقابلة اثنين وقول الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وما أقبح الكفر والإفلاس بالرجل

في مقابلة كلامه. وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ ﴾ [الليل: 5 - 6] الآية بتمامها. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

138 هُمُ الجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ ... مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

اللغة: الصدم: الضرب بالجسد. والمصادم: اسم فاعل منه. ومصطدم: مفتعل منه. ويمكن أن يكون هنا اسم مكان أو زمان أو مصدر.

الشرح: يقول رحمه الله: إن هؤلاء القوم الذين انتدبوا واحتسبوا الأجر والثواب على الله وقاموا بنصرة الله وإعلاء دينه كانوا في مواطن الحرب والقوة على الأعداء مثل الجبال الرواسي في الثبات والرسوخ. لا يفرون ولا يتزحزحون، ووقوف في صدور الملاحم كالجبال لا ينصرفون، ولذلك شبههم بالجبال. ثم أخذ يستدل على صحة دعواه بموافقة العدو الذي شأنه أن ينكر ويجحد محاسن عدوه وخصاله الحميدة، ومناقبه الشريفة. لكن لشهرة هذه المناقب والشيم الكريمة، وكونها طبقة الآفاق، واشتهرت اشتهار الشمس لا يسع العدو إنكارها. لأن الحس يكذبه، فسله يخبرك عن هذه الفضائل. ولله در القائل:

ومناقب شهد العدو مفضلها ... والحق ما شهدت به الأعداء

وذلك أن العدو شأنه ألا يشهد لعدوه بالفضيلة، لأنه يرفع بذلك قدر عدوه. والعدو محمول في عدوه على استقصائه والازدراء به. فما يشهد العدو لعدوه إلا حيث لا يسعه إنكار. ويرى أنه من أنكره كذبه الحس. وبالغ الناظم في مدح الصحابة وحسن صفاتهم حتى خرج عن العهدة واستشهد بالعدو الذي شأنه الجحد والإنكار. فقال: إن سألت مصادمهم أخبروك بما لقوا منهم من البأس والشجاعة في معترك القتال واصطدام الأقران. فإنهم لا يسعهم إنكاره لشهرة ذلك، وجعلهم جبالا على عادة العرب. فإنهم كثيرا ما يشبهون الشيء الثابت الراسخ الذي لا يزحزحه شيء بالجبل الذي شأنه الرسوخ والثبوت. وقال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: 46]. لمّا

كانت الجبال لا يمكن زوالها ولا تحريكها عن أماكنها. بالغ تعالى في مكر الكفار فأخبر أن الجبال تزول بمكرهم. وهذا على قراءة فتح اللام الداخل على المضارع. وقول الناظم سل عنهم مصادمهم، يعني من صادمهم في مواطن الحرب. وابتلي بمقارعتهم. يريد يخبرك عما شهد منهم مما لم يكن له عليه صبر ولا له به طاقة. فإن قلت عدوهم ومصادمهم مات. فكيف سؤاله؟ فالجواب: إن حكايتهم وقصصهم مشهورة نقلها الخلف عن السلف. فما وقعت عليه من قصصهم وأخبارهم فهو كسماعك من العدو والمصادم لهم. وإنما عدل عن الإحالة على مطالعة أخبارهم من الكتب إلى سؤالهم وشهادتهم بصحة قوله مبالغة في إقرارهم. وأنهم لا يسعهم في الحق جحود ولا إنكار. أو يكون المراد لو قدر وجودهم وكانوا بقيد الحياة لم يسعهم إلا الإقرار. والله تعالى أعلم.

الإعراب: هم الجبال مبتدأ وخبر. والضمير للمنتدبين والمحتسبين. وسل فعل أمر. ومصادمهم مفعوله. وليس المراد مخاطبا معينا، بل كل من يصح خطابه كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: 30]. وما استفهامية. وذا موصولة. وهما مبتدأ وخبر. ورآى صلة الموصول. والعائد محذوف. أي ما الذي رآه منهم. ورآى بصرية تتعدى إلى واحد. وهو العائد. والجملة في موضع خفض على البدل من الضمير في عنهم بدل اشتمال على القول الصحيح من الأقوال الأربعة التي في مثل هذا. وهو قولك: عرفت زيدا أبو من هو. فقيل جملة أبو من هو حال من زيد. وهو قول المبرد. وقيل: إنه بدل اشتمال كأنك قلت عرفت زيدا أبوته أو كنيته. وهو اختيار السيرافي وابن الصائغ. وقيل: هو بدل شيء من شيء على حذف مضاف. وكأنك قلت: عرفت أمر زيد أبو من هو. وهو اختيار ابن عصفور. وقيل: هو في موضع نصب بفعل حذف لتقدم ذكره. والتقدير عرفت زيدا عرفت أبو من هو. فحذف الثاني لدلالة الأول. وهو اختيار ابن أبي الربيع. فهذه أربعة أقوال. ولا يتأتى هنا الخامس وهو التضمين. وإنما يتأتى في قولك: أبو من. إن تضمن عرفت معنى علمت. فيتعدى إلى اثنين. قاله بعض الشراح في هذا المحل. ويجوز أن يكون ماذا كلها اسم استفهام. والاسم في الأصل إنما هو ما، وركبتْ مع ذا وجعلت كالكلمة الواحدة مفعولا برآى، قدم لما فيه من الصدرية على بقاء الصدرية لها. وقيل زالت صدريتها بالتركيب فيكون التقديم جائزا. والمجروران متعلقان برآى. وفيه من البيان التشبيه في قوله: هم الجبال. وفيه رد

العجز على الصدر، وهو كونه رد مصطدم على مصادمهم. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

139 وَسَـلْ حُنَيْـنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ

اللغة: حنين واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا. والأغلب عليه التذكير لأنه اسم ماء. وربما أنثته العرب لأنه اسم للبقعة. وهو الموضع الذي هزَم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هوازن. وقيل: سمي حنينا باسم رجل نزل فيه يقال له حنين بن قافية. ويقال لهذه الغزوة أيضا غزوة أوطاس، سميت بالموضع الذي وقعت فيه. وبدر ماء على ثمانية وعشرين فرسخا من المدينة في طريق مكة يذكر ويؤنث. وروي عن الشعبي أنه قال: سمي بدرا لأنه كان لرجل من جهينة اسمه بدر. والصحيح أنه اسم بئر حفرها رجل من بني غفار اسمه بدر. وأحد جبل تلقاء المدينة. قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «هذا جبل يحبنا ونحبه». والفصول: الأزمنة المختلفة جمع فصل. والحتف: الموت، والجمع حتوف. يقال: فلان حتف أنفه إذا مات من غير قتال ولا ضرب. ولا يبنى منه فعل. قاله في الصحاح. وأدهى أفعل من الداهية وهي الرزيّة العظيمة. والوخم: الوباء.

الشرح: يقول رحمه الله قاصدا للمبالغة على صحة دعواه: سل حنينا وسل بدرا وأحدا وهي فصول حتفهم وموتهم. فإنها تخبرك عما لقي الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم من الأهوال الشديدة، والوقائع العظيمة. على فرض أن لو كانت تتكلم لأجابت بذلك، ولسار حالها يخبر بذلك وهو أفصح من لسان المقال. ولما كانت هذه الغزوات مختلفة في الفصول، فمنها في الربيع، ومنها في الخريف، ومنها في الصيف. جعلها فصول الموت لما كان موتهم وهلاكهم فيها بالسيف ذريعا. كانت هذه الفصول عليهم أدهى وأعظم رزيّة من نزول الوباء بهم. وإحالة السؤال على هذه المواضع لقصد الإغياء والمبالغة. لأن العرب لا تحيل السؤال على ما لا يصح منه الجواب إلا لقصد المبالغة في صحة الأمر وإن الأمر، حق لا مرية فيه. فأما حنين فإنها كانت بعد فتح مكة، وكان فتحها لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان. واختصار قصتها: أن رسول الله لما فتح مكة كان في عشرة آلاف من الصحابة، وانضاف إليها ألفان من الطلقاء فكان في اثني عشر ألفا. سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم. فجمعت له هوازن وألفافها، وعليهم مالك بن عوف المضري.

وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين ألفا. فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اجتمعوا بحنين. فلما تصاف الناس حمل المشركون من جانبي الوادي وانهزم المشركون. قال قتادة: ويقال أن الطلقاء فروا وقصدوا إلقاء الهزيمة على المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء. وقال أبو عبد الرحمان الفهري: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان على فرس قد اكتنفه العباس عمه وابن عمه أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطب، وبين يديه أيمن ابن أم أيمن، وثم قتل رحمه الله. فلما رآى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الحال أخذ قبضة من تراب وحصب بها وجوه الكفار وقال: شاهت الوجوه. قال أبو عبد الرحمان: تطاول من فرسه فأخذ قبضة التراب ونزلت السكينة لنصره، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنصار. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن ينادي أين أصحاب الشجرة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟ فرجع الناس عنقا واحدا وانهزم المشركون. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه ذلك التراب. هذا قصتها باختصار. ومن أرادها مستوفية فلينظرها في السير. وأما غزوة بدر فإن النصر فيها للمسلمين مشهور. قتل فيها صناديد قريش. وكان يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثانية عشر شهرا من الهجرة. وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان أنه قدم من الشام في عير قريش تحمل تجارتهم، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ليتعرضوا له. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث مائة وبضعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار ليتعرضوا أبا سفيان ولم يخرجوا بنية القتال. فلم يكن معهم إلا فرس الزبير رضي الله عنه، فلما أحس أبوسفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم للقائه أجر رجلا فأرسله يستصرخ بقريش، فخرج الرجل سريعا فاستصرخ قريشا فخرجوا حتى نزلوا بالعدوة القصوى. وترك أبوسفيان الطريق وسلك طريقا أخرى. فلما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذهاب أبي سفيان وخروج قريش. استشار أصحابه فقال بعضهم: يا رسول الله لم نخرج لقتال أحد فارجع بنا حتى يأتونا. وقال بعضهم: بل نلقى عدونا. وقال المقداد بن الأسود الكندي: يا رسول الله لا نقول كما قالت بنوا إسرائيل: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. بل اذهب أنت ونحن معك نقاتل عن يمينك وشمالك. والله لو خضت بنا ضحضاح هذا البحر

لخضناه معك. أو كلمة نحوها فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامه. وقال: «اذهبوا على بركة الله». فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بأقصى مياه بدر. وقد نزلت قريش بالعدوة القصوى خلف العقنقل. فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم إن هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تجادل وتكذب رسولك. اللهم نصرك الذي وعدتني. اللهم أخبهم الغداة. وقال عليه السلام وقد رآى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل أحمر: إن يكن في أحد من القوم خير فضل صاحب الجمل أن يطيعوه يرشدوا. ثم أقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض الذي كان صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيهم حكيم بن حزام. فقال عليه السلام: ما شرب منه أحد إلا قتل إلا ما كان من حكيم فإنه سلم وأسلم وحسن إسلامه. فكان يقول إذا حلف: والذي نجاني يوم بدر. فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها فهل لك أن تذكر بخير إلى آخر الدهر. فقال وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عامر بن الحضرمي. فقال له هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك. وكان أخوه قد قتل، فقام عامر وصرخ واعمراه. فحميت الحرب واختلط أمر الناس، فبلغ عتبة قول أبي جهل فقال: سيعلم من انتفخ سحره منا، أنا أو هو. ثم التمس عتبة بيضة يدخلها في رأسه فلم يجد لعظم هامته فاعتجر ببرد له. وخرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي. وكان رجلا شارسا سيء الخلق. فعاهد الله ليشربن من الحوض أو ليهدمنه أو ليموتن دونه، فلما دنا من الحوض خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فالتقيا فضربه حمزة ضربة أطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض. ثم صبأ إلى الحوض حتى اقتحم فيه كأنه أراد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله على الحوض. ثم خرج عتبة بن ربيعة وأتبعه الوليد وأخوه شيبة فنادى البراز. فخرج إليهم فتية من الأنصار على عددهم. فقالوا ما لنا بكم حاجة، ثم نادوا يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال عليه السلام: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، فلما دنوا منهم قالوا: من أنتم؟ قالوا: فلان وفلان وفلان. قالوا: نعم أكفاء كرام. فبارز عبيدة بن الحارث وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل لشيبة أن قتله. وكذلك علي فلم يمهل الوليد أن قتله. واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه. وكر حمزة وعلي على عتبة بأسيافهما فدفقا عليه واحتملا صاحبهما وحازاه إلى أصحابه فمات رحمة الله

عليه. ثم تزاحم الناس ودنا بعضهم من بعض. وأمر عليه السلام أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم. ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش ومعه أبو بكر ثم خرج عليه السلام إلى الناس وجعل يعدل الصفوف، فمر بسواد بن غزية وقد خرج عن الصف فطعنه بقدح في يده وقال: استو يا سواد. فقال: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق فأقدني؟ قال: فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه. وقال: استقد يا سواد؟ فاعتنقه سواد وقبل بطنه. فقال له عليه السلام ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسول الله إنه حضر ما ترى يعني الحرب، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له عليه السلام بخير. ورجع إلى العريش. وهو يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد بعد اليوم. وأبو بكر يقول بعده مناشدتك ربك فإن الله منجز لك وعدك. ثم خفق عليه السلام خفقة وهو في العريش ثم انتبه. فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه. ثم خرج عليه السلام يحرضهم على القتال. فقال: والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة. فقال رجل من بني سلمة بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء. وكانت بيده تمرات فقذفها من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم قال: شاهت الوجوه شاهت الوجوه. ورمى بها وأمر أصحابه فقال: شدوا فكانت الهزيمة. وقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر، ثم أمر عليه السلام بوضع أهل القليب وهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام ثم وقف عليه السلام على القليب: وناداهم بأسمائهم يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا. فقال له عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ فقال: والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا الجواب. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى وجه أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة فرآه متغيرا فقال له: يا أبا حذيفة، لعلك أصابك من أبيك شيء؟ فقال: يا رسول الله، والله ما شككت في أبي ولا في مصرعه. ولكني كنت أعرف من أبي فضلا وعقلا وحلما فكنت أرجوا أن يهديه الله بذلك للاسلام، فلما رأيت ما مات عليه أخذني ذلك. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم عنه ودعا له بخير. ولما أصيب أهل القليب يوم بدر وكانت

الهزيمة على المشركين، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم يوم بدر. فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فاستعطفوهم وذكروا ما جرى عليهم فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم فقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرا. فاجتمعت قريش ومن أطاعها من القبائل، وعزموا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآى رءيا فقال: «إني رأيت بقرا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة. فأما البقر فهم أناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم في ذباب سيفي فرجل من أهل بيتي يقتل. وأما الدرع فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم». فقال رجل من المسلمين ممن أكرمه الله بالشهادة يوم أحد: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا من المشركين لئلا يروا أنا جبنا عن لقائهم وخفناهم. فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لأمته. وذلك يوم الجمعة حين فرغ من صلاتها. وقد ندم الناس على مراجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفته فيما كان ظهر له من الرأي. فلما خرج قالوا: استكرهناك يا رسول الله، وما كان ينبغي لنا ذلك، فإن شئت فاقعد وافعل ما بدا لك. فقال عليه السلام: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل». فخرج عليه السلام في ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس. وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف معها مائتا فرس قد جنبوها. فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد. وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل. ثم قال عليه السلام: «من يأخذ هذا السيف بحقه». قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «حقه يضرب به في العدو حتى ينحني». فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. وكان رجلا شجاعا يختال عند الحرب، وكان إذا عصب بعصابته الحمراء علمنا أنه يقاتل. وقالوا: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. فلما اعتصب بعصابته الحمراء برز من الصفين يتبختر في مشيته. فقال عليه السلام: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا المقام». فلما التقا الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللائي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها ويحرضن الرجال على القتال. وكانت هند يوم بدر قتل أخوها وأبوها فكانت حسيفتها عظيمة، وحقدها كثير، وقاتل حمزة يومئذ قتالا شديدا وأغنى الغناء العظيم. وكذلك أبو دجانة. ولما اشتد القتال جلس عليه السلام

تحت راية الأنصار وأرسل إلى علي أن قدم الراية، فتقدم علي بالراية وقال: أنا أبو القصم. فناداه رجل: يا أبا القصم هل لك في البراز من حاجة؟ فقال: نعم. فبرز بين الصفين واختلفا ضربتين فضربه علي فصرعه. ثم انصرف فلم يجهز عليه. فقيل له في ذلك فقال: إنه استقبلني بعورته. فعطفني عليه الرحم. ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر. فكانت الهزيمة. وكان صلى الله عليه وسلم أمّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف وكانوا خمسين رجلا، وأجلسهم خلف الجيش وقال لهم: «انضحوا عنا ولا تبرحوا مكانكم». فلما كانت هزيمة الكفار قال أصحاب عبد الله: «الغنيمة الغنيمة». فذكرهم عبد الله عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا عليه وأقبلوا وأخلوا الموضع فلم يبق إلا عبد الله في نحو عشرة، فجاء خالد بن الوليد، فقتل عبد الله بن جبير وأصحابه. وأقبل من خلف الناس فنادى مناد عباد الله أخراكم، فانقلب الناس وجعل يقتل بعضهم بعضا يعني المسلمين، وضرب عتبة بن أبي وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسقط رباعيته، وجرح شفته السفلى، وشجه عبد الله بن شهاب في وجهه صلى الله عليه وسلم. فكانت قصة أحد فيها بلاء وتمحيص اختبر الله بها المؤمنين، ومحق بها المنافقين ممَّن كان يظهر الإسلام بلسانه، وأكرم الله بها من أكرم من الشهداء. وكان مما أنزل الله في يوم أحد من القرآن ستون آية من آل عمران، فيها صفة ما كان في يومهم ذلك، ومعاتبة من عاتب منهم. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران: 121] إلى ما بعدها. فهذا بعض ما يتعلق بالغزوات التي خصها الناظم بالذكر لشهرتها، ولأنها كانت أشد من غيرها في ملاقات العدو. وأعاد الفعل في قوله: وسل لأنه محل إطناب. وقوله فصول حتف يعني أن تلك المواضع مواضع أزمان موت وفناء لهم، وأعظم من الوباء لكثرة من قتل من الكفرة. والضمير في لهم عائد على حنين وما بعده. والله تعالى أعلم.

الإعراب: ما بعد سل مفعول به.وفصول بدل من الأماكن المتقدمة على حذف مضاف. أي مواطن فصول. ولك أن تقدر المضاف في الأول. أي وسل زمان حنين وزمان بدر وزمان أحد. وهو بدل مفصل من مجمل، ويجوز أن يكون مقطوعا. أي أعني فصول حنين. ويجوز أن يرفع بمبتدا محذوف. ولهم في موضع الصفة لحتف.

وأدهى صفة لفصول أو لحتف. وإنما أفرد على الأول لكونه اسم تفضيل مجرد فلا يطابق موصوفه. ومن الوخم يتعلق بأدهى، ومن التي يطلبها اسم التفضيل لابتداء الغاية. والله تعالى أعلم. وفيه من البديع الترديد في قوله: وسل، فإنه علقه بمعنى آخر، ثم علقه بمعنى آخر. وفيه استعارة الفصول للحتف.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

140 المُصْدِرِيِّ البِيضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ   مِنَ العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّمَمِ

اللغة: المصدر: اسم فاعل. أصدر إذا رجع عن الماء. نقيض الورد لأن الورد: الإتيان إلى الماء. والصدر: الرجوع عنه. تقول صدر عنه يصدر صدرا بتحريك الدال. ومصدرا وصدورا. وقد أصدر غيره وصدره. والأول أحسن. وفي التنزيل: ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ [القصص: 23]. وقد يستعمل أصدر لازما. يقال أصدرت عن الماء وعن البلاد: رجعت، ويحتملهما الآية. والبيض جمع أبيض، والمراد بها هنا: السيوف لصقالتها. ووردت من وردت الإبل الماء: ذهبت تشرب. ثم استعمل لكل وارد وناهل. كما أن صدر ضده. كذلك أصله الرجوع عن الماء. ثم استعمل لكل صادر. واللمم جمع لمة وهي الوفرة من الشعر. وقيل فوقها. وقيل إذا ألم الشعر بالمنكب فهو لمة. وقيل إذا جاوز شحمة الأذن.

الشرح: يقول رحمه الله: إن الصحابة رضي الله عنهم ردّوا في القتال والحرب سيوفهم حمرا بالدماء من كثرة ما قتلوا من الكفرة وطعنوا بها، بعدما كانت حين ورودها ووصولها إلى رؤوسهم بيضاء على أصلها، من السقالة فصارت بعد ذلك لونها حمراء لأجل ما شربت من رءوس الأعداء من الدماء. وهذه كانت نتيجة مقدمات ملاقات المسلمين للكفار، وهو دليل على شجاعتهم لتهجمهم عليهم بالسيوف. وهذا المعنى الذي ذكره الناظم سبقه إليه عمر بن كلثوم فقال:

ألا يا هند لا تعجل علينا   وأبصرنا نخبرك اليقينا
فإنا نورد الرايات بيضا   ونصدرها حمرا مذ روينا

وخص الرؤوس وهي التي أراد بقوله: كل مسود من اللمم. لأنها المعتمدة في ذلك. وقال كل مسود، إشعارا بأن الكفار الذين كانوا يقاتلونهم شبان قادرون على القتال وأهل قوة في الحرب. لكن الله نصر الصحابة رضي الله عنهم مع كثرة الكفار

وصلابتهم. وأتى الناظم رحمه الله بهذه الألوان على جهة التذبيج فجاءت حسناء جدا، وسيأتي في البيان.

الإعراب: المصدري منصوب على المدح بفعل مضمر لا يجوز إظهاره، إذ هو نعت مقطوع ولو رفعه لجاز. وكذلك لو رفع الاتباع للحيال لجاز، لكن القطع في معرض المدح أبلغ مع ما في الاتباع من التضمين. ويجوز أن يكون مخفوضا بدلا من الضمير في منهم. والبيض يجوز فيه الجر على الإضافة، ولذلك حذفت النون. وأصله المصدرين كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [الحج: 35] ويجوز فيه النصب على أنه مفعول بالمصدري. ويكون حذف منه النون تقصيرا للصلة كقول الشاعر: والحافظوا عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائنا وكُف. وحمرا حال من البيض وما في قوله بعدما وردت مصدرية. أي بعد ورودها ومن العدا متعلق بوردت أو يكون حالا من كل مسود. وكل مفعول بوردت. ومسودا بضم الميم مضاف إليه. ومن اللمم صفة لمسود أو لكل. وفيه من البديع التذبيج وعناه عندهم أن تذكر في معنى من المدح أو غيره ألوانا لقصد الكفاية أو التورية. ومنه قول أبي تمام:

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وفيه المطابقة بين المصدري والورود. وفيه الاستعارة المرشحة فإنه استعار للرماح ورودا ورشحها بالمصدري كأنها وردت بيضا لتشرب. فلما شربت دماء الكفار صارت حمرا والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

141 وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الخَطِّ مَا تَرَكَتْ أَقْلامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

اللغة: السمر جمع أسمر، والمراد هنا: القنا، وهي: الرماح. لأن الجيدة فيها القديمة. وإذا كانت قديمة يابسة مالت إلى السواد. والخط: موضع باليمامة، وهي خط هجر تنسب إليه الرماح. فيقال رماح خطية، وهي تحمل من بلاد الهند فتقيم به. والخط أيضا: الكتابة، ويطلق على ما يخطه الزاجر في الرمل. والحرف: جانب الشيء وطرفه. والمنعجم: المنقوط. قال في الصحاح: العجم: النقط بالسواد، مثل التاء عليه نقطتان. يقال: أعجمت الحرف. والتعجيم مثله. ولا يقال عجمت يعني بالتخفيف. ومنه حروف المعجم، وهي الحروف المنقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف

الاسم. ومعناه حروف الخط المعجم، كمسجد الجامع، وصلاة الأولى، أي مسجد اليوم الجامع، وصلاة الساعة الأولى. ومن الناس من يجعلون المعجم بمعنى الإعجام مصدرا كالمدخل والمخرج. أي من شأن هذه أن تعجم. انتهى.

الشرح: يقول رحمه الله لما أخبر أولا عن شأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأعداء، وأنهم كانوا يوردون بيض السيوف بيضا ثم يصدرونها حمرا من دماء رؤوس الكفار. أخبر عنهم أيضا أن رماحهم كأنها كانت أقلاما كتبوا بها في أجسام الكفار خطا معجما. فالخط أثر الضرب، والمنعجم: المنقوط بالدم الذي يسيل من الضرب. فما تركت تلك الأقلام التي هي سمر الخط حرفا من أجسامهم ولا موضعا منه إلا خطت فيه وأعجمته بالنقط التي هي أثر السنان والقنا. وما قاله الناظم من هذا التشبيه وارد عند العرب، قال الشاعر:

أخسا الفوارس لو شهدت مواقفي   والخيل من تحت الأسنة تنحط

لقرأت منها ما تخط يد الوغا   والبيض تشك والألسنة تنقط

فجعل الشاعر البيض تشكل لاتساع ضرباتها وامتداد آثار ضربها، فهي تصنع صورة الشكلة. وجعل الألسنة تنقط. لأن ضربها في الجسم ثقب وهو أشبه شيء بالنقط. وهذان البيتان أمكن في المعنى. والمراد من قول الناظم: أن البيض في البيتين فعلت ما يليق بها ويناسب فعلها. والألسنة فعلت ما يناسبها. وجعل الناظم أقلام الخط هي التي كتبت وأعجمت، ومع ذلك فهو من أحسن الأبيات وأعذبها.

الإعراب: والكاتبين معطوف على المصدري. وبسمر متعلق به. والباء للاستعانة. وما نافية. وأقلامها فاعل تركت. والضمير عائد على السمر، وحرف مفعول به. واختلف في ترك، فقيل يتعدى إلى اثنين، وقيل إلى واحد. فعلى الأول يكون غير مفعولا ثانيا. وعلى الثاني يكون غير صفة بحرف، أو حالا منه. وفيه من البيان الاستعارة في مواضع، استعار لسمر الخط أقلاما. واستعار لأثر الضرب النقط. واستعار الحرف لجسد الكفار. ورشح بالكتب، لأن الترشيح يكون مقدما ومؤخرا. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

142 قَــامَ في جامَـع الهـيْجا خطيبُهم تـصامَمَتْ عـنْهُ أذنـا صـمّة الصمم

اللغة: الهيجا: اختلاط الأصوات، ثم سمي به الحرب لاختلاط الأصوات فيه. والخطيب من يخاطب الناس بكلام مشجع ترغيبا أو ترهيبا. إما مشتق من الخطاب أو من الخطب. لأن العرب كانوا إذا نزل بهم خطب أي شدة خطب أحدهم في أمر دفعه ليتأهبوا له. والتصامم: تكلف الصمم. والضمة بالكسر: الأسد، ثم سمي به الشجاع. قاله في المصباح. والصِمم بكسر الصاد جمع صمة: المتقدم.

الشرح: يقول رحمه الله: لما وصف الصحابة رضي الله عنهم بكتابتهم أجسام الكفار برماحهم بسبب ما أثروا فيها من كبير طعناتهم ونقطهم لها. بسبب ما ظهر فيها من صغير طعناتهم. ذكر هنا ما ينشأ عن الكتابة وهي القراءة فقال: إن قام في مجمع الحرب خطيبهم، يقرأ عليهم ما سطره في أجسامهم وجدهم موتى، أو ذاهلين من الفزع، فلا يسمع كلامه أحد، فيتصامم عنه أذنا شجاع الشجعان، فما بالك بالجبان. فالمراد بالخطيب من يقف عليهم من الصحابة بعد صرعهم. ويحتمل أن يكون المراد بهذا الخطيب منهم. والمعنى أنه إن قام أحد منهم يحرضهم على القتال تصامم عنه شجعانهم. فلا يجد من يستمع له لهول ما نزل بهم. والأول أليق بما قبله. وهذا البيت سقط من كثير من النسخ، ولم يُشِرْ عليه أحد من الشراح مما وقفت عليه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: قام فعل الشرط. والجار متعلق به. وخطيبهم فاعله. وتصاممت جواب الشرط. وعنه يتعلق به. وأذنا فاعله وهو مضاف إلى صمة، ولذا حذفت النون. والصمم مضاف ثان. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

143 شَــاكِي الــسلاَحِ لَهُــمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ وَالـوَرْدُ يَمْـتَازُ بِالسِّيمَا عَنِ السَّلَمِ

اللغة: شاكي من الشوكة. قال الجوهري: والشوكة: شدة البأس والحدة في السلاح. وقد شاك الرجل يشاك شوكا أي ظهرت شوكته وحدته فهو شائك. وشاكي مقلوب. أخرت الهمزة. والسيما مقصور العلامة. قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: 29] وقال في الصحاح: وقد يجيء ممدودا. والورد: نُورٌ كل شجرة، وخص

بالنَّوَرِ المعروف الذي له الرائحة الطيبة. والسلم: شجر من الغضاة. الواحدة سلمة. والغضاة: شجر يعظم وله شوك.

الشرح: يقول رحمه الله: إن الصحابة رضي الله عنهم لشدة اعتنائهم بالجهاد وحرصهم على الحرب وشجاعتهم، يعتنون بالسلاح التي تعينهم على الجهاد. فهم حادون السلاح مزايلون صداه. لهم علامة يعرفون بها من غيرهم. كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] الآية. واختلف العلماء في السيما التي ذكر الله في هذه الآية. فقال مالك: كانت جباههم متربة من كثرة السجود في التراب. وقال آخرون: هو وعد بحالهم يوم القيامة من أن الله تعالى يجعل لهم نورا يوم القيامة من أثر السجود. كما يجعل غرة من أثر الوضوء. وقال قوم: هو السمت الحسن وهو الخشوع يبدوا على الوجه، وهو حال مكثر الصلاة. وقال قوم: هو بياض وصفرة يعتري الوجه من السهر. ثم ذيل البيت بمثل في التفرقة بينهم وبين غيرهم فقال: والورد يمتاز بالعلامة من مطلق الشجر. فكذلك الصحابة رضي الله عنهم لهم علامات يمتازون بها من غيرهم من سائر الناس المقاتلين وهو الخضوع والخشوع وحسن السمت. نفعنا الله ببركاتهم.

الإعراب: شاكي منصوب على المدح وهو مقلوب كما تقدم، وأصله شاوك ثم صار شاكو وقعت الواو طرفا فأبدلت ياء فصار مثل قاض وغاز منقوصا. وهو في البيت جمع سالم سقطت النون للاضافة. ويتعين الخفض فيما بعده، ولا يجوز فيه النصب على أن تكون النون سقطت لغير الإضافة، لأن هذا إنما يكون مع الألف واللام، ولهذا لحن من قرأ ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝ ﴾ [الصافات: 38] بنصب العذاب. ولهم سيما مبتدأ وخبر. وتميزهم جملة في موضع الصفة لسيما. وأصل سيما سوما، فأبدلت الواو ياء. والورد مبتدأ. وجملة يمتاز إلى آخره خبره. أي ممتاز. وبالسيما ومن السلم متعلقان بيمتاز. وفيه من البيان التذييل وهو أن يأتي بعد تمام الكلام بجملة مشتملة على معناه تأكيدا ونحوه، وهو على قسمين: ما لا يكون مثلا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: 34] وما يكون مثلا نحو: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: 35]. في هذه الآية تذييلان. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ ﴾ [الإسراء: 81] وفيه

الترديد والاقتباس والله تعالي أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

144 تُهْدِي إِلَـيْكَ رِيَـاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِ

اللغة: تهدي بضم التاء من أهديت له وإليه إهداء. والاسم الهدية. والنشر: الرائحة الطيبة. والزهر: نور كل نبات. والأكمام جمع كم بكسر الكاف وتشديد الميم. وهو وعاء النور. والكمي بفتح الكاف وآخره ياء: الشجاع المختفي في سلاحه. والجمع كمات كأنهم جمعوا كاميا مثل قاض وقضاة. **الشرح:** يقول رحمه الله مخاطبا لكل من يصح خطابه: تهدي إليك يا من يصح خطابه رياح التأييد والنصر نشر الصحابة وروائحهم الطيبة، فتظن بسبب ذلك أن كل شجاع منهم زهر في أكمامه وفي وعائه لما يظهر من محاسنهم وفضائلهم. فاستعار رحمه الله الرائحة الطيبة لما انتشر من فضائلهم ومجدهم. ولما كانت الرائحة من شأنها أن تسوقها الرياح وتجلبها. أخبر أن تلك الرائحة تسوقها رياح النصر. فاستعار للنصر رياحا. ثم لما كانت الرائحة من شأنها أن تكون في الزهر جعل الصحابة رضي الله عنهم زهرا في أكمامه. وإنما شبههم بالزهر في أكمامه لأجل أنهم كانوا بدروعهم مستترين، فجعلهم بمنزلة الزهر المستتر في أكمامه. فالأرواح كالأكمام، والصحابة كالزهر. ولذلك قال: فتحسب الزهر في الأكمم كل كم. أي فتظن كل كم كالزهر في الأكمام. والله تعالى أعلم.

الإعراب: تهدي بالضم مصارع مرفوع. وإليك متعلق به وتحسب من أخوات ظن. وكل كم مفعول أول. والزهر مفعول ثان مقدم لأجل القافية. ويجوز على ظاهره فيكون من عكس التشبيه مبالغة. وكم أصله كمي بتشديد الياء لكنه خففه للضرورة. ورياح أصله رواح فأبدلت ياء للكسر قبلها واعتلالها في المفرد. وفيه من البيان الاستعارة في موضعين في الصدر. وفيه التشبيه في العجز. لأن أفعال الظن من أفعال التشبيه. وفيه التجنيس اللاحق في النشر والنصر. وفيه الشبيه بتجنيس الاشتقاق في الأكمام وكمي. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

145 كَـأَنَّهُمْ فِي ظُهُـورِ الخَـيْلِ نَبْتُ رُبًا مِـنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

اللغة: النبت: النبات. وربا جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض. وفيها أربع

لغات ربوة وربوة وربوة يعني مثلث الراء ورباوة. والحزم: ضبط الإنسان أمره وأخذه فيه بالثقة. وحزم الرجل يحزم بالضم حزما وحزامة فهو حازم وحزيم. والحزم بضم الحاه والزاي جمع حزام وهو ما يشد في الوسط.

الشرح: شبه الصحابة رضي الله عنهم الموصوفين بالأوصاف السابقة وهم على ظهور خيلهم بنبت الربا فى القوة والصلابة والثبوت، وذلك دال على الفروسية والنجدة، وليس ثبوتهم على الخيل ورسوخهم عليها بحزم شدوا بها أنفسهم. ولا بحيلة أحدثوها فإن مثل هذا إنما يفعل عن خوف وضعف وعدم معرفة بالفروسية. وهم لم يكونوا كذلك، بل كان ثباتهم عن شجاعة ومعرفة بالفروسية، ونشاط للقتال وحزم شديد وضبط لأمورهم. لا يرهبون ولا يحذرون ولا يفرون في مواقف الحرب ولا يتزحزحون. وكيف لا ينشط ولا يثبت من هو على بينة من إحدى الحسنيين، إما الظهور على عدوه. وإما حصول الشهادة. وكل واحدة منهما منقبة حسنة. إما نعيم معجل، وهو الظهور والغنيمة. وإما نعيم مؤبد وهو الفوز بالشهادة والأجور المتضاعفة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: 52] وإنما شبه الصحابة بنبت الربى في القوة والصلابة دون نبت ما انحدر من الأرض. لأن نبت الربى راسخ ثابت، بخلاف غيره فإنه لا صلابة له ولا رسوخ فيه، فيسرع إليه القلع والزوال. والله تعالى أعلم.

الإعراب: في ظهور الخيل متعلق بحال محذوفة من اسم كأن وهو الضمير العائد على الصحابة رضي الله عنهم. ونبت ربا خبران، أي كأنهم متمكنين في ظهور الخيل نبت ربا. ومن شدة الحزم يتعلق بما في كأن من معنى التشبيه. ولا حرف عطف. ومن شدة الحزم معطوف بها. وفيه من البيان التشبيه والتجنيس المحرف في قوله الحزم والحزم، كقولهم البدعة شرَك الشرك. والجاهل مفرط أو مفرط.

* ثم قال رحمه الله:

146 طَارَتْ قُلُوبُ العِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ البَهْمِ وَالبُهُمِ

اللغة: طار الشيء: ذهب. والبأس: الشدة في الحرب. قال في المصباح: بؤس مثل قرب: بأسا فهو بئيس على فعيل. وهو ذو بأس أي شدة وقوة. انتهى. والفرق بفتح الفاء والراء: الخوف. تقول فرقت منك ولا تقول فرقتك. وامرأة فروقة ورجل فروقة

أيضا ولا جمع له. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: 56]. والبهم جمع بهمة بفتح الباء وسكون الهاء وهي الصغيرة من أولاد الغنم: الضان والمعز. قال في المصباح البهمة: ولد الضان يطلق على الذكر والأنثى، والجمع بهم مثل تمر وتمرة. وجمع البهم بهام مثل سهم وسهام. ويطلق على أولاد الضأن والمعز إذا اجتمعت تغليبا، فإذا انفردت قيل لأولاد الضأن بهم ولأولاد المعز سخال. انتهى. والبهم جمع بهمة بضم الباء كحرمة وحرم وحزمة وحزم وهو الشجاع. وقيل الفارس الذي لا يدري من أين يؤتى من شدة بأسه. وقيل هو جماعة الفرسان. قال ابن جني: البهمة في الأصل مصدر وصف به للمبالغة. انتهى.

الشرح: يقول رحمه الله: ذهبت قلوب العدا وطاشت عقولهم فرقا وخوفا من بأس هؤلاء العصابة المحمدية وشجاعتهم. حتى إنهم من شدة ما دهمهم مأخوذون عن أنفسهم ذاهلون عن عقولهم لا يعرفون حقائق الأشياء. فلا يفرقون بين صغر الغنم والبقر، وبين شجعان الصحابة رضي الله عنهم لشدة فزعهم وذهولهم. فإذا رأوا صغار الغنم توهموها أنها الفرسان فيفرون منها لفزعهم وروعهم.

الإعراب: من بأسهم يتعلق بطارت. والضمير في بأسهم عائد على الصحابة رضي الله عنهم. وفرقا مفعول من أجله، ويجوز أن يكون مصدرا حالا، أي فرقين. وجاز هنا مجيء الحال من المضاف إليه. لأن المضاف بعض المضاف إليه. وبين ظرف مكان يتعلق بتفرق. وفيه من البيان التجنيس الاشتقاقي. في فرقا وتفرق. وفيه التجنيس المحرف في بهم وبهم. وفيه الاستعارة في قوله طارت قلوب العدا. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

147 وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

اللغة: النصر: العون والتقوية. والأسد جمع أسد وهو السبع العادي المعلوم. والآجام جمع أجم. والأجم جمع أجمة على طريقة اسم الجنس. والأجمة: الشجر الكثير الملتف. وتجم: تكره. من وجم الشيء وجما ووجوما كرهه. وقيل معناه تذل وتخضع.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله: لا ينكر طيران قلوب العدا خوفا وفرقا من

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا ينكر حال أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وما كانوا عليه من النجدة والشجاعة والبأس والغناء العظيم في مواقف الحرب. فإن من كان منتصرا برسول الله صلى الله عليه وسلم وناصرا لدينه وملتجأ إليه في أموره جدير بأن يخافه كل شيء. ويخاف سطوته كل مخلوق حتى إن الأسد الضارية لو هجم عليها في آجامها لكرهت لقاءه، وخضعت لسطواته. مع شدة بأسها وقوة افتراسها. لا سيما في أماكنها وآجامها. وأراد الناظم بهذا شدة بأسهم وشجاعتهم وصولتهم على عدوهم. وإذا كان من ينتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم تخاف منه الأسد في أماكنها، وتكرهه مع شدتها وقوتها. فكيف لا تخاف منه الفرسان التي طارت قلوبهم من الرعب والخوف. وذهبت عقولهم حتى فقدوا التمييز بين البهم والبهم كما تقدم. ومن انتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتصر بالله. لأن طاعته طاعته قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: 80] ومن انتصر بالله لم يغلبه غالب. حكي أن الأسد تعرض لبعض الصحابة فيهم عبد الله بن عمر فتقدم إليه وأخذ بأذنه ونحاه عن الطريق وقال: لو خفتم الله تعالى لخاف منكم كل شيء. أو كما قال رضي الله عنه. وروي أنه تعرض أيضا لسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهمهم له ودله على الطريق. وحكى بعضهم أن الأسد تعرض لضيف قدم على بعض الأولياء فشكى إليه الضيف تعرض الأسد فخرج إليه ذلك الولي فعرك أذنه وقال له: ألم أقل لك لا تتعرض لأضيافي. وحكي أيضا أن بعض الأولياء كان يستدعي الأسد فيركبه ويمشي عليه والناس ينظرون إليه. فمن أطاع الله أطاعه كل شيء. أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك. وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الإعراب: من شرطية، ويجوز في تكن التذكير والتأنيث. لأنه اسمها، وهو نصرته. مجازي التأنيث مع **الفصل**. ومن الشرطية مبتدأ وجملة الشرط وهي تكن واسمها. وخبرها خبر على الصحيح. والرابط الضمير في نصرته. وبرسول الله خبر تكن. وقوله إن تلقه جواب من على حذف الفاء. أي فإن تلقه. لأن الشرط إذا وقع جوابا لشرط آخر فلا بد من الفاء. تقول: من يكرمني فإن يزرني أكرمه. وإنما تحذف الفاء في مثل هذا للضرورة كقول الشاعر: من يفعل الحسنات الله يشكرها. الخ. وتجم جواب إن وهي وجوابها جواب من كما تقدم. والأسد مخفف من الضم. وفي آجامها

حال منه. وفيه التجنيس في آجامها وتجم. وفيه التتميم والتمكين في القافية. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

148 وَلَـنْ تَـرَى مِـنْ وَلِيٍّ غَـيْرَ مُنْتَـصِـرٍ   بِهِ وَلاَ مِنْ عَدُوٍّ غَـيْـرَ مُنْقَصِـمِ

اللغة: الولي من الولاية وهو الذي تولاه الله بحفظه. وضده العدو والمراد به هنا كل مؤمن. والانتصار طلب النصرة وانتصر فلان لنفسه إذا عمل على نصرة نفسه بنفسه أو باعتماده على غيره. والمنقصم: المنقطع.

الشرح: يقول رحمه الله: لن ترى مؤمنا إلا وهو منتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم على عدوه الحسي والمعنوي. ولن ترى من عدوه إلا وهو منقصم هالك على يد من انتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما كانت الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس انتصارا برسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت تهابهم الأسد في أماكنها، والملوك في مقاعدها. وقيل: معنى البيت لن ترى مؤمنا إلا وهو منتصر برسول الله صلى الله عليه وسلم معتمدا في أموره عليه. ولن ترى كافرا عدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو منقطع عنه غير منتصر به ولا معتمد عليه. والأول أنسب بما قبله. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لن ترى ناصب ومنصوب. ومن زائدة في الموضعين لتوفر شروطها. أي لن ترى وليا ولا عدوا. وغير يجوز فيه النصب والخفض. فالنصب على المفعولية الثانية لترى. لأنها علمية والمفعول الأول من ولي. ويجوز أن يكون نعتا لولي على المحل. ويكون الثاني محذوفا أي موجودا. والخفض على النعت لولي على اللفظ. والمفعول الثاني محذوف. وقوله ولا من عدو معطوف على من ولي داخل تحت لن. ولا زائدة. وغير منقصم يجوز فيه ما تقدم على التوجيهين المذكورين. وفيه من البيان المقابلة: قابل وليا بعدو ومنتصرا بمنقصم. وفيه الموازنة في منتصر مع منقصم. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رضي الله عنه:

149 أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

اللغة: أحل: نزل. والحرز: الموضع الحصين. يقال هذا حرز حريز. ويسمى التعويذ حرزا. قاله في الصحاح. والليث الأسد. والأشبال جمع شبل وهو ولده. ويجمع أيضا على أشبل. وأجم جمع أجمة. وهو مأوى الأسد ومكانه.

الشرح: يقول رحمه الله: إن النبي صلى الله عليه وسلم لشدة شفقته على أمته ورأفته بهم طلب لهم من الله تعالى النصر والتمكن في البلاد. حتى أكسبهم العز والجاه والأمن. وأذهب عنهم الروع فأحلهم في حرز ملته في حصن حصين بظهورهم على عدوهم والتمكن من بلادهم. فصاروا ببركاته صلى الله عليه وسلم وعنايته في أمن كثير بعد الخوف. وعدد كثير بعد القلة. فكانوا بملة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثابة الأشبال مع الليث. كما أن الليث إذا حل مع أشباله في الأجم لا يتجرأ عليه أحد ولا يطمع في النيل منه ولا من أشباله إذ هم في صون وحفظ. كذلك كل من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في ملته وآوى إلى كنفه، فلا يناله ضيم ولا يصيبه ذل ولا يلحقه خوف ولا يطمع أن يناله أحد بمكروه. جعلنا الله ممن تحصن بشريعته وتعلق بأذياله آمين.

الإعراب: أحل منقول من حل بالمكان. يتعدى إلى واحد وهو أمته. والفاعل به ضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم. وفي حرز متعلق بأحل. ويقال أحللت فلانا بكذا وفي كذا. وكالليث في موضع الحال من فاعل أحل. وهو النبي صلى الله عليه وسلم. وحل جملة في موضع الحال من الليث. ومع متعلق بحل. وفي أجم كذلك. وفيه الاستعارة حيث جعل الملة حرزا. وفيه تشبيه ثلاثة بمثلها. فشبه الرسول بالليث وأمته بالأشبال وملته بالحزر. كما قال بشار:

كأن مثال النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلا تهاوي كوا كبه

فالمشبه النقع والأسياف ووقعها، والمشبه به الليل وكواكبه وهويُّها. والمشبه في البيت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته والملة. والمشبه به الليث والأشبال وأجمها. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

150 كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدَلٍ فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ القرآن مِنْ خَصَمِ

اللغة: جدلت صرعت. يقال جدلت الرجل وجدلته صرعته. والجدل: الشديد الخصومة. والخَصِم بكسر الصاد: الشديد الخصومة أيضا.

الشرح: يقول رحمه الله: كم من شخص جدل شديد الخصومة في حال النبي صلى الله عليه وسلم وفي شأنه وفيما جاء به غلبته كلمات الله وصرعته وأبطلت حجته يعني القرآن العظيم. فلم تبق له حجة ولا شبهة. وكم من خصم شديد الخصومة أيضا فيما ذكر خصمه البرهان الذي دل على صدقه، كنبع الماء وانشقاق القمر وتسبيح الحصا، وغير ذلك مما ظهر على يديه من البراهين الساطعة، والدلائل القاطعة، حتى لم يبق معاند ولا جدل إلا أقر بنبوته وصدقه. إلا من سبقت عليه الشقاوة، وكثيرا ما كانت اليهود تسأله عما في كتبهم تعنيتا، فينزل القرآن بجوابهم وتوبيخهم. كسؤالهم عن الروح وذي القرنين وأهل الكهف وما حرم إسرائيل على نفسه. فينزل القرآن بجوابهم ورد تشغيبهم. وقوله: وكم خصم القرآن من خصم، أراد من خصم فيه فحذفه لدلالة الأول عليه. كقوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد: 39] أراد ويثبت ما يشاء. والله تعالى أعلم.

الإعراب: كم مفعول مقدم بجدلت، ولزم تقديمه، لأن له الصدر. وكم خبرية تدل على التكثير. أي كثيرا من الجدليين جدلت كلمات الله. ومن جدل تفسير كم. واختلف النحويون في مثل هذا فقيل: إنها زائدة توكيدا، وشروط زيادتها إنما تشترط في غير التمييز. وقيل: إنها للتبعيض. والأصل كم من الجدليين. ثم اختصر موضع المفرد من موضع الجمع. والنكرة موضع المعرفة. وفيه يتعلق بجدل. والضمير للنبي صلى الله عليه وسلم. وإعراب عجز البيت كصدره. وقوله: من جدل ومن خصم على حذف الموصوف. أي من شخص جدل وشخص خصم. وإنما حذفه لأن الصفة هي المقصودة. كقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: 18] أي على القوم الظالمين، فحذف الموصوف، لأن اللعنة لم تتوجه على القوم من جهة كونهم قوما. بل من جهة اتصافهم بالظلم. وكذلك قول الناظم، قصد هاتين الصفتين. لأن كلمات الله إذا صرعت من كان كثير الجدل والخصم. فأحرى أن تغلب غيرهم. والله تعالى أعلم.

وفيه من البيان الترديد، وهو كونه علق أولا على شيء ثم علقه بعد على شيء آخر. وفيه الموازنة بين جدل وخصم، وفيه المجاز الإسنادي في جدلت كلمات الله وخصم القرآن، وفيه تجنيس الاشتقاق في جدلت وجدل والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رضي الله عنه:**

151 كَفَاكَ بِالعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي اليُتْمِ

اللغة: كفاك الشيء: أجزاك الاقتصار عليه. والأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب منسوب إلى الأم. فإن الأب هو الذي يجتهد في تحصيل ذلك غالبا للولد. والجاهلية معناها: الملة الغريقة في الجهل. واليتم في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم.

الشرح: لما قدم في البيت السابق أن القرآن العظيم صرع من جادل فيه فكان ينزل بما يرد تشغيبهم وتعنيتهم. وأن ما ظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من خوارق العادات، والبراهين الواضحات، خصم الخصم وأحجمه. وكانت تلك البراهين لا يمكن استقصاؤها. قال: يكفيك في حالة الاستدلال على شأنه هاتان المعجزتان العظيمتان في زمان الجاهلية أحدهما: كونه أعلم الخلق بعلم الدنيا والآخرة. والأمم الماضية، والقرون الخالية، وعلم الأولين والآخرين. مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولا تمكنه مدارسة ولا مطالعة. فلا ينظر في كتب الأولين ولا يقرأ أحاديثهم ولا يتدارس قصصهم وأخبارهم. وهو مع ذلك يخبر بما مضى وبما يأتي إلى قيام الساعة، ويسرد علم الأولين والآخرين بما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفاذ من أحبارهم الذي يقطع عمره في مدارسة ذلك وتعلمه. وهذا كله في جاهلية جهلاء، بعيد العهد بالأنبياء، وبدل الناس وغيروا في كتب الله تعالى بالزيادة والنقصان والكتمان. ففضحهم عليه السلام، وقرر الشرائع الماضية، وكذب من جحد شيئا منها. فهذا وحده كاف في صحة دعواه وصدق نبوته. فكانت أميته صلى الله عليه وسلم وصف كمال في حقه. ومعجزة دالة على نبوته، لأنه مع كونه لم يقرأ ولم يكسب ولم يدارس ولم يتلق مع من قرأ ظهر منه من العلوم والمعارف اللدنية، وإحكامه لسياسة الخلق على تنوعهم، وإحاطته بجميع مصالح الدين والدنيا. وتخلقه بكل خلق حسن، واتصافه بكل كمال للخلق على الإطلاق. وإمامته في كل علم وحكم وحكمة ما أعجز به جميع الخلق. وظهر اختصاصه به لكافتهم، فكان آية ظاهرة، وحجة باهرة. وكانت أميته كمالا بينا لا

خفاء فيه. والمقصود من القراءة والكتابة هو ما ينتج عنهما من العلم. لأنهما آلة، فإذا حصلت الثمرة استغني عنهما مع ما في ذلك لو كان يحسنه الريبة بالاستغناء بكتابته عن ملاقاته. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: 48]. ولما كانت كمالية الأمية مرتبطة بالنبوءة لم يرد لفظ الأمي في حقه صلى الله عليه وسلم إلا مع لفظ النبي، فلا يفرد لفظ الأمي عنه. وأما الناظم فإنما أفرده لكونه ذكره على وجه المعجزة، فلا يعترض عليه. المعجزة الثانية ما احتوى عليه من أعلى درجات الآداب وأرفع مراتب الأخلاق، حسبما انتشرت به الأخبار الصحيحة، والأحاديث الشهيرة. قال علي رضي الله عنه في وصفه صلى الله عليه وسلم: كان أوسع الناس صدرا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، إلى غير ذلك من الأحاديث. وهو مع ذلك لم يكن معه من يعلمه ولا من يؤدبه، إذ كان والده قد مات، وأمه حامل به. فلما ولد صلى الله عليه وسلم بقى مع أمه، وجده في كلاءة الله وحفظه. ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته. فلما بلغ ست سنين توفيت أمه فبقي صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب. وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي إليه وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه فيؤخرونه عنه. فيقول عبد المطلب إذا رآى ذلك منهم: دعوا بني فوالله إن له لشأنا. ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليا وسلم ثمان سنين هلك عبد المطلب. فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه أبي طالب. فشب يكلؤه الله ويحفظه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم نسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش حتى اصطفاه الله لرسالته، وخصه بعظيم كرامته صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم. فقد كان صلى الله عليه وسلم مع كونه تربى يتيما حاز من الآداب والشيم الفاضلة، والأخلاق المرضية، المحل الذي لا يجهل. وذلك مبسوط في الشفا وغيره. وقال أنس: خدمته عشر سنين فما قال لي أف قط ولا لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء لم أصنعه لم. وكان يجيب من دعاه ولا يدعوه أحد إلا قال له لبيك. وكان يمازح أصحابه ويخالطهم

ويحادثهم ويلاعب صبيانهم. ويجيب دعوة العبد والمسكين، ويعود المريض، ويقبل عذر المعتذر. وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة. ولا يقطع على أحد حديثه. ولا يجلس أحد إليه وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته ثم عاد إلى صلاته صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: كفاك فعل ومفعول. والباء زائدة في الفاعل كقوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: 81] وتزاد أيضا في المفعول كقول المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

والمعنى في بيت الناظم: كفاك العلم. وفي الأمي يتعلق باسم الفاعل حال من العلم. ومعجزة تمييز. وفي الجاهلية يتعلق بالعلم أو حال من الأمي. والتأديب معطوف على العلم. وفي اليتم يتعلق بالتأديب. وفيه الطباق بين العلم والجاهلية والتأديب واليتم والله تعالى أعلم. وبه نهاية الفصل الثامن.

الفصل التاسع
التوسل بالنبي والتعلق بأذياله

* بدأه رحمه الله بقوله:

152 خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِـــهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالخِدَمِ

اللغة: خدمت فلانا: قمت بمآربه. يقال خدمه يخدمه خدمة فهو خادم للذكر والأنثى. والخادمة بالهاء للمؤنث قليل. قاله في المصباح. قال: ويجمع على خدم وخدام. والمدح الثناء على الممدوح بالصفات الجميلة. والمديح لغة فيه. والذنوب جمع ذنب وهي الآثام. والاستقالة طلب الإقالة. والخدم جمع خدمة كحرفة وحرف.

الشرح: يقول الناظم رحمه الله أنه خدم رسول الله صلى الله تليه وسلم وتوسل إليه بمدحه والثناء عليه. وذكر سيره الجميلة، وصفاته الحميدة، وشيمه الفاضلة، ومناقبه الزكية، ومعجزاته الباهرة. يبتغي بهذه الخدمة العفو عن ذنوبه الماضية، وأوزاره السالفة، ويستقيله، أي يطلب الإقالة من ذنوب مضت في مدح المخلوقين، والتجاوز في الثناء عليهم سعيا في مرضاتهم، وطمعا فيما عندهم من حطام دنياهم. فاستبدل بذلك مدح سيد الكونين وأكرم الثقلين. ولا شك أن من توسل إلى الله بمدح حبيبه نال مطلوبه، وحصل مرغوبه. وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: 35]. ولا وسيلة أعظم من رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو باب الله الأعظم:

وأنـــت بـــاب الله أيُّ امـــرئ أتـــى مـــن غيـــرك لا يـــدخل

وقد كان صلى الله عليه وسلم يجزل المثوبة لمن يمدحه. وكان **يقول** لحسان: «اللهم أيده بروح القدس». وقال له أيضا حين أنشده قصيدته التي يقول فيها لبعض كفار قريش:

هجـــوت محمـــدا وأجـــبت عـــنه وعـــند الله يكـــون الجـــزاء

الإعراب: خدمته جملة فعلية. وبمديح يتعلق به. والباء سببية. وجملة أستقيل في موضع الصفة لمديح. أي مستقيل أنا به. ويمكن أن تكون في موضع الحال من التاء

في خدمته. فتكون الخدمة وقعت والحالة هذه. وبه يتعلق بأستقيل. وضميره للمديح. وذنوب مفعول بأستقيل. وجملة مضى صفة عمر. أي ماض. وفيه من البيان حسن التخلص فإنه قدم بين يدي سؤاله إظهار فاقته. والتسلي بطمع ما يحصل له في المستقبل على خدمة النبي صلى الله عليه وسلم. وبمواطأة اسمه صلى الله عليه وسلم معتمدا على ما حفظه في ذلك حسبما يأتي. وبدأ من ذلك بذكر ما تقدم له من مذموم فعله. وإظهار الندم عليه وفيه رد العجز على الصدر في خدمته والخدم. وفيه استعارة الإقالة لزوال حكم الذنوب. فإنه إذا أقاله من الذنوب فقد أزال حكمها عنه. كما أن المقيل في البيع قد أزال حكم البيع. والله تعالى أعلم.

*** ثم رحمه الله:**

153 إِذْ قَلَّدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

اللغة: قلدته كذا: جعلت قلادة في عنقه. وتقليد البدنة وغيرها مما يهدى: أن يجعل في عنقها نعلا وشيء ليعلم أنها هدي. والعواقب جمع عاقبة، وهي ما يئول إليه الشيء. والهدي: ما يهدى من بدنة أو بقرة أو شاة في الحج. والجمع هدايا. والنعم: الإبل والبقر والغنم.

الشرح: يقول رحمه الله: لما كان الشعر الذي نظمه لم يقصد به قربة. إذ لم يكن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ولا في علم من العلوم ولا في حكمة من الحكم مما هو قربة. بل كان ذلك في أمر دنيوي من مدح الملوك وغيرهم. وهذا يفتقر إلى مبالغة وتجوز، فيقع صاحبه في الكذب. وفي قول ما لا يحل. وهذا هو الشعر المنهي عنه. وهو محمل قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: 224] إلى ما بعد ذلك. وأما الشعر الذي فيه حكمة أو وعظ أو في مدح من يستحق في مدحه القربة فإنه حسن. وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن من الشعر لحكمة». وقال الشافعي: الشعر من الكلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح. وكذلك خدمته للملوك لم يكن في أمر يرجوا حسن عاقبته بل كانت في التولي والخطط. وهي لا يسلم منها في الغالب. فلما كان كذلك رآى أنهما قلداه وحملاه ما تخشى عواقبه. وما يخاف على صاحبهما، وإن كان قد زيناه ورفعاه في الدنيا ولكن عاقبتهما الهلاك والخسارة في ذلك. فلذلك قال إذ قلداني أي المدح والخدمة للملوك ما تخشى عواقبه. ثم شبه نفسه

في ذلك بهدي النعم المقلد. فكما أن الهدي يقلد ويزين وذلك يئول إلى هلاكه وإلى موته إذ عاقبته النحر أو الذبح بمنى. فكذلك الناظم كان الشعر والخدمة قد رفعاه في الدنيا وتزين بسببهما بين أقرانه في الظاهر. وفي الباطن يئول إلى الهلاك والتلف إن لم يحصل العفو من الملك الكريم. وهذا البيت من أحسن الأبيات لم يسبق إليه والله تعالى أعلم.

الإعراب: إذ ظرف متعلق بمضى في البيت قبله وهي ظرف للزمان الماضي. ويجوز أن تكون تعليلية كاللام كما قال بعضهم، وهو ابن خروف في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ [الزخرف: 39] إذ ليست هنا بظرف. إذ لا يصح عمل ينفع فيها لأنها لما مضى. وإنما المعنى: ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب لأنكم ظلمتم. والضمير في قلداني يرجع إلى الشعر والخدم، وقد يتعدى إلى اثنين بنفسه. الأول منهما الياء. والثاني ما وهي موصولة أو نكرة موصوفة. وقوله كأنني جملة حالية من الياء في قلداني. أي شبيها بهدي النعم. وبهما في موضع الحال من الياء في كأنني. أي ملتبسا بهما أو مصاحبا لهما. والعامل في هذه الحال ما في كان من معنى التشبيه. وهدي خبر كان. ومن النعم صفة لهدي. وفيه من البيان التشبيه الحسن، وهو تشبيه مركب. كقول الشاعر:

كأن مثلا النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

*** ثم قال رحمه الله:**

154 أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَّلْتُ إِلاَّ عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ

اللغة: أطاع انقاد. والغي الضلال والخيبة. وفعله غوى بالفتح غيا. وغوي بالكسر غواية ورجل غاو وغو وغيان. والحالتين هنا خدمته المخلوقين وعمل الشعر. والآثام جمع إثم وهو الذنب. والندم التأسف والتحسر.

الشرح: يقول رحمه الله: أطعت في عمل الشعر ومدح المخلوقين باعث الصبا وغيه. فقطعت عمري في خدمة المخلوقين وانتحال الشعر في مدحهم وبالغت في ذلك بما لا يخلوا من كذب وما حصلت من ذلك كله إلا على التباعات والآثام. وبذل الوجه والاستخدام لمخلوق في أيام قلائل ذهبت بسرعة. وبقي شؤمها وسوء عاقبتها بعدما نال من العز والجاه بسبب المدح والثناء. فذهب ذلك وانقضا، وكأنه برق سرا أو

طيف كرا. وقد كان هذا في زمان الشباب. فلما أخذ في السن عاد إليه عقله وانتبه من غفلته فندم على ما فات وتتحقق أن ما هو آت آت. وهذا منه اعتراف بالذنب السابق في معرض احتقار النفس بين يدي المسئول. ليكون ذلك سببا للعفو والمغفرة والرحمة. والعبد فى حال الشباب لا يخلوا من صبوة، إذ الشباب سعفة من الجنون. بخلافه في حال الكبر فإن الغالب عليه ضعف داعية الشهوة مع تمام عقله. ولذلك ورد في الحديث: «يعجب ربك من شاب ليس له صبوة». وورد أيضا: «إذا بلغ العبد أربعين فلم يتب ولم يقلع جر الشيطان يده على ناصيته وقال: مرحبا بوجه لا يفلح». وورد أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: «أربعة يبغضهم الله عز وجل البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر». انتهى. عصمنا الله من موارد الأشقياء آمين.

الإعراب: أطعت فعل وفاعل. وغي الصبا مفعول ومضاف إليه. وفي الحالتين متعلق بأطعت. وما نافية. وجملة حصلت معطوف على أطعت. وإلا إيجاب بعد النفي. وعلى الآثام متعلق بحصلت. والندم معطوف على الآثام. وفيه استعارة الغي للصبا، بجامع مع الغفلة.

*** ثم قال رحمه الله:**

155 فَـيَا خَـسَارَةَ نَفْـسٍ فِي تِجَارَتِهَـا لَمْ تَـشْتَرِ الـدِّينَ بِالدُّنْـيَا وَلَمْ تَـسُمِ

اللغة: الخسارة ضد الربح. يقال خسر خسرانا وخسارة وخسارا إذا هلك ماله. والنفس تقدم الكلام عليها. ويقال شرى بمعنى اشترى. وشرى بمعنى باع وهذا هو الغالب.

الشرح: يقول رحمه الله مظهرا لما في قلبه من الندم والأسف، مشفقا على حاله، معترفا بالتقصير والتفريط، ويندب خسارة النفس، ويتفجع لها بسبب ما مر لها من العمر في البطالة حين باعت النفيس، وهو الدين الذي يكتسب به الإنسان راحة الدنيا ونعيم الآخرة، وهو أصل الربح وعنوان السعادة بنزر يسير من حطام الدنيا. فآثر الخسيس على النفيس والحقير على الخطير. فاشترت الدنيا بالدين ولم تشتر الدين. ولا خطر بخاطرها أن تسوم الدين فضلا عن أن تشتريه. رغبة عنه وحرصا على الدنيا وحطامها الذاهب، وزخرفها الفاني. قال بعض الحكماء: لو كانت الدنيا من ذهب ولكنها تفنى، والآخرة من طين ولكنها تبقى، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى، لا سيما والأمر بالعكس. وفقنا الله لما يحبه بمنه وكرمه. فإن قلت: كيف قال: لم يشر

الدين بالدنيا ولم يسم وهذه حال من لم يحصل له شيء من الإيمان. فالجواب: أن الناظم لم يقل أنه ما اشترى الدين ولا سامه. وإنما قال: ما اشتراه بالدنيا ولا سامه بها. ولا يلزم من عدم اشترائه الدين بالدنيا ومن عدم السوم. ألا يحصل له من جهة أخرى. فإنما قصد وصفه بعدم الزهد في الدنيا، فأتى بتلك العبارة مبالغة في ذلك. ويكون حصل له الدين من جهة الاعتقاد والعمل والنطق، لكنه لم يزل متشبثا بدنياه مغتبطا بها لم يصل إلى درجة الزهاد هضما لنفسه. والله تعالى أعلم.

الإعراب: فيا خسارة الفاء سببية فقط عند ابن الطراوة في مثل هذا. وللتسبب والعطف عند ابن أبي الربيع. والياء نداء على جهة الندبة. لأن الندبة تستعملها العرب في نداء الميت وما في حكمه وفي الآلام. وفي تجارتها متعلق بخسارة. ولم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم جملتان في موضع الصفة لنفس أي غير مشترية وغير سائمة. ويجوز أن تكونا تفسيرتين للخسارة، فهما في قوة بدل الاشتمال منها. وبالدين متعلق بتشتر. وفيه استعارة التجارة للنفس. وترشيحها بذكر الشراء والسوم. وبالله التوفيق.

*** ثم قال رحمه الله:**

156 وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ   يَبِنْ لَهُ الغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

اللغة: البيع ضد الشراء. ويطلق أيضا على الشراء كما قال الفرزدق:

إن الشباب لرابح من باعه   والشيب ليس لبائعه تجار

يعني من اشتراه. وفي الحديث: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يبيع على بيع أخيه» أي لا يشتر. والبيع عام في بيع العرض بالعرض وتسمى المعاوضة والمناقلة. وفي بيع النقد بالنقد، ويسمى الصرف، وأحدهما بالآخر، وهو إما مناجزة وهو مطلق البيع. أو بتقديم الثمن وتأخير المثمون وهو السلم. أو بالعكس وهو بيع الأجل والأجل المتأخر. والعاجل الحاضر. ويبن معناه يتبين أي يظهر، يقال بان الشيء استبان. وتبين وأبان أي ظهر. والغبن في البيع البخس والخديعة. والاسم الغبينة واسلم تقدم في تقسيم البيع.

الشرح: وهذا البيت من تمام الذي قبله. وكأنه يقول: وكيف لا يكون خاسرا في بيعه، مغبونا في معاملته، من باع ملكا لا يفنى ونعيما لا ينفد بعرض تافه قصير منغص بالآفات والأمراض. وتوقع الانصرام والذهاب، والانتقال من حال إلى حال على عادة الدنيا بأهلها. مع انتظار الموت في كل لحظة. وفقد المألوف من المال

والأهل والولد والوطن. وكل ما هو آت قريب. ومن عاش ألفا كمن عاش عاما، فما العام والألف إلا سواء. فما أحق هذه النفس بالخسارة. وعاقد هذا البيع بالغبن. وكلنا ذاك الرجل. نسأله سبحانه أن يعاملنا بفضله وإحسانه، وأن يوفقنا لاستدراك ما فات في هذه المهلة. فمن كان مكذبا بكونه خاسرا في هذه الصفقة مغبونا فيها فهو هالك. ومن كان مصدقا عالما بخسارة هذه الصفقة فهو أحمق. فعله فعل من لا عقل له. إذ باع لذة كاملة، وسعادة متصلة، ونعيما لا نفاد له بلذة عاجلة قصيرة منقضية، بحق أن يعد هذا أحمق. على مثل هذا يبكي العاقل وحق له البكاء. ولا يتبين الغبن لهذا المغبون إلا إذا انكشف الغطاء وجوزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فإذ ذاك يعظم الألم، ويندم المسكين حيث لا ينفع الندم. ويروم استدراك الفائت فلا يجد إليه سبيلا، وتنهل الدموع، وتهتز الضلوع، ويتمنى الرجوع، وهيهات هيهات. يا كريم العفو ويا عظيم الإحسان عاملنا بكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

الإعراب: من مبتدأ وهي شرطية. وجملة الشرط خبر على الصحيح. وقيل الجواب وقيل هما. وفاعل يبع ضمير من. وآجلا مفعول يبع. ومنه يتعلق بآجلا أو بصفة محذوفة له. والضمير في منه يعود على الدين. وحذف الجار والمجرور. والتقدير: ومن يبع آجلا من ثواب الدين بعاجله من الدنيا. فحذف من الثاني ما ثبت نظيره في الأول. ولا يلزم أن يكون المحذوف موافقا للمذكور. ويجوز أن يكون بعاجله صفة لمحذوف. أي بدنيا عاجلة. فلا حذف حينئذ. وبعاجله يتعلق ببيع. والباء للعوض. ويبن جواب الشرط. وله متعلق به. والضمير عائد على من. وفي بيع وفي سلم يتعلقان بالغبن. فإن قلت: لم ذكر السلم وقد دخل في البيع. فالجواب: أنه لما ذكر صورة السلم في قوله آجلا منه بعاجله: فجعل المعاجلة نظيرة الثمن الذي يقدمه المسلم. وآجلا نظير الذي يأخذه وهو المسلم فيه. وكان الذي يغتني في السلم هو المسلم فيه. وهو نظير الأجل هنا جرده من البيع لهذا. والله تعالى أعلم. وفيه المطابقة بين الآجل والعاجل. وفيه استعارة البيع والشراء للعاجل والآجل من النعيم واللذات وترشيح ذلك بالغبن. وفيه التجنيس المضارع في آجل وعاجل. وفيه التجريد لأنه جرد السلم بالذكر بعد دخوله في البيع. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

157 إِنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ مِنَ النَّبِيِّ وَلاَ حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

اللغة: العهد الأمان واليمين الموثق والوصية. قاله في المحكم. زاد غيره العهد التقدم إلى الأمر في الشيء. ومنه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [يس: 60] والمعهد المنزل الذي عهدت به الشيء. والأنسب هنا أن يراد بالعهد هنا الموثق. والحبل معروف ويطلق على الوسيلة. والنقض الإزالة. والمنصرم المنقطع.

الشرح: يقول رحمه الله تسلية لنفسه: إني وإن آتيت الذنوب وارتكبت المعاصي وتعاطيت الكبائر فإني لم أنقض العهد الذي في عنقي. والميثاق الذي عاهدت عليه ربي وهو الإيمان بالله والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم وبكل ما جاء. وعزيمتي واعتقادي التزام ذلك في الحياة وبعد الممات. فرجائي في ربي قوي وظني فيه جميل. وأنا متوسل بحبيبه الأفخم ورسوله الأعظم. فأرجوا بعظيم عنايته ألا يخيب ظني وأن يقبل وسائلي فإني لم أزل مستشفعا به أرجوا شفاعته. والخلاص من ورطات الذنوب لأني وإن ارتكبت العظائم فإن عندي أصل الإيمان وعقيدة الموحد. وقد قال عليه السلام: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة». انتهى. فاستعار الناظم الحبل للعهد لأنه يتوصل به إلى الشيء كما يتوصل بالحبل. والعهد أراد به عهد الإيمان. ويمكن أن يراد بالعهد المأخوذ يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: 172]. فإن قلت تعبيره بأن يقتضي أنه غير جازم. وقد تقدم له الشكوى بذنوبه. فالمقام يقتضي التعبير بإذا. فالجواب أن في كلامه حذفا. والتقدير إن اشتهرت بأني آتي الذنوب فإن لي عهدا لا ينتقض وحبلا لا ينصرم. والاشتهار غير محقق عنده. والله تعالى أعلم.

الإعراب: إن شرطية. وآت شرط مجزوم بها. وذنبا مفعول به. والجواب محذوف. أي إن آت ذنبا رجوت غفران الله له. لأن عهدي غير منتقض من النبي صلى الله عليه وسلم. ولا يصح أن يكون قوله فما عهدي هو الجواب. لأن جواب الشرط مسبب عن الشرط. فلا يوجد إلا بوجوده. ولا شك أن عدم انتقاض عهده من النبي صلى الله عليه وسلم موجود سواء وجد الشرط أو لم يوجد. وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: 118] أي إن تعذبهم فبحق، لأنهم عبادك. وكذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: 118] أي: فبفضلك. لأنك أنت

العزيز الحكيم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 38] أي عوقبوا. وهو كثير في القرآن وغيره. وما حجازية. وعهدي اسمها. وبمنتقض خبرها. والباء زائدة. ومن النبي متعلق بعهدي أو بمنتقض. وما حبلي بمنصرم مثله في الإعراب. وفيه من البيان الموازنة بين حبلي وتهدي وبين منتقض ومنصرم. وفيه الاستعارة كما تقدم. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

158 فَـإِنَّ لِي ذِمَّـةً مِـنْهُ بِتَـسْمِيَتِي ... مُحَمَّـدًا وَهْـوَ أَوْفَى الخَلْـقِ بِالذِّمَمِ

اللغة: الذمة العهد والحرمة والأمان. والذمم جمع ذمة كقربة وقرب. ومرية ومرى.

الشرح: يقول رحمه الله مصححا لما ادعى في قوله وما حبلي بمنصرم. ومعللا لعدم قطع حبله فقال: كيف ينقطع حبلي من النبي صلى الله عليه وسلم ولي منه حرمة وأمان. وهو ما حصل لي بتسميتي باسم النبي صلى الله عليه وسلم وهو محمد. والنبي صلى الله عليه وسلم أوفى الخلق بالذمم وبالعهود. وقد جاء في الحديث أنه عليه السلام يشفع في كل من اسمه محمد. وروي عن سريج بن يونس أنه قال: إن لله تعالى ملائكة سياحين عبادتهم كل دار فيها أحمد أو محمد. وفي خبر آخر ما ضر أحدكم أن يكون في بيته المحمد والمحمدان والثلاثة. انتهى. وروي عن جعفر الصادق عن أبيه: إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة لكرامة اسمه عليه السلام. وما زال الناس يتوسلون بالأنساب والمجاورة والمعارف والموافقة في السن والاسم. روي أن الفضل بن يحيى دخل عليه رجل فقال له: إني أتيت إليك بوسائل. فقال له: وما هذه الوسائل التي أتيت لي بها؟ فقال: التسمية والجوار والميلاد. فقال له **الفضل**: أما الجوار فالناس يتجاورون. وأما التسمية فكثيرا تتفق. وأما الميلاد فمن لك به. كم عمرك؟ فقال: خمسة وثلاثون. فكان سن **الفضل** ذلك العدد. فقال له: من أعلمك بسني أنه موافق سنك. فقال: أمي. فقال: وما منعك أن تتقرب إلينا قبل اليوم بهذه الوسائل. فقال: الآن اضطررت إليك الحاجة في عطاء مائة دينار. ثم أعطاه ثلاثة آلاف دينار ثم خمسمائة دينار. وقد نقل ابن بشكوال حديثا أنه من نوى إن ولد له ولد ذكر سماه محمدا أنه لا يولد له إلا ذكر. ومثل هذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة لا

ينبغي إهمالها. وتأمل حديث الأبرص الذي اشتكى له صلى الله عليه وسلم فقال له: أما يكفيك قال رسول الله وغيره. ولا سيما ما كان من فضائل الأعمال والله تعالى أعلم.

الإعراب: الفاء سببية فقط عند ابن الطراوة. وعاطفة أيضا عن ابن أبي الربيع. وذمة اسم إن. ولي خبره. ومنه صفة لذمة تتعلق بمحذوف. أي ذمة حاصلة منه. وتسميتي متعلق بقوله منه لوقوعه صفة. ويجوز أن يتعلقا معا بذمة. والباء سببية. وتسميتي مصدر مضاف إلى المفعول. وهو يتعدى إلى مفعولين. الأول بنفسه والثاني بحرف الجر. كما أو فعله كذلك. فالأول الياء المتصلة به. والثاني محمد. والأصل فيه حرف الجر أي بمحمد. والفاعل بالمصدر محذوف. أي بتسمية أهلي إياه بمحمد. وحذف الفاعل بالمصدر جائز. بخلاف الفعل. والفرق أن الفعل يطلبه بالبنية. والمصدر بالمعنى وهو مبتدأ. وأوفى خبره. وبالذمم متعلق بأوفى. وهو اسم تفضيل. وحذفت من التي بطلبها. أي أوفى بالذمم من غيره. كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7] أي أخفى من السر. وفيه من البيان رد العجز على الصدر في ذمة وذمم. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

159 إِنْ لَمْ يَكُـنْ فِي مَعَـادِي آخِـذًا بِـيَدِي فَـضْلاً وَإِلاَّ فَقُـلْ يَـا زَلَّةَ القَدَمِ

اللغة: المعاد: المصير والمرجع. والآخرة معاد الخلق. وهو المراد هنا. وزلة القدم سقوطها. يقال زلت قدمه زلا ومزلة القدم بالكسر. قاله في المصباح. الموضع الذى يزل فيه ويعبر به عن العثرات.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا للنبي صلى الله عليه وسلم ومستعطفا له: إذا لم تأخذ بيدي في ذلك المقام، وتشفع لي في ذلك الموقف، ويظهر علي جاهك فضلا منك، ومراعاة للعهد المتقدم لا باستحقاق مني وإلا فيا سوء الحال ويا خسارة النفس. والأخذ باليد استعارة للتخلص من الشدائد والنصرة والعون. وكذلك زلة القدم استعارة أيضا للهلاك والتلف والوقوع في الشدائد والأمور الصعبة. لأن من وقع في شدة أو أمر صعب فهو بمنزلة من زل عن مكان مرتفع أو وقع في مهوات. وأضاف الزلل للقدم لأنها التي يثبت بها القائم. فإن ثبتت قدماه سلم وإن زلتا سقط. نسأل الله العصمة من الزلل في القول والعمل آمين.

الإعراب: إن شرطية. ووقع لم بعدها وهي الجازمة في محل الشرط. ويكن مجزوم بها. واسم كان ضمير للنبي صلى الله عليه وسلم. وآخذا خبره. وفي معادي يتعلق بآخذا. وبيدي يتعلق به أيضا. وفضلا مفعول من أجله. ويصح أن يكون حالا وإلا شرط ثان. وهو الأول كرره بعينه وأعاده للطول. فالمراد: وإلا تكن في معادي أخذا بيدي فأنادي يا زلة القدم. وإنما ساغ تكرار الشرط مع الطول لوجهين. أحدهما كراهية أن ينسى السامع ما أنت بسبيله للطول. وبعد الشرط من الجواب ليتذكر السامع ولا ينسى المتكلم. وقد عده بعضهم من أنواع البديع وسماه البناء. وهو أن يعيد المتكلم لفظا تقدم ذكره خشية تناسبه لبعده في الكلام وحفظا للمتكلم. وذلك حيث يكون في الكلام طالب ومطلوب، وعامل ومعمول، وخبر وذي خبر، وشرط وخبر. فيطول الفصل بينهما فيستعمل طريقة البناء. ومنه قوله تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ ﴾ [المؤمنون: 35]... إلى قوله... ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون: 35] وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: 155]... إلى قوله... ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ﴾ [النساء: 160] فجملة حرمنا هي متعلق فبما نقضهم، وأعاد فبلظم لطول الفصل. ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ [النحل: 110] الآية لما بعد الخبر أعيدت إن. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: 89] الآية ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ ﴾ [الفتح: 25]... ثم قال... ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الفتح: 25] فقوله لعذبنا هو جواب لولا، وأعاد لو لطول الكلام. الوجه الثاني: أن سبب الإعادة في جميع ما تقدم اهتمام المتكلم واعتناؤه بالمتكلم فيه. وروى الأستاذ أبو الحصن علي بن محمد الشهير بالأشهب التمسماني بإسناده إلى الناظم:أن في لفظة إلا في البيت ضبطين ما تقدم. والثاني إلا منونا كلمة واحدة ومعناها عهد. كقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: 10] أي عهدا. فيكون المعنى: إن لم يكن في معادي آخذا بيدي فضلا وعهدا فقل يا زلة القد.م وقال: وهو حسن. وفيه من البيان استعارة الأخذ باليد للشفاعة. والجامع العون والخلاص. ونادى زلة القدم نداء التفجع. والله تعالى أعلم.

* ثم قال رحمه الله:

160 حَاشَاهُ أَنْ يُحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أَوْ يَرْجِعَ الجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ

اللغة: قال الجوهري يقال حاشاك وحاشا لك. بمعنى واحد. ويقال حاشا لله أي تنزيها لله. والجمهور أنها تكون فعلا وحرفا. وقال سيبويه: لا تكون إلا حرف جر لأنها لو كانت فعلا لجاز أن تكون صلة لما فلما لم تقع بعد ما، تعين أنها حرف ورد بتصرفها في قول النابغة:

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشي من القوم من أحد

وبأنه يقال: حاش لزيد. والحرف لا يدخل على مثله. والراجي كل من تعلق غرضه بمحبوب. وفقد أسباب الوصول إليه. وأن يحرم أي يمنع. يقال حرم كضرب وسمع. حرمانا وحرما وحرمة. ويقال أحرمه رباعيا. والمكارم جمع مكرمة. والمحترم المحفوظ المصون.

الشرح: يقول رحمه الله: أنزه من جمعت فيه الفضائل. وأحاشي قدره المشرف أن يحرم راجيه أو يرد الراغب في مكارمه خائبا صفر اليدين. فما أحق المتوسل به والمتمسك بأذياله. والمحترم بجواره والمعتمد على جاهه وعنايته. أن تحفظ ذمته وتنجح مسائله وترعى وسائله وتقضى مآربه وتناله شفاعة نبيه، فجاهه عظيم، وجواره كريم. وأراد بالراجي العموم. أي كل راجي أو نفسه. أي تنزيها له صلى الله عليه وسلم عن أن أكون مدحته ولجأت إليه واعتمدت في خلاصي عليه وأنا مسمى باسمه. ثم إنه صلى الله عليه وسلم يغفل عني ويتركني ولا يشفع في. هذا لا أقوله ولا أتوهمه. وتنزيها له أيضا عن أن يرجع من يلتصق بجواره ويدخل في حماه ويكون من أمته غير معظم ومعتنى به وغير مشفوع فيه. وهذا لا يكون ولا يليق بمنصبه العلي النبوي. وفي بعض النسخ شفاعته موضع مكارمه. وقد تقدم الكلام على شفاعته صلى الله عليه وسلم العامة والخاصة. وما تقدم في الراجي من احتمال إرادة العموم أو نفسه يجري في الجار. والله تعالى يمن علينا بالدخول في حرمته وجواره بحق قدره ومقداره. آمين.

الإعراب: اختلف في حاشا في مثل هذا فقيل فعل. وهو قول الفارسي. واستدل بما تقدم وقال في معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ ﴾ [يوسف: 31] باعد يوسف الفاحشة لله أي لخوف الله. ورد بقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ

مَا هَـٰذَا بَشَرًا ﴾ [يوسف: 31] إذ لا يصح هذا التقدير هنا. وذهب الزمخشري إلى أنها مصدر منصوب أي تنزيها وبراءة لله. واللام على هذا في لله مثلها في سقيا لك خبر مبتدأ محذوف والدليل على اسميتها تنوينها في القراءة الأخرى. ومن قرأ من غير تنوين فهي عنده مبنية لشبهه بحاشى الحرفية التي هي الأصل في ذلك. نحو قام القوم حاشى زيد. وقرئ بالإضافة، وهذه القراءة تدل على عدم فعليتها. وارتضى الشيخ ابن جزي قول الزمخشري، والمعنى تنزيها لله من صفات العجز. والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله. وأما قوله: ﴿ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف: 51]. فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله، وتنزيه الله من صفات العجز. وعلى هذا الصحيح يكون إعراب حاشاه في البيت مصدرا لكونه بمعناه. كأنه قال تنزيها للنبي صلى الله عليه وسلم وبراءة عن أن يحرم الراجي وأن يحرم على إسقاط الجار، أي عن أن يحرم. وهو يتعلق بحاشاه إذ هو بمنزلة تنزيهه عن كذا كقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [النساء: 171] أي عن أن يكون ويتعلق بسبحان إذ معناه تنزيها له. والراجي مفعول بيحرم. وكان حقه إظهار الفتحة لكنه سكن ضرورة. وقد قال سيبويه: إن الفصحاء من العرب يرجعون في الضرورة إلى لغة من يستثقل جميع الحركات ومكارمه يتنازعه يحرم على أنه مفعول ثان. والراجي على أنه مفعول به. فجاء على إعمال الثاني وحذف المفعول من الأول. ولو أعمل الأول لقال راجيها فيضمر معموله ولا يجوز حذفه على المشهور. وأو هنا للتقسيم، ويرجع معطوف على يحرم. ويكون متعديا ولازما، قال تعالى: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ [سبأ: 31] والجار فاعل أو مفعول على التعدي وغير منصوب على الحال من الجار فاعلا أو مفعولا. ومنه يتعلق بيرجع. ومن لابتداء الغاية. كأنه قال: أو يرجع الجار من عنده غير محترم. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان رد العجز على الصدر في يحرم ومحترم. وفيه الموازنة بين يحرم ويرجع. وتجنيس الاشتقاق. وبالله التوفيق.

* قال رحمه الله:

161 وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ ... وَجَدْتُهُ لِخَلاصِي غَيْرَ مُلْتَزِمِ

اللغة: الإلزام: الإيجاب يقال التزم فلان كذا وألزم نفسه. كذا ارتهن فيه وتحمل

وجوبه. والأفكار جمع فكر وهو قوة في الإنسان يحصل بها التدبر والتأمل. ورجل فكير كثير الإقبال على التفكر. والمدائح جمع مديحة كسفينة وسفائن وصحيفة وصحائف. هذا قياسه إن سمع استعمال مديحة، وإلا فهو جمع مديح وهو مسموع. قال الأليوري. وفيه نظر لأن فعائل قياسي في فعيل بالتاء وبغيرها. ووجد يستعمل بمعنى أصاب وبمعنى علم: والبيت يحتملهما. والخلاص من الشيء التفضي منه والخروج من ورطته.

الشرح: يقول رحمه الله: منذ أشغلت فكري وألزمت نفسي مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ما توسلت به في شيء من أمور الدنيا والآخرة إلا قضي. ولا استشفعت به في شدة أو كربة من كرب الدنيا والآخرة إلا وجدته لخلاصي منها. وإنقاذي من ورطتها خير مطلوب وملتزم به وخير مستغاث به. وهذا ليس خاصا بالناظم بل كل من دهمه شيء فالتجأ إلى حماه صلى الله عليه وسلم وجده خير مستغاث به وجاءه الفرج في أقرب وقت. فإن قلت أما وجود خلاصه في الدنيا من المحن وما أشبهها بسبب توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم فظاهر. وأما في الآخرة فمغيب فكيف يجزم به؟ فالجواب: إن يقال ذلك بحسب ظنه ورجائه في النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كما خلصه في الدنيا يخلصه في الآخرة ولا سيما وهو من خدامه ومنسوب إليه بسبب مدحه والاشتغال بحقه فلا شك أن من كان من خدامه صلى الله عليه وسلم، وداخلا في جملة عبيده يجب أن يعظم ويبجل من أجله. ويحاشا عن المكاره والأسواء. ويوضح لك ذلك أن غلام السلطان الذي عرف بقربه والحظوة عنده فإنه يكون له من العناية ما لا يخفى، فلا يتعرض له ولا يعامل إلا بالتبجل والإكرام. وقد قال عليه السلام لعلي بن الموفق لما حج عنه حججا فرآه في المنام هذه يد لك عندنا أكافيك بها يوم القيامة، آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والناس في كرب الحساب. انتهى. ومن اشتغل بمدحه عليه السلام فقد اتخذ عنده يدا يكافئ عليها، لأنه عليه السلام أكرم الناس في الدنيا والآخرة كما يقوله بعد. قلت: وهذا الذى حملنا على تقييد هذا الشرح مع قصور الباع وقلة الاطلاع لعلنا ننخرط في سلك من خدمه. فإن من تطفل على الكرام ربما أدخلوه. ومن أحب قوما حشر معهم. والله ذو الفضل العظيم.

الإعراب: منذ هنا متعينة الاسمية لدخولها على الجملة. وإنما يتعين اسميتها

في موضعين. إذا دخلت على الجملة، اسمية كانت أو فعلية، كقولك: ما رأيته مذ زيد قام. وقد قام زيد لأن الحرف لا يدخل على الجملة. فهي هنا ظرفية مضافة إلى الجملة. الموضع الثاني: إذا ارتفع ما بعدها كقولك ما رأيته مذ يومان. والعامل فيها هنا وجدته. وألزمت أفكاري مدائحه فعل وفاعل ومفعول. ولخلاصي متعلق بوجدته. وخير ملتزم مفعول ثان لوجد إن كانت علمية أو حال إن كانت بمعنى أصاب. وفيه من البيان رد العجز على الصدر في ألزمت وملتزم. وبالله التوفيق.

* **ثم قال رحمه الله:**

162 وَلَنْ يَفُوتَ الغِنَى مِنْهُ يَدًا تَرِبَتْ — إِنَّ الحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ

اللغة: الغنى: مقصور ضد الفقر. وترب الرجل: افتقر. والحيا مقصور: المطر. والأزهار جمع زهرة بالسكون. وهو نور النبات. وتحرك فاؤه. والأكم جمع أكمة على طريقة اسم الجنس. وهو الموضع المرتفع.

الشرح: يقول رحمه الله: إن النبي صلى الله عليه وسلم بكرم طبعه وبفضل أخلاقه من التجأ إليه ولاذ بكرمه لا يفوته الغنى منه ولا تلحقه فاقة ولا افتقار دنيا ولا آخرة. أما في الدنيا فيكون غنيا بقلبه، وإن قل ما في يده. فليس الغنى بكثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس وهي الحياة الطيبة. وأما في الآخرة فلكونه في حمى من يلوذ به الخلق كلهم وبيده لواء الحمد. فهناك يظهر كرمه وسؤدده. ثم ضرب لكرمه صلى الله عليه وسلم مثلا فقال: إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم. أي لا تنكر هذا ولا تستبعده فإن المطر ينبت الأزهار في الأماكن المرتفعة التي ليس من شأنها ذلك لعدم احتباس المطر فيها. وإنما يكون النبات في الغالب في الأماكن المنخفضة. وكرمه صلى الله عليه وسلم بمنزلة الغيث الواسع يثبت النبات في المواضع التي ليس من شأنها ذلك. وتعم خيراته الأماكن كلها. كذلك النبي صلى الله عليه وسلم تعم بركاته وخيراته من كان فقيرا في الدنيا بالغنى القلبي والقناعة. ومن كان ميتا فقيرا من الحسنات بشفاعته وبركاته لرأفته ورحمته بجميع أمته وخصوصا من كان من خدمته وأهل محبته. رزقنا الله من ذلك حظا وافرا بمنه وكرمه وبجاه قدره الرفيع ومقداره آمين.

الإعراب: الغنى فاعل بيفوت. ويدا مفعول به. ومنه في موضع الحال من الغنى. وتربت في موضع الصفة ليد. وجملة ينبت في موضع خبر إن. وفي الأكم يتعلق بينبت أو بحال محذوفة من الأزهار. وفيه ضرب المثل فإنه جعل الحيا بمثابة جاه

الرسول عليه الصلاة والسلام. والأزهار بمثابة النعم والمنح والعطايا التي يرحم الله بها العاصي بجاهه وعنايته وإن لم يعمل العبد أسباب ذلك. والأكم مثال للعاصي المفلس من أعمال البر وأفعال الخير. وفيه الكناية بترب اليد عن الفقر من الحسنات. والغنى عن كثرة الحسنات. يعني في الآخرة. والله تعالى أعلم.

* **ثم قال رحمه الله:**

163 وَلَمْ أُرِدْ زَهْـرَةَ الدُّنْـيَا التِـي اقْتَطَفَتْ يَـدَا زُهَـيْرٍ بِـمَا أَثْنَـى عَـلَى هَرَمِ

اللغة: تقدم بيان الزهرة. وقطفت قطعت. يقال قطفت الزهر واقطفته جنيته وقطعته. وزهير اسم الشاعر المعلوم وهو زهير ابن أبي سلمى بضم السين. وهو أحد الشعراء الست. ولم يدرك الإسلام وابنه كعب وهو صاحب القصيدة اللامية التي يقول في أولها بانت سعاد الخ. والثناء مختص بالخير عند بعضهم. فإذا أرادوا الشر قالوا نثا بتقديم النون. ومنهم من قال: أنه عام في الخير والشر وهو ظاهر حديث من أثنيتم عليه إلى آخره. وهرم هو هرم بن سنان من شيوخ العرب مشهور بالكرم وسخاء النفس. وهو من بني مازن. وقيل من مزينة مدحه زهير بن أبي سلمى بقصائد كثيرة، استفاد منه بها مالا عظيما وأجازه بجوائز لا تعد ولا تحصى. فمن شعره فيه:

إن البخـيل ملـوم حـيث كـان ولكنـر الجـواد علـى علاتـه هـرم
هـو الجـواد الـذى يعطـيك نامله عفـوا ويظلـم أحـيانا فـيظلم
وإن أتـاه خلـيل يـوم مـسلة يقـول لا غائـب مالـي ولا حـرم

الشرح: يقول رحمه الله لما كان الغنى إذا أطلق إنما يراد به زهرة الدنيا وكثرة المال. والفقر إنما يراد به الفاقة وقلة المال. خشى الناظم أن يفهم المخاطب أنه يريد بمدحه عليه السلام حصول الغنى في الدنيا فنفى ذلك عنه وقال: إني لم أطلب بمدحي رسول الله صلى الله عليه وسلم نيل زهرة الدنيا ولا إصابة عرضها الفاني فأكون مثل زهير مادح هرم بن سنان فإنه أراد بمدحه زهرة الدنيا والإيثار والعطايا فأناله الممدوح منها غاية أمنيته وفوق ما طمحت إليه نفسه ذهب كل ذلك وفنى كما هو شأن زهرة الدنيا تأول سريعا إلى الذبول واليبس. روي أن بنت زهير دخلت على عمر بن الخطاب فقال لها: ما الذي أعطى هرم بن سنان أباك حين مدحه وأغيا في مدحه؟ فقالت له: أعطاه متاعا وأثاثا أفناه الدهر. فقال لها: لكن ما أعطاه أبوك لا يفنيه الدهر. فلم يرد

الناظم بمدحه ما أراد زهير وإنما أراد نيل الكرامة والشفاعة في الآخرة. حتى يكون غنيا بعد فقره من الحسنات.

الإعراب: يدا فاعل قطفت. وبما أثنى يتعلق بقطفت. والباء سببية. وما مصدرية. أي بسبب إثنائه على هرم. ويجوز أن تكون موصولة واقعة على الثناء. وحذف العائد أي بالذي أثناه. وعلى هرم متعلق بأثنى. وفيه من البيان الاستعارة للمنح. والعطايا بالزهرة. ورشحها بالاقتطاف. وفيه تجنيس الاشتقاق بين زهرة وزهير. والله تعالى أعلم.

الفصل العاشر
في المناجاة وعرض الحاجات

* بدأه رحمه الله بقوله:

164 يَـا أَكْـرَمَ الخَلْـقِ مَـا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ   سِـوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

اللغة: لاذ به لوذا ولياذا التجأ إليه. والحلول: النزول. والحادث ضد القديم. والعمم: العام. والمراد هنا الموت الذي يعم جميع الخلق. وما بعده من أهوال الموقف والصراط والميزان. وغير ذلك من الأهوال.

الشرح: يقول رحمه الله مستعطفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومستحضرا له في الذهن عند الخطاب ومناديا له باسم الكرم. ومناسبة هذا البيت لما قبله واتصاله به واضح لما بين. أنه لم يطلب بمدحه أمرا دنياويا وإنما طلب ثواب الآخرة. وعرض بزهير وهرم ليشعر أن لكل مادح ثوابا، إلا أن ثواب من مدح أهل الدنيا ثواب يفنى ويذهب كما قالته بنت زهير لعمر. وثواب المادح من له عناية الدنيا والآخرة ثواب لا يفنى ولا يزول. بل تعم بركاته الدنيا والآخرة. ثم نادى مسئوله المهم من حاجته بعد تقدم وسيلة التصريح بالكرم المشعر ببراعة الاستهلال على قضاء حاجته. ومضمون هذا الكلام مؤذن بحصول الثواب. لما قد بين أن بعض من مدح من المفضولين أثاب فكيف لا يثيب الفاضل الموصوف بالكرم على الحقيقة. لا سيما وقد صرح بالانقطاع إليه وقطع النظر عن غيره. والظاهر أن المراد بالكرم هنا المنزلة والرتبة عند الله. فهو صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الله وأحبهم إلى الله. ويحتمل أن يراد به الجود والسخاء. لأنه صلى الله عليه وسلم أكرم الناس وأسخى الناس كما تقدم. ودليل كونه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر». وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأنا أول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع ولا فخر». إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على سيادته في الدنيا

والآخرة. وإنما خص يوم القيامة في الحديث إشارة لانفراده فيه بالسؤدد دون غيره. وفي ذلك الموطن أكابر الرسل والأنبياء فلم يجدوا سواه للشفاعة. ويظهر سؤدده على جميع البشر صلى الله عليه وسلم.

الإعراب: يا أكرم منادى مضاف منصوب على المفعولية. ومن فاعل بالجار والمجرور لاعتماده على النفي. أو مبتدأ والخبر في المجرور قبلها. وهي موصولة أو نكرة موصوفة. وجملة ألوذ به صلة أو صفة. وسواك ظرف مكان عند سيبويه. واسم غير ظرف عن ابن مالك. وإعرابها عنده كإعراب المستثنى بإلا. فيكون هنا إما بدلا من من فهي مرفوعة. وإما منصوب على الاستثناء. لأنه كلام منفي تام. والأحسن البدل في مثل هذا. وعلى أنها ظرف يكون العامل فيها المجرور. وعند ظرف يتعلق بالمجرور أيضا لنيابته مناب كائن أو مستقر. والأحسن أن يتعلقا معا بقوله: ألوذ لقربه منهما ولقوة الفعل.

*** ثم قال رحمه الله:**

165 وَلَـنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جَاهُكَ بِي سِـوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

اللغة: الضيق: ضد السعة. والجاه: القدر والمنزلة والحظوة والعناية. وتحلى بالحاء المهملة اتصف. وبالجيم ظهر. والمنتقم من انتقم الله منه أي عاقبه.

الشرح: يقول رحمه الله: إن جاه الرسول صلى الله عليه وسلم عظيم، ومقامه كبير، وشفاعته مقبولة، وكرامته على الله قد اشتهرت. فلا تضيق سعة جاهك عن مثلي، فشفاعتك تعم الجم الغفير، وجاهك لا يضيق عن العدد الكثير، إذا غضب الجبار، واتصف بالجلال والجبروت، والانتقام ممن عصاه وخالف أمره. فإذ ذاك يظهر جاهك، وتبدوا لجميع الخلق عنايتك. وتنقطع دعوى المدعين. ويظهر جاه المخلصين. وجاء رحمه الله بهذا البيت مظهرا لكمال ما طلب. لأنه لم يطلب جاها في محل ظهور الرحمة خاصة. لكونه محلا يسع فيه جميع الخلق. بل طلب تلك العناية حين تنقطع عنايات مدع العناية. وذلك حين يتصف البارئ سبحانه باسم المنتقم، لأنه تعالى عزيز ذو انتقام. والوقت الذي يتحلى فيه بهذا الاسم هو أعظم أوقات يوم القيامة. فإنه يغضب فيه غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله. ومنتقم من أسمائه تعالى. ومعناه المعاقب لمن شاء عقابه. والكريم أيضا من أسمائه تعالى. ومعناه ذو الجود، فيكون من صفات الأفعال. وقيل معناه الظاهر الذات، العلي الصفات. وقيل الكريم هو

الذي إذا قدر عفا. وإذا وعد وفا. وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالي. كم أعطى ولا لمن أعطى. وإذا رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى. وإذا جفي ما عاتب ولا استقصر. ولا يضع من لاذ به والتجأ. ويغنيه عن الوسائل والشفعاء. فمن اجتمع له ذلك بلا تكلف فهو الكريم المطلق. قاله أبو حامد الغزالي في المقصد الأسنى. ولا يستكمل هذه الصفات كلها إلا الكامل الذات. الرفيع الصفات. وذكره الشيخ في هذا المحل تقوية للرجاء. لأن من كان كريما لا ييأس من عفوه إذا انتقم. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لن ناصب ومنصوب. ورسول الله منادى مضاف على حذف حرف النداء. وجاهك فاعل بيضيق. وإذا ظرف زمان يتعلق به. لأنه إذا هنا لم يصحبه معنى الشرط. فيصح أن يعمل فيها ما قبلها كما تقول: القتال إذا جاء زيد. أي في هذا الوقت. والكريم فاعل بفعل مضمر من باب الاشتغال. أو مبتدأ. وتحلى خبره. وباسم يتعلق به. ومنتقم مضاف إليه.

*** ثم قال رحمه الله:**

166 فَـإِنَّ مِـنْ جُـودِكَ الدُّنْـيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِـنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

اللغة: الجود البذل والسخاء. يقال جاد جودا فهو جواد. وجاد الشيء جودة فهو جيد. والضرة: إحدى الزوجتين. إذ كل واحدة تضر بصاحبتها. فلذلك سميت ضرة. والدنيا ضرة الآخرة. إذ لا يجتمعان في قلب واحد. فإن من أحب دنياه أضر بآخرته وبالعكس. والضر بالفتح ضد النفع. وبالضم سوء الحال. والدنيا مشتقة من الدنو لدنوها منا أو لسبقها. والعلوم جمع علم وهو إما ضروري أو كسبي. واللوح هنا اللوح المحفوظ. والقلم الذي خلقه الله تعالى فجرى بما يكون إلى يوم القيامة. وهو أول ما خلق الله تعالى. فقال له اكتب. فقال: ما أكتب؟ فقال: اكتب القدر ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

الشرح: يقول رحمه الله تعليلا لما ذكر في البيت قبله من سعة الجاه وعدم ضيقه ومُبَرْهِنًا عليه. فقال: وكيف لا يسعني جاهك. والكون إنما هو من جودك. فإن الدنيا والآخرة إنما خلقت من أجلك. وجعلهما من جوده وكرمه. لأنهما خلقتا من أجله وبسببه. فكأنه جاد بهما. ويمكن أن يكون المصدر مضافا إلى المفعول. فيكون المعنى: فإن مما جيد به عليك الدنيا والآخرة. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم جاد الله عليه بالدنيا والآخرة. أما الدنيا فأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله. ونصر

بالرعب مسيرة شهر. وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا. وعرضت عليه جبال تهامة ذهبا وفضة. إلى غير ذلك. وأما الآخرة فهو فيها صاحب المقام المحمود. واللواء المعقود. والحوض المورود والقدر المرفوع. والكلام المسموع. وقوله: من علومك علم اللوح والقلم. هو على طريق المبالغة. ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم علمه الله علم الأولين والآخرين. وأطلعه على ما كان وما يكون. وكوشف بأحوال البرزخ وعلم أحوال يوم القيامة. فلما أحاط بعلم الماضي والمستقبل. جعل كأن اللوح والقلم مستمدان من علومه صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم. واللوح والقلم حقيقتان لا مجاز فيهما. لكن كيفيتهما لا يعلمها إلا الله تعالى.

الإعراب: الدنيا اسم إن. وضرتها معطوف عليه. وخبرها المجرور وهو من جودك. وقوله ومن علومك علم اللوح والقلم عطف بالواو. والاسم على الاسم والخبر على الخبر وهو جائز. نحو إن زيدا قائم وعمرا قاعد. ومن لابتداء الغاية أو للتبعيض. وفيه المطابقة بين الدنيا وضرتها بالاستعارة. وفيه الترديد في علومك وعلم اللوح. وفيه التمكين في القافية.

ثم قال رحمه الله:

167 يَـا نَفْـسُ لاَ تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إِنَّ الكَبَائِـرَ فِي الغُفْـرَانِ كَاللَّمَمِ

اللغة: القنوط: اليأس وهو مثلث قنط يقنط كفرح. وقنط يقنط كجلس. وقنط يقنط بالضم كقعد. والزلة: الذنب وأصلها السقوط. يقال زل فلان يزل زللا إذا زلق في طين وغيره. والاسم الزلة. والكبائر جمع كبيرة. وقد اختلف فيها العلماء فقيل لا صغيرة، وكل ما عصي الله به فهو كبيرة ويرده قوله تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾ [النساء: 31] الآية. والمشهور إثبات الصغائر والكبائر، واختلف في تعيينها، والأحسن ما ذكره البلالي في اختصار الإحياء ونصه: فما أفهم قلة اكتراث مرتكبه ورقة ديانته فكبيرة كقتل، ولو شبه عمد، وزنى، لواط كدبر زوجته، وطئ في حيض، شرب خمر، سرقة، غصب، قذف، نميمة، غيبة. قاله الشافعي رضي الله عنه. نقله الكرابيسي عنه عدم نهي سامعها، شهادة زور، يمين فاجرة، قطيعة رحم، عقوق، ولو لعم أو خالة، فرارا من الزحف، أكل مال يتيم، خيانة كيل وزن، ذرع، تقديم صلاة، تأخيرها، تركها بلا عذر شرعي، كذب عليه صلى الله عليه وسلم، كذب في الأقوال. إذ في المعاريض

غنية. مراء بباطل، ضرب مسلم بلا حق، كزيادة على ما يستحقه، سب صحابي، وقيعة في العلماء والقراء، كتمان شهادة، رشوة، معطيها والواسطة فيها ليحق باطلا أو يبطل حقا، دياثة على أهله، قيادة على أجنبية، سعاية لسلطان بمضرة مسلم ولو صدقا، قبولها، منع زكاة، يائس رحمة، أمن مكر، أو إدلال عليه تعالى بعلمه، ظهار، أكل لحم خنزير، ميتة بلا عذر، فطر رمضان بلا عذر، فأكل لحم أخيه بغيبة أبلغ، ترك حج لمن مات قادرا، غلول محاربة، سح، ربا، أكلا وموكله، نسيان قران بلا عذر، ترك أمر معروف ونهي عن منكر لقادر، إحراق حيوان ولو استحب قتله، لعب بنرد، وطار ونحوهما. وفيه نظر. بل هو من الصغائر كذنب ربت مفسدته كبيرة منصوصة. وإلا فصغيرة كنظر لما حرم، ضحك بخروج ريح، كثرته بلا سبب، كذب بلا ضرر، اطلاع على بيوت، هجر فوق ثلاث بلا عذر، كثرة مخاصمة، تبختر مشي، مجالسة فسقة إيناسا، إمامة بكراهية لعيبه، عبث في صلاة، تخطي رقاب يوم جمعة، أو جرأة كلام وإمامه يخطب، تغوط بفضاء القبلة مستقبلا أو مستدبرا، تنجيس محترم كأصبع وأرض غير ما لم يضطر، قبلة صائم بشهوة، وصال صوم، استمناء، مباشرة أجنبية، خلوة بها، وطء رجعية، أو مظاهر قبل مبيحه، شراء وبيع وإدخال صبي ومجنون أو نجاسة أو عريس بمسجد تمنعها على زوج بلا سبب سفرها بغير زوج أو محرم أو نسوة ثقات، بيع على أخيه كسوم وخطبة ما لم يأذن بيع حاضر لباد تلقى ركبان احتكار زيادة، ثمن لخدعة كبيع معيب بلا بيانه أو مسلم أو مصحف أو كتاب. علم شرعي لكافر، كشف عورة بخلوة لغير حاجة. اتخاذ كلب بلا مبيحه. انتهى بلفظه. إلا ما شذ. وهذه الصغائر التي ذكر البلالي هي اللمم التي أشار إليها الشيخ.

الشرح: يقول رحمه الله مخاطبا لنفسه على جهة التسلية وتهوين الأمر عليه. يا نفسي لا تقنطي مما عظم من الذنوب والزلات. فإن الكبائر من الذنوب كالصغائر في الغفران. فإن الرحمة تشملهما وتعمهما. فإن الله تعالى قال: ﴿ ۞ قُلۡ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: 53] وهذا كما لبعضهم:

يــا رب إن عظمـــت ذنوبـــي كثـــره فلقــد علمــت بــأن عفــوك أعظــم

وكما قال آخر:

فلما قسى قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا منك لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وفي الحكم: لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله. انتهى. وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه: إذا أنالهم فضله لم تبق لهم سيئة. وإذا وضع عليهم عدله لم تبق لهم حسنة. انتهى. إلهي اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت آمين.

الإعراب: يا نفسي منادى مضاف إلى ياء المتكلم. حذف الياء اكتفاء عنها بالكسرة. ومن زلة يتعلق بالفعل قبله. وعظمت في موضع الصفة لزلة. أي عظيمة. وكاللمم في موضع خبر إن. وفي الغفران يتعلق به. وهو جائز أعني تقديم الظرف والمجرور على العامل فيه وإن كان معنويا بخلاف الحال.

*** ثم قال رحمه الله:**

168 لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّ حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ العِصْيَانِ فِي القِسَمِ

اللغة: لعل حرف ترج في المحبوبات. وإشفاق في المكروهات. وعلى حسب كذا معناه على قدره وعدده. والقسم جمع قسمة.

الشرح: يقول رحمه الله بعد أن سلى نفسه في البيت قبله باستواء الكبائر مع الصغائر في الغفران. رجاها بقوله لعل رحمة ربي وهي المائة رحمة التي يرسلها على عباده يوم القيامة تكون قسمتها على حسب العصيان والذنوب. فيتحاصها العصاة على قدر ذنوبهم. فمن كان أكثرهم ذنبا كان أكثرهم رحمة. وفي الحديث الصحيح: «إن لله عز وجل مائة رحمة. بث منها في الدنيا رحمة وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة. فتلك الرحمة الواحدة التي بث في الخلق. بها يتراحم الخلق فيما بينهم حتى إن البهيمة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه. فإن كان يوم القيامة أضاف الله تلك الرحمة إلى التسع والتسعين وبثها في الخلق. فلو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة. ولو يعلم المؤمن ما عند الله من العذاب لم يامن من النار انتهى. وإلى هذا أشار الناظم بقوله: لعل رحمة ربي. والمراد بها الجنس فتصدق بتلك المائة التي بثها الله في خلقه. والناظم اعتقد أنه كثير الذنوب فيناله في القسمة كثير الرحمات. وذلك تواضع منه رضي الله عنه. وحسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا التفات لمن

قال: إذا قسمت الرحمة بحسب المعاصي خسر المتقون. فإن المتقين لهم في الجنة مراتب ودرجات لا يلحقها العصاة. ولأن العصاة يفتقرون إلى رحمتين. رحمة الخلاص ورحمة النعيم. والمتقون يفتقرون إلى رحمة النعيم فقط. والله تعالى أعلم.

الإعراب: لعل حرف ترج ورحمة. رب اسمها ومضاف إليه. وتأتي في موضع خبر لعل. وحين ظرف متعلق بتأتي. ويقسمها جملة في محل جر بالإضافة. وفاعل يقسمها ضمير يعود على ربي. وعلى حسب يتعلق بتأتي. والعصيان مضاف إليه. وفي القسم متعلق بتأتيه. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

169 يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

اللغة: الرجاء تقدم. وانعكاسه باليأس. ولو عبر بالضد هنا كان أليق. لأن الرجاء ضده اليأس. ولكن إذا انعكس الرجاء عاد يأسا. والمنخرم: المنقطع. وأراد به انقطاع حجته عند الحساب.

الشرح: يقول رحمه الله: يا رب لا تجعل رجائي فيك معكوسا. فتنحيني فيما طمعت وتؤيسني مما أملت. كيف وأنت تقول: أنا عند ظن عبدي بي. فحاشا جانبك الكريم، وفضلك العميم، أن يخيب آمال الراجين. أو ينهر وجوه السائلين. ويقول أيضا: يا رب اجعل حسابي غير منخرم بقطع حجتي وإظهار عجزي وفضيحتي. فإن كثرت علي حقوق الخصوم. فأنت قادر على أن ترضيهم عني بإعطائهم من النعيم مما عندك حتى ترضيهم عني. وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كانت له عند أخيه مظلمة فليحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته. فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه فألقي في النار. وفي الصحيح أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بحضرة أصحابه: «أتدرون من المفلس؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال عليه السلام: «المفلس الذي يأتي يوم القيامة وله حسنات، ويأتي وقد ضرب هذا، وسفك دم هذا وأكل مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، حتى إذا نفذت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه فألقي في النار». انتهى. ومن هذا المعنى تنصل الناظم وأشفق على نفسه وقال: يا رب واجعل رجائي. البيت. أي لا تجعل قلبي من التبعات والأوزار ما يخرم حسابي ويقطع حجتي. انتهى.

فائدة: من كثر عليه حقوق العباد فليكثر من هذا الدعاء ويقال أنه سقط على رجل من السماء وهو هذا: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك عندي. فأيما عبد من عبادك كانت عندي مظلمته ظلمته إياها في بدنه أو ماله أو عرضه لا أستطيع ذلك إليه ولا أتحللها منه فأرضه عني بما شئت وكيف شئت وأنى شئت وهبها لي يا رب. وما تصنع بعذابي وقد وسعت رحمتك كل شيء. وما عليك أن تكرمني برحمتك ولا تهني بعذابك. ولا ينقصك يا رب أن تفعل بي ما سألت وأنت واجد كل شيء. انتهى.

الإعراب: رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم. حذفت الياء منه تخفيفا. وهي أكثر اللغات الست التي في هذا النوع استعمالا. وقوله: واجعل معطوف على محذوف. كأنه قال: يا رب بلغني أملي فيما طلبت. أو يا رب الطف بي واجعل رجائي. الخ. وحذف المعطوف عليه جائز إذا قام عليه الدليل. واجعل هذه تصييرية تتعدى إلى مفعولين. ورجائي مفعول أول. وغير منعكس مفعول ثان. ولديك ظرف مكان تتعلق برجائي. أو باجعل وهو أظهر. وإعراب باقي البيت واضح. وفيه من البيان التعطف لذكره. اجعل في الصدر والعجز. وفيه الموازنة بين حسابي ورجائي. وبين منعكس ومنخرم. وفيه الترديد لأنه علق. واجعل أولا بشيء ثم علقا ثانيا بشيء آخر. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

170 وَالْطُـفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ ۝ صَـبْرًا مَتَـى تَدْعُـهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

اللغة: اللطف من الله تعالى: التوفيق والعصمة. أو الرفق بالملطوف به ومن أسمائه تعالى اللطيف. وقيل اللطف: إيصال الخير إلى محل على وجه لا يشعر به كما يصل الغذاء إلى أعضاء المتغذي ولا يدري كيف وصوله. والدارين: الدنيا والآخرة. والأهوال جمع هول وهو ما يلحق الإنسان من الأمور العظيمة. والانهزام التولي.

الشرح: سأل رحمه الله من الله سبحانه وتعالى أن يلطف به في دار الدنيا، بالإحسان إليه، وتسليمه من آفاتها ومصائبها وفتنها. وفي دار الآخرة بالسلامة من أهوالها النازلة بالعبد التي لا محيص له عنها، كسؤال الملكين، والحساب والميزان، وجواز الصراط، والوقوف للعرض، وغير ذلك. وهذه أهوال يحتاج فيها العبد إلى مزيد لطف وإحسان. وكان مقتضى الظاهر أن يقول: والطف بي. فأوقع الظاهر موقع

المضمر على جهة التحقير لنفسه والإذلال لها، ليكون ذلك سببا في الإجابة. ثم بين حاله وأنه ليس له صبر إن نزلت به نازلة أو أصابه أمر شديد فإنه يجزع، ولا يثبت إذا أصابه هول من أهوال الدنيا أو آفة من آفاتها. وكذلك إذا رآى أهوال يوم القيامة لا طاقة له بمصادمتها لقلة صبره، بمنزلة الجبان إذا رآى أهل الحرب في القتال تولى منهزما. وإذا دعي إلى البراز والنزال ولى ناكسا. والصبر عظيم صعب على الإنسان، ولذلك كان شعبة من شعب الإيمان. وقد جاء أن الإيمان نصفه شكر ونصفه صبر. ولأجل صعوبته على الإنسان جاء الأجر الكثير عليه الذي لا حد له. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10] رزقنا الله منه حظا وافرا بمنه وكرمه آمين.

الإعراب: والطف جملة معطوفة على الجملة قبله. وبعبدك وفي الدارين متعلقان بالطف. وقوله: إن له جملة مستأنفة تعليلية كأنه قال والطف بعبدك في الدارين لقلة صبره وكثرة خوفه. وفسر ذلك بقوله: إن له صبرا الخ. ومتى ظرف زمان مضمن معنى الشرط. وتدعه مجزوم به. وينهزم جوابه. والعامل في متى فعل الشرط. فإن قلت: كيف يكون العامل معمولا؟ لأن متى جزم تدع وهو ناصب له. فالجواب: أن الجهة منفكة فجزمت لنيابتها مناب إن. وعمل العامل فيها لنيابتها مناب الظرف. فإذا قلت: متى تجلس أجلس. كان التقدير: أن تجلس يوم السبت أو يوم الجمعة أجلس. فأنيبت متى مناب حرف الشرط والظرف طلبا للاختصار. فجزمت لما فيها من معنى الشرط. ونصبت بغيرها لما فيها من معنى الظرف. وجملة الشرط والجواب في موضع الصفة لصبر وتقدير بالمفرد إن له صبرا منهزما متى تدعه الأهوال. والضمير في تدعه يعود إلى الصبر وهو الرابط بين الصفة والموصوف. وجرى ذلك على الصبر على جهة المجاز والمراد صاحبه. وفيه الاستعارة. استعار الهزيمة للصبر. وفيه المجاز الإسنادي حيث نسب الدعاء للأهوال. والله تعالى أعلم.

*** ثم قال رحمه الله:**

171 وَأْذَنْ بِسُحْبِ صَلاَةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمِ

اللغة: أذن له في الشيء إذنا أباحه وأطلقه بفعله. وآذن أعلم رباعي. والسحب مخفف جمع سحابة. والمنهل المنصب بشدة. والمنسجم السائل. يقال مطر منسجم

أي سائل كثير.

الشرح: سأل الشيخ رضي الله عنه من الله تعالى أن يمن بصلاة دائمة تنصب على النبي صلى الله عليه وسلم كما تنصب السحائب بالأمطار الدائمة الغزيرة. فالمراد بطلب الإذن من الله تعالى تكثير الرحمة على نبيه ودوام الصلاة الخاصة عليه صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أن يكون أراد بالإذن الإذن له، كأنه يقول: اللهم إذن لي في إدامة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. ومكني من استعمالها في جميع الأزمنة حتى تستغرق أوقاتي كلها فيها بحسب الإمكان. والأول أحسن يعني كونه طلب من الله صلاة دائمة تنهل عليه كما تنهل السحائب بالأمطار. فاستعار للصلاة السحاب ثم أضافها للصلاة. كما تقول: رأيت قمر وجهك. ولما جعلها سحبا رشح ذلك بقوله: بمنهل ومنسجم. وتقدير البيت واسمح بسحب صلاة كائنة منك دائمة مصحوبة بمطر منهل ومنسجم.

الإعراب: وأذن جملة معطوفة على ما قبلها. وأصله وأذن بالهمز فسهلت تخفيفا. ومنك في موضع الصفة لصلاة. ودائمة صفة أخرى لها. وعلى النبي في موضع الصفة لها أيضا. والألف واللام للعهد. وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ولا يتعلق على النبي بصلاة لأنها قد وصفت. والمصدر لا ينعت قبل تمام معمولاته. وبمنهل حال من سحب يتعلق بمحذوف وهو على حذف الموصوف. والتقدير: وأذن بسحب صلاة معمورة بمطر منهل ومنسجم. والمراد بالمطر هنا نفس الصلاة على وجه الاستعارة. والله تعالى أعلم. وفيه من البيان الاستعارة المرشحة كما تقدم.

*** ثم قال رحمه الله:**

172 مَـا رَنَّحَـتْ عَذْبَاتِ البَانِ رِيحُ صَبَا وَأَطْرَبَ العِيسَ حَادِي العِيسِ بِالنَّغَمِ

اللغة: رنحت: أمالت. والعذبات: الأغصان. وعذبات البان: أطرف أغصانه الرقيقة. والبان: شجر معروف له قضبان رقاق جدا يحركها أدنى شيء من الريح. وريح الصبا هي ريح الشرقية. وهي الريح الطيبة التي تلقح الثمار، وينشأ عنها الخير. وبها نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم. والرياح عند العرب أربعة: الجنوب وهي القبلية وهي التي تاتي عن يمينك وأنت مستقبل مطلع الشمس. والشمال وهي التي عن يسارك وأنت على تلك الهيأة. والصبا وهي التي تواجهك وأنت مستقبل مطلع الشمس. والدبور وهي التي تهب من

خلفك وأنت على تلك الهيأة. والنكباء كل ريح أتت بين مهبي ريحين من هذه الرياح.. وسميت نكباء لأنها تنكبت عن مهب هذه الأرياح. والإطراب: ما يحدثه الإنسان أو غيره لإنسان من الخفة والنشاط لغناء أو إنشاد شعر أو سرور بأمر. والعيس جمع أعيس، وأصله عُيس بضم العين فقلبت كسرة لتسلم الياء وهي الإبل فيها أدمة. وقيل: هي التي تضرب إلى الصفرة. يقال للمذكر عيس وللأنثى عيساء. والحادي: سائقها وزاجرها. وشأن العرب سوق الإبل بالحدْو فتجد الإبل تسير بذلك سيرا كثيرا فتطرب لما تسمع من صوت الحادي. والحيوان البهيمي إذا اعتاد شيئا انفعل له. والنغم بفتح النون اسم جمع لنغمة وهي حسن الصوت في القراءة وغيرها. وقال ابن سيدة: والجمع نغم.

الشرح: وهذا البيت من تمام ما قبله. لما سأل ربه أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم صلاة كثيرة أبّدها بدوام هز ريح الصبا لأغصان البان ومدة إطراب حادي العيس بنغماته. وإنما أراد بهذا اتصال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ودوامها مع الكثرة طول الأبد، لأن هبوب الريح لا ينقطع حتى تنقرض الدنيا. وكذلك إطراب الحادي العيس. فكأنه سأل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ما دامت الدنيا. وأما الآخرة فليست دار عمل وإنما هي دار جزاء. وإنما اختار تأييدها بهاذين الأمرين لما فيهما من الرقة واللطافة. وفيه إشارة إلى أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان بالنغم الحسنة زاد السامع تهييجا ونشاطا، وآثر فيه محبة واغتباطا. وما ذكره من إطراب الحادي للعيس وانفعالها مشهور عند العرب. فحدث من يوثق به أنه شاهد الدمع تجري وتسيل من أعين الجمال والحادي يحذو بها وإنه يحدث ذلك عندها رقة وانفعالا حتى إنها بذلك تطوي المراحل وتسرع السير لأجل نشاطها وانفعالها. فتقطع المسافة البعيدة، والمراحل القاصية في الزمن اليسير. وهذا شيء طبق الآفاق، ولا سيما إن كان الحادي حسن الصوت. فربما كلفت نفسها فوق طاقتها حتى لا تبلغ المرحلة إلا وقد هلكت في أثناء سيرها أو أشرفت على الهلاك. ولقد حكي عن بعضهم أنه نزل عند بعض العرب برسم الضيافة وكان من معارفه، فلما دخل المنزل دعا بالطعام فأكلا وجعلا يتحدثان. ثم خرج صاحب المنزل لحاجة عرضت فاعتذر للضيف. وسأل منه

المقام بالمنزل حتى يرجع إليه. فخرج لحاجته وترك الضيف بالمنزل فنودي الضيف من بيت في جوف الدار يسمع الصوت ولا يرى الشخص: يا عبد الله اشفع لي عند سيدي وأجرك واقف. فقال له الضيف: من أنت وما ذنبك؟ فقال له: أنا مملوك لسيدي غضب علي وحبسني بهذا البيت مقيدا. فلما رجع سيده قال له الضيف: ناشدتك الله إلا ما قضيت حاجتي وقبلت شفاعتي في هذا المملوك المغضوب عليه أن تسرحه من أسر الثقاف. فقال له صاحب المنزل: يا سيدي الذنب عظيم وشفاعتك لا يسع ردها. فقال له الضيف: وما ذنبه؟ قال: إنه قتل لي نحو عشرين جملا بعد وصيته ونهيه عن ذلك المرة بعد المرة. فاستعظم الضيف هذه الجريمة ورآها ذنبا كبيرا. قال له: كيف فعل في قتلها؟ قال: إنه حسن الصوت طيب النغمة فكان يحدوا الجمال وعليها الأثقال فلا تبلغ المرحلة إلا وقد هلكت وربما يموت بعضها قبل بلوغ المرحلة. قال: فعجبت من هذا واستعظمته وسألت منه أن يسمعني هذا الصوت فسرحه وقبل شفاعتي فيه. وأخرجه من بين الثقاف وأمره أن يسمعني صوته فاندفع ينشد:

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنوا بعيدها

من الخيرات البيض ود جليسها ... إذا ما قضت أحدوثة أن تعيدها

قال فسمعت شيئا ما سمعت أذناي قط أحسن صوتا ولا أطيب نغمة ولا أعظم تأثيرا منه في النفوس. وختم قصيدته بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء قبولها وقبول ما اشتملت عليه من الدعاء. فقد روي أن الدعاء محجوب عن الله حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل شيئا فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهل. ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم. ثم يسأل الله حاجته. فإنه أجدر أن ينجح. وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأسباب وأجنحة ومواقيت، فإن وافق أركانه قوي. وإن وافق أجنحته طار. وإن وافق أسبابه نجح. فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة وتعلق القلب بالله وقطعه عن الأسباب. وأجنحته الصدق. وأوقاته الأسحار. وأسبابه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الحديث: «الدعاء بين الصلاتين علي لا يرد» ذكره الأليوري فانظره. وعن جابر: قال عليه السلام: «لا تجعلوني كقدح الراكب.

لأن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإن احتاج إلى شراب شربه، أو إلى وضوء توضأ منه وإلا أهرقه. ولكن اجعلوني في أول الدعاء ووسطه وآخره». وعن ابن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول: ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا». الحديث قال ابن شافع: انبسط جاهه صلى الله عليه وسلم حتى بلغ العبد هذه المرتبة، فلو فعلت في عمرك ما عسى أن تفعل ثم صلى الله عليك مرة واحدة لكفاك أمور دنياك وآخرتك فما بالك بعشر صلوات. ولفظ الصلاة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح: «اللهم صل على محمد وأزواجه وذرياته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذرياته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». انتهى.

الإعراب: ما ظرفية مصدرية، والعامل فيها دائمة في البيت قبله. ورنحت صلتها. والتقدير: دائمة مدة ترنيح عذبات البان. ريح صبا والتاء في ونحت لتأنيث الريح. وعذبات مفعول مقدم. وريح صبا فاعل مؤخر. وأطرب معطوف على رنحت. والعيس مفعول مقدم على فاعله وهو حادي. والعيس مضاف إليه. وبالنغم متعلق بأطرب. وفيه من البيان الترديد لتكرار العيس في العجز. وفيه مقابلة ثلاثة بثلاثة. ما رنحت بأطربت وعذبات بالعيس وريح صبا بحادي العيس. والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

هذا تمام هذا الشرح المبارك على القصيدة الميمونة نسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله. وأن يجعله خالصا لوجهه وأن يكسوه جلباب القبول ويبلغنا به أقصا المأمول، فإنه سبحانه كريم. والكريم لا تتخطاه الآمال. وكان الفراغ من تبييضه زوال يوم السبت سادس شعبان سنة ثلاث ومائتين وألف، بجوار ضريح الولي الشهير العارف الكبير أبي الحاجات والأوطار، سيدي عبد الله الفخار، بأسفل ثغر تطوان. نفعنا الله ببركاته، وأهب علينا من نسيم نفحاته، وحشرنا مع سائر الأولياء تحت لواء سيد المرسلين، وإمام المتقين،

وخاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، ومجد وعظم، آمين آمين.

انتهى ضحوة يوم الخميس سادس عشر شوال، عام اثنين وسبعين ومائتين وألف، على يد عبيد الله سبحانه، الفقير لرحمته، الأسير بذنبه، الراجي غفران ربه، بفضله وكرمه، محمد بن محمد بن الرشدي الحسني كان الله لنا ولجميع المسلمين آمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس